

المكتبة الفلسفية

الآراء الكلامية والفلسفية عند الأمير شكيب أرسلان

تأليف
الأستاذ / يسري محمد محمد خميس البنا

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

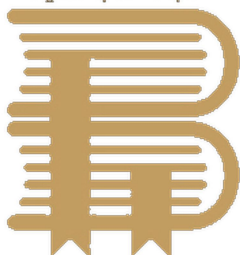
الآراء الكلامية والفلسفية
عند الأمير شكيب أرسلان

المكتبة الفلسفية

الآراء الكلامية والفلسفية عند الأمير شبيب أرسلان

تأليف
الأستاذ / يسري محمد محمد خميس البنا

شبكة كتب الشيعة



الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

shiabooks.net

رابطه بديل < mktba.net

الطبعة الثانية

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨

حقوق الطبع محفوظة للنشر

والنشر

مكتبة التفتة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد - القاهرة

ت/ ٢٥٩٢٢٦٦٠ - ٢٥٩٢٨٤١١ / فاكس: ٢٥٩٣٦٢٧٧

E-mail: alsakafa_alidinay@hotmail.com

رقم الإيداع	٢٠٠٥/ ١٨٨٥٨
الترقيم الدولي I.S.B.N.	977-341-257-1

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ..

أما بعد ..

فإن الأمير «شكيب أرسلان» (١٨٦٩-١٩٤٦م) ، اسم أضاء في أفق الشرق فعلاً الأبصار والأسماع لمدة نصف قرن ، فهو مفكر إسلامي مستنير ، وباحث فذ البصيرة ، وسياسي محنك ، وخطيب مقنع ، وشاعر مجاهد كرس ستين عاما من حياته التي قاربت الثمانين في خدمة قضايا أمته الإسلامية والعربية . لم يضع دقيقة من وقته إلا وكان فيها كاتباً أو قارئاً أو خطيباً . تعلقته به أفئدة المسلمين فأصبح رجل الساعة في العالم الإسلامي ، فكان يتلقى سنوياً أكثر من ألفي رسالة ويرد عليها جميعاً ، ويكتب زيادة عليها مئات المقالات وينشر من المؤلفات بضعة آلاف من الصفحات ، عرف له قدره رجالات عصره ، ونشرت له كبريات صحف الشرق والغرب .

ويعتبر العصر الذي شب فيه الأمير شكيب أرسلان - وهي السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، والسنوات الأولى من القرن العشرين - أشد فترة تمر على الأمة الإسلامية قسوة على النفس والمصير ، فقد شهد الأمير شكيب أرسلان السنوات الأخيرة في عمر الدولة العثمانية ، وحمل راية الدفاع عن دولة الخلافة ، ثم حمل هموم المسلمين والعرب جميعاً بعد ضياع الخلافة الإسلامية وإعلان تركيا دولة علمانية سنة ١٩٢٩م ، وتقاسم الاستعمار للأرض العربية وعمل على تأييد سلطانه بهدم كل ما يميز الأمة من دين ، ولسان ، وتراث ، وفكر ، وحضارة ، وقومية .

واستطاع الأمير شكيب أن يحمل رسالته في تلك الأيام في قوة وإيمان لأنه درس في روية وإمعان مشاكل الأمة الإسلامية ، والعالم العربي ، فضلاً عن أنه تربى في مهاد تلك المشاكل والأحداث ، وتابع تياراتها وتدفقها ، وكان في صولاته الفكرية وجولاته السياسية من الأوائل الذين حركوا فترة الجمود الفكري والسياسي في الأمة الإسلامية ،

وأثار لذلك حوله طائفة من أصحاب الأفلام والحكام ، فكان منهم المشيد الحامد ، وكان منهم الناصح الناقد ، وكان منهم المتجني الحامد ، غير أن ذلك لم يفت في عضده ولم يحل بينه وبين المضي في السبيل التي ارتضاها وأخذ نفسه على احتمال مشاقها ، فقد كان - رحمه الله - صاحب رسالة قبل أن يك حامل قلم ، وجندي عقيدة قبل أن يكون «محترف أدب» .

وشكيب في نتاجه معطاء حتى الإرهاق ، والباحث في شكيب أرسلان يعجب من كثرة ما طالع شكيب وكتب ، فمن يتمثل حياة شكيب أرسلان وجهاده السياسي يظن أن الرجل قد تفرغ له ولم يكن في حياته غيره ، كما أن من يتمثل سعة ثقافته وكثرة اطلاعاته يظن أنه يمضي حياته قارئاً لم يكن لديه وقت للكتابة ، وهنا نجد المتأمل لمؤلفاته العديدة في الفكر والأدب والتاريخ والترجمة يتساءل : متى تفرغ شكيب لهذه المؤلفات الضخمة ؟ حتى قال عنه الشيخ علي الطنطاوي : «الأمير شكيب أعظم شخصية عربية فقد كان لسان الإسلام ومدرسة العرب وأحسب أن مقالاته لو جمعت لجاء منها كتاب في ضعف حجم الأغاني» ^(١) .

لذلك كانت الإحاطة بكل أفكار الأمير شكيب أرسلان ، ودراسة آرائه في مختلف الميادين التي تطرق إليها مسؤولية تتجاوز طاقة باحث واحد أو كتاب بعينه ، وقد لمس هذا كل من كتب عن شكيب أو بحث في جانب من جوانب شخصيته وفكره وآثاره ، وقد عبر الشيخ أحمد الشرياصي عن ذلك بقوله عن شكيب أرسلان أنه : «شخصية متعبة متعبة» ! .. إنه رجل متعب لمطالعه وياحته والكتاب عنه ، فقد طال عمره وكثر عمله ، وظل يكتب أكثر من ستين عاماً ، كان كالغيث الهاطل المديار في كتابته ، حتى تصعب ملاحقته ومطالعة .. ^(٢)

وقد أحصى الشيخ أحمد الشرياصي لشكيب أرسلان أكثر من أربعين كتاباً ما بين:

١ - من مقال بقلم (أكرم زعبيتر) بجملة الشرق الأوسط ، بتاريخ ١٩٨٦/٣/٢٨ .

٢ - أحمد الشرياصي . أمير البيان شكيب أرسلان ، ج ١ ، ص ١١-١٠ . دار الكتاب العربي بمصر . الطبعة الأولى ١٣٨٢-١٩٦٢ م .

مطبوع ، ومخطوط ، ومنوي ، أو مقترح ، فضلاً عن مئات المقالات في مجلات :
الشورى ، والشباب ، والعلم المصري ، والمشرق ، والزهر ، كما تفرقت آثاره وكتبه ما
بين الشرق والغرب .^(١)

ومن الحقائق التي تميز فكر الأمير شكيب أرسلان أنه كان حاضراً بقوة في أحداث
عصره ووقائعه وفي ما تبقى من ثقافة ذلك العصر وتراثه ، فلا يكاد يخلو كتاب يؤرخ
للاتجاهات الفكرية لتلك المرحلة أو يعرض لقضية من القضايا التي أثّرت في عصره
إلا تعرض لإسهام شكيب بفكره فيها ، أو يستوثق واقعة من خلال شكيب ، أو يلقي
الضوء على أحدهم بتبيان علاقته بشكيب ، أو يعرض فكر هذا أو ذاك من خلال رسائل
شكيب ، ومع ذلك فإن فكر الأمير شكيب أرسلان نفسه لم يأخذ حقه من الدراسة العميقة
التي تبرز آرائه الكلامية والفلسفية ورويته الإصلاحية في الدين والسياسة والحياة .

وما أقوله لا ينال على الإطلاق من أهمية الدراسات السابقة التي تناولت جوانباً
من شخصية الأمير شكيب أرسلان ، وتتمثل في الأعمال الآتية مرتبة بحسب ظهورها :

١ - الأمير شكيب أرسلان ، حياته وآثاره ، للدكتور محمد سامي الدهان . وهي
ترجمة لحياة شكيب أرسلان ، وعرض لآثاره المختلفة ، وتحليل لجوانب في شخصيته ،
كانت نواتها محاضرات ألقاها الدكتور الدهان في معهد الدراسات العربية ، ثم بسطها
وأوسع القول فيها ، ونشرها في كتاب عام ١٩٥٩م .

٢ - أمير البيان شكيب أرسلان ، تأليف الشيخ أحمد الشرياصي ، وهي رسالة
ماجستير تقدم بها الشيخ إلى قسم الدراسات الأدبية واللغوية بمعهد الدراسات العربية
سنة ١٩٦٣م ، واكتفى فيها بالحديث عن عصر شكيب ، وحياته ، ونشره ، وشعره ،
وآرائه في النشر والشعر ، وجهوده اللغوية وكتبه وآثاره . ثم عاد الشيخ إلى شكيب في
إبريل من نفس السنة وكتب عنه (شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام) وفيه قدم
الشيخ مجموعة من أفكار شكيب وآرائه وجوانب من شخصيته وأخلاقه ، وقدم الشيخ

لبحثه بأن ما قدمه عن شكيب ليس نهاية المطاف معه (فمثل هذا الرجل جدير بأن يدور حوله أكثر من بحث ، وأكثر من حديث) .

٣ - شكيب أرسلان ، مقدمات الفكر السياسي ، للدكتور محمد شفيق شيا ، ويحقق هذا البحث وللمرة الأولى معرفة بفكر الأمير شكيب أحسن تنظيمًا وأكثر شمولاً ، وهو خطوة أولى - كما يقول كاتبه - نحو بيان حقيقة فكر الأمير السياسي والنظري ، أهم ما يؤخذ على هذا الكتاب هو خلط مؤلفه أحياناً بين آراء الأمير شكيب أرسلان في تعليقاته على حاضر العالم الإسلامي وبين آراء مؤلف الكتاب الأمريكي لوثروب ستودارد ، وإن كان هذا لا يقلل من تقديري للكتاب ، ولا من اعترافي باستفادتي منه مع اختلافي عنه في المنهج ، وقد ظهر هذا الكتاب سنة ١٩٨٢م .

والحق أن كل من كتب عن الأمير شكيب أرسلان شعر أنه لا يمكنه أن يفني الرجل حقّه ، وأن هناك جوانب تحتاج إلى دراسات أخرى ، فهذا الدكتور الدهان يقول عن دراسته لشكيب إن هي «إلا محاولة في دراسة معاصر متشعب النواحي ، يبدو أنه لا يسلس قياده لباحث .. فإذا ندّعنا ما كان لنا أن نقوله فيه فعذرنا أنه واسع الآفاق بعيد الأرجاء .. ولا يستطيع الإمام به أي كتاب محدود الصفحات»^(١) .

والشيخ أحمد الشرباصي يقول «إن هناك نواحي كثيرة في شخصية شكيب تستحق الدراسة»^(٢) ، والدكتور محمد شفيق شيا يؤكد أن الإحاطة بكامل إسهام شكيب الثقافي والتاريخي هو أمر يتجاوز حدود البحث الواحد ، «وهكذا ظلت ميادين كثيرة الفنى والأهمية والقيمة وجديرة باستقطاب دراسات مستقلة أخرى»^(٣) .

وقد بدا لنا أننا نستطيع بدراستنا أن نوجه ضمناً إلى جانب هام في شخصية الأمير شكيب أرسلان ، وهو «المشهور بأمير البيان» ، إذ اشتهر باهتماماته الأدبية ولكنه لم يعرف بنفسه القدر كمصلح إسلامي له فكره المستنير في الدعوة إلى النهوض بالأمّة

١ - د/سامي الدهان ، الأمير شكيب أرسلان حياته وأثاره ، ص ١١ ، دار المعارف بمصر .

٢ - الشيخ أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروة والإسلام ، ص ٦ ، مصر ١٩٦٣م .

٣ - د. محمد شفيق شيا ، شكيب أرسلان مقدمات الفكر السياسي ، ص ١٣ ، بيروت ١٩٨٢م .

والدفاع عن عقيدتها ، ومواجهة خصومها ، والحرص على وحدتها ولعلنا بذلك نسهم في توفير الفهم المطلوب لإنجاز التاريخي والفكري في كامل حقيقته وأهميته .

وقد جعلت الرسالة في ثلاثة أبواب وخاتمة :

١ - الباب الأول : الأمير شكيب أرسلان مفكر إسلامي وهو يحتوى على ثلاثة فصول ، الفصل الأول في حياته وعصره ، وهو عصر طويل حافل ، ممتلئ بالأحداث الجلية ، وقد اقتصرنا على أهم الأحداث المتصلة بحياة شكيب وبينت رأيه فيها ، وتحدثت عن نسبه وأسرته .

وفي الفصل الثاني تحدثت عن طائفة الأمير وعقيدته ، وهي مسألة شائكة لأن الأمير شكيب ينتسب إلى طائفة الدروز بينما ينتمي في عقيدته إلى مذهب أهل السنة كما يؤكد الباحثون ، وكما أثبتنا من خلال دراستنا لفكره .

وفي الفصل الثالث ، لماذا نعتبره مفكراً إسلامياً ؟

أثبت أن الأمير شكيب أرسلان أحد رواد النهضة الإسلامية المعاصرة ، وقد تدرجت إلى ذلك باستعراض الصراع الفكري الذي رافق الغزو الاستعماري للبلاد الإسلامية ، وبينت حركة المقاومة للإستعمار الغربي في الفكر الإسلامي ، وعناصر هذا الاتجاه ، والعوامل المؤثرة في آراء الأمير شكيب أرسلان الكلامية والفلسفية .

- وأما الباب الثاني ، وعنوانه « الآراء الكلامية عند الأمير شكيب أرسلان » فقد قسمته إلى فصلين ، وبحث في الفصل الأول : قضية الخلافة الإسلامية في فكر الأمير شكيب أرسلان ، ودفاعه عن الشريعة الإسلامية في مواجهة مطاعن المستشرقين والمتفرنجين ، وموقف الأمير من عقيدة القضاء والقدر .

وبحثت في الفصل الثاني : موقف الأمير شكيب أرسلان من الفرق الإسلامية ، وبدأته ببيان موقفه الكلامي من الدروز ، ثم من المعتزلة والأشاعرة ، والخوارج ، والباطنية والبهائية .

- أما الباب الثالث ، وعنوانه « الآراء الفلسفية عند الأمير شكيب أرسلان » فقد قسمته إلى فصلين ، وبحث في الفصل الأول : نقد الأمير شكيب أرسلان للفكر المادي

الحديث ، وبدأته بمدخل موجز ، ثم تناولت أولاً قضايا الإنسان في فكر الأمير شكيب أرسلان ونظرية التطور ، وتناولت ثانياً رأي الأمير شكيب أرسلان في المبادئ الشيوعية والإشتراكية .

وفي الفصل الثاني : بحثت الفكر السياسي عند الأمير شكيب أرسلان ، وبدأته بتمهيد ، ثم تناولت أولاً تصور الأمير شكيب للدولة الإسلامية ، وتناولت ثانياً الرؤية السياسية لمستقبل الأمة الإسلامية عند الأمير شكيب أرسلان .

هذا موضوعي ، وذاك منهجي ، وذلك جهدي ، وأرجو أن أكون قد وفقت بهذا المجهود أن أجلي وللمرة الأولى آراء الأمير شكيب أرسلان الكلامية والفلسفية ، وأن أكون استطعت التعريف بجانب عظيم من فكره الذي بذله في خدمة دينه وأمته ، وهي الحقيقة الكامنة وراء إنتاجه الفكري ، فقد كان يتملكه إحساس ظاهر بأنه مسؤول عن تراث العربية ومطالب بحراسة موارث الإسلام ، ومنتدب للذب عن قضايا المسلمين إلى جانب ما أوتيته من فصاحة اللسان ، وعمق المعرفة ، وإخلاص العزيمة .

ويسعدني أن أسجل هنا تقديري العميق وشكري الجزيل لأستاذي :

الدكتور / مصطفى حلمي

الذي أشرف على الرسالة ، واختار موضوعها ، وخط لي منهجها وتعهدي بتوجيهاته ورعايته ، وسدد الخطوات على طريقها ، فجزاه الله عز وجل عني وعن خدمته للإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم . وكتابه الذي يهديه لتي هي أقوم ، وفكره ، وتاريخه ، خير الجزاء .

المواجه الأول

الفصل الأول

حياته وعصره

كان مولد الأمير شكيب أرسلان في (الشويفات) ببلبنان يوم الإثنين غرة شهر رمضان سنة ١٢٨٦ هـ الموافق الخامس والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٦٩م [١] ، وهو الابن الثاني للأمير حمود بن حسن .. الذي يرقى نسبه إلي الأمير أرسلان المتوفي سنة ١٧١ هجرية ، أما والدته فهي سيدة شركسية جليّة.

وفي المرحلة الأولى من حياة الأمير تعلم مبادئ القراءة والكتابة مع أخيه (نصيب) علي يد معلم القرية حسينا كانت عليه عادة السراة في ذلك الحين ، وحين ذهبت العائلة تصطاف في (عين غنوب) أحضر الوالد معلماً آخرأ هو أسعد فوصل حفظهما جانباً من القرآن الكريم ، ودخل مع أخيه مدرسة الأمريكان في الشويفات فنال قسطاً من العلوم واللغة الإنجليزية . وفي سنة ١٨٧٩م كان الأمير شكيب قد بلغ العاشرة من عمره ، فدخل الشقيقان (مدرسة الحكمة) في بيروت ، وهي التي أسسها (المطران يوسف الدبس) رئيس أساقفة الطائفة المارونية ، وتلقى الأمير فيها دروس العربية علي يد للشيخ عبد الله البستاني ، وفيها تعلم الفرنسية والتركية ، وظهرت نباشير شاعريته وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وكان في سنى دراسته مبرزاً مع أخيه علي أقرانهما ، فلما زار مدرسة الحكمة الإمام محمد عبده ، وكان منفياً في بيروت - إثر ثورة عرابي - قدم إليه الفتى علي أنه مفخرة إخوانه ، فقال الإمام فوراً : إنني أعرف بسبك وستكون من أحسن الشعراء وكانت هذه الشهادة أعلى مايطمح إليه شاب في مثل سنه لذلك الزمان [٢] . بعد (مدرسة الحكمة) دخل الشقيقان نسيب وشكيب (المدرسة السلطانية) في بيروت سنة ١٨٨٧م ، وكان شكيب قد بلغ الثامنة عشرة من عمره موحضر مع أخيه درس مجلة الأحكام العدلية علي الإمام محمد

[١] ذكر شكيب نفسه تاريخ ولادته في مواقع عدة من كتبه ومنها روض الشقيق ص ١٧

[٢] د. سامي الداهن ، شكيب أرسلان : حياته وآثاره ، دار المعارف ، صفحة ٦٧.

عبده ، فأحببه الفتى ولازم أستاذه الشيخ في مجالسه الخاصة ، وتوثقت عرى صداقة متينة بين الإمام وأسرته شكيب [١] .

وفي سنة ١٨٩٠ ، كان شكيب قد بلغ الحادية والعشرين من عمره والأجل قد وافي والده ، وقد عجلت دروس الإمام محمد عبده في ظهور طموح الفتى شكيب أرسلان لأن يتحمل مسؤوليته وأن يصبح زعيماً من زعماء الإصلاح في العالم الاسلامي . وهكذا يسافر الأمير شيب أرسلان إلى مصر ليجاور الشيخ محمد عبده العائد إلى الوطن بعد سنوات المنفى ، ويتعلم منه ويتصل من خلاله بزعماء الوطنية وقادة الفكر والأدب والسياسة فيعرفه سعد زغول ، ويستكتبه الشيخ علي يوسف صاحب جريدة (المؤيد) التي كانت ملتقى الأقلام الكبيرة في زمنها ، ويتصل بشيخ العروبة أحمد زكي باشا والسيد رشيد رضا صاحب (المنار) ويشارك هؤلاء علي صغر سنه - في مناقشة الهموم الإسلامية ، ويلمس عن قرب الأخطار التي تتهدد عالمه الإسلامي ، ويلم بخيوط التآمر الغربي علي الخلافة الإسلامية فيشد شوقه للقاء جمال الدين الأفغاني لينهل من ينبوع ويستقي منه فيروي ظمأ نفسه وغليل روحه ، ويقف علي كثير مما كان يعتلج في قلبه من الأسئلة ، وبالفعل سافر إلى باريس ومنها إلى أستانه سنة ١٨٩٢م ، عاصمة الخلافة العثمانية وهو في الثاثل والعشرين من عمره ففض أمامه جملة مشاهداته في مصر وفي الغرب ومادار في خلدته عن الشرق والإسلام وموقف الإستعمار والتشيز منهما ، فأعجب به جمال الدين الأفغاني كما أعجب به محمد عبده من قبل وقال له (أنا أهنيء أرض الاسلام التي أنبتك) [٢] .

دفاع الأمير عن الخلافة العثمانية

وعاد الأمير شكيب أرسلان إلى بيروت بعد أن طاف في أوروبا ودار الخلافة ومصر يحمل راية الدفاع عن الخلافة العثمانية لأنها دولة الإسلام التي تحيط بها الدول الإستعمارية من كل جانب وتقتص أطرافها ، وتحتلب أشداقها شوقاً لإبتلاع ولاياتها ، ولا تتورع في الإيقاع بينها وبين شعوبها ، فاتخذ ديدنه الدفاع عن الخلافة العثمانية بعد أن وقف علي

[١] روض الشقيق في الجزل الرقيق ، وهو ديوان نسيب أرسلان ، جمعه وقدم له وعلق عليه وأردف بنسب

الأسرة الأرسلاية شكيب أرسلان ، مطبعة ابن زيدون بمشق ط ١ سنة ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٥م ، ص ١٩ ، ٢٠.

[٢] د. سامي الدهان ، مرجع سابق ، ص ٧٠.

دسانس الإستعمار ، وعرف مالم يعرفه قومه من خطط الإستيلاء علي بلاد العرب والمسلمين ، وفضل أن يقف إلي جانب بني عثمان في نضالهم ضد الغرب إلي أن تتجلى عمائمهم لنثلا يتفرق الصف في الشرق الإسلامي وليكون معهم في الحرب ضد التبشير وتفرقة الصفوف .

ولذلك كان موقفه كموقف جمال الدين ومحمد عبده في نصرته العثمانيين يختلف عن موقف كثير من زعماء لبنان آنذاك [١] الذين أغرتهم دعوة الدول الغربية للبراقة لإنفصال العرب عن الخلافة ، وصرخ شكيب بأعلى صوته وخطب في كل محفل وكتب في كل صحيفه بأن البديل عن الخلافة ياعرب هو الإستعمار .

وإذا عدنا إلي كتابات عصر الأمير شكيب وقبل الحرب العالمية الأولى لوجدنا أن شكيب لم يكن وحده الموالي لتركيا ، فموالات تركيا لم تكن في حقيقة الأمر إلا تمسكاً بخليفة المسلمين الذي يلي أمرهم ويجمع شملهم ، وأن الخروج عليه ومهاجمته لم يكن يعني في إفهام كثرة المعاصرين - في أقطار إسلامية كثيرة كمصر والعراق وسوريا - إلا موالات المستعمرين أعداء المسلمين [٢] ، وهذا لايعني أن الأقاليم العربية كانت راضية عن أسلوب الحكم العثماني تماماً بل كانت تحس بما ينطوي عليه هذا الحكم من مواطن الضعف ولكن سبيلها في معالجة الضعف لم تكن الثورة أو الإنفصال بل الدعوة إلى الإصلاح وإلى المساواة في الحقوق بين العرب والترك ، إن الكثرة الغالبة من سكان العالم العربي لم تكن تفكر في الإستقلال . أما قادة العمل السياسي وأكثرهم من تلاميذ الأفغاني فكانوا يدعون إلي تقوية الدولة العثمانية عن طريق الإصلاح الإداري واللامركزية وتصحيح العقائد والإعتصام بالرابطة الإسلامية والإسترشاد بتعاليم الإسلام النقية من الشوائب ومن أشهر هؤلاء المصلحين الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) ومحمد رشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥) [٣]. فهذا الشيخ الإمام محمد عبده يلخص دعوة أستاذه الأفغاني وغايته من جهاده طوال حياته فيقول : " أما مقصده السياسي الذي وجه إليه أفكاره وأخذ علي نفسه السعي إليه مدة

[١] د. سامي الدهان ، مرجع سابق ، ص ٧٠

[٢] الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، د. محمد محمد حسين ج ١ - ص ٩

[٣] نكية الأمة العربية ، محمد الخير عبد القادر ، ص ٦٨

حياته وكل ما أصابه من البلاء أصابه في سبيله فهو إنهاض دولة إسلامية من ضعفها وتبنيها للقيام على شئونها فيعود للإسلام شأنه وللدین الحنيفي مجده ويدخل في هذا تكيس دولة بريطانيا في الأقطار المشرقية وتقليص ظلها عن رؤوس الطوائف الإسلامية .. [١] .

وإصلاح الأمة في رأى محمد عبده " إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته وإرشاد العامة بمواعظه الواقية بتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق وإقناد نيران الغيرة وجمع الكلمة وبيع الأرواح لشرف الأمة " [٢] .

وينفي السيد رشيد رضا عن العرب تهمة العمل للإنفصال عن تركيا قبل الحرب العالمية الأولى وأثناء خلافة السلطان عبد الحميد الثاني ، ويوضح الأسباب التي دعت العرب إلى المحافظة على وحدة الدولة العثمانية فيقول " إنما كان السبب الصحيح لسكون العرب وسكونهم عن طلب استقلالهم وتجديد دولة لهم هو الإسلام وأوربة . دين الإسلام وسياسة دول أوربة سببان مستقلان أو سبب واحد مركب لكل من جزئيه تأثير خاص في صرف العرب العثمانيين عن السعي للإستقلال والحق أن الباعث الأخير لإعتراف أكثر المسلمين بخلافة سلاطين الترك هو كونهم أمسوا حصناً ببقية البلاد الإسلامية في وجه أوربة " [٣] .

لم يكن الأمير شكيب أرسلان وحده الموالي للدولة العثمانية من العرب ، بل كان يمثل رأى عقلاء العرب الذين كانوا لا يجهلون مطامع الدول الأجنبية في بلادهم ، ولم يكن يخفي عنهم تصميم أوربا على تقسيمها ، وأنه لاعهد للدول المسيحية بإزاء المسلمين مما عاهدت ..

" إلا أن الإنجليز تمكنوا قبل الحرب العامة من إستجلاب كثير من ناشئة العرب ، منهم من إستجلبوهم بالمنافع الخاصة ، ومنهم من إستجلبوه بطريقة الإقناع ، وأوهموا العرب أنهم إما يريدون ليجندوا دولة عربية كدولة بني العباس أو دولة بنى أمية مثلاً ، ويساعدوا العرب على تجديد مجدهم القديم وعلى عمادة بلادهم التي لم يحسن الترك إدارتها ، ولا عمادتها .

[١] مقدمة محمد عبده ، رسالة في إبطال مذهب الدهريين ، بيروت ١٣٠٣ هـ ، ص ٩

[٢] العروة الوثقى : العدد الثالث ، باريس ٢٧ مارس ١٨٨٤ م ، ص ٣

[٣] المنار ج ١ م ٢ - ١١ شوال ١٣٣٥ هـ / ٣٠ يوليو ١٩١٧ م ، ص ٤١ - ٤٢

فصار بين العرب حزب غير قليل ينزعون إلى الانفصال عن الدولة قلباً وقالباً متوقعين لذلك أول فرصة . ولا يمكن أن يقال أن هذا كان رأي الجماهرة من الأمة العربية ، بل في الحقيقة كان عقلاء العرب يفقهون أنه إذا وقع الانفصال بين العرب والترك تسقط بلاد العرب تحت حكم الأفرنج ، فلذلك كانوا يختارون البقاء تحت حكم الدولة العثمانية خوفاً من حكم الأجانب ... " [١] .

وبإلى جانب الأيدى الإستعمارية التي كانت حريصة على فصم الروابط القائمة بين العرب والترك ، جاءت سياسة جمعية الإتحاد والترقي - لاسيما بعد وقوعها تحت الدعوة الطورانية - ومحاولاتها لتترك الأقاليم العربية وإحياء العصبيّة الطورانية والكيد للإسلام ومساندة الصهيونية لتحقيق أطماعها في فلسطين عوامل أساسية في تحويل إتجاه القضية العربية علي عهد الأتراك الإتحاديين نحو الاستقلال ، وساعد علي ذلك الهزات العنيفة التي أصابت الدولة العثمانية في ذلك العهد بين عامي (١٩٠٨ و ١٩١٣) والتي بدأت بمحاولة السلطان عبد الحميد إسترداد مركزه والقضاء علي جمعية الإتحاد والترقي ولكن محاولته لم تنجح وإنتهت بعزله ونفيه في أبريل سنة ١٩٠٩م وخلفه الأمير رشاد " محمد الخامس " ولكن السلطة الحقيقية ظلت في أيدي زعماء الإتحاديين [٢] .

ويجدر بنا هنا أن نقف قليلاً لننتبين موقف الأمير شكيب أرسلان من أحد الشخصيات الرئيسية التي ثار حولها جدل عظيم في عصر الأمير ومن بعده ، وأقصد بهذا السلطان عبد الحميد الثاني الذي تولى أمر الخلافة سنة ١٢٩٤ هـ .

موقف الأمير شكيب أرسلان من السلطان عبد الحميد :

السلطان عبد الحميد الثاني هو أحد الشخصيات الرئيسية التي دارت حولها أحداث الخلافة فالتقيت عليه التهم جزافاً ، فوصفوه بالإستبداد وأنه (السلطان الأحمر) وغيرها من الصفات التي روجها أعداؤه وخصومه من الداخل والخارج ولا ننسى أن وكالات الأنباء والصحافة التي سيطرت عليها العناصر اليهودية والصليبية قد تزعمت حركة شهير واسعة

[١] تعليقات الأمير علي ابن خلدون ، شكيب أرسلان ص ٣٤١

[٢] نكبة الأمة العربية ، مرجع سابق ص ٨٣

النطاق ، أخذت ترددها بتكرار وإلحاح حتي صارت وكأنها حقائق [١] . ولقد كان الأمير شكيب أرسلان من القلائل الذين أنصفوا السلطان عبد الحميد ، ودافعوا عن أخلاقه وسياسته وإدارته وتحدث عن نفاذ بصيرته ، وحدة ذكائه ، وإخلاصه لدينه وأمته .

ومن القضايا التي إتخذها أعداء السلطان عبد الحميد وسيلة للطعن في إدارته ، مسألة إستكثار السلطان من الجواسيس ، حتي زعموا أن الحل والعقد صار بأيدي هؤلاء الجواسيس لكثرتهم وحصولهم علي الخطوة عنده .

ويرد الأمير هذه التهمة عن السلطان عبد الحميد فيقول " وليس من الصحيح أن السلطان كان يعمل بموجب تقاريرهم كما هو شائع ، بل كان يرمى أكثرها ولا يصدق ما فيها ، ولكن اهتمامه بقضية أخبار الجواسيس ألقى الخوف في قلوب الرعية وصارت في قلق دائم ، وأصبحت الناس تبالغ في الروايات عن الجواسيس فصاعت سمعة الحكومة ، وسخط الرأي العام علي هذه الحالة ، وبرغم ماكان السلطان يعمو ويصفح ويوجود ويعمنح ، كانت سمعته بعكس ماكان يفعل " [٢] .

وينفي الأمير شكيب أرسلان أن تكون إدارة السلطان عبد الحميد هي المسؤولة عن جميع الخطوب التي أصابت الدولة في عهده ويوضح الأسباب الحقيقية وراء ماأصاب الدولة العثمانية في ذلك العهد فيقول " خطوب المملكة كانت لها أسباب داخلية وخارجية لا تنكر قصة الجواسيس في جوانبها شيئاً . فأما العوامل الداخلية فهي إنحطاط درجة التعليم عما يجب أن تكون ، وإستيلاء الجهل ، وإنقسام سكان المملكة إلي أقوام شتى كل منها له هدف غير هدف الآخر ، ومنها ما هو عدو عامل لا يرضيه إلا زوال الدولة العثمانية . ثم ما وقر في قلوب الناس أجمعين من قرب أجل هذه الدولة فصارت أشبه بالمريض الذي إنقطع الأمل من شفائه " [٣] .

[١] د. مصطفى حلمي ، الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية ص ٩٦ دار الدعوة ١٩٨٥ م.

[٢] تعليقات الأمير شكيب علي مقدمة بين خلدون ، ص ٣٣٤

[٣] المرجع السابق، ص ٣٣٤

"فأما العوامل الخارجية فهي مطامع الدول الأوروبية في أجزاء هذه السلطنة كل دولة منهم تحب أن تثر ثقلها من هذه التركة فهي تدس الدسائس في البلاد التي هي مطمح نظرها حتى تتوصل منها إلى مآربها" [١] .

"وكان السلطان عبد الحميد علي وعى بالمخاطر الخارجية ونوايا الدول نحوه فكيف يجابه هذه الدول بمفرده ١٤ . لقد إستولى الروس على بعض ولايات آسيا الوسطى العثمانية ، وإستولي الإنجليز علي الهند وسعوا لتأمين سلامة الطريق إليها ، كما ولدت أمريكا دولة فنية ، وإنتظم يهود العالم وسعوا عن طريق المحافل الماسونية في سبيل الأرض الموعودة . أورد السلطان عبد الحميد هذه الحقائق حوله في مذكراته ثم أعقبها بقوله (لم أكن أستطيع الوقوف أمام هذه القوى بمفردي) [٢] .

ويذكر الأمير شكيب أرسلان كيف إستطاعت الدول الأوروبية والجمعيات المناوئة للحكم العثماني أن تتسلل إلي داخل الدولة عن طريق كثير من رجال الأتراك المشبعين بعباءة الحرية الذين هجروا بلادهم وأقاموا بباريس وصاروا ينشرون نشرات ينتقدون فيها الحكم الحميدي ، ويثبون روح الثورة بين الناشئة فكان السلطان يجتهد في إسكات هذه الفئة التي كانت تشوه سمعته في العالم ، خاصة أنه كان يعلم أن الروس والفرنسين والإنجليز حاولوا إسقاط عمه السلطان عبد العزيز - بواسطة عملائهم - في نظر الشعب بالشائعات فنجحوا بذلك في تمزيق الجيش والأسطول لتمزق العلاقات بين ضباطه حيث كان البعض يؤيد الأسرة المالكة والآخر يعارضها [٣] .

"ولما كانت الجمعيات الأرمنية بطبيعة الحالة تميل إلي إسقاط السلطان عبد الحميد مدت أيديها إلي هؤلاء الأتراك الذين كانوا قد هجروا أوطانهم إلي أوروبا وشرعوا في التحريك لأجل إعلان الحكم للشورى في تركيا . وكان بعض المسيحيين من سوريا مشتركين أيضا في هذه الحركة ، وكل فئة من هذه الفئات كانت لها أغراض غير أغراض الأخرى

[١] تعليقات الأمير شكيب علي مقدمة ابن خلدون ، ص ٢٣٥

[٢] الأسرار الخفية ، مرجع سابق ، ص ٩٨

[٣] الأسرار الخفية ، مرجع سابق ، ص ٩٩

في الحقيقة ، ولكنها كانت تجتمع في نقطة واحدة وهي : مقاومة السلطان ، والعمل لإسقاطه " [١] .

ظهور جمعية الإتحاد والترقي

وفي هذه الحقبة التاريخية الهامة ، يروى الأمير شكيب كيف تكونت (جمعية الإتحاد والترقي) السرية ، من بعض الشبان الأتراك في سلاتيك ، وأخذوا يجتنبون إلى جمعيتهم كل الوطنيين المخلصين الذين قنروا علي إجتذابهم برغم شدة المراقبة ، حتي أن بعض المستخدمين في الحكومة إنضموا إلي هذه الجمعية ، ويشير الأمير إلي إجتماع أعضاء الجمعية في المحافل الماسونية ، وإلي أن معظم إجتهاد هذه الجمعية السرية كان متوجهاً إلي إستجلاب الجيش حتي تصير في أيديهم القوة اللازمة لخلع السلطان .

وكانت دعوة أعضاء هذه الحركة في بدايتها ، وحجتهم في إقناع ضباط الجيش أن هذه العصابات البلغارية واليونانية إنما تشاغب لأجل الحصول علي إدارة حسنة يستريح في ظلها السكان وهذه الإدارة غير ممكنة مادام السلطان عبد الحميد علي عرش السلطنة ، فأما إذا أمكن خلعه ، وجعل للحكم في السلطنة دستورياً شورياً كما هو في سائر الممالك المتعدنة فإن جميع هذه المشاغبات تنتهي من نفسها ، وهكذا تتجوا السلطنة العثمانية من خطر السقوط المحدث بها [٢] .

ويرد الأمير شكيب علي دعوة الإتحاديين بأنه إدعاء غير صحيح " بل حقيقة الحال أنه سواء إصطلحت الإدارة العثمانية أم لم تصطلح فالبلغار إنما يجتهدون في ضم البلاد المأهولة بالبلغار إلي مملكتهم ، واليونان إنما يسعون في ضم البلاد التي أكثرها منهم إلي مملكتهم ولن يرضوا بالبقاء تحت حكم الأتراك ما استطاعوا إلي ذلك سبيلاً " [٣] .

ويذكر الأمير أن الشبان الأتراك الذين إنضموا إلي جمعية الإتحاد والترقي فيما بعد منهم من كان يؤمن بأقوال العصابات اليونانية والبلغارية ، ومنهم من لم يكن يؤمن بها ولكنه كان يجد أن طريق النجاة لن تكون إلا بإعادة الدستور وجعل الحكم في السلطنة للشورى [٤] .

[١] تعليقات الأمير شكيب علي مقدمة إين خلدون (مرجع سابق) ، ص ٣٣٦

[٢] ، [٣] ، [٤] تعليقات الأمير شكيب علي إين خلدون ، ص ٣٣٩ - ٣٤٠

والحق أن جمعية الإتحاد والترقي كانت موضع شبهات منذ وقت مبكر إذ إتهمت بأنها جمعية يهودية وأن أعضاء هالم يكونوا أتراكاً ولا مسلمين ، يقول شكيب : "ولما كان الإتحاديون ينظاهرون بالتفرنج ويتساهلون بأمر الدين ، ويتكلمون أحياناً بما يخالف الشرع ، مال جمهور العلماء وأنصار المبادئ الإسلامية إلى هذا الحزب الذي شرع بمصادمة جمعية الإتحاد والترقي ، وألفوا تحت رئاسة الشيخ (درويش وحدثي) عصبة سموها (الوحدة المحمدية) وأخذ حزب الأحرار يمد يده إلى حزب الرجعيين ليكونا يداً واحدة علي حزب الإتحاد والترقي ، فاشتكت المعارضة في وجه الإتحاديين " [١] .

وأدى ذلك إلى نشوب الصراع بين الإتحاديين وأنصار المبادئ الإسلامية إنتهي بانتصار الإتحاديين ودخول الجيوش المؤيدة لهم إلى العاصمة تحت قيادة شوكت بك .

ويرى الأمير شكيب أرسلان أن السلطان عبد الحميد رفض المقاومة خوفاً من حرب أهلية ، " وكان يحيط بقصر يلدز سبعة آلاف من الجيش المخلص للسلطان إلا أنهم لم يروا السلطان ناوياً للمقاومة فخضعوا لمحمود شوكت باشا ، وفي ٢٦ أبريل تقرر في مجلس الأمة خلع السلطان " [٢] .

إشتداد العصبية الجنسية

كان السلطان عبد الحميد مقاوماً شديداً للعصبية الجنسية التركية ، بل ماقناً بطبيعته و غريزته مقناً كبيراً لكل عصبية جنسية أبة كانت ماهيتها ، وكان يرى أن من شأن هذه العصبية أن تحول بينه وبين الوصول إلى غايته الكبرى وهي الجامعة الإسلامية [٣] .

علي أن سيطرة أعضاء جمعية الإتحاد والترقي علي مقاليد الأمور في الدولة بعد ثورة ١٩٠٨م ثم عزلهم للسلطان ونفيه في أبريل ١٩٠٩م وتولية الأمير رشاد (محمد الخامس) خلفاً له مع إحتفاظ الإتحاديين للسلطة الحقيقية في أيديهم ، قد فتح الباب أمام العصبية الجنسية

[١] المرجع السابق ، ص ٣٤٢

[٢] الأمير شكيب أرسلان : تعليقات الأمير علي مقدمة ابن خننون ، الجزء الأول ، ص ٣٤٥

[٣] حاضر العالم الإسلامي ، ستودارد الجزء ٤ ص ٨٠

التركية فانبطلت تلك العصبية التي عرفت (بالدعوة الطورانية) [١] من عقالها . ولم يكن قادة جمعية الاتحاد والترقي متأثرين بهذه الدعوة الطورانية فحسب بل كانوا يؤيدونها ويقدمون لها الإعانات المالية (وتسمى إعانات المليّة التركية) وكان كبار قادة الاتحاديين أعضاء منتظمين إليها [٢] ، ومن هذه القاعدة استمدوا سياسة تنريك الشعوب العربية والشعوب العثمانية الأخرى [٣] . وكان لهذه السياسة الأثر العظيم في تحويل إتجاه القضية العربية نحو الإستقلال علي عهد الأتراك الإتحاديين ونمو العصبية الجنسية العربية .

وفي سنة ١٩١١ . اعتدت إيطاليا علي طرابلس الغرب (ليبيا) فغضب شكيب من هذا العدوان ، وكتب إلي مختلف الجهات يحرض علي نجدة العرب في طرابلس ، ويحس علي مداهم بالأموال والسلاح ، وأبرق إلي المسؤولين في الأستانة بذلك [٤] . وفي سنة ١٩١٢ يسافر الأمير شكيب إلي طرابلس الغرب (ليبيا) ليلتحق بصقوف المجاهدين ضد الجيش الإيطالي المعتدى علي ذلك الوطن الإسلامي ، وقد خرج من هذه التجربة وقد إزداد تيقناً بأن القوى الغربية الصليبية تتحالف لإتهام بلاد العرب قطعة قطعة ، ولا سبيل للنجاة إلا بالتمسك بالرابطة العثمانية التي تمثل العزة للإسلام والقوة للعرب وإزالة أسباب التوتر بين العرب والأتراك .

وفي سنة ١٩١٢ سافر الأمير شكيب من طرابلس إلي تركيا حيث أختير مفتشاً لبعثات الهلال الأحمر المصري فقام بمهمته علي خير وجه [٥] .

وما أن تشب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ حتي يتخذ شكيب ببعد نظره ووعيه الإسلامي الصادق موقفاً مختلفاً لموقف زعماء العرب وقادتهم في ذلك الوقت . ولقد ظن العرب أنهم بوقوفهم إلي جانب الحلفاء ضد الألمان والدولة العثمانية سيحصلون علي إستقلالهم الكامل . ووقف شكيب يومها ضد رأي الأغلبية التي كان يتزعمها الشريف حسين

[١] الدعوة الطورانية : تهدف إلي إحياء العصبية التركية والجمع بين العناصر التركية التتارية والبلغارية

والقوقاز وهدم المدنية الإسلامية ، " نكبة الأمة العربية " ص ٨٢

[٢] المنار ، مجلد ١٩ ، ج ٤ ، ٢٨ ، سبتمبر ١٩١٦ ، ص ٢٣٥ - ٢٣٦

[٣] محمد الخير عبد القادر / نكبة الأمة العربية / ص ٨٢

[٤] شكيب أرسلان داعية العروبة ، أحمد الشرباصي ، ص ٢٩ - ٣٣

[٥] شكيب أرسلان داعية العروبة ، أحمد الشرباصي ، ص ٢٩ - ٣٣

ملك الحجاز آنذاك ، فقد صرخ بأعلى صوته في المحافل ووجه الرسائل وبيع عشرات المقالات قائلًا أنه لن ينصر الدول الإستعمارية علي الدولة الإسلامية مهما كانت عيوبها ، وأن علي العرب ألا يغتروا بعود الغرب لأن هدف هؤلاء أن يتخفوا العرب جسراً إلي قتل الدولة الإسلامية ليلتهموها ثم يلتهموا أجزائها العربية بعد ذلك ، واعتبر بطرابلس الغرب ومن قبلها الجزائر وتونس .

وكان من سوء حظ شكيب أن الولاة العثمانيين والباب العالي والقادة العسكريين حين عرفوا موقف العرب منهم صمموا علي مقابلة عداء بعداء [١] .

" وعينت تركيا القائد أحمد جمال باشا قائد الفيلق الرابع من الجيش العثماني والياً علي سوريا ولبنان وفلسطين والحجاز فبغى وطغى ، والجم الألسنة وأرهب الناس ، وكان يمثل النزعة الطورانية بأقصى صورها وتعصدها ، وهو من جماعة الإتحاد والترقي " [٢] .

وفي سنة ١٩١٦ وجهت تهمة الخروج علي الدولة إلي زعماء وأعضاء الجمعيات العربية في سوريا ، وحكم بالموت شنقاً علي ثلاثين منهم ، كما صدر الحكم غيابياً بالموت شنقاً علي نحو ستين ، وعوقب آخرون بالآفي أو السجن [٣] .

[١] الدكتور سامي الدهان ، الأمير شكيب أرسلان ، حياته وآثاره ، ص ٧٤

[٢] الشيخ أحمد الشرباصي ، أمير البيان شكيب أرسلان ، ج ١ ، ص ٤٥

[٣] الشيخ أحمد الشرباصي ، أمير البيان شكيب أرسلان ، ج ١ ، ص ٤٤

موقف الأمير شكيب من الثورة العربية بقيادة الشريف حسين

يقول الشيخ أحمد الشرباصي ، " ويذهب أكثر من باحث إلى أن مأساة الشنق كانت سبباً في تعجيل الشريف حسين بن علي أمير - مكة الذي كان يفאوض الحلفاء سرّاً - بإعلان الثورة ضد الأتراك ، ودخول العرب في صف الحلفاء في شهر حزيران (يونية) ١٩١٦م ، أي بعد شهر من تعليق الشهداء علي المشائق ، ونستطيع أن نقول أن المأساة كانت أقوى تمهيد لإعلان تلك الثورة " [١] .

ولكن الأمير شكيب أرسلان ينفي نفيّاً قاطعاً أن تكون سياسة جمال باشا هي التي أحدثت المسألة العربية مع إقراره بأن سياسته كانت متهورة وخارجة عن دائرة المعقول في كثير من الأمور ، فيقول : " جنت الدولة جنانية كبرى على نفسها وعلى العرب وأترك معاً بأن سلمته زمام سوريا مدة الحرب تسليماً مطلقاً ، مع مافي تحيزته من الإسعداد للإستبداد ، والنشوة بخمرة النهى والأمر ، فمضي في شهواته وأهوائه ، غير حاسب ولا مراقب ، ولا ناظر إلى العواقب " [٢] .

ويمضي شكيب في عرض سياسة البطش التي إتبعها جمال باشا في سوريا ثم يقول : " أما كون سياسته هذه هي التي أحدثت المسألة العربية ، ولولا قتله من قتل من كبار السوريين وأبنائهم لم يكن ثار الشريف علي الدولة ، ولا إتشق العرب علي الأيك ، فليس بصحيح . إذ علاقة الشريف بالإنجليز وتحفزه للقيام علي الدولة في أول فرصة تلوح يرجعان إلي أيام السلطان عبد الحميد نفسه الذي كان يعلم ذلك ولما أخذ الإتحاديون علي يد السلطان وأجبروه علي نصب الشريف حسين أميراً علي مكة ، مكان الشريف علي قال لهم " انني أبرأ من تبعه كل ماسيعمله هذا الرجل لأنني أعرف حقيقته " [٣] . ويؤكد الأمير شكيب أن الشريف حسين كان علي إتصال بإنجلترا من قبل الحرب لعامة واته عرض عليها أن تمد العرب بالسلاح لينقضوا علي الدولة ، ويكونوا حلفاء لإنجلترا في المستقبل ، ولكن الخارجية الإنجليزية رفضت ولم تكتم السبب في رفضها " وهو أن إنجلترا تريد هي الإستيلاء علي بلاد العرب فلا يوافقها أن تعطي جزيرة العرب سلاحاً " [٤] .

[١] الشيخ أحمد الشرباصي ، أمير البيان ، ج ١ ، ص ٤٥

[٢] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٤ ، ص ٣٩٠

[٣] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٤ ، ص ٣٩٠ - ٣٩١

[٤] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٤ ، ص ٣٩٠ - ٣٩١

"ثم إن الشريف حسين راجع إنجلترا في مشروع التحالف العربي الإنجليزي لأول الحرب ، فلم يجيبوه أماً في إستغنائهم عنه ، فلما إستندت الحرب علي الإنجليز شعروا بالإحتياج إلي العرب ، فعادوا إلي قبول إقتراح الشريف " [١] . وعلي هذا فان قسوة جمال في سوريا وقتله من قتل لم يكونا سببا ثورة الشريف في رأى الأمير شكيب ، بل كانت الثورة واقعة سواء قتل جمال من قتله أو لم يقتله [٢] . لذلك لم يكن غريباً أن يمتنع الأمير شكيب عن المشاركة فيما سمي بالثورة العربية الكبرى التي إنطلقت من الحجاز يقودها الشريف حسين سنة ١٩١٦م وكان موقف شكيب حينئذ عصبياً ، فقد كان ضد التيار العام ، وخارجاً علي رأى الأكثرية ، وبداياً في صورة من يريد أن يكون عثمانياً أكثر من بنى عثمان ! وإن تكن الأحداث قد جرت بعد ذلك بتحقيق ماوعده به وحذر منه [٣] .

الأمير شكيب أرسلان والقضية العربية

وانتهت الحرب العالمية الأولى ، ووقع ماحذر منه شكيب وتقاسمت الدول الإستعمارية البلاد العربية ونكثت بوعودها لحلفائها العرب ، ومع دخول فرنسا لبنان وسوريا إختار شكيب المنفي ، فغادر الوطن قاصداً تركيا سنة ١٩١٧م . ويستقر الأمير شكيب أولاً في بلدة (مرسين) التركية علي مقربة من الحدود السورية ، ولكن إقامته لم تطل ، فالفزيمة التي منيت بها تركيا في الحرب ثم دخول اليونان الأراضي التركية قد زلزلت تماسك الدولة ، فكان صعود مصطفى كمال وتيار الأتاتوركية الساعي إلي التنريك للصرف وقطع الأواصر بالإسلام والشرق والتحول بدلا من ذلك نحو العلمنة والأخذ بالطريق الاوربي . ولما سقطت راية الخلافة العثمانية توجه شكيب لجمع كلمة العرب ودعي إلي وحدته ليرفع برائتها كلمة لا إله الا الله من جديد . ووضح شكيب منذ البداية الأمر لدعاة القومية العربية بأن لاوحدة للعرب إلا بالإسلام ، فهو الذى وحدهم وأن الدعوى بالوحدة العربية من أي منطلق آخر غير إسلامي باطلة من أساسها "وان العرب لم يكونوا ليتحدوا في يوم من الأيام إلا بالإسلام ولولا الإسلام لبقوا شعوباً وقبائل يقتتلون في جزيرة العرب إلي يوم القيامة " [٤] .

[١] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٤ ، ص ٣٩٠ - ٣٩١

[٢] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٤ ، ص ٣٩٠ - ٣٩١

[٣] الشيخ أحمد الشرباصي ، أمير البيان ، ج ١ ، ص ٤٦

[٤] شكيب أرسلان ، تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ١٦ .

وبعد حين سافر شكيب من (مرسين) إلى (برلين) واشترى هناك بيتاً أقام به سنوات ، وأخذ يجاهد بقلمه ولسانه وفكره في سبيل العروبة والإسلام [١] ، ومد يده للملك فيصل ينصره ويؤيد دعوته إلى الجامعة العربية ، حتى قال الملك فيصل لشكيب : " أشهد أنك أول عربي تكلم معي في الوحدة العربية ، وأراد أن تكون وحدة عملية " [٢] .

وفي سنة ١٩٢٢م اجتمع الزعماء العرب في القاهرة ، وشكلوا اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني ، وقرروا تأليف وفد عربي يدافع عن سوريا وفلسطين ، ويتابع المحاماة عن حقوقهما والعمل لإستقلالهما في جمعية الأمم بجنيف ، فانتخبوا الأمير شكيب سكرتيراً أول للوفد . وسافر شكيب إلى جنيف سنة ١٩٢٥م للقيام بهذه المهمة الجديدة . بتكليف من قومه [٣] .

وللأمير شكيب أرسلان تراث ضخم من مئات المقالات والخطب ضمنتها كبريات مجلات العصر مثل (الفتح والشورى و المؤيد) . وقام الأمير بأمر الوفد السوري الفلسطيني ففرع أبواب الدول وقابل المسؤولين ، واحتج وخطب وكتب ، ونشرت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني ما فعله الوفد في الغرب في كتاب عنوانه " أعمال الوفد السوري الفلسطيني من مايو ١٩٢٢م إلى أكتوبر ١٩٢٢م " [٤] .

وفي سنة ١٩٢٩م حج شكيب إلى بيت الله الحرام ، وقد بلغ السنين من عمره ، والتقى بالملك عبد العزيز آل سعود ، ووضع عن هذه الرحلة كتابه " الإرتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف " [٥] .

وفي سنة ١٩٢٠ قام برحلة إلى إسبانية ، وعاد فكتب كتابه " تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرة وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط " . كما بدأ يفكر في إصدار كتابه الجليل " الحلل السندسية في الآثار والأخبار الأندلسية " وأنشأ في هذه السنة نفسها مجلة بالفرنسية سماها " الأمة العربية " في جنيف [٦] جندها لخدمة أهداف أمته ، مما جعل فرنسا تعتبره

[١] الشيخ أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، ص ٤١

[٢] الشيخ أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، ص ٤١

[٣] د. سامي الدهان ، شكيب أرسلان : حياته وآثاره ، ص ٨٤

[٤] المرجع السابق . ص ٨٤

[٥] الشيخ أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، ص ٥٢

[٦] د. سامي الدهان ، شكيب أرسلان : حياته وآثاره ، ص ٩١

عدوها الأول في العالم العربي .

وفي سنة ١٩٣٤ وقعت حرب بين ابن السعود والإمام يحيى ، وقررت لجنة المؤتمر الإسلامي في القدس إرسال وفد إلى جزيرة العرب ، وأختير شكيب في الوفد ، فسافر للإصلاح بين العاهلين ، وكانت له يد فضلي على العرب في جمع الشمل [١] .

وعلى الرغم من جهاد الأمير وبذله لكل طاقته لخدمة أمته إلا أن هذا لم يسكت عنه خصومه ، فقد وقع له أن إتهمه شرزمة ضالة بأنه تواطأ مع السيد أمين الحسيني الزعيم الفلسطيني على السير في ركاب إيطاليا لقاء مال تناوله ، ثم تبين أن التهمة ملفقة وأن ورائها الإنجليز لينالوا من سمعته ويضعفوا منزلته في قومه غير أن هذه التهمة الباطلة شغلت من وقت وجهد الأمير الشيء الكثير [٢] .

وكان لابد لشكيب أن يعيش في المنفى لأنه وجد أن عدة دول تطارده ، ففرنسا تريد الانتقام منه لتأليبهِ شعبي المغرب والشام عليها ، وإنجلترا تريد الانتقام منه لإتصالاته بالوطنيين في البلدان التي تحتلها ، حتى تركيا التي لجأ إليها من قبل لم يعد باستطاعتها إيوانه بعد أن خلعت لباس الإسلام وتعمرت بالعلمانية ولحملته على تنكّر الحكام الأتراك للخلافة والإسلام ، وملك الأفغان أمان الله خان يطلب رأسه لأنه وقف ضد سياسة هذا الملك المتفرنج الذي كان يقاد مصطفى كمال في كل شيء . حتى مصر كان " الملك فؤاد " يطارده ويمنعه من دخولها [٣] .

وفي سنة ١٩٣٧ سمح للأمير بأن يزور سوريا ، فطاف بلدانها وخطب في قومه ، وإختاره المجمع العلمي العربي بدمشق رئيساً له تكريماً له لجهاده وإكباراً ليدّه . ولكن فرنسا عادت فنقضت المعاهدة التي كانت قد عقنتها مع سوريا سنة ١٩٣٦م فترك شكيب رئاسة المجمع ، وعاد إلى أوروبا [٤] .

وفي سنة ١٩٣٩م أذن المسؤولون في مصر له بزيارتها ، فزارها وقضى فيها نحو أربعة أشهر ثم عاد إلى أوروبا وقد بلغ السبعين من العمر [٥] .

[١] د. سامي الدهان ، شكيب أرسلان : حياته وأثاره ، ص ٩٢

[٢] د. سامي الدهان ، شكيب أرسلان : حياته وأثاره ، ص ٩٥

[٣] أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة ، ص ٤٨

[٤] أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة ، ص ٥٣

[٥] أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة ، ص ٥٣

وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م خرجت فرنسا من سورية ولبنان . وتحققت أكبر أمنية من أمني حياة شبيب وقد جاوز السادسة والسبعين من العمر ، فعاد إلي وطنه فقيراً مريضاً بعد أن وهب كل ماله وكل نبض قلبه في سبيل أمته ، ولكنه كان سعيداً يوم وصل بيروت في ٣٠ أكتوبر ١٩٤٦م فاستقبلته لبنان عن بكرة أبيها ، وتابعه عالمه الإسلامي بإعجاب وإكبار ومحبة .

وفي يوم الإثنين ١٥ من المحرم سنة ١٣٦٦هـ الموافق ٩ من ديسمبر سنة ١٩٤٦م لحق شبيب أرسلان بربه ، بعد حياة طويلة حافلة . وصلوا عليه في جامع العمري ببيروت ثم نقلوا جثمانه إلي قريته " الشويفات " حيث دفن فيها بجوار أخيه عادل أرسلان [١] .

وكان آخر مقال له للأستاذ عبد الله المشنوق ، حينما التقى به قبل موته بأيام : أحمد الله عز وجل الذي سهل لي أن أفارق الحياة على أرض هذا الوطن الذي أحببته ، وأنا سعيد أن أدفن في تربة طاهرة لا ترزف فوقها راية أجنبية ، وأنا سعيد أن ألقى وجه ربي الكريم ، فأعيد هذه الأمانة إلي بارئها بعد أن تحققت أحلام طفولتي في هذه الجامعة العربية حرسها الله . وسأخبر رفاقي في الجهاد أن تضحياتهم لم تكن عبثاً . وتحدثت من عيني الأمير دمعان ، ونهض واقفاً وجذب يد الأستاذ المشنوق وقال له : لي وصية واحدة أود أن أوصي بها فهل تعدني بأن تنقلها إلي العالم العربي بعد وفاتي ؟ ، قال : نعم ، وهنا طوقه شبيب بذراعيه المرتجتين وقال بصوت كادت تخنقه العبارات : أوصيكم بفلسطين [٢] .

[١] أحمد الشرباصي ، شبيب أرسلان داعية العروبة (مرجع سابق) ، ص ٥٥

[٢] لماذا تأخر المسلمون ؟ نظرة عامة عن أمير البيان ، ص ١٩ ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت .

، عمر علي الطاهر ، ذكرى الأمير شبيب أرسلان ، ص ٥٥ - ٥٦ ، بيروت ١٩٧٧م ط ٣ .

الأمير شكيب أرسلان

نسبه وأسرته

ينتسب الأمير شكيب الى أسرة آل أرسلان ، وهى أسرة عريقة من سلالة القبائل العربية الذين عرفوا في التاريخ بالمناذرة ملوك الحيرة ، وكان الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور قد طلب اليهم أن تزح بعض بطون قبائلهم الى لبنان لحماية السواحل من بغات الروم وتأمين الطرق من بعض السكان هناك الذين عرفوا بالمردة ، واعتادوا نهب القوافل والغارة على القرى والمدن ومساعدة الروم في حرب المسلمين ، فصدع لثان من زعماء القبيلة هما الأمير المنذر بن مالك وأخوه الأمير أرسلان لطلب الخليفة ورحلا بجموعهما سنة ١42هـ الى جبال لبنان بعد أن أقاموا عدة أيام في وادى نيم حيث كان ينزل بنو عمومتهم ، وتفرقت هذه الجموع العربية في جبال لبنان ، وكانت لهم مواقع مع المردة كان الانتصار فيها للعرب فذاع أمرهم وقوى شأنهم وأقرهم الخلفاء العباسيون على إمارة هذه الأقاليم التى صارت إقطاعات لهم [١] .

واستمرت هجرة القبائل العربية الى لبنان وحواران ووادى الينم ، واقتسم إمارة منطقة حوران بنو شهاب القرشيون والأمراء التتوخيون [٢] .

وفي عام ٨٧٥هـ هزم الأمير النعمان بن عامر الأرسلانى جحافل المردة على نهر بيروت هزيمة منكرة جعلت للخليفة العباسى المتوكل يكتب اليه يمدحه ويقره على ولايته له ولذريته من بعده ويرسل اليه سيفاً ومنطقة وشاشاً أسود شعار العباسيين [٣] .

دخول آل أرسلان في الدعوة الفاطمية

وفي سنة ٣٥٨هـ قامت جيوش المعز لدين الله الفاطمى بقيادة جعفر بن فلاح لفتح بلاد الشام .

[١] د. محمد كامل حسين ، طائفة الدروز ، دار المعارف ، ص ٨

[٢] المرجع السابق ، ص ٩

[٣] المرجع السابق ، ص ٢٣

وبعد أن استولى على الرملة وطبرية كتب إلى الأمير سيف الدولة المنذر بن النعمان عامر أمير بيروت يدعو إلى بيعة المعز ، فاستشار سيف الدولة عشيرته فأجمعوا على مصانعته حتى يروا ما يكون منه ، فلما استولى جعفر بن فلاح على دمشق سار إليه سيف الدولة وزعماء قومه وبايعوه للمعز لدين الله ، وبذلك دخلت هذه القبائل في الدعوة الفاطمية [١] .

وأقر الفاطميون الأمراء الأرسلايين علي سبائديهم من الولايات الإقطاعية وأصبحوا من شيعة الفاطميين . مع أن الأمير سيف الدين المتوحي سنة ٣٦٠ هـ كان من أعلم أهل زمانه بمذهب مالك وله في ذلك كتاب " تيسير المسالك إلى مذهب مالك " كما كان علي علم تام بأصول مذهب الأوزاعي وله في ذلك كتاب " الأقوال الصحيحة في أصول مذهب الأوزاعي " [٢] .

ثم أخذت الدعوة الفاطمية تنتشر في بلاد الشام بفضل الدعاية المنظمة التي وضع الفاطميون أسسها ، وكانت قبائل تنوخ في بلاد المعرة وفي وادي التيم وجبال لبنان أسرع أهالي الشام قبولاً لها وبالرغم من وجود بعض حركات ثورية في الشام كان الغرض منها الرجوع إلى الدعوة العباسية فإن كل هذه الحركات باءت بالإخفاق إلى أن جاء الحاكم بأمر الله الفاطمي وأعلن مذهبه الجديد ، فكان أهل وادي التيم وحوران وجبال لبنان هم الذين تقبلوا هذه العقيدة وظلوا يحافظون عليها إلى الآن .

وعلى الرغم من تذهب آل أرسلان وأهل وادي التيم وحوران وجبال لبنان إلى من اصطاح علي تسميتهم (بالدروز) بهذه العقيدة إلا أن ذلك لم يحل دون قيامهم بأعمال بطولية مع إخوانهم المسلمين في الحروب الصليبية مما يذكر لهم في التاريخ في صفحات الفخر والاعتزاز . ففي سنة ١١٠٠ م حارب أهل وادي التيم جيوش (بلدوين) الفرنسي في مغارة نهر الكلب وفي السنة التي تليها حاربوا جموع ريموند . وفي سنة ١١١٠ م حاول بلدوين فتح بيروت وحاصرها برا وبحرا ودافع عنها الأمير شجاع الدولة الأرسلائي ، فاضطر بلدوين إلى أن يستعين بالمرتدة بالإمارات الصليبية في شمال لبنان وفلسطين ، وتكاثر جموع الصليبيين والأرسلائيون يدافعون عن بلدتهم دفاعا مجيدا واستمر القتال زهاء شهرين

[١] طائفة الدروز ، مرجع سابق ، ص ٩

[٢] المرجع السابق ، ص ٢٤

إلى أن سقطت المدينة بعد أن قتل عدد كبير من الأمراء الأرسلايين .

وفي سنة ١١٢٦ م بدأ الأمير مجد الدين ينظم صفوفه (جموعه) وأخذ يهاجم بهم الصليبيين حتي قتل فتولي الإمارة بعده أبو العشار ناهض الدين بحتربن عضد الدولة الذي سار سنة ١١٥١ م . ووقع بالصليبيين هزيمة منكرة عند رأس التينة [١] .

وفي حروب التتار - وخاصة في موقعة عين جالوت - كان الأمير زين الدين صالح الأرسلائي يقود رجاله بجانب المماليك حتى تم الفوز للمسلمين .

وفي سنة ١٥١٦ م قام السلطان سليم الأول العثماني بغزو الشام ومصر ، وانضم إليه آل معن وآل أرسلان برجالهم من الدروز ؛ فاعترف العثمانيون لهم بالإمارة في لبنان وتولي الأمير جمال الدين الأرسلائي [٢] بلاد الغرب والمتن والجرد ، ثم أصبح أميراً علي جبل لبنان الجنوبي .

من هذه اللوحة التاريخية عن اسرة آل ارسلان العريقة ، تتضح سياستها - التي تمثل سياسة الدروز في كل العصور - وهي سياسة عربية اسلامية قبل كل شيء . كما يظهر نسبهم العربي الأصيل بخلاف من زعم غير ذلك ، وقد بلغ من حرصهم علي اثبات نسبهم أن كل أمير منهم كان يذهب الي الثقاة من العلماء والشيوخ الأجلاء ليكتب له سجلاً بنسبه ، وقد نشر المرحوم شكيب أرسلان هذا السجل في آخر ديوان شقيقه نسيب أرسلان وهو الديوان المعروف " بروض الشقيق في الجزل الرقيق " .

والحق أن الأمير جهد جهداً كبيراً في كتابة هذا النسب فعاد الي مصادر التاريخ يتتبعها ويناقشها ويعالج نصوصها علي عادة القدماء لينتهي الي مثل الثقة في بيان تاريخه وتاريخ أهله وختم بقوله : " والقارئ يرى أننا تحريراً جهد الإستطاعة وعرضنا الروايات والآراء ، ولم يكن استقصاؤنا في هذا البحث إلا لأجل تمحيص ناحية من نواحي التاريخ العربي هي أخبار عرب لبنان والسواحل الشامية من زمن التاريخ ، وكذلك جرباً علي شئنة العرب في حفظ أنسابهم والتتقيب عن أخبار أجدادهم ، والناس مأمونون علي أنسابهم ، وفوق كل ذي علم عليهم " [٣] .

[١] طائفة الدروز ، مرجع سابق ، ص ١٠

[٢] بين الأمير سيب إنضمام قومه السلطان سليم في مقدمة ابن خلدون ، ص ١٧٥

[٣] شكيب أرسلان ، روض الشقيق ، ص ٢٦٢

الفصل الثاني

طائفة الأمير شكيب أرسلان

مكاتة آل أرسلان في المجتمع الدرزي

إسم الدرّوز كان - ولا يزال - مثار مناقشات عديدة بين الكتاب والمؤرخين ، فالمعروف أن هؤلاء الأقوام لا يحبون أن يلقبوا بهذا اللقب ويستكثرون أن ينسبهم أحد الي الداعي نوشتكين الدرّزي - الداعي الفاطمي - والذي يرمونه بالالحاد والخروج عن دعوتهم وعقيدتهم ، ويطلقون علي انفسهم إسم (الموحدين) ، وهو الاسم الذي عرفوا به في كتبهم المقدسة [١] .

والدرّوز ينقسمون مدنيا الي امراء ومشايخ وعامة ، الأمراء هم آل أرسلان بلبنان ، وهم الذين يتولون الزعامة السياسية يشاركهم فيها الجمبلاطية وهؤلاء من المشايخ ومن المشايخ ايضا اليزبكية والشقرا بلبنان .

اما الدرّوز بسوريا فيتولي الزعامة السياسية فيهم بيت الأطرش ويتولي الزعامة الدينية بيتا الهجرى والحلبى ، " وهم معتبرون رسميا من المسلمين " ولكن لاتسرى عليهم قوانين واحكام المحاكم الشرعية بل لهم قاضي مذهب يفصل بينهم في أحوالهم الشخصية [٢] .

طبقات المجتمع الدينية عند الدرّوز

هذا التقسيم الذى ذكرناه لمجتمع الدرّوز من الناحية المدنية ، اما من الناحية الدينية فهم ينقسمون الي عقّال لو اجاويد أى الذين لهم الحق في معرفة شىء من العقيدة السرية ، وهم ثلاثة أقسام رؤساء وعقلاء وأجاويد ، ويسمى رئيسهم الديني (شيخ العقل) ، فهؤلاء (العقل) هم طبقة رجال الدين الدارسين له الحفاظ عليه ، وهم أهل الوعظ والإفتاء ويبدعهم رحمة الموتى أو تركهم خارجها [٣] .

والعقال في المجتمع الدرّزي يعرفون بعلمائهم ولبس القباء الأزرق الغامق ويطلقون لاحام ، ولهم نفوذ كبير علي الدرّوز ، وهم موضع الهيبة والخشية [٤] .

[١] طائفة الدرّوز تاريخها وعقائدها ، د . محمد كامل حسين ، ص ٦

[٢] عبد الله الأمين ، دراسات في الفرق والذاهب القديمة المعاصرة ، ص ١٤٣ .

[٣] المرجع السابق ، ص ١٥٣

[٤] د . محمد كامل حسين ، طائفة الدرّوز (مرجع سابق) ص ٢٩

والقسم الثاني من طبقات المجتمع الدرزي وفي درجة دينية متواضعة عن طبقة العقال تأتي طبقة الجهال : أى عامة الناس ، وهؤلاء ليس لهم الحق في معرفة أسرار الدين " علي أن طبقة الجهال يسمح لهم بأن ينتقلوا إلى طبقة العقال بعد امتحان عسير شاق يقوم علي ترويض النفس وإخضاع شهواتها مدة طويلة "[١] . وبعد أن يعطى الدين يصبح من الأجويد ويتحتم عليه عدم التفريط فيه أو التصريح به ويجب عليه كتمانته عن غير أهله .

والنساء في المجتمع الدرزي ينقسمن أيضا الي عاقلات وجاهلات مثل الرجال تماما لافرق بين الرجل والمرأة ، والنساء العاقلات يلبسن النقاب وثوبا اسمه (صاية) علي أن الغالب علي نساء الدروز هو الحجاب .

وأماكن العبادة عند الدروز تعرف بالخلوات (جمع خلوة) ويجتمع فيها العقال في مساء كل يوم جمعة لسماع مايتلى عليهم من الكتاب المقدس ، " وبعد تلاوة المقدمات يخرج من الخلوة الطبقة الدنيا من العقال ، ثم بعد تلاوة بعض الرسائل البسيطة التي ليس بها تأويلات تخرج الطبقة الثانية بحيث لايبقي الا رجال الدرجة الأولى الذين لهم وحدهم الحق في سماع الأسرار العليا للعقيدة ، أما الجهال فلا يسمح لهم بحضور هذه الخلوات او بسماع شيء من الكتب المقدسة الا في يوم عيدهم وهو يوافق عيد الأضحى عند المسلمين ! " [٢] .

سرية العقائد الدرزية

ومن الحديث عن العقال والجهال ونظام الخلوات السرى يتجلي لنا مدى حرص الدروز علي سرية معلوماتهم الدينية وحرصهم علي كتمانها وعدم التصريح بها ، لذلك فان الدروز يصنفون ضمن الفرق الباطنية لإيمانهم بالبنية والقول بالباطن ، وبسرية العقائد . " فالعقيدة الدرزية تأخذ السرية على أنها مسلك ولهج أساسي وأصل من أصول عقيدتهم ، وليست تقنية في المعنى والقصد العادى الشائع وهو الخوف والاستتار من المكروه ، فهي كما يزعمون وقاية للحقيقة والمستضيين بها ولمن لا يستطيعون ادراكها " [٣] . وقد نشأ عن هذه السرية

[١] المرجع السابق ، ص ١٥٣

[٢] د. محمد كامل حسين ، طائفة الدروز ، مرجع سابق ، ص ٢٨ - ٢٩

[٣] الحركات الباطنية في العالم الإسلامي (د. محمد أحمد الخطيب ، ص ٢٩٥) - أضواء علي مسلك التوحيد (د. سامي مكارم ، ص ٩٧) - وعقيدة الدروز (عرض ونقد د. محمد أحمد الخطيب)

التي تحيط مذهبهم كثير من الحس والتخمين والإشاعات فيما يتصل بعبادتهم ، يقول الشاعر خليل مردم بك رئيس المجمع العلمي " ومن الناس من جاوز مهيع البحث الي ترهات التلفيق ففتح بتكوين الأقاصيص والتكاذيب ... شأن بعض المستشرقين في كثير مما يكتبون عن الشرق ، ومنهم من لجأ الي الفرية فاخترق وافترى ماشاء . كل ذلك وبنو معروف [١] معتمضون بالصمت ، كأنهم يتأثمون من الإفصاح بشيء عن كنه مذهبهم " [٢] .

" أما القلة من بين الدروز التي أملت بسر الدعوة وأحاطت بكنه الرسالة فقد أبت عليها منزلتها الروحية ان تعضي بما تعلم الي غير المؤهلين المستكتمين وحجتها في ذلك أن باب الإستجابة للدعوة أغلق منذ قرابة ألف عام " [٣] .

كل ذلك جعل دراسة عقيدة الدروز أمراً صعباً لما يحيط بها من غموض ولخفائها عن أكثر الناس ولا سيما من بين الدروز أنفسهم ، حتي أن الدكتور محمد كامل حسين ، أستاذ الأدب في كلية الآداب جامعة القاهرة والذي عني غاية كبرية بالكتابة عن الشيعة والاسماعيلية خاصة يقول في مقدمة كتابه " طائفة الدروز - تاريخها وعقائدها " ان بعض أصدقائه سأله أن يضع كتاباً عن الدروز ويعلق علي ذلك بقوله " وليس بعجيب أن يكون هؤلاء الأصدقاء من الدروز أنفسهم الذين صرحوا لي بأنهم لا يعرفون شيئاً عن عقيدتهم بالرغم مما هم عليه من ثقافة واسعة أهلتهم أن يشغلوا مراكز هامة في المجتمع " [٤] .

" ومما يذكر في هذا المجال أن اعلاماً عديدة من الدروز طالبوا بشده مشيخة عقل الدروز بالإفراج والإعلان عن حقيقة العقيدة الدرزية ولكن مشيخة العقل أصمت أذنفا عن كل هذه الأصوات وخاصة أصوات الدروز في المهجر وفي مقدمتهم الدكتور نجيب العسراوي الذي ما فتى يطالب بذلك ، وعندما ينس من ذلك أصدر كتاباً عن هذه العقائد باللغة البرتغالية حتي لا يقرأه كل الناس " [٥] .

[١] بقصد الدروز الذين عرفوا بهذا الاسم لإشتهارهم بإبداء المعروف

[٢] مذهب الدروز والتوحيد ، عبد الله النجار ، ص ٨ و ٩

[٣] مذهب الدروز والتوحيد ، عبد الله النجار ، ص ٩

[٤] طائفة الدروز ، عرض ونقد / محمد كامل حسين ، ص ٤

[٥] الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ، د. محمد أحمد الخطيب ، ص ٣٠٠

اما عبد الله النجار فقد كان اكثر شجاعة وعلمية إذ أصدر كتابه (مذهب الدرّوز والتوحيد) وسط فيه باللغة العربية وبأسلوب سهل مالمطلع عليه- ودقق فيه كل التدقيق - من قواعد المذهب وفلسفته محاولا بذلك كسر جدار السرية الذي أحاط به شيوخ الدرزية مذهبهم يقول عبد الله النجار في مقدمة كتابه " ومن أولى من أصحاب البيت بتلبية نداء العلم ، وفتح الأبواب علي مصراعيها ولو كره المظمنون خلف جدرانه . ففي ذلك تحقيق لرغبة المستطلعين ومعظمهم من أبناء المذهب نفسه " [١] .

وعلي الرغم من رغبة الأستاذ عبد الله النجار في تقديم خدمة لإخوانه في المذهب وغيرهم علي السواء ، بل رغبته في تقديم محاولته في نشر مذهبه الي المكتبة العربية لسد فراغ فيها لاغنى لها عنه في تكاملها إلا أنه كان يتوقع أن تتور عليه ثورة الدرّوز ، وتصب عليه نقمتهم ، حين يسط أمام الناس فلسفة هذا المذهب ، وأعلن أسرار له .

وقد كان ماتوقعه الأستاذ عبد الله النجار ، فقد حاكمه مشايخ الدرّوز لفضحه أسرار دينه ، وجمعوا نسخ الكتاب من الأسواق وأحرقوها وصدر بأمر من مشيخة للعقل كتاب ألفه الدكتور سامي مكارم وقدم له الأستاذ كمال جنبلاط يرد فيه علي كتاب الأستاذ النجار [٢] .

ويحدثنا الشيخ أحمد الشرباصي انه سمع من الأستاذ أنيس فريحه في أول يناير سنة ١٩٥٥ م أن له رسالة مخطوطة عن عقائد الدرّوز المعاصرين ولكنه لا يستطيع نشرها ، وسمعه يؤكد أن المبادئ الدرزية القديمة مازالت موجودة وإن كانت مستورة علي سبيل النقية [٣] .

[١] مذهب الدرّوز والتوحيد ، عبد الله النجار ، ص ٩

[٢] الحركات الباطنية ، ص ٢٩٩ (مرجع سابق).

[٣] أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام ، ص ١٨

عقيدة الأمير شكيب أرسلان

هل كان الأمير شكيب أرسلان درزياً فى عقيدته كدرزيته فى نسبه ؟ . يؤكد الشيخ أحمد الشرباصى أن الأمير يعد من الناحية الشكليه درزياً ، ولكنه فى الإعتقاد سنياً وكان يتعبد على مذهب أهل السنة ، فهو يصوم ويصلى ويذكر كما يفعل جمهور المسلمين [١] .

ويشير الشيخ فى موضع آخر إلى تأكيد زوجة الأمير أن زوجها سنى المذهب وينقل عنها قولها أن الدروز يحرمون الزواج من سنية ولكن زوجى تزوجنى وأنا سنية مسلمة . ويعلق الشيخ على ذلك التناقض بين نسب الأمير شكيب وعقيدته بقوله : وقد تسبب هذا الوضع فى متاعب لشكيب ، فمن الدروز من لا يرونه درزياً كاملاً ، ومن السنين من لا يرونه سنياً كاملاً ، فضاغ جانب من حقه بين هؤلاء وهؤلاء [٢] .

ونحن أيضاً نتساءل : إذا كان الأمير شكيب سنياً فى عقيدته فلماذا كان يحرص على الدفاع عن عروبة الدروز وإسلامهم وكرم أخلاقهم وتأكيد الدائم على أن فرقة الدروز فرقة إسلامية فى كل شيء . كغيرها من الفرق الإسلامية التى لها تعاليمها الخاصة ومع ذلك لا يخرجون عن جملة المسلمين . ونحن لا نشك فى نسبة الدروز العربية ، فهم يعترفون بعروبتهم حتى أنهم غيروا اسم جبل الدروز الى اسم " جبل العرب " إمعاناً فى عروبتهم [٣] ولكننا لا نتفق مع الأمير شكيب أرسلان فى قوله أن فرقة الدروز فرقة إسلامية فى كل شيء ، وأن تعاليمها الخاصة لا تخرجها عن جملة المسلمين ، وسيأتى تفصيل ذلك عند

[١] أحمد الشرباصى ، الأمير شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، ص ٢٢ .

[٢] أحمد الشرباصى ، أمير البيان شكيب أرسلان ، ج ١ ص ٧٤ .

[٣] د. محمد كامل حسين ، طائفة الدروز ، ص ١٦٦ (مراجع سابق)

مناقشة موقف الأمير شكيب أرسلان الكلامي من فرقة (الدروز) ، في باب الآراء الكلامية عند الأمير شكيب أرسلان .

غير أننا نرى من خلال دراستنا لفكر الأمير شكيب أرسلان أنه كان - كما أكد الشيخ الشرباصي - سنيا في عقيدته ، وفي فهمه للإسلام ، وفي حرصه وغيرته على القرآن الكريم ، ونبي الإسلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي دفاعه عن اللغة العربية لغة القرآن ، وفي إيمانه الراسخ بأن أسباب التقدم والرفق في للعالم الإسلامي كلها محصورة في التمسك بمبادئ الإسلام ، وإقامة شريعته ، وفي جمع كلمة الأمة الإسلامية .

يقول شكيب أرسلان " إن أسباب الارتقاء كانت عانده في مجملها إلى الديانة الإسلامية ... فالقرآن قد أنشأ إذا العرب نشأة مستأنفة وخلقهم خلقاً جديداً وأخرجهم من جزيرتهم والسيف في إحدى الينين والكتاب في الأخرى يفتحون ويسودون ، ويتمكنون في الأرض بطولها وعرضها " [١] .

هذه هي منزلة القرآن في فكر الأمير شكيب أرسلان وفي عقيدته وسنظل نجده هو القاعدة التي ينطلق منها دائماً في آرائه الكلامية والفلسفية وفي فكره السياسي .

ويتجلى فهم الأمير شكيب أرسلان للعقيدة من خلال احتفاله بالدعوة (الوهابية) وتعريفه لها بأنها حركة إجابة إلى العقيدة الحق ، وذلك في تعليقاته على فصل البقعة الإسلامية في كتاب (حاضر العالم الإسلامي) ، يقول شكيب " لا ينكر أن الوهابية هي نهضة في الإسلام عظيمة ممتدة في أكثر بلاد العرب وفي الهند ولكن المقرر أنها حركة إجابة إلى العقيدة الحق وهدى السلف الصالح واقتفاء أثر الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابية ، ونبذ الخرافات والبدع ، وحظر الاستغاثة بغير الله ، ومنع التمسح بالقبور والتعبد عند مقامات الأولياء ، ولذلك يسمونها عقيدة السلف ، ويلقب الوهابيون أنفسهم سلفيين ، وأكثر اعتمادهم في الاجتهاد على الامام أحمد بن حنبل ، والامام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية " [٢] .

ولقد مر بنا أن الدروز ينقسمون من الناحية الدينية إلى عقلا وأجاويد أي الذين لهم الحق في معرفة شيء من العقيدة السرية ، ويجعلون لرجال الدين زياً خاصاً بهم ، والقسم الثاني

[١] شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ؟ ص ٤١

[٢] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ص ٢٦٤

هم الجهال الخ .

وشكيب أرسلان ينكر كل هذا ويرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم (صاحب الرسالة) " كره أن يعين وظائف دينية يتولى القيام بها رجال مخصوصون ، فالإسلام من حيث الأصل لم تنص كتبه الشرعية من من المسلمين يتولى القيام بالوظائف الدينية ، على حدما هو الأمر في النصرانية واليهودية والبرهمية وغيرها . فأى مسلم يستطيع أن يقوم فى المصلين إماماً " [١] .

ويحذر الأمير من البدع وإن حسنت نية أصحابها ، ومن تقليد أتباع الأديان الأخرى فى طقوسهم وأزيائهم التى تخالف روح الإسلام ن فىقول : >> كنت يوماً فى المدينة المنورة فشاهدت فيها شيخ الحرم النبوى (وكان يومئذ زيوربك مدير المذاهب فى الأستانة سابقاً) وبعض خدمة الحرم فى ساعة مخصوصة بعد العصر ، يدخلون الحجرة الشريفة لإيقاد الشموع والقيام ببعض الخدمات المرسومة ، وقبل دخولهم يلبسون جميعهم وشاحاً أبيض شفافاً ، وكأنهم يريدون بذلك زيادة التعظيم والتوقير ، فذكرنى ذلك بالأوشحة التى هى من النوع نفسه يلبسها بعض رجال الأديان الأخرى التى فيها مالمس فى الإسلام من الرتب الدينية والدرجات الكنسية ، وذلك عندما يدخلون إلى معابدهم ، وهم لا يلامون على ذلك لأن لخدمة الدين طبقة مخصوصة عندهم بخلاف الإسلام " [٢] .

ويستمر الأمير فى بيان مواقف فى نفسه من إنكار هذه العادة، التى ينكرها من كان يفهم روح الإسلام جيداً [٣] ، ثم يستشهد بالحديث الشريف : " لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه " [٤] .

والحق أن الدارس لفكر الأمير من خلال مؤلفاته يلمس أن قلب الأمير شكيب قد وسع للعالم الإسلامى كله حبا وإكباراً وتقديراً ، ويشعر فى كتبه أن روحه الإسلامية العربية ، لاتفرق بين مذهب ومذهب ولا بين أمة وأمة ، لذلك فقد جهد الأمير جهداً كبيراً فى دعوة المسلمين

[١] المرجع السابق ، ص ٢٧٠

[٢] ، [٣] ، [٤] المرجع السابق ص ٢٧٢ (هامش)

في الشرق الي الإتحاد والتضامن في مواجهة الغرب الأوربي ، ويدعو المسلمين لنبذ أسباب
الفرقة والتناحر التي زرعها الغرب فيما بينهم ، فيقول : " فبعد أن تقرر وجود هذا التضامن
المتين بين جميع الأوروبيين في وجه الاسلام والشرق بأسره ، لا عجب أن يكون هناك
تضامن بين الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا ، لاسيما أن بين هؤلاء رابطة دينية " [١].
ويقول أيضا دفاعا عن القضايا العربية الاسلامية : " وإذا كان عمال فرنسا منذ اول
احتلالهم لسوريا أى منذ ١٩١٨ الي ساعة تحرير الأمير للسطور ، لم يفتروا يوما واحدا عن
تأريث الضغائن الدينية بين المسلمين والنصارى في سوريا ، وبين النصارى والدروز في
لبنان بعد أن كانت هذه الضغائن والدخول قد سكنت وتلاشت تقريبا ، فتجد سورية ولبنان
اليوم في أسوأ حال من هذه الجهة مما بذرت به الاحتلال ، التي ظنت أنها لا تمتد الا علي
بساط شقاق ، ولا تتمكن الا من خلال فتنة " [٢].

من النصين السابقين يظهر مدى حرص الأمير علي وحدة الصف العربي الاسلامي
وحرصه علي حث الأمة علي نبذ الخلافات والمنازعات المدسوسة بينهم ليقف المسلمون
صفا واحدا في مواجهة عدوهم جميعا المتربص بهم . ومن هذا المنطلق دافع الأمير عن
عقيدة الدروز وارتباطها بالعقيدة الإسلامية ليحفظ للمسلمين وحدتهم في مواجهة عدوهم
المشترك . وهذا ما أثبتته الأمير في مقاله نفسه بقوله :

" ولهذا أنا لأفهم : ماوجه الضرورة لفتح مسألة ديانة الدروز وما فيها من مخالفة
الاسلام ، في وقت يسفك فيه الدروز دماءهم بأسراف في الدفاع عن حوزة تسعة أعشارها
للمسلمين ، لأن الدروز في سوريا ١٥٠ ألف نسمة ، والمسلمين يزيدون عن المليونين " [٣].
وهذه الفقرة الأخيرة تبين بجلاء السبب الأساسي الذي كتب من أجله مدافعا عن الدروز ،
بدافع من حرصه على الا ينشغل المسلمون بمعارك جانبية فيما بينهم تزيد من ضعفهم في
مواجهة الأعداء الحقيقيين الذين يسعون بكل طاقتهم لزرع الشقاق بين فرق المسلمين المختلفة

[١] حاضر العالم الاسلامي ج ٢ من ٣٢٨

[٢] المصدر نفسه ج ٢ من ٣٤٠

[٣] مجلة الشورى - عدد ٣١ ديسمبر سنة ١٩٢٥.

لأنهم علموا أنهم لا يتمكنون الأمن خلال فتنة .

والدارس لمقالات الأمير وكتبه يجد أن الحرص علي جمع فرق الاسلام جميعا تحت لواء واحد كان هدفه دائما مع اعترافه بوجود انحرافات شديدة عند بعض الفرق عن العقيدة الإسلامية الصحيحة ، ولم يكن يطبق هذا علي الدروز وحدهم لأنهم قومه بل كان حريصا علي اتباعه مع فرق قبائل وشعوب إسلامية أخرى . فعندما ذكر مافعله الفرنسيون في لبنان من بث الفرقة بين أبنائه ، تذكر مافعلوه أيضا في الجزائر من زرع للشقاق بين العرب والبربر فقال " وليس بصحيح أنه لما دخل الفرنسيين الجزائر كان فيها ٨٠٠ ألف بربري غير مسلمين ، فالإسلام دين البربر قاطبة منذ أكثر من ألف سنة ، واللسان العربى هم يعرفونه جميعاً إلا ماتدر من جهلائهم . وقد اجتهد عمال فرنسا كثيرا في فتنتهم في دينهم ، ووفقوا إلى بعض ماقصوده وذلك بأن أدخلوا عليهم الشكوك في عقائدهم ، فأصبح بعضهم معطلين أو ملحدين ، ولكنهم لم يتمكنوا من نقلهم من الاسلام الي النصرانية [١] .

وعندما يتحدث عن فتح الترك القسطنطينية ويصل به الحديث الى (البردة النبوية الشريفة) التي أخذها السلطان سليم العثماني من آخر خلفاء بني عباس ، وقد أعد لها لترك بناء خاصا بها ، وكان السلاطين يحتفلون بزياراتها في وسط رمضان احتفالا غريبا يصفه الأمير شكيب وقد حضره مراراً فيقول : " كان السلطان يجلس على دكة وأمامه الصندوق الذى فيه السفت الذى فيه البرده وهم يقولون لها " خرفت سعادتي " . ثم يتقدم الرجال المدعوون للحفلة واحدا بعد واحد بالترتيب بحسب برنامج معلوم فيرقى الواحد منهم درجة الدكة ويصير أمام الصندوق ، وينحنى ، ويقبل الصندوق من أعلاه . " ويستمر الأمير في وصف هذا الاحتفال الذى لم ينزل الله به من سلطان ثم يعلق علي هذا بقوله :

" لعل اخواننا الوهابيين يستهجنون هذه المراسم ولا يرون تقبيل الآثار النبوية أو الاصونة التي فيها مما يستحب شرعا الا أنه ليس شيء من هذه الامور منويا به غير مجرد

التذكر والتبرك وانما الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى" [١] .

ومن دفاع الأمير شبيب عن البربر والأتراك يتبين نزعة الأمير الي الوحدة الاسلامية وحرصه علي أن ينأى المسلمون بأنفسهم وباخوانهم في الدين عن رميهم بالكفر لأوهي الأسباب مع اعترافه بوجود إتحرافات عن جوهر العقيدة الصافية وهو في موقفه هذا يقرر قول الشيخ محمد عبده أنه : " اذا صدر قول يحتمل كفر من مائة وجه ويحتمل الايمان من وجه واحد، حمل علي الايمان ولايجوز حمله علي الكفر" [٢] .

ولقد حصر الأمير شبيب أسباب ارتقاء المسلمين في الماضي في تمسكهم بالديانة الاسلامية التي جمعت العرب بعد فرقة ، وبعدهم عن الخلاف الذي عاد فذب بينهم في أواخر خلافة عثمان وفي خلافة علي فعطل تقدمهم وأوقف فتوحاتهم .

يقول الأمير عن أسباب ارتقاء المسلمين في الماضي : " ان أسباب الارتقاء كانت عائدة في مجملها الي الديانة الإسلامية التي كانت قد ظهرت جديدا في الجزيرة العربية فدان بها قبائل العرب ، وتحولوا بهديتها من الفرقة الي الوحدة ، وهن الجاهلية الي المدنية ، ومن القسوة الي الرحمة ، ومن عبادة الأصنام الي عبادة الواحد الأحد ، وتبدلوا بأرواحهم الأولى ارواحا جديدة ، صيرتهم الي ماصاروا اليه من عز ومنعة ، ومجد وعرفان وثروة ، وفتحوا نصف كرة الأرض في نصف قرن ، ولولا الخلاف الذي عاد فذب بينهم منذ اواخر خلافة عثمان وفي خلافة علي رضى الله عنهما لكانوا أكملوا فتح العالم ولم يقف في وجههم واقف " [٣] .

وهكذا يرى الأمير في الخلاف بين المسلمين الآفة التي فرقت جمعهم ، وأوقفت تقدمهم في الماضي ، ويرى أن مستقبل للعالم الاسلامي مرهون باتحاده اتحادا تاما ، حتي يمكنهم الدفاع عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء .

[١] حاضر العالم الإسلامي ج ١ ص ٢٣١ ، مع ملاحظة أن هذا الاحتفال وان كان ابتداعا في الدين الا أنه لايمد من الكفر .

[٢] الاسلام والنصرانية للشيخ محمد عبده ص ٥٧

[٣] شبيب أرسلان لماذا تأخر المسلمون ص ٤١

"جميع هذا يوضح أن العالم الإسلامي يجب عليه أن يتحد اتحادا دفاعيا تاما ، مستمسك الأطراف وثيقة العرى ، يستطيع بذلك الذيادة عن كيانه ، ووقاية نفسه من الفناء المقبل " [١]

فلا عجب أن نجده حريصا علي أن يظل الدروز - وهم أهله - متمسكين بانتمائهم الاسلامي ، وأن يظل المسلمون ينظرون إليهم علي أنهم اخوان لهم في الدين والنسب والوطن فالجامعة الاسلاميـة من وجهة نظره تهدف الي هدف سياسي الي حد بعيد ، ولذلك فهي لا تتوجه بالعداء الي الفرق الدينية الأخرى ، وإن خرجت من الاسلام ، وإنما الي استعمار الفرنجة تحديدا . يقول الأمير "الجامعة الاسلامية ليس معناها في نظرهم أن يقوم المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ليؤلفوا كتلة واحدة ليقاتلوا كل من هو غير مسلم "الجامعة الاسلامية هي أكثر من ذلك ، فهي تجمع المسلمين الي غير المسلمين في اطار الغايات الواحدة هي تقدم للمشرقين ، وليس للمسلمين فحسب ، يعتصمون بها فتغدو أداة توحد للشعوب المقهورة [٢] .

هذه الأسباب السياسية والدينية التي دفعت الأمير الي الحرص علي الدفاع عن نسبه واسرته وقومه والطائفة التي ينتسب اليها ، ولكن تبقى أسباب أخلاقية أخرى دفعت الأمير الي الحرص علي إثبات نسبه ونشره في سجل بعد توثيقه من النقائات من العلماء والشيوخ ، بل ولم يدخر جهدا في تتبع مصادر التاريخ ومناقشتها لينتهي الي مثل الثقة في بيان تاريخه وتاريخ أهله ، ثم ختمه بتأكيد الثقة فيما انتهي اليه أمام القارئ فقال : " والقارئ يرى أننا تحرينا جهد الاستطاعة ، وعرضنا للروايات والآراء ، ولم يكن استقصاؤنا في هذا البحث الا لأجل تمحيص ناحية من نواحي التاريخ العربي هي أخبار عرب لبنان والسواحل للشامية من زمن التاريخ وكذلك حربا علي شنشنة العرب في حفظ الأسساب والتتقيب عن أخبار أجدادهم والناس مأمونون علي انسابهم ، وفوق كل ذى علم عليم " [٣] .

هكذا يحرص الأمير أشد الحرص علي حفظ نسبه ولا يترك مناسبة الا ويشير فيها الي مآثر أجداده في التاريخ ومفاخر أسرته كمثل قوله عند ذكره "للأمير جمال الدين الأرسلاني"

[١] شكيب أرسلان حاضر العالم الإسلامي ص ٣٠٧ ج ١

[٢] شكيب أرسلان مقدمات الفكر السياسي للدكتور محمد شفيق ص ١٦٣

[٣] شكيب أرسلان ، روض الشفيق في الجزل الرقيق ، ص ٢٦٢

- في تعليقاته علي ابن خلدون وانحيازه مع أمراء لبنان إلى جانب السلطان سليم العثماني في حربه ضد الملك الأشرف قلنصوه الغوري ، " وهو جدنا علي عمود النسب " [١] .
 وفي مقال للأمير عن الإمام الشيخ محمد عبده يعدد فيها مزايا الشيخ ورقة طبعه وتقززه عن سماع الألفاظ النابية وأسماء العورات لا ينسى أن يمتدح أخلاق الدروز وعفة ألسنتهم ، فقال متحدثا عن الشيخ : " وكان أحد أصدقائه الأجلاء من أعيان بيروت قد تعود أن يتلفظ بالسوءات كما هي ولا يذهب فيها مذاهب التورية فكنت أرى الشيخ يتقزز من سماع ذلك ومرارا صرح أمامي بشتمزازه من هذه العادة السيئة ، التي تغلب علي بعض الألسنة . فكان في هذا الأمر كثير الاستحسان لطريقة الدروز الذين كان العلامة فاندك الأمريكاني الكبير يقول عنهم : تعاشر الواحد منهم خمسين سنة فلا تسمع منه ولا مرة لفظ سوءة ، ولا قصة فيها شيء من الخلاعة . وكان المرحوم الأستاذ يستحسن جدا هذه الميزة فيهم ، ويعجب بأدابهم في محاسنهم حتي آداب العوام منهم " [٢] .

والأمير شكيب لا يجد في كثرة حديثه عن أسرته ونسبها ومفاخرها أي غضاضة ، لأن الاعتزاز بالأنساب وحفظها في رأيه ضرورة أخلاقية .

ويرى الأمير شكيب أرسلان أن حفظ الأنساب من الفضائل الإجتماعية التي لا يجوز أن تخلو منها هيئة بشرية راقية ، وهو ضروري لأجل الدول الراقية المهذبة التي تريد أن تعرف أصول الشعوب التي إشتملت عليها ممالكها ، والخصائص التي عرف بها كل من هذه الشعوب بما يكون أعون لها على تهذيبها وحسن إدارتها .

ويرى الأمير في الحرص على النسب حرص على توارث الخصال الحميدة والأخلاق الفاضلة " فمن الحقائق العلمية الثابتة المقررة عند الأطباء والحكماء ، كما هي مقررة عند الأكباء والشعراء أن الأخلاق والميول والنزعات المختلفة تتوارث كما تتوارث الأمراض والأعراض الصحية ، والدماء الجارية في العروق " [٣] . فكان لابد من معرفة الأنساب حتى يسعى كل فريق في إصلاح نوعه بطريق للترقية والتهذيب ضمن دائرته الدمية بحسب إستعدادها الفطري ، وهذه الإستعدادات أحسن دليل عليها هو علم الأنساب " [٤] .

[١] تاريخ ابن خلدون ملحق الجزء الأول من ١٧٥ المطبعة الرجمانية بمصر سنة ١٩٣٦ م

[٢] تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٤٠٦

[٣] تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ص ٣

[٤] المصدر السابق ص ٤

ولا ينسى الأمير أن يشير إلى الجانب السلبي من المبالغة والإفراط والغلو في إعتبار الأنساب والإعتزاز بشرف الأحساب وما يثيره ذلك من فتن وانقسامات وعداوات بين أبناء الأمة الواحدة تصدع وحدتهم وتفرق جمعهم كما تفعل العصبية الموروثة بين العرب قبيل الإسلام وبعده ، " فكما أن الأنساب كانت تثير فيهم الحمية والنخوة ، وتبعث روح التنافس الحافز لهم على طلب المجد ؛ كانت تثير بينهم أيضاً العداوات والفتن التي تصدع وحدتهم وتخذ في النهاية جمرتهم ، فأضررت من حيث نفعت . ولقد أجمع المؤرخون واتفق علماء الاجتماع ، أن سبب سقوط سلطنة العرب هو طبيعة هذه الأمة في الانقسام والانفراد ، وغرامها في مناقسة بعضها بعضاً " [١] .

غير أن الأمير يعود فيقرر أن الاعتزاز بالنسب إذا لم يؤد إلى الانقسام عمل كريمة وسنة حميدة ، فيقول : " ولولا آفة الانقسام هذه لكان التمسك بالأنساب هو من الفضائل الاجتماعية التي يتنافس بها ، ويمكن بها المصلحون لحكوماتهم ولوطنهم من ترقية أقوامهم بالبحث عن سلالتهن ، والاعتناء بحفظ أصالتهن ، ومنع إختلاطها بغيرها مما يشوب نقاوتها " [٢] .

والأمير في تقديره لمكانة النسب وأثره في نوارث الفضائل يسير على نهج أستأذه الإمام محمد عبده الذي كان يؤكد أن الإسلام لم يهمل شأن النسب ، ولم يضع من شأن الأدب المكتسب ، بل طلب العدل في الأمرين ، (لأن الإسلام جاء والعرب أشد الناس محافظة على أنسابهم وأشدهم حرصاً على معرفة ما كان لأسلافهم من مجد وحسب وكانوا يبالغون في الإعتزاز بشرف الأحساب حتى كانوا لا يعدون من خلال الخير شيئاً يساوي شرف النسب . وهيهات أن يرتفع ذو أدب بأدبه إلى رتبة شريف بنسبه ، وإن كان خاملاً في نفسه غير شئ في عمله) " [٣] .

(فجاء الدين الإسلامي ينكر الإفراط والغلو في إعتبار الأنساب ، كما أنكر ذلك في كل شئ حتى في الدين نفسه وقال التنزيل (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، وقال صلى الله عليه وسلم ((إتقوني بأعمالكم ولا تأتوني بأنسابكم)) ليدل على أن النسب وحده ليس بالشيء يرفع ويخفض ولكن المعول عليه ، وما يصح أن يرجع الكرم إليه ، إنما هو ما يكون عليه المرء نفسه فإن وافق ذلك نسباً عالياً وحسباً تالداً كان أبلغ في الشرف وأعرق في الكرم وإلا فلن

[١] تاريخ ابن خلدون ملحق الجزء الأول ص ١٧

[٢] تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول لشكيب أرسلان ص ١٧

[٣] تاريخ الأستاذ الإمام ، الجزء الأول ص ١٧

يبخس العامل عمله ولن يحرم أولئك الذين فاض عليهم الفضل الإلهي فرفع أنفسهم عما كان وضعهم آباءهم ، فجعلهم بذاتهم أصولاً للكرام وأدواحاً للمجد بما أودع فيهم من الغرائز الفاضلة ، ووقفهم للأعمال الصالحة ، فمنهم يبتدئ الحسب ، وإليهم في القرون المستقبلية يرجع النسب [١] .

ثم يقول الشيخ الإمام : (هذا ما أراده الإسلام وما دعا إليه ولكنه مع ذلك أمر برعاية النسب إلى الآباء ونفى ما كان عند الجاهلية من عادة التبني والإلتحام بالأدعياء وفرض على المؤمنين أن يدعواهم لأبائهم ليعرفوا بهم لا بمن يتدرجوا فيهم ، وجعل لقريش من الفضل على غيرها من القبائل ما يقصر من بلوغه روادح الآمال وأوصى علي بن أبي طالب أن يعهد بجلالته الأعمال إلى أهل البيوتات الصالحة وذوي القدم السابقة وجاءت سنة السلف شاهدة بأن للأنساب وتوارث الأحساب مظاهراً في أعمال الأشخاص وأثاراً في خصالهم ينبغي النظر إليها " [٢] .

هذه مكانة الأنساب في الإسلام كما يقررها الشيخ الإمام وهي مكانة جليلة وسنة من سنن الله في خلقه وهي سنة توارث الأخلاق والغرائز ، غير أن المسلمين هم الذين أفعالوا هذه السنة وقلبوا مقاصد الإسلام العالية فيها إلى أضدادها حتى سقطت منزلة النسب في نفوسهم ، وعاندوا بذلك سنة من أعظم سنن الله في خلقه ، (وإن ما يكون في الآباء من أصول الملكات يهيئ الأبناء لكسب مثلها وما جاء مخالفاً لذلك فهو من مبتدعات القدرة الإلهية) [٣] .

وهذا ما أكدته الأمير شكيب أرسلان وحث على حفظ الأنساب في المجتمعات الإسلامية لالبحث أصحابها مكاسب مادية ، وللاكتسبوا بها مكانة أدبية ، وإنما ليحققوا بها هدفاً أعلى وأرقى من كل هذا هو توارث الأخلاق الفاضلة وترقية المجتمعات الإسلامية بحفظ أصالتها ، وهذا هو السبب الذي يرومه من دعوته لحفظ الأنساب كما ذكره بنفسه في قوله : " ونحن لو نظرنا إلى السبب في حفظ النسب لانبجده منحصر في معرفة التاريخ ولاقى الامتيازات المادية التي يحوزها أصحاب النسب في العادة ، ولكن هناك غرض آخر أعلى من ذا ، وهو توارث الأخلاق التي تهتف بالفضائل ، والأفعال المجيدة ، وتزكى الأنفس .

[١] تاريخ ابن خلدون ملحق الجزء الأول من ١٧

[٢] الشيخ محمد عبده ، تاريخ الأستاذ الإمام من ١٧

[٣] المرجع السابق من ١٨

فمن المعلوم أن أصل البيوتات الشريفة هو أن يبرح أحد الناس على أقرانه ، ويبذ أبناء زمانه بطبيعة ممتازة في نفسه قد تكون أسبابها النفسية مجهولة ، وإنما تظهر آثارها في أفعاله فيمتاز بين قومه وتحصل له رئاسة وسود ، ويشيع ذكره ويرتفع شأنه ، وتتمنى الحوامل أن تلد مثله ، وهذا ما يقال له المجد الطريف وبعد ذلك إذا أعقب نسلًا اجتهد نسله أن يقتدوا به بقدر الإمكان ، حتى يمتازوا بالأخلاق التي امتاز بها أبوهم ، ويحوزوا مثلما حازه من الشرف والسود ، وتعب رهطهم في تقوية هذه الروح فيهم طمعًا في استبقاء هذه الغرائز التي أورثهم إياها سلفهم وهي التي تغريهم بالفضائل ، وتبعدهم عن الرذائل ، وترفع بهم عن سفاسف الأمور ويقال لهذا المجد التليد [١] .

أثر الوراثة في التربية

يبين الأمير أن صلاح النسب وأصالة أهل البيت تحمل أبناء الأسرة الكريمة على تجنب كل ما يشين حتى أن الناسى من أهل تلك البيوتات العريقة في حبسها ونسبها يتجنب بطبعه كل عمل خسيس حتى لا يسيء إلى سمعة بيته وما كان لأسلافه من مجد وحسب ، فتكون نفسه بذلك مستعدة ومهيئة لتكوين الملكة الصالحة ، وإذا وجد التربية الحسنة أسرعت بتكوين تلك الملكة وتزكيتها ، أما من شذ عن هذه القاعدة فإن " أول ما يقرع به الناس أحد أبناء البيوتات الكريمة إذا أقدم على عمل خسيس ، ويهيبون به إلى التوبة منه ، أن يقول له : أفلسنت أنت ابن فلان ؟ أو من آل فلان ؟ أيجمل بك أن تفعل كل ما هو كذا وكذا !! فماذا تركت للسوقة والطغام ؟ وأشباه هذه الأقوال التي تدل على دلالة واضحة على أن الأصالة مفروضة فيها أن تقترن بالنبالة ، وبعبارة أخرى أن الأصل في نسبه ينبغي أن يكون فاضلاً في عمله ، بارعاً بأبيه ، وما جاء على خلاف هذه القاعدة يعتبر شاذاً " [٢] . فالأصل الكريم قد يحمل الناسى على اتباع الخلق القويم فإن وجد معه التربية للحسنة فإنها تمهد السبيل وتسرع بتكوين الملكة الصالحة في النفس المستعدة حتى يكون الشاب من أهل بيت صالح بمنزلة الشيخ ممن جاهد نفسه وأخذها بالرياضة على مكارم الأخلاق وليس له سلف فيها ، وإن كانت التربية رديئة أماتت الاستعداد للخير ومحتة من طبيعة النفس وجاءت ببله بضده" [٣]

[١] تاريخ ابن خلدون ملحق الجزء الأول لشكيب أرسلان ص ١٨

[٢] المرجع السابق ص ١٨

[٣] الشيخ محمد عبده عن تاريخ الأستاذ الإمام الجزء الأول ص ١٨

"وشأن التربية مع الاستعداد للردائل ذلك الشأن بعينه فإن كانت صالحة أماتت ذلك الاستعداد ولكن بعد عناء يستغرق السنين الطوال وإن كانت غير صالحة أسرع بتكوين الملكات الخبيثة في نفس الناشئ حتى يكون الفتى من قوم فاسقين قد بلغ مبلغ الشيخ من غير هم يرميه القدر من أول نشأته من قسى الحاجة فيأخذ يكلف نفسه مائيس في استعدادها ويحملها على معاطاة ملايطيق من خلال من الحيلة والمكر والخديعة مثالا وهو ليس من أهلها" [١] .

ثم يعود الأمير فيقرر مؤكداً على الارتباط الوثيق بين حفظ الأنساب والأخلاق فيقول : "إذا تقرر عندنا هذا ، نقرر أن حفظ الأنساب هو عبارة عن حفظ الفضائل وإمتاع المجتمع بها . ومتى كثرت الفضائل في المجتمع ترفت الأمة وعرجت في سلم النجاح ، وأصبحت أمة عزيزة غالية ، لأن الأخلاق الفاضلة هي الأساس الذي يبنى عليه كيان الأمم" [٢] .

"وبالاجمال إصلاح الأجناس بالتزواج ، وبالتربية ، وبالتغذية ، سواء كان في الأدميين أو كان في الطيور الداجنة ، يتوقف على حفظ الأنساب ، والعناية بعقبتها . ولايزال الحديث الشريف : (اطلبوا كرام المناكح فانها مدارج الشرف) من أصدق القواعد العلمية ، والحقائق للعالمية" [٣] .

من أجل هذا وغيره عنى شكيب بإطالة الحديث عن نسبه وأسرته وأجداده ، وبذل جهداً كبيراً في تحقيق هذا النسب وإبراز النابغين والأبطال من جدوده ، ومن أجل هذا دافع عن طائفة الدرزية وكان يحتفل بكل مدح لأخلاقهم ويبرزه ويشير إليه كاحتفاله بقول شوقي في الدروز :

وما كان الدروز قبيل شر	وإن أخذوا بما لم يستحقوا
ولكن ذادة ، وقراءة ضيف	كيتنبوع الصفا خشنوا ورقوا
لهم جبل أشم له شعاف	موارد في السحاب الجون بلق
لكل لبوء ولكل شبل	نضال دون غايته ورشق
كل من السموأل فيه شينا	فكل جهاته شرف وخلق

[١] الشيخ محمد عبده ، تاريخ الأستاذ الإمام - الجزء الأول / محمد رشيد رضا ص ١٨

[٢] تاريخ بن خلدون - ملحق الجزء الأول ص ١٨

[٣] المرجع السابق ص ١٨

ويعلق شكيب على ذلك بقوله : "قال شوقي هذه الأبيات ، وأحسن ما فيها أنه قال قولا لم ينكره أحد عليه ، لأن الإجماع واقع على اتصاف بني معروف^[١] بهذه الخلال التي عرفها شوقي فيهم ، إما من التاريخ ، وإما في أثناء قدماته إلى الشام وإما في الأثنين معا" [٢] .

[١] سأل سائل عن سبب تسمية الدروز ببني معروف فأجابت مجلة الهلال: " عرفوا بهذا اللقب منذ القديم لمحض

اشتهارهم بإسداء المعروف ، أي الجميل " مجلة الهلال أكتوبر ١٩١٥ ص ٦٥

[٢] كتاب شوقي ، تأليف شكيب أرسلان ص ٢٥٨

الفصل الثالث

لماذا نعتبره مفكراً إسلامياً

تمهيد :

في منتصف القرن التاسع عشر شهد العالم الإسلامي منعطفاً خطيراً في تاريخه ، فقد دب الضعف إلى الدولة العثمانية التي كانت حاجزاً منيعاً لفترة من الزمان أمام الأطماع الغربية ، وقد دام الصراع بين الترك والأوروبيين فترة من الزمان حتي ضعف الإمبراطورية العثمانية ^[١] فاستطاع الغرب أن يتسلل مر جديد إلى البلاد العربية ^[٢] حتى تمكن من طرد الأتراك من الولايات العديدة ، وفرض الاحتلال علي الجزء الأكبر من العالم الإسلامي عامة والبلاد العربية خاصة . والحقيقة تؤكد أن الغرب كان يستعد عدة قرون بعد هزيمته في الحرب الصليبية و تأثره بالحضارة العربية لبعث نهضة علمية حديثة في بلاده كي يتمكن من الانتفاض علي للشرق الإسلامي انتفاضاً ساحقاً ، ولكن ظلت الذكريات الدائمة في مخيلة العسكريين عن التاريخ العسكري البطولي للإسلام " هي التي أبقت الغربيين حذرين من الهجوم - حتى القرن التاسع عشر - وأبقت المسلمين راضين مسرورين و التجربة التي بدأت تضعف هذا الرضى عند المسلمين كانت في تتابع الهزائم العسكرية للإمبراطورية العثمانية والقوي الإسلامية الأخرى علي يد خصوم مسلحين بالأسلحة الغربية ومزودة بالعلم والتقنية اللذين هما عصب الفن الحربي عند الغرب " ^[٣] .

[١] بلغ مجموع مداخيل السلطنة سنة ١٨٧٥م ٣٨٠ مليون فرنك يقتم عليها ان تدفع منها ٣٠٠ مليون فرنك لتسديد قروضها مما ترتب عليه ان يعلن الباب العالي اقلاسه في ٦ تشرين الأول. عن لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية، ص ٣٧٦.

[٢] في سنة ١٨٦٧م صدر قانون سمح بموجبه السلطان العثماني للأجانب بالتملك لأول مرة بالسلطنة عن / فليب حنى ، لبنان في التاريخ ص ٥٤٠.

[٣] أرنولد توينبي ، الإسلام والغرب والمستقبل ص ١٩ عن: (فلسفة الاستشراق) د. أحمد سحايولفتش طبعة دار المعارف ص ١١٥

وأمام التراجع العثماني السياسي انفتح الطريق أمام الغزوة الأوربية ، وما أن باشر النفوذ الغربي سلطته في رقعة الشرق الإسلامي - منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر - حتى ابتدأ يعمل على تخلف المسلمين ، وعلى تنقيس الحقد الصليبي [١] .

وليس له هنا طريق آخر لتحقيق هذه الغاية ، سوى تناول (مادة التوجيه) المحليه وجعلها غير صالحة ... ولم يكن هناك فى توجيه الشرق الإسلامى سوى : الإسلام ، والتراث الإسلامى الذى خلفه المسلمون فى شرح إسلامهم [٢] .

وهكذا أصبحت سيطرة الغرب على الشرق الإسلامى قوة هدامة تشغل مكانا خطيرا فى تطوره وتزجرع فى نفوس أبنائه بذور الشك فى دينه والتكر لقيمه ومثله العليا .

لقد أدرك الغرب كمون القوة فى الدين الإسلامى رغم الهزيمة السياسيه والانحدار الحضارى ، وجمود الحركة فى مجتمعاته ، وذلك أن فرض الغلبة بما هى تعبير عن استقرار السيطرة وضماتها ، قد تطلب ليس فقط تصفية القوة الظاهرة ، وإنما أيضا التوغل فى عمق الإسلام لضرب القوة للكامنة ، واستلزم الأمر استحداث منهج جديد لايتظر إلى الإسلام كماض حضارى متفوق أو حاضر مهزوم ، بل كتهديد كامن لن يطمئن الغرب إلا بعد التخلص منه .

واتخذ الغرب الاستعماري وسائله فى محاولة إضعاف المسلمين فى إسلامهم، وهذه الوسائل تنحصر فى توجيه الفكر الإسلامى نحو تحقيق هذه الغاية. وقد برز هذا التوجيه فى صورتين تنم كلتاهما عن هذه الغاية :

الصورة الأولى : قيام بعض مفكرى المسلمين بحركة تقدمية فى الإسلام : تبغى تقرير سلطة المستعمر وتثبيت ولايته على المسلمين من الوجهة الإسلامية. أو بعبارة أخرى تبغى عدم تحديه ومعارضته ، سواء فى مباشرة سلطته على المسلمين ، أو فى إدخاله منيسميه بنظم الإصلاح الحديثة بينهم [٣] . وهم يعبرون بذلك عن قبول تام بغلبة الغرب ويتعاملون معها كأمر واقع ومستقبل حتمى .

[١] د. محمد البهى ، الفكر الإسلامى الحديث ص ١٧ مكتبة وهبة

[٢] د. محمد البهى ، الفكر الإسلامى الحديث ص ٢٨

[٣] المرجع السابق ، ص ٢٨

الصورة الثانية : قيام بعض الغربيين بإبراز الخلافات المذهبية وتأكيد الفجوات والثغرات، بين طوائف المسلمين وشعوبهم، من الوجهة السعوية أو الجغرافية أو نظام الحكم ... مع شرح كثير من مبادئ الإسلام شرحاً يشوهها وينحرف بها عن أهدافها الأصلية [١] وذلك كله بالإضافة إلى تمجيد القيم المسيحية والحضارة الغربية، والنظام السياسي، والسلوك الفردي للشعوب الغربية [٢].

حركة المقاومة للاستعمار الغربي في الفكر الإسلامي

وفي مقابل هاتين الصورتين : برز اتجاه إسلامي فكري آخر وهو حركة المقاومة للاستعمار الغربي : سواء في مظهره السياسي أو فيما يستبطنه ويخفيه من الهجوم على الإسلام واضعاف المسلمين . وهذا اتجاه يعتبر كرد فعل مباشر لتوجيه الاستعمار الغربي للتفكير الإسلامي في صورتيه السابقتين [٣].

ويعكس هذا الاتجاه مجاهرة دائمة رافضة لمضمون التغريب وكاشفة لأفئته، وهي حرب معلنة ضد عصبية الغرب (الغالب) المتفجرة حيناً والمختبئة وراء لغة مهذبة أحياناً أخرى .

وبينما يساعد الاتجاه المتغرب على استمرار الغلبة للغرب بوصفه دعامة داخلية لها، انطلق أصحاب الاتجاه الفكري الإسلامي المقاوم للإستعمار الغربي في عمل دؤوب وتعصب للإسلام كأصل لهويتهم، وعدم قبولهم بالأمر الواقع، ولم ينهبوا بالتقدم العلمي الغربي إلى درجة تدفعهم إلى التخلي عن الغايات التي حددها الإسلام للعلم والحضارة .

وتتضح أبعاد هذا الموقف في ملاحظة الأفغانى لمعانى المدنية القائمة جوهرياً على علم متناقض مع الأوهية، فقد قال في خاطره : " فلنأخذ من ذكرتم من الأمم المتعدنة، ومكتسباتهم العلمية، وما صنعوه، وعملوه، وكسبوه، وربحوه، وما ترتب على ذلك وماحصل من المنافع والفوائد للبشر من وراء تلك المكتسبات، والمدنية، والثروة، ثم نعدد ما رأينا . هل رأينا غير مدن كبيرة، وأبنية شامخة، وقصور مزخرفة، ومعامل ينسج ويصنع فيها القطن والحديد واحتكار تجارات أتت لهم بثروات، وكنوز ؟ .

ثم هل غير التفنن باختراع المدافع المريعة، والمدمرات، والقذائف وباقي المخربات القاتلات للإنسان، تتبارى تلك الأمم الراقية المتمدنة اليوم ؟ .

ثم لوجمعنا كل ماقى ذلك من المكتسبات العلمية، وماقى مدنية تلك الأمم من خير، وضاعفناه، أضاعفا مضاعفاً، ووضعناه فى كفة ميزان ووضعنا فى الكفة الأخرى الحروب ووبلائها هى التى تملو، وتغوز. فالرقى، والعلم، والتمدن على ذلك النحو وفى تلك النتيجة إن هو إلا جهل محض، وهمجية صرفة وغاية الوحش " [١] .

ويعبر الأمير شكيب أرسلان عن رفض أصحاب هذا الاتجاه (الفكرى الإسلامى المقاوم للاستعمار الغربى) أن يكون الدين تمناً للتقدم، ويتساءل عن أسباب التناقض المفضل بين المدنية والإسلام فيقول : " أوربا ترقى هذا الترقى المادى كله وبقيت متمسكة بديانة أقدم من الإسلام بأكثر من ستمائة سنة . وكذلك اليابان ترقى هذا الترقى نفسه وهى معتصمة أشد الإعتصام بعقائد وتقاليد هي أقدم عهداً من الديانة المسيحية نفسها بقرون. فياليت شعرى ، لماذا المسلمون وحدهم هم الذين لا يمكنهم الرقى إلا بخلع الدين الإسلامى، كما يزعم بعض أعداء هذا الدين ؟ " [٢] .

وكان لابد لهذا الاتجاه أن ينقد الاتجاه الآخر المقابل له - المتغرب والغربى - وينقذ عناصره الفكرية : سواء من الوجهة للمنطقية الإنسانية ، أم من الوجهة الإسلامية. وفى الوقت الذى يقوم فيه بالنقد كان لزاماً عليه كذلك أن يعرض خطة عملية لمقاومته، ومقاومة الداعين له والمساعدين على الدعوة إليه [٣] . ولذلك نرى هذا الازدواج فى الدعوة إلى مقاومته : نرى نقداً نظرياً ، ومنهجاً عملياً [٤] .

عناصر هذا الاتجاه

ومن أبرز زعماء هذا الاتجاه الإسلامى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، الشيخ جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ - ١٨٩٧م) الذى ترك أثراً عظيماً فى وعى المتتورين وصياغة أفكارهم فى أنحاء كثيرة من الشرق الإسلامى .

[١] خاطرات جمال الدين الأفغانى، ص ١٣٩ - ١٤٠، دار الحقيقة بيروت ١٩٨٠

[٢] شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامى، مج ٣ ص ٣٧٣ دار الفكر بيروت ١٩٧٣

[٣] . [٤] د. محمد البهى، الفكر الإسلامى الحديث ص ٥٩

وعندما يصف جمال الدين الافغانى المسلمين المتغربين يعتبرهم أكثر خطورة على الشرق الإسلامى من الغربيين أنفسهم، وقد أسهب فى تفسير موقفهم وأثره الداخلى. فيقول فى خاطراته إن ماهو " أشد وطأً على الشرق، وأدعى إلى تهجم أولى المطاعم من الغربيين، وتذليل الصعاب لهم، وتثبيت أقدامهم، هم أولئك الناشئة الذين بمجرد تعليمهم لغة القوم، والتأديب بأسفل آدابهم، يعتقدون أن كل الكمال إنما هو فيما تعلمونه من اللسان على بساطته وفيما رأوه من بهرج مظاهر الحالات وقراءة السير، ومسير من قطع مراحل من الغربيين فى سبيل الأخذ فى ترقية أمته، بدون أن يسيروا فى ذلك غوراً أو يفهموا لتدريجهم معنى . ويعتقد الناشئ الشرقي أن كل الرذائل، ودواعى الحطة ومقومات التقدم إنما هى فى قومه، فيجرب فى تيار غريب من امتحان كل عادة شرقية، ومن كل مشروع وطنى يتصدى له فئة من قومه، أو أصل بلده، ويأنف من الاشتراك فى أى عمل لم يشارك فيه الأجنبى ولو أسماً، ويسارع لتقديس، وتصويب كل خطأ يأتىه الغريب، ويسهل له كل صعب فى مطلبه، ويطلعه على هنات قومه وزلهم، وموقع الضعف منهم، وبالأجمال يكون الآلة القاطعة الفاعلة للغريب فى جسم قومه ، والوسيلة الممكنة من الاستئثار فى البلاد، واستعباد العباد، بدون أن يشعر أنه سىلاقي شر ما يصنع قبل أمته ، وينزل فى تاريخها مع الأندياء الخائنين . وإذا أحس البعض فى شنيع فعلته فإنما يؤثر مصلحته الخاصة ، وتفعه الخسيس المؤقت على صالحه العام مع مجموع من جمعته وإياهم الجامعات الكبرى " [١] .

وقد تحدث الشيخ جمال الدين الأفغانى عن أخذ ما عند الغرب من حضارة ومدنية وعلم ولكن على أساس أن يكون ذلك فى تلازم مع الإسلام، أو لأن الإسلام يدعو إليه [٢] وكان يقول : " إذا لم بين تقدمنا وتمدننا على قواعد ديننا وقرآننا فلا خير لنا فيه ولا يمكننا ان نتخلص من ربة الاحتطاط والتأخر [٣] .

كما حارب المذهب الطبيعى — الدهرى — الذى انتشر فى الهند ١٨٧٩ م ، وانتقده فى كتابه "الرد على الدهريين" وكان يدعو الى "وحدة المسلمين" والى " الإصلاح الدينى" .

(١) خاطرات جمال الدين الأفغانى ، ص ٢٩٩ — ٣٠٠ ، دار الحقيقة بيروت

(٢) د.محمد ألبهى ، الفكر الإسلامى الحديث، ص ٢٨

(٣) تاريخ الأستاذ الامام . رشيد رضا ص ٨٢ ح ١

وقد تجلّى ذلك في آثاره ولا سيما (العروة الوثقى) [١] التى اشترك معه في تحريرها الإمام محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) [٢] (الذى سار في ذات الطريق الذى سلكه جمال الدين الأفغانى ، فكان واحداً من زعماء مقاومة الاستعمار الغربى ، ومعارضة النفوذ الأجنبى في دائرة العالم الإسلامى . وقد استلهم الإمام محمد عبده مبادئ الأفغانى العامة وتوسع في شرحها وتحقق من مدلولاتها في ما اختص بالدين والإصلاح الدينى . كما هاجم الاستشراق مما اضطره إلى الكتابة عن مزيا الإسلام بالنسبة للمسيحية . ووضع منهجاً تربوياً لفهم اسلام القرآن والسنة الصحيحة " وتناول محمد عبده في جانب الاعتقاد موضوعين رئيسيين :

- تحرير المسلم من عقيدة الجبر مع الإبقاء على عقيدة القدر

- وإفهام المسلم بأن عقل الإنسان نعمة من الله يجب ان يتلائم ويسير جنباً إلى جنب

مع دين الله ورسالته للإنسان ، وأن إغفال العقل معناه الغض من هذه النعمة " [٣] .

وإذا كان التراجع العثماني السياسي قد فتح الباب أمام الغزوة الأوروبية، إلا ان الغرب قد أثار العالم الإسلامى والعربى باحتلال أراضيه والسيطرة عليه فدفعه بذلك دفعا قويا للقيام بمراجعة داخلية نقدية [٤] ، وبدأ يسائل نفسه عن ذاته ومكانته ومثله وقيمه ويبحث عن دوره من جديد، وهب المفكرون الإسلاميون للدفاع عن الفكر الإسلامى ويحاربون تلك الترهات التى ينثرها الغربيون فى المحيط الإسلامى وبيان ما فيها من ضلال وماتهدف إليه من تحطيم الأمة العربية والقضاء على معنوياتها ومقاومتها .

[١] أنشئت جريدة العروة الوثقى فى باريس وصدر العدد الأول منها فى ٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠ الموافق ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ وكان مدير سياستها الفيلسوف العظيم السيد جمال الدين ورئيس تحريرها الأستاذ الإمام ص ٢٨٩ ح ١

[٢] يقول الأمير شكيب أن الأفكار فى العروة الوثقى للسيد جمال الدين، والعبارة للإمام (تاريخ الأستاذ) ح ١ ص ٢٨٩

[٣] د. محمد البهى الفكر الإسلامى الحديث... ص ١١٨ (مرجع سابق) .

[٤] الواقع يؤكد لنا أن البقعة الفكرية قد سقت هذا الغزو الغربى بأمد طويل ، وبدأت بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى تجديد الدين والعودة إلى بساطته الأولى ، وإذا كان ابن عبد الوهاب قد ولد سنة ١٧٠٣ وقام بدعوته وهو فى سن الأربعين فإن بقعة الفكر العربى تكون قد بدأت قبل وصول الجمعيات التبشيرية الأوروبية بمائة عام على الأقل. (د. أحمد ساميافتش . فلسفة الاستشراق - ص ١١٦ طبعة دار المعارف) (مرجع سابق)

العوامل المؤثرة في فكر الأمير شكيب أرسلان

في هذا الاطار التاريخي، وفي هذا العصر الحافل بالاحداث والوقائع والصراعات السياسية والفكرية والحضارية، نشأ الأمير شكيب أرسلان وتدرجت أفكاره، فقد ولد الأمير في ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٦٩م وتوفي في ٩ ديسمبر سنة ١٩٤٦. أي أنه شهد الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، كما شهد النصف الأول من القرن العشرين .

العامل الأول : إتصاله بالإمام محمد عبده والشيخ الأفغاني وتلمذه عليهما

وكان للاتصال المبكر بين الأمير شكيب أرسلان والشيخ محمد عبده أثر هام في تشكيل فكر الأمير الشاب منذ أن كان الأمير طالباً في مدرسة الحكمة ببيروت، وكان عمر الأمير شكيب آنذاك ستة عشر عاماً، وألقى قصيدة طويلة في حفلة أقامتها المدرسة وحضرها الشيخ محمد عبده حياً فيها العرب وأمجادهم والإسلام ومفاخره فصفق له الشيخ الأمام واستبشر به خيراً، وهش للقاءه في مجلسه فاتفقت بين الفتى وبين الشيخ صداقة كبيرة . وتأثر شكيب بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، ودرس عليه في "السلطانية"، وتوقعت عرى صداقة متينة بين الإمام وشكيب، فيسمع منه عندما كان منفياً إلى بيروت بعد قمع الحركة العربية سنة ١٨٨٢ ، واتصل به وتلقى عنه حينما عاد الشيخ إلى مصر [١] .

" وكان الشيخ يردد في مجالسه ما تلقنه على يد جمال الدين الأفغاني من سعى إلى الإصلاح وحب الإسلام، وذود عن كرامته، وتأليف فيه، وعمل له . وكان الإمام لا يفتقر عن الحديث في رفع مستوى الأمة وتقويم أخلاقها والنهوض بها نهضة علمية اجتماعية عن سبيل الثقافة والعمل، في وعى صحيح وفهم عميق لا يسير في تقليد الغرب تقليداً أعمى " . والدلائل على قوة تأثير الإمام محمد عبده في تشكيل فكر الأمير كثيرة، فقد تعرف الأمير على فكر الأفغاني أولاً من خلال الشيخ الإمام فأعجب به وردده في كتبه ومقالاته . وقد حث الشيخ على احترام القانون وتحقيق العدالة والمساواة والعمل لإصلاح المسلمين، فعمل شكيب في نفس الاتجاه .

وتحدث الشيخ الإمام عن ابن خلدون فأفاض في مقدمته وشهد بمالها من محاسن في

[١] حاضر العالم الإسلامي ، شكيب أرسلان ج ١ ص ٢٨٣

فهم الاجتماع والتاريخ، وذكر أنه كان يحاضر فيها بمدرسة دار العلوم بمصر سنة ١٨٧٨ فشرع شكيب يعنى بابن خلدون ويقلده، ثم علق فيما بعد على تاريخه . والإمام كان وهو فى بيروت يشرح الكتب القديمة أو يعلق عليها، وكذلك فعل شكيب، فنشر الدرّة اليتيمة لابن المقفع، ورسائل الصائبي، وسيرة الأوزاعي، وغيرها . كما حجب الشيخ الإمام إلى اخوانه قراءة الكتب العربية والغربية المعربة فى مختلف فروع الفلسفة والتصوف والتاريخ والاجتماع والسياسة .

ولاقت افكار محمد عبده هوى فى نفس الأمير، ورأى فى فهمه للعقيدة الإسلامية الشكل الوحيد الذى يرجى أن ينهض بالاسلام بعد أن آل إلى حالة لايرضاها له أي مسام مخلص لإسلامه. وقد عبر الأمير عن مبلغ تأثره بالشيخ الإمام وتلقيه عنه فقال : " استاذنا فريد عصره، ووحيد مجده، حجة الإسلام الشيخ محمد عبده ، أكرم الله مثواه ، تعرف إليه محرر هذه الحواشى فى عهد الطلب، أيام كان هو منفياً فى بيروت على أثر الحادثة العربية وذلك سنة ١٨٨٦، ولازمته وأخذت عنه واستفدت منه بقدر ماوسع فتور خاطري ، واستقضت من بحر حكمته ما أمكن أن يناله قصور عارضى، ووجدت فيه الضلالة التى كنت أنشدها، والبيغة التى كنت أبحث عنها ولا أجدها، ورأيت فى فهمه العقيدة الإسلامية الشكل الوحيد الذى يرجى أن ينهض بالاسلام بعد أن آل الى هذه الحال، وإن يقبل عثاره بعد أن ظن ضعفاء العقول أن عثرته لا تقال. ومازلت بعد أن عاد إلى وطنه مصر إلى أن أدركته الوفاة رحمه الله أجاذ به جبل المكاتبه . وأوقف على رأيه فى أكثر الأمور جزئياً ، وكليةا ، وأستطلع منه طلع الأحوال، وهو يبيت إلى مالا يبيته إلى غيرى من موانح فكره، وذوات صدره " [١]. ولقد سعى الأمير شكيب أرسلان إلى الشيخ جمال الدين الأفغانى استاذ اساتذته الإمام محمد عبده - كما عبر عن ذلك الأمير- وأجتمعت به فى الأستانة سنة ١٨٩٢م بعد أن اتصلت بينه وبين شكيب مكاتبات ومراسلات. ويصف الأمير هذا اللقاء فيقول : " وكنت لما عدت من أوروبا إلى الأستانة سنة ١٨٩٢ ، ذهبت إليه (جمال الدين الافغانى) فى نهار وصولى ، فاستقبلنى براً وترحبياً ولزمته تلك المدة الى أن اضطررت إلى السفر إلى وطنى سورية ، ففارقته أسفاً وأنا أمني نفسى بالعودة إلى الأستانة لمشاهدته والاستفادة منه [٢].

[١] شكيب أرسلان حاضراً العالم ١٨٣ ص ٢٨٣

[٢] شكيب أرسلان ، حاضراً العالم الإسلامى ٢٨ ص ٢٩٨ مرجع سابق

وسألني مرة عما شاهدته في أوروبا وأى نتيجة استخلصتها من حال أولئك القوم، لأنه كان فيلسوفاً تاماً لا يرى الجزئيات إلا من خلال الكلّيات، فلما أردت أن أبدي له ما يعن لي في هذا الباب، وكنت يومئذ في أول شبلي لم أجاوز الثانية والعشرين من العمر، غلبتني مهابة حكمته وخشيت أن لا أصيب المحز، فتحوطت لكلامي بشئ من انكار النفس واستكبار أن يكون مثلي ممن يجوز أن يتكلم بحضرة مثله؛ فما رأيته إلا نهض وأمسك بيدي وهتف قائلاً: "أنا أهني أرض الإسلام التي أنبتك" [١].

ويحدد الأمير موقع فكر جمال الأفغاني فيقول عنه: "هو الموقظ الأعظم للشرق، وأن طريقته ستزداد انتشاراً ومبادئه ستطبق في يوم من الأيام للشرق بأجمعه، ومن غريب ضرائب البشر أنهم لا يحرصون على آثار عظمائهم في حياتهم معشار ما يحرصون عليها بعد ذهابهم" [٢].

وقد جمع شكيب بين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في مجال تأثره البليغ بهما، وكان يرى الأول أستاذاً للثاني، فقال: "إننا في حاضر العالم الإسلامي لم نعظم أحداً في رجال الإسلام ماعظمنا المرحوم السيد جمال الدين الأفغاني أستاذ الشرق عموماً، وأستاذ أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبده" [٣].

شكل الأفغاني ومحمد عبده إذاً، عاملاً واحداً من العوامل الأساسية التي أسهمت في تشكيل وصياغة أفكار الأمير حتى كان علماً من أعلام الإصلاح في الإسلام، وكاتباً مدافعاً عن حوزته في كل بقعة ومكان، وحلقة أخرى من حلقات مدرسة أطلقها المصلح والفيلسوف جمال الدين الأفغاني.

العامل الثاني: دفاع الأمير عن الفكر الإسلامي في مواجهة الفكر الغربي

أما العامل الثاني الذي أثر في توجهات فكر الأمير فهو مواجهة الفكر الغربي المتمثل في القضايا التي أثارها الإستشراق مما يعد هجوماً على الإسلام والعرب وشخصياتهم ودينهم ولغتهم وفكرهم وثقافتهم وآدابهم.

[١] شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي ج٢ ص ٢٩٨ مرجع سابق

[٢] شكيب أرسلان - حاضر العالم الإسلامي ج٢ ص ٣٠١

[٣] أحمد الشرباصي - شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ص ٧٠

وقد ساهم الأمير بفكره وفعله في مواجهة هذا الهجوم الغربي إلى جانب عدد من العلماء المخلصين والمفكرين الواعين الذين أسهموا بدورهم في الدفاع عما هو إسلامي وعربي حتى ليستطيع المرء أن يعتبر ما أنتجوه خلال مواجهتهم لهذا الهجوم من حيث أسلوبه وغازاته وما فيه من فكر وعمق وثقافة ومنطق أروع ما كتب بالعربية في العصر الحديث

الأمير شكيب أرسلان أحد رواد النهضة و الإصلاح في العصر الحديث

وكان الأمير شكيب على اتصال دائم بالمخلصين للعقيدة الإسلامية، والتراث، واللغة والفكر، والثقافة والأدب من معاصريه أمثال محمد رشيد رضا، ومحمّد كرد علي والشيخ مصطفى صبري، ومصطفى صادق الرافعي وغيرهم من رجال وزعماء العالم الإسلامي ممن قبلوا مواجهة هذا التحدي الهدام، وجدوا في مقاومته وبيان مافيه من زيف وضلال، ومايهدف إليه من تحطيم الأمة الإسلامية والقضاء على معنوياتها ومقاومتها وتجدر الإشارة الى الصداقة التي جمعت بين الأمير شكيب ومحمد رشيد رضا فاتفقا على الهدف المشترك وهو الدفاع عن العرب والإسلام، والعمل من أجل عزة قومهما وتقدمهم وتوحيدهم، واختلفا في طريقة الدفاع وأسلوب العمل، ولم يمنعهما هذا الاختلاف من أن يجعلا أيديهما معا في سبيل المصلحة العامة .

ويربط الأمير شكيب بين استاذة الشيخ محمد عبده وبين للشيخ رشيد رضا، ويرى أن رشيد من حسنات الأستاذ الإمام الكبرى ويراها الأولى بأن يخلف الامام في الإصلاح الديني يقول شكيب متحدثا عن الشيخ محمد عبده "ومن حسناته الكبرى تولياديه التي ملأ بها طباق العالم الإسلامي برا، أخذ بيد الأستاذ العلامة السيد رشيد رضا في نشر مجلة "المنار" التي هي لسان حال ذلك المصلح العظيم وترجمان أفكاره، فهي والحق يقال أحسن مجلة ظهرت في باب الإصلاح الديني وتطهير الإسلام من شوائب البدع وإعلانه سيرته الأولى في عهد السلف. وتأليفه مع المدينة الحاضرة . كما أن الأستاذ للسيد رشيد المشار إليه هو الأولى بأن يخلف الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في مشروعه وفقه الله وسدد خطاه " [١] .

والسيد رشيد رضا هو أول من أطلق على الأمير لقب "أمير البيان" وقُدِّبلُغ من تقديره لفكر شكيب أن أرسل إليه أحد تلاميذه وهو الشيخ محمد بسيوني عمران يقترح فيها أن يكتب أمير البيان (للمنار) مقالاً يقلِّمه في أسباب ضعف المسلمين في هذا العصر وأسباب قوة غيرهم من الأفرنج واليابان وعزتهم بالملك والسيادة والقوة والثروة ، وقُدِّبني الشيخ بسيوني اقتراحه هذا على تلك الأسئلة التي صارت مثار شبهة على الدين عند غير علماته .

وبالفعل جاء جواب الأمير من خلال كتابه الشهير " لماذا تأخر المسلمون ، ولماذا تقدّم غيرهم ؟ " الذي يعتبر بحد ذاته ثورة في عالم الإسلام وثورة على الغرب نفسه ، وقد جمع الأمير فيه بين براعة المؤمن ومنهجية المؤرخ وحكمة الفيلسوف وحذاقة السياسي ، ونشر الكتاب أولاً في "المنار" ثم طبع في كتاب أواخر سنة ١٩٣٠م بمطبعة المنار ، وفي أوله مقدمة السيد رشيد رضا يشير فيها إلى الظروف التي أحاطت بتأليف هذا الكتاب بقوله : " اقترحت هذا الاقتراح لحمل أخى وولوى الأمير شكيب على كتابة شيء مثل هذا المنار ، وأنا الذى أنصح له دائماً بتخفيف أحمال الكتّابة عن عاتقه لكثرة ما يكتب لصحف الشرق والغرب وللأصدقاء غيرهم ، فأرسلت إليه كتاب الشيخ محمد بسيوني عقب وصوله إلي ، فأرجأ الجواب عنه لكثرة الشواغل إلى أن عاد من رحلته الأخيرة إلى أسبانية وقد أثرت في نفسه مشاهد حضارة قوما العرب في الأندلس والمغرب الأقصى ، وشاهد تأثير محاولة فرنسة تنصير شعب البربر في المغرب تمهيداً لتنصير عرب إفريقيا المرزوقين باستعبادها لهم ، كما فعلت أسبانية في سلفهم في الأندلس - فكتب الجواب منفعلاً بهذه المؤثرات ، فكان آية من آيات بلاغته وحجة من حجج حكمته " [١] .

ولقد كان إسهام الأمير شكيب أرسلان في مواجهة تلك التحديات استجابة لحاجة ملحة ، بعد أن تجسدت أزمة المسلمين في تخلف مادی وعلمى تقام شأنه فبات من بين المسلمين من دفعه اليأس وعدم الفهم الصحيح للإسلام إلى تصديق دعاوى الاستعماريين في تعاملهم مع المسلمين والإسلام لتكريس وقمع التابع والمتبوع بمنطق "القدر التاريخي المتعالى الذى خص به الغرب" . لذلك بدأ الأمير شكيب بتحديد أسباب ارتقاء المسلمين الماضى قبل أن يحدد أسباب انحطاطهم في الحاضر .

فرأى أن أسباب ارتقاء المسلمين الماضى كانت عائدة فى مجملها إلى الديانة الإسلامية ، وكان الإيمان العميق بالعقيدة ، الداعية إلى الوحدة لا إلى الانقسام والفرقة ؛ والشائنة على الجهل والجاهلية فى سبيل المدنية والمناهضة للظلم والقسوة وصولا إلى الرحمة ، ونبذ عبادة الأصنام والأوثان من أجل عبادة الإله الواحد الأحد... كان كل ذلك بمثابة الدافع والمحرك فى افتتاح العرب المسلمين لنصف الكرة الأرضية فى نصف قرن [١] .

" فالقرآن قد أنشأ إذا العرب نشأة مستأنفة وخلقهم خلقا جديدا وأخرجهم من جزيرتهم والسيف فى إحدى اليدين والكتاب فى الأخرى يفتحون ويسودون ، ويتمكنون فى الأرض بطولها وعرضها " [٢] .

فالدين الإسلامى هو السبب فى إرتقاء المسلمين الماضى الذى نهضوا به وفتحوا وسادوا ، فهلبقى هذا السبب فى العرب وتأخروا برغم وجوده وتأخر معهم تلاميذهم الذين هم سائر المسلمين ، يجيب الأمير شكيب على ذلك فيؤكد أن المسلمين قد فقدوا السبب الذى ساد به سلفهم وأن حالة التخلف التى وصلوا إليها ناتجة عن الحقيقة التالية : " لم يبق من الإيمان إلا اسمه ومن الإسلام إلا رسمه ، إلى غير ذلك مما كان فى صدر الملة وعجبة الشريعة " [٣] .

فالأمير شكيب يرى أن وعد الله تعالى بنصر المسلمين صريح وباق ، والله غير مخلف وعده ، والقرآن لم يتغير ، وإنما المسلمون هم الذين تغيروا " ففضية انحطاط المسلمين فى العصر الحاضر قضية أخلاقية فى المقام الأول ، فالدين لم يتغير وإنما المسلمين هم الذين غيروا ما بأنفسهم فكان من العجب ألا يغير الله ما بهم .

" فلئن حالة المسلمين اليوم من سلفهم الذين كانوا يتهاقنون على الموت الأحمر لإحراز الشهادة ، وإذا فانت فارسم الشهادة رشم حرصه عليها عاد إلى قومه حزينا كئيبا ، فقد المسلمون اليوم أو أكثرهم هذه الحماسة التى كانت عند آباتهم ، وإنما تخلق بها أعداء الإسلام الذين لم يوصهم كتابهم بها ولقد جد الأمير فى تتبع العلل الأخلاقية التى جردت المسلمين من اسباب الرقى والتقدم وأسلمتهم إلى حالة الانحطاط والتأخر فيرى أن " من أعظم أسباب تأخر المسلمين الجهل ، الذى يجعل فيهم من لا يميز بين الخمر والخل ، فيقبل السفسطه قضية مسلمة ولا يعرف أن يرد عليها " [٤] .

"ومن أعظم أسباب تأخر المسلمين العلم النقص الذى هو أشد خطرا من الجهل البسيط..." [١]. "ومن أعظم أسباب تأخر المسلمين فساد الأخلاق، بفقد الفضائل التى حث عليها القرآن، والعزائم التى حمل عليها سلف هذه الأمة وبها أدركوا ما أدركوه من الفلاح، والأخلاق فى تكوين الأمم فوق المعارف..." [٢].

"ومن أكبر عوامل تقهقر المسلمين فساد أخلاق أمراتهم بنوع خاص وظن هؤلاء - إلا من رحم ربك - أن الأمة خلقت لهم أن يفعلوا بها ما يشاؤون..." [٣].

ويشير الأمير هنا إلى فقدان الأمة الإسلامية لعامل هام من عوامل استقامة الدولة على الصراط المستقيم فيرى أن فساد أخلاق الأمراء ناتج عن عدم قيام العلماء بدورهم الذى عهد إليهم الإسلام القيام به فالإسلام عهد إلى العلماء بتقويم أود الأمراء "وكان قديما فى الدول الإسلامية الفاضلة بمثابة المجالس النيابية فى هذا العصر، يسيطرون على الأمة، ويسندون خطوات الملك، ويرفعون أصواتهم عند طغيان الدولة..." [٤].

وما كان الخلاف والملوك ليرهبوا أولئك العلماء إلا لما كان عليه العلماء من أخلاق فاضلة، وتحليهم بالورع والزهدي والتخلي عن حظوظ الدنيا فلا يهتمهم أغضب الملك الظالم الجبار أم رضى، "إلا أنه بمرور الأيام خلف من بعد هؤلاء خلف اتخذوا العلم مهنة للعيش، وجعلوا الدين مصيدة الدنيا، فسوغوا للفاسقين من الأمراء أشنع موبقاتهم، وأباحوا لهم بأسم الدين خرق حدود الدين هذا والعامة المساكين مخدوعون بعظمة عتائم هؤلاء العلماء، وعلو مناصبهم، يظنون فتياهم صحيحة وآراءهم موافقة للشريعة، والفساد بذلك يعظم، ومصالح الأمة تذهب والإسلام يتقهقر، والعدو يعلو ويتممر، وكل هذا أثمه فى رقاب هؤلاء العلماء" [٥].

والأمير لا يعفى المسلمين من مسئولية التخلف فيستطرد فى بحثه عن حقيقة الأسباب التى عملت على تخلف المسلمين وتأخرهم إلى قضايا الاعتقاد، فيرى أن من أعظم عوامل تقهقر المسلمين الجبن والهلع بعد أن كانوا أشهر الأمم فى الشجاعة واحتكار الموت... فقد انضم إلى الجبن والهلع الذين أصابا المسلمين، اليأس والقنوط من رحمة الله، فمنهم فئات قد قر فى أنفسهم أن الأفرنج هم الأعلون على كل حال وأنه لا سبيل لمغالبتهم بوجه من الوجوه، وأن كل مقاومة عبث".

وفى ختام كتابه خلص الأمير شكيب إلى دعوة المسلمين لنذ التساوم والإستخذاء وإنقطاع الآمال، وأن يأخذوا بأسباب النهوض والرقى والتقدم التي أخذ بها غيرهم .

وفى معرض رد الأمير على أعذار المسلمين وحججهم يناقش عقيدة القضاء والقدر - كما سيأتى موقفه منها بالتفصيل - فيبطل زعم الأفرنج الذين يقولون أن الإسلام جبرى لا يأمر بالعمل فيؤكد ويثبت أن الإسلام هو دين العمل لا دين الكسل ولا هو دين الأتكار على القدر المجهول للبشر [١] . فمن أسباب تدهور المسلمين فى العصور المتأخرة فقدانهم كل ثقة بأنفسهم رغما عن قدرتهم على العمل، واستشهد الأمير شكيب على هذه القدرة على العمل بمشروعى إنشاء خط الحجاز الحديدى ونبوغ طلعت حرب باشا فى تشييد بنك مصر والأخذ بمصانعه ومعامله الناجحة. كما استشهد بالأصلاحات التى تحققت فى البلاد المقدسة على عهد الملك عبد العزيز آل سعود فى وقت قصير ماأوجدها إلاهمة عالية وعزيمة صادقة وإيمان بالله وثقة بالنفس [٢] . والأمير شكيب أرسلان يؤمن بأن العلم كفيلا يبعث الأمة، العلم القائم على ركنين : العلم الطبيعى وعلم الدين فيقول: " فلا بد لنا من تربية علمية سائرة جنباً إلى جنب مع تربية دينية، وهل يظن الناس عندنا فى الشرق أن نهضة من نهضات أوروبا جرت دون تربية دينية ؟ " [٣] .

ومحصلة نظرية الأمير فى نهضة الأمة الإسلامية أن الأمة لا يتم لها النهوض والغلبة إلا بالتضحية أو الجهاد بالمال والنفس وهذا هو العلم الأعلى الذى يهتف بالعلوم كلها فإذا تعلمت هذا العلم وعملت به دانت لها سائر العلوم والمعارف [٤] ، وإن المضطلعين بالإصلاح غير محتاجين إلى أن يكونوا من كبار العلماء فى العلوم والفنون بل يكفى إذا أوتوا العقل السليم والإرادة النافذة، والتوجه نحو الأعمال لا الاكتفاء بالتلمنى والآمال [٥] .

[١] شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ؟ مرجع سابق ص ١١٠ .

[٢] شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ؟ مرجع سابق ص ١٥٦ .

[٣] شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ؟ مرجع سابق ص ١٣٩ .

[٤] شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ؟ مرجع سابق ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

[٥] شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ؟ مرجع سابق ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

ويرى الشيخ أحمد الشراباصي أن الأمير شكيب أرسلان كان مسبقاً بالحديث عن انحطاط العالم الإسلامي في عصره، فقد سبقه عبد الرحمن الكواكبي في كتابه : " أم القرى " الصادر في مصر سنة ١٣١٦ هـ - ١٨٩٨ م حيث يتكلم المؤلف في كتابه هذا عن العوامل التي أدت إلى انحطاط العالم الإسلامي [١] .

وينتقد الشيخ جرم الرسالة الصغيرة، والإكثار فيها من وجوه المقارنات بين المسلمين بالأمس واليوم، وصياغتها بالأسلوب الصحافي والخطابي للعاجل، كما يقول عن الرسالة - وقوله حق - " أنها أشبه بخطبة طويلة النفس فيها من الإثارة والتحميس أكثر مما فيها من البحث والإقناع " [٢] .

والحق أن قيمة الرسالة الحقيقية تكمن في كونها جاءت استجابة لضرورة من ضرورات عصرها، فكانت بنت ساعتها ، ويظهر ذلك من استقبال العالم الاسلامي لها، فقد رحب بها العلماء والعامّة ولفقوا الأنظار إليها، وحضروا علي نشرها وتعميمها يقول السيد رشيد رضا عن هذه الرسالة : " اضطربت بها بعض دول الإستعمار ، وزلزلت زلزالاً شديداً حتي قيل لنا إنها أغرت حكومة سوريا بمنع نشرها فيها، وهي أحق بها وأهلها، فاتفردت بهذه العدواة للإسلام دون من أغروا بها " [٣] . وكذلك منعت فرنسا دخول هذه الرسالة الجزائر حينئذ، وجعلت عقوبة لمن يطالعها [٤] .

واقترح الأستاذ محمد تقي الدين أستاذ اللغة العربية في كلية ندوة العلماء بالهند نشرها هذا الكتاب مصححاً مضبوطاً مشكولاً، ليستوي في مطالعته الخاصة والعامّة [٥] .

فشتان بين كتاب هذا شأنه، وكتاب نشر في عهد الخلافة ، زمن السلطان عبد الحميد يدعو إلى إقامة خلافة عربية من مكة المكرمة.

ومهما قيل في الرسالة فقد أيقظت الأمة ، وحركت العزائم نحو الإصلاح ودلت بصدق على كثير من مواطن الانحلال والضعف .

أما كون أسلوبها أسلوباً صحفياً خطيبياً فالسبب أنه كتب لينشر في مجلة المنار، وكتبه (شكيب) إجابة على سؤال قارئ .

ولا يقبل انتقادها بكثرة الآيات القرآنية التي أشتملت عليها لأن القرآن دستور المسلمين والمصدر الأول من مصادر التشريع لديهم واللجوء إلى آياته وتبليان تحذيراته ووصاياه فى موضوع معالجة أسباب تأخر المسلمين من اللوازم الأساسية والضرورات المنطقية لنجاح الموضوع [١].



[١] مقدمة كتاب " لماذا تأخر المسلمون ؟ " ص ٢٢

الباب الثاني

الآراء الكلامية عند الأمير شكيب أرسلان

الفصل الأول

١ - قضية الخلافة الإسلامية

في فكر الأمير شكيب أرسلان

- تمهيد
- حكم الخلافة في الإسلام
- معنى الخلافة
- قضية فصل الدين عن السياسة
- دفاع الأمير شكيب أرسلان عن الشريعة الإسلامية
- رمي الشرع الإسلامي بالجمود لتعلقه بالمعاد والمعاش
- الاستشراق والشريعة
- حزب المتفرنجين
- علاقة الدين بالسياسة في حضارة الغرب
- دفاع الأمير شكيب عن استقلال الشرع الإسلامي وأصالته منبعه
- الاجتهاد لا ينفي الطابع الإسلامي للتشريع
- صلاحية الشرع الإسلامي لكل زمان ومكان وواجب علماء المسلمين
- اشتراط القرشية في الخلافة
- تعقيب

الفصل الأول

١ - قضية الخلافة الإسلامية في فكر الأمير شكيب أرسلان :

- تمهيد

إن أهم القضايا التي شغلت فكر الأمير شكيب أرسلان قضية الخلافة الإسلامية ، وعلى الرغم أن مسألة الإمامة أو الخلافة ليس من أصول علم الكلام وإنما هي من فروع « ويتحدث عنها المتكلمون »^(١) في علم خاص بهذه الأصول جريا على عادة المؤلفين في علم الكلام »^(٢) إلا أنها استحققت أن تقفز في العصر الحديث إلى صدر القضايا التي شغلت علماء الإسلام ومفكره ، فقد « تمخضت الحرب العالمية الأولى وما ترتب عليها وتلاها من تقلبات عن أخطر ظاهرة في حياة الإسلام والمسلمين ، فللمرة الأولى في حياتهم سقطت الخلافة ، بعد أن اتصلت حلقاتها خلال ثلاثة عشر قرناً ونصف القرن . تنقل مركز الخلافة فيها بين عواصم البلاد الإسلامية المختلفة ، ولكنه ظل في كل الأحوال رمزاً للرابطة التي تجمع بين المسلمين في شتى بقاع الأرض ، وظلت الدولة القائمة بأمر الخلافة مكلفة في نظر المسلمين برعاية شئونهم واسعاف منكوبيهم والأخذ بيد ضعيفهم وإقامة شريعة دينهم وشعائره »^(٣)

١ - تناول (الإمامة) علماء العقيدة على اعتبار أنها مبحث من مباحثها ، مثلما فعل القاضي أبو بكر محمد بن الباقلاني (المتوفى عام ٤٠٣هـ) في كتابه « التمهيد في الرد على الملحدة المصطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة » ، وأبو منصور عبد القاهر البغدادي (المتوفى عام ٤٢٩هـ) في كتاب « أصول الدين » ، وإمام الحرمين عبد الملك الجويني (المتوفى عام ٤٧٨هـ) في كتابه « الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد » ، وأبو حامد الغزالي (المتوفى عام ٥٠٥هـ) في كتابه « فضائح الباطنية » و « الإقتصاد في الاعتقاد » وغيرها .. كما كتب الفقهاء كتاباً مفردة تناول نظم الدولة الإسلامية منها « الأحكام السلطانية » للقاضي الشافعي أبي الحسن الماوردي (المتوفى سنة ٤٥٠هـ) وكتاب الإمام ابن تيمية (المتوفى سنة ٧٢٨هـ) « السياسة الشرعية » .. كذلك عني المؤرخون بتنوع نظم الدولة الإسلامية على أرض الواقع التاريخي ، وقد حاثت مقدمة ابن خلدون (٨٠٨هـ) لتجميع بين التأصيل الفقهي والتطور التاريخي في عرض نظم الدولة الإسلامية . (د. محمد فتحي عثمان ، من أصول الفكر السياسي الإسلامي ، ص ١٤/١٣) .

٢ - د. حسن الشافعي ، لمحات من الفكر الكلامي ، دار الثقافة العربية ، ص ٣٥١ .

٣ - د. محمد محمد حسين ، أزمة العصر ، دار عكاظ للطبع والنشر ، ص ٥٦ .

وكانت دولة الخلافة تقوم بواجبها كاملاً أو تغرط فيه وتتساهل في بعضه حسب الظروف والأحوال ، ولكن الدول الإستعمارية الغربية ظلت تكبل الضربات للخلافة في شكل موجات متتالية ، فرادى ومجموعة منذ الحروب الصليبية التي اقترنت في الأذهان بالهقد والكراهية للإسلام وأهله إلى أن ألغيت آخر أشكالها (الخلافة العثمانية) في مارس عام ١٩٢٤ م^(١).

وقد يبدو الأمر غير خطير إلى حد الإزعاج في أعين أبناء هذا الجيل ممن لم يعرفوا الخلافة الإسلامية ، ومن يتخيلون أنها طراز من الأشكال التاريخية التي طواها الزمن ، ولكن شعور الذين عاصروا الخلافة الإسلامية وولدوا في ظلها وعاشوا في دولتها كان مختلفاً جد الإختلاف ، فقد كانت في نظرهم : عاء للإسلام ، ورمزاً لوحده ، وتحقيقاً لوجوده في الحياة^(٢).

وشكيب أرسلان كان واحداً ممن عاصروا (الخلافة العثمانية) عن قرب ، وعملوا على تثبيت أركانها والزود عن حياضها ، وكان يدرك أن إلغاء الخلافة ليس سوى مدخلاً إلى إتمام سيطرة الإستعمار الغربي على الجماعة والشرع والأرض ، إذ بسقوط الخلافة تصبح المجالات مفتوحة أمام الغرب لكي يحول أمة المسلمين إلى وحدات سياسية مستقلة عن بعضها ، وتصبح من خلالها مسألة عزل الشريعة قريبة المنال ، ونتيجة ذلك تصبح الجماعة كلها سهلة الإنقياد والخضوع للغرب .

«وتحققت توقعات المعارضين لقرار الإلغاء إذ استتبع ذلك خطوات متتالية في الإنجاء نحو الفصل بين الإسلام والحكم ، وتحول الدولة إلى علمانية لادينية ، فقد ألغيت على إثر إلغاء الخلافة الشريعة الإسلامية من المحاكم ، ورفع التعليم الديني من الكتاتيب والمدارس ، وإجبار النساء على السفور وخلط الإناث والذكور في دور العلم وليس القبعة والكتابة بالحروف اللاتينية ، كل ذلك بعد أن حذف من دستور تركيا المادة

١ - د. مصطفى حلمي ، نظام الخلافة في الفكر الإسلامي ، دار الأنصار ، ص ٥٣٨-٥٣٩ .

٢ - د. محمد محمد حسين ، أزمة العصر (مرجع سابق) ص ٥٦ .

التي فيها « إن الإسلام هو دين الجمهورية التركية »^(١)

كما هجمت على المسلمين ألوان من الفكر السياسي وتطبيقاته في نظم الحكم والإدارة فتن بها كثير من الناس فنشأ الخلاف حول تصور الأمة والدولة والوطن .

« وكأن إلغاء الخلافة كان إشارة البدء لتحولات عميقة الجذور في كيان الأمة الإسلامية كلها ، إذ انتقلت العدوى رويداً رويداً من تركيا إلى سائر البلاد ، واقتضت أثرها في معظم القرارات ، وإن لم تكن بقرارات رسمية ، فقد تمت عن طريق التقليد والمحاكاة »^(٢)

وساهم العنف السياسي (السيطرة الإستعمارية والتجزئة) والتغريب في تدعيم عزل عناصر الشريعة ، وقيام دول حديثة على جثة الخلافة ، تستلهم النمط الغربي وتناقض الشريعة ، وتسعى في استمرارها على مبدأ (القوة المادية التي هي معبود الغربيين)^(٣)

وأحس الأمير شكيب بأن تغلغل الاستعمار الغربي في بلاد الإسلام لن يقف عند الاستعمار السياسي والنهب الإقتصادي بل سيتجاوز ذلك إلى محاولة هدم كل ما يميز هوية هذه الدول ويضمن بقاها تحت نير الاستعمار ، يقول الأمير متحدثاً عن الغربيين « أنهم غلبوا على هذه المستعمرات واستعبدوا هذه الأمم ، فيريدون أن يحتاطوا لأجل تأييد سلطانهم عليها بجميع الوسائل ، ولا يقفون عن شيء في سبيل إحكام سلاسل هذه العبودية ، ظانين أنهم يحفظونها راسفة في هذه الأصفاذ إلى الأبد ، فتراهم يفكرون في تهينة الأسباب لاستئصال كل ما يخشون وقوفه في وجه مآربهم السيئة ، من دين ولسان، وقومية ، ووطنية .. »^(٤)

لذلك حرص الأمير على وحدة المسلمين ، وسعى إلى معالجة دولة الإسلام لأنه

١ - تعليقات الأمير شكيب أرسلان ، ج٢ حاضر العالم الإسلامي ص ٢٥١-٢٥٣ .

٢ - د. مصطفى حلمي ، الخلافة (مراجع سابق) ص ٥٣٩ .

٣ - تعليقات الأمير شكيب أرسلان ، ج٢ حاضر العالم الإسلامي (مراجع سابق) ص ٣٣٤ .

٤ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج٢ ص ٣٥١ .

رأى أن رد الغزوة الأوروبية أمر يتجاوز طاقة شعب مسلم بمفرده ، فلما رأى الكماليين باعوا تركيا لمبادئ الغرب ، وانحازوا عن الشرق ليرتموا في أحضان الحضارة الغربية ، ثار عليهم وأجهز على مصطفى كمال بورهطه فقال : « إن الذي قصده مصطفى كمال لم يكن سوى مجرد التفرنج ، وأن تفهم أوروبا أنهم هم نبذوا التقاليد الإسلامية ، ورموا بالشرعة القرآنية عرض الحائط ، وأقاموا مقامها قوانين أوروبية » ^(١) ثم قال : « إن الهدف من الكتابة التركية بالحروف العربية هو إقصاء الترك عن العرب ، وإبطال قراءة القرآن تدريجياً » ^(٢)

كما تصدى الأمير شكيب لقضية (فصل الدين عن الدولة) التي روج لها الغربيون في العالم الإسلامي وبين ما فيها زيف وضلال ، كما أثبت أن أوروبا لم تفصل بين الدين والسياسة كما يزعم المظلون ، ودافع الأمير عن الشرعة الإسلامية دفاعاً حاراً في مواجهة المستشرقين والمتفرنجين مؤكداً صلاحية الشرعة لكل زمان ومكان ، وبين أن التعصب الإسلامي - في ما لو حدث - هو مجرد رد فعل لتعصب كانت الدول الأوروبية تبديه على الدوام ، لذلك قاوم الأمير البعثات التبشيرية لأنها رضيت أن تكون غطاء للأطماع الأوروبية .

« وكان الأمير يسعى إلى مؤتمرات المستشرقين ، ليناقد العلماء عن الإسلام والشرق ، ويصحح آراءهم » ^(٣) كما كان يتتبع كل ما يكتبه الغربيون عن الإسلام فيرد عليهم ويحتفل بالأمين منهم وبين ما في دعاوي المفرضين من طعن في الإسلام وإيذاء للمسلمين .

وهكذا حلت مشكلات جديدة في الفكر الإسلامي نتيجة البحوث الفكرية التي خلفها الإستعمار لمعاونته في تمكين سلطته في رفعة البلاد الإسلامية . وأصبح من الضروري أن يجابهها الفكر الإسلامي بطرق ملائمة لثقافة العصر وحضارته . فانقلب

١ - المصدر نفسه ، ج ٢ ص ٣٤٦ .

٢ - سامي الدخان ، شكيب أرسلان (مرجع سابق) ص ٣٢٥ .

٣ - سامي الدخان ، شكيب أرسلان ، ص ٣٢٥ .

العالم الإسلامي مدافعاً بعد أن كان ممسكاً بزمام الأمور مرهوب الجانب مسموع الكلمة^(١)

وإذا كان علم الكلام كما يعرفه ابن خلدون : (علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة)^(٢)

فإننا نعتبر جهود الأمير شكيب أرسلان الفكرية في مواجهة الفكر الغربي الوافد داخله في إطار (علم الكلام) كما اقتضتها ضرورات العصر لمواجهة خصوم الإسلام ، وأداء لواجب العلماء نحو دينهم وأمتهم .

وحديث الأمير شكيب أرسلان عن الخلافة حديث متشعب ممتد الأطراف إلى قضايا مختلفة تتصل بالأصول الثابتة التي تناولها علماء العقيدة ، وتنفرع في مواجهة خصوم الإسلام والدفاع عن شريعته وعلاج أزمة الخلافة في العصر الحديث .

وقد بينا في هذا الفصل آراء الأمير شكيب الكلامية عن القسم النظري في مسألة الخلافة ومكانتها من الشرع الإسلامي ، وحقيقتها ، وشروطها ، وأحكامها المختلفة . كما فصلنا القول في مواجهة الأمير شكيب أرسلان للشبهات التي أحاطت بها في العصر الحديث واستهدفت نفي الخلافة من الزمن والقضاء على ما يعدد شرعيتها في التاريخ ، مثل قنضية فصل الدين عن السياسة ، والظعن في التشريع الإسلامي وقدرته على مسابقة العصر .

كما عرضنا موقف الأمير شكيب أرسلان من عقيدة القضاء والقدر التي حاول خصوم الإسلام أن يرجعوا إليها أسباب تخلف المسلمين ، وبيننا موقفه الذي يهدف إلى إظهار مسئولية المسلمين عن واقعهم ، ونفي (عقيدة الجبر) التي تحجب الكسل

١ - د. مصطفى حلمي ، منهج علماء الحديث والسنة ، ص ٧٠-٧١ .

٢ - مقدمة ابن خلدون ص ٤٥٨ ط: المكتبة التجارية الكبرى - مصر .

والتواكل إلى كثير من المسلمين ، وهي شبهة من بين الشبهات التي أراد المستشرقون أن يلصقوها بالإسلام .

أما القسم العلمي التطبيقي الذي يمثل إجتهدات الأمير شكيب أرسلان في علاج أزمة الخلافة الشاغرة بما يراه من نظام آخر يحقق وحدة المسلمين وفق روح العصر مع التمسك بالأصول والمبادئ التي تقوم عليها نظم الدولة الإسلامية ، وتفردا بخصائصها التي تتميز بها عن سائر أنظمة الحكم الأخرى ، فسنبين ذلك في الفصل الذي يتناول الفكر السياسي عند الأمير شكيب أرسلان .

١- قضية الخلافة الإسلامية في فكر الأمير شكيب أرسلان

حكم الخلافة في الإسلام

إن العرب لم تجتمع كلمتها إلا بدعوة دينية هي دعوة الإسلام ؛ فليس من عادة العرب قديما ولا حديثا التخاضع لملوكهم وأمرائهم كما تتخاضع لأمرائها و ملوكها سائر الامم ؛ بل تراهم لا يخاطبون أمراءهم و مشايخهم بالألقاب الضخمة ؛ ولا بالنعوت التي يخاطب غير العرب بها ملوكهم .

• لذلك لما قال كسرى للنعمان بن المنذر إن الروم و الفرس و الهند .. إلخ لها ملوك تجتمع على طاعتها ؛ وإن العرب لا يزالون فرقا و حزقا ليس لهم أمر جميع ولا ملك ضخم ، أجابه النعمان : إن الأعاجم تطيع ملوكها من استخذاء نفوسها وأما العرب فإثنا أعز نفوسا و أحمى أنوفاً من ان تطيع ملكاً ، بل تجد العرب كلهم ملوكاً [١] وكما كان ذلك دليلاً على شمم العرب وعزة نفوسها فلا ينكر أنه كان العلة الأصلية في تحاسد هذه الأمة وتنافسها وحدة مناظرة بعضها لبعض و ضعف قوتها ، وقد خبرها الشاعر الجاهلي الأفوه الأودي فقال ::

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا [٢]

وما ينطبق على العرب ينطبق على غيرهم ؛ فلولا الولاة لكان الناس فوضى مهملين وهمجا مضاعين، وقد أشار الى هذا المعنى ابن خلدون فقال : ثم إن هذا الاجتماع إذا حصل للبشر كما قررناه وتم عمران العالم بهم ، فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض ، لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم وليست آلة السلاح التي جعلت دافعة لعنوان الحيوانات المعجم عنهم كافية في دفع العدوان عنهم لأنها موجودة لجميعهم ، فلا بد من شئ آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض .

[١] تعليقات الأمير شكيب أرسلان على حاضرم العالم الإسلامي ص٤٤٠

[٢] الأحكام السلطانية، ابو الحسن الماوردى ص٥

ولا يكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم وإلهاماتهم فيكون ذلك
الوازع واحداً منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة ، حتى لا يصل أحد إلى غيره
بعدوان ، وهذا هو معنى الملك... [١] .

لذلك رأى البعض أن الإمارة إنما وجبت بالعقل لما في طباع العقلاء من التسليم لزعيم
يمنعهم من التظالم ويفصل بينهم في التنازع والتخاصم... وإلى هذا المعنى أشار ابن خلدون
في مقدمته حيث قال : " وقد ذهب بعض الناس إلى أن مُدرك وجوبه (نصب الإمام) العقل
وأن الإجماع الذي وقع إنما هو قضاء بحكم العقل فيه " [٢] .

غير أن الإجماع واقع على أن نصب الإمام واجب قد عُرِف وجوبه في الشرع باجماع
الصحابة والتابعين [٣] ؛ لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند وفاته بادروا إلى
بيعة أبي بكر رضى الله عنه وتسليم النظر إليه في أموره .

"وكذا في كل عصر من بعد ذلك. ولم تترك الناس فوضى في عصر من الأعصار .
واستقر ذلك إجماعاً دالاً على وجوب نصب الإمام " [٤] .

وقد جمع شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية بين العقل والشرع فأرى أن وجوب الإمامة
مشروع بالعقل المستند إلى النصوص الدينية ففاس وجوب رئاسة الدولة الإسلامية على
وجوب تأمير الثلاثة أحدهم إذا خرجوا في سفر لما في الإمارة من مصلحة للمسافرين ناهيك
عن الأمة ، فقال : " ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين بل لا قيام للدين إلا بها فإن بنى
أدم لانتهم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس
حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم " إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم " [٥] .

ومن النصوص التي يستند إليها قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا
الرسول وأولي الأمر منكم) يقول الماوردي : "فرض علينا " [٦] ووجوب الطاعة يقضى
وجوب المطاع .

[١] مقدمة ابن خلدون ، ج ١ ، ص ٧١ ، ٧٢ .

[٢] المرجع السابق ج ١ ، ص ٣٤٠ .

[٣] الماوردي ، الأحكام السلطانية ص ٥ / مقدمة ابن خلدون ص ٣٣٩ .

[٤] مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٣٩ .

[٥] رواه أبو داود من حديث أبي هريرة عن السنة الشرعية ص ١٦١ .

[٦] الماوردي ، الأحكام السلطانية ص ٥ (٣) تاريخ ابن خلدون ملحق الجزء الأول الأمير شكيب ص ٢٣ .

والأمير شكيب يرى أن وجوب الخلافة في الإسلام أمر مسلم به ، اتفق عليه المسلمون - إلا الخوارج والمعتزلة - ويرى أن علماء الإسلام أمثال ابن خلدون والماوردي وغيرهم كائن تيميه قد وفوا البحث في هذا الأمر حقه وأثبتوا وجوب نصب الإمام بكل ما يجب أن يقال [١] .

معنى الخلافة

يقول الأمير شكيب: " اتفق المسلمون - إلا الخوارج والمعتزلة - على وجوب نصب الإمام لحراسة الدين والدنيا، فكان هذا المنصب جامعاً بين السلطة الروحية - لكن بدون العصمة التي يقول بها الكاثوليكيون في البابا - وبين السلطة الدنيوية وهي مايسميه النصارى بالسلطة الزمنية - لكن بدون الامتيازات التي تسجلها القوانين الأوربية " [٢] . والأمير بتعريفه هذا للخلافة يتقيد بالتعريف المتفق عليه بين علماء المسلمين عند حديثهم عن الخلافة حيث يعرفها أبو الحسن الماوردي في صدر كتابه الأحكام السلطانية والولايات الدينية بقوله : " الإمامة موضوعه لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا " [٣] .

[١] أ - يقول ابن خلدون : " وقد شذ بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا النصب رأساً لإلحاق ولا بالشرع : منهم الأصم من المعتزلة وبعض الخوارج وغيرهم ؛ والواجب عند هؤلاء إنما هو إضفاء أحكام الشرع ، فإذا توافقت الأمة على العدل وتنفيذ أحكام الله تعالى لم يُحتج إلى إمام ولا يجب نصبه . وهو لا محجوز بالاجماع " ابن خلدون - المقدمة مج ١ ص ٣٤٠ - ٣٤١

ب - وفي العصر الحديث خرج الشيوخ على عبد الرزاق ، أحد علماء الأزهر وأحد قضاة المحاكم الشرعية سنة ١٩٢٥م بكتابه الإسلام وأصول الحكم - بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام . وفيه يتابع الشيخ رأى القائلين بعدم وجوب الإمامة ، ويعكس الكتاب نزعة "الدولة القومية الدستورية العلمانية" أو البعيدة عن أى صبغة دينية . وهي نزعة مستوحاة من مثيلتها في التاريخ الأوربي الحديث ، مع الفارق الضخم بين الخلافة في الإسلام والبابوية في المسيحية .. (د. محمد فتحي عثمان ، من أصول الفكر السياسي ، مؤسسة الرسالة ، ص ٥٧) . وقد ورد عليه كثيرون منهم الشيخ محمد الخضرى حسين والشيخ محمد باقر ، والسيد محمد رشيد رضا صاحب المنار ، ورد عليه حديثاً الدكتور محمد البهى رئيس جامعة الأزهر فى كتابه " الفكر الإسلامى وصلته بالاستعمار لغزبى " وفيه يصف الكتاب بأنه يحكى عن الغرب أكثر مما يتحدث من جوهر الإسلام ذاته (الفكر الإسلامى الحديث ، هامش ص ٢٠٧) وقد شك الأستاذ ضياء الدين الرئيس أن يكون عبد الرزاق مؤلف الكتاب فى كتابه (الإسلام والخلافة فى العصر الحديث) ...

[٢] تاريخ ابن خلدون ملحق الجزء الأول لشكيب أرسلان ص ٢٣

[٣] الأحكام السلطانية ص ٣

وكما عرفها ابن خلدون مبيناً حقيقة منصب الإمام بأنه "نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين، وسياسة الدنيا به"، تسمى خلافة وإمامة، والقائم به خليفة وإماماً. فأما تسميته إماماً فتشبيهاً بإمام الصلاة في اتباعه والاعتداء به؛ ولهذا يقال: الإمامة الكبرى. وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في أمته، فيقال: خليفة باطلاق... [١].

فبالخلافة إذن نمط فريد من أنماط أنظمة الحكم، وإن اصطلاح على اطلاق لقب الخلافة على رئاسة الدولة الإسلامية، وأصبح الخليفة لقب لمن يضطلع بولاية أمور المسلمين، غير أن "الخلافة لم تستم شروطها الصحيحة إلا في الخلفاء الراشدين، وبعد ذلك فالخلافة لم تكن إلا ملكاً عضوضاً قد يوجد فيه المستبد العادل والمستبد الغاشم، وما تناقذت الأمة إلى هذا الملك العضوض المخالف لشروط الخلافة، سواء كان من العرب أو من الترك، إلا خشية الفتنة في الداخل والاعتداء على الحوزة من الخارج" [٢].

وقد فهم الأمير شكيب حقيقة الخلافة على أنها ليست عبارة عن صفة تمتاز بها إحدى الحكومات الإسلامية بل هي "عبارة عن كون حكومة مانائية مناب رسول الله صلى الله عليه وسلم في القيام بأحكام الشرع الإسلامي، فلها ركنان حكومة ونيابة" [٣].

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم مكافئة خلفائه منه فقال: "كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وإني لآبى بعدى وستكون خلفاء فتكثر..." [٤]. فخلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم بمنزلة أنبياء بنى إسرائيل من رسلهم حيث يحكمون بالتوراة التي أنزلها الله على موسى وهؤلاء يحكمون بالقرآن الذي أنزله الله على النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم، غير أن هؤلاء الخلفاء أو الأئمة لا يوحى إليهم فهم ليسوا بأنبياء، وهم بالتالي ليسوا بمعصومين إلا من عصم الله [٥].

[١] تاريخ ابن خلدون مج ١ طب ١٩٨١ ص ٣٣٩

[٢] حاضر العالم الاسلامي ص ٢٩٠ هامش لشكيب أرسلان

[٣] الشيخ مصطفى صبري، التكبير على منكري النعمة ص ١٤٥

[٤] حديث مسلم في كتاب الامارة .

[٥] محمود المرادوى - الخلافة بين التطهير و التطبيق ص ١٦

والأمير يؤكد أن الإسلام وإن جمع للخليفة بين السلطتين الروحية و الزمنية إلا أنه لم يعطه العصمة التي يقول بها الكاثوليكيون في البابا و لا الامتيازات التي تسجلها القوانين الأوروبية للملوك و كان الخلفاء يفهمون حقيقة منصبهم على هذا النمو كما بينة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضى الله عنه لما بوع وقام خطيباً فكان مما قال " كان رسول الله عبداً أكرمه الله بالوحي و عصمه به ، ألا وإنما أنا بشر ولست بخير من أحد منكم ، فراعنوني فإذا رأيتموني استقمتم فاتبعوني وإن رأيتموني زغت فقوموني " [١] .

و كان عامة المسلمين لا يرون في خلفائهم فضلاً ولا يقررون لهم بطاعة إلا بمقدار استقامتهم على الشرع ؛ و قيامهم بواجبات النبابة ؛ { وكانوا في العصر القديم يقولون لعمر بن الخطاب و هو يخطب " لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيفونا " . وكان الأحنف يقول لمعاوية و الله يا معاوية إن السيفوف التي قاتلتك بها لهى فى اغمادها " } [٢] .

" وخطب ابوجعفر المنصور و لم يكن من الخلفاء الراشدين بل من الخلفاء القاسطين فقال ((ايها الناس اتقوا الله)) فقام الية رجل من عرض الناس فقال له ((اذكرك الله الذى ذكرتنا به)) فأجابه الخليفة ((سمعاً سمعاً لمن ذكرنا بالله)) " [٣] .

و قد هاجم بعض أصحاب الفكر من الأوربيين الإسلام ورموه بالجمود لأنه جمع بين السلطتين الدينية والدنيوية فكان هذا عائقاً للمجتمع الإسلامى عن الترقى، وسبباً فى تهقير المسلمين، وقد وافق بعض المسلمين هؤلاء الطاعنين فى الشريعة الإسلامية ودعوا إلى فصل الدين عن السياسة ونجحوا فى ذلك فى معظم أقطار الشرق الإسلامى، وكان فى طليعة هؤلاء المسلمين الجغرافيين كما يسميهم الأمير شكيب - الأتراك الأنثريون شيعة مصطفى كمال أتاتورك ، وقد هاجم الأمير شكيب أرسلان للفريقين وبين ما فى قولهم من تحامل على الدين الإسلامى وأن فى جملة " فصل الدين عن السياسة " من السفسطة التى لاتستد على شئ من الواقع، وهو قول مخالف لسنة الله فى خلقه، إذ أن الدين متصل بالدنيا فى كل مجتمع بشرى، والدنيا متمتزة بالدين بدون انفكاك ولايتصور وجود أحدهما بدون الآخر [٤] .

[١] شكيب أرسلان التطبيقات على تاريخ ابن خلدون ص ٢٦

[٢] ، [٣] شكيب أرسلان حاضر العالم الإسلامى ج ٤ ص ٦٩

[٤] تعليقات الأمير شكيب على تاريخ ابن خلدون ملحق الجزء الأول ص ٢٣

ومن مناقشة الأمير لخط الأوربيين فى الشرع الإسلامى ومروجيه من المفتسين إلى الإسلام يتجلى لنا مذهب الأمير فى الخلافة الإسلامية وما ينبغى أن تحيط به من أمور المعاش والمعاد .

قضية فصل الدين عن السياسة

قضية فصل الدين عن الدولة مرتبطة بأزمة الخلافة فى العصر الحديث، فمنذ العصور العباسية المتأخرة، تسلط على المسلمين حكام انحرفوا عن عدالة الإسلام وقيمه وأحكامه، وإن انتسبوا إليه وحكموا باسمه وعلى الرغم من أن الدولة العثمانية كانت تمثل درع الإسلام الحامى وترمز لوحدة المسلمين حتى فى أيام ضعفها، فإن معظم حكامها المتأخرين أصاروا كثيرا من أحقاد المسلمين داخل دولتهم وخارجها بسبب سوء سياستهم واستبدادهم وغفلتهم وعشيمهم [١]. ولكن ذلك لم يؤثر على مشاعر المسلمين الدينية من قبله الخلافة وقد كان ولاء الجماعة المسلمة للدولة كمؤسسة سياسية فى مرتبة ثانوية بالمقارنة مع ولايتها لمرتبة الشرع وما تعظه الخلافة الدينية فى نفوس الجماعة، بل كان تمسك الجماعة الإسلامية بالشرع هو سلاح الجماعة الأمضى فى مواجهة هزال الدولة والخوف من انهيارها. مما يعنى أن تبعية المجتمع الفعلية هى للدين وليس للسياسة، وعلى هذا يقوم الاتحاد بين الدين والسياسة فى الإسلام مما يشير إلى استحالة الفصل بينهما حيث تستند قوة الدعوة على القيم الإيجابية للأخوة والجماعة والوحدة . بسبب ذلك استنفر الغرب كل قواه لكى يلغى خضوع السياسة للدين فى الإسلام، فكان الاصرار الغربى على إلغاء الخلافة أولا، وقيام الدولة العلمانية الحديثة المستلهمة من الخارج ، ثانياً . ومنذ خلع الثوار العسكريون أعضاء جمعية الاتحاد والترقى السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٨م ثم أعادوا خلعه مره اخرى نهائيا فى العام التالى وولوا غيره أصبحت الخلافة العثمانية مجرد شبح روحى هزيل إذ قبض الثائرون العسكريون على السلطة الفعلية وهم وحدهم الذين يتحملون مسئولية الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ - ١٩١٨م ، إذ لم يكن للسلطان محمد رشاد الملقب بمحمد الخامس الذى خلف عبد الحميد من السلطة إلا الاسم " .

[١] د. محمد فتحى عثمان / من أصول الفكر السياسى الإسلامى / ص ٤٧

" وحين قام كمال أتاتورك يقاوم الحلفاء المنتصرين الذين أرادوا فرض شروطهم القاسية على العثمانيين المنهزمين أجبر الحلفاء الذين كانوا يحتلون الأستانة لسلطان محمد السادس الذى تولى وقتذاك وكان واقعا تحت تأثيرهم - أجبروه على استنكار مقاومة أتاتورك."

" وحين أنتصر أتاتورك سنة ١٩٢٤ بادر إلى إعلان الجمهورية وعزل الخليفة الأخير عبد المجيد الثانى وألغى الخلافة من بلاده، ليقم دولة مستقلة محدودة على أساس القومية "[١] .

وبسقوط الخلافة أصبحت المجالات مفتوحة أمام الغرب لكى يحول أمة المسلمين إلى وحدات سياسية مستقلة عن بعضها ، وتصبح من خلالها مسألة عزل الشريعة قريبة العنال . ولم يكن القبول بالأمر الواقع ممكناً بالنسبة للمسلمين دون البحث عن مخرج، فالخلافة تراث تنظيمي ارتبط بمشاعر المسلمين طوال القرون، وكان رمزا لوحدهم ودرعا لدينهم وكيانهم الدولى، وكان لإلغاء الخلافة ردود فعل قوية بين المسلمين فى عدد من الأقطار الإسلامية وفي مقدمتها الحجاز ومصر والهند [٢] .

هنا جاء دور الدعايات التى أخذ يبتها أعداء الإسلام ورواد الاستعمار الأوروبى ويدخلون بها على ناشئة المسلمين " بالشبه التى تكره إليهم الشرع الإسلامى وتحبب إليهم المروق منه، وهذا جعل ما تبغيه أوروبا من الدعاية فى هذا العصر بين المسلمين لمعرفتها أنه مادام الشرع المحمدى هو مدار العمل عند المسلمين كان هؤلاء يرون خضوعهم للأجانب ذنباً لا يغفره الله لهم إلا بالاستقلال التام وعارا عليهم لا يرضوه ألا طرد الأجنبي المتغلب من المستعمرات التى تغلب فيها عليهم. وأية مصيبة على أوربة أعظم من هذا ؟ "[٣] .

ومن جملة هذه الدعايات والدساتن قضية " فصل الدين عن السياسة " وزعم الفنة الدساسة من رواد الاستعمار وأعداء الإسلام أن أوروبا قد فصلت الدين عن السياسة بتأتا وطلقت هذه من هذا ثلاثاً وأنه لم يبق من يخط الدين بالسياسة ويجعل للحكومة صبغة دينية إلا المسلمون الذين لم ينظروا إلى ما حولهم من المحدثات العصرية التى من جعلتها جعل الدين فى ولا والسياسة فى ولا "[٤] .

[١] [٢] من أصول الفكر السياسى الإسلامى / المرجع السابق / ص ٤٩

[٣] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامى ، ص ٣٥٠ ج ٢

[٤] حاضر العالم الإسلامى ، شكيب أرسلان ، ص ٣٥١

ولقد لاحظ الأمير شكيب أرسلان خطر هذه القضية مبكراً، لذلك فهو يؤكد أن الداعين إلى فصل الدين عن السياسة لابد أن يكونوا عملاء للاستعمار الغربى وأعداء للإسلام لأن فصل الدين عن الدولة ليس مجرد بديل " غربى " عن الخلافة، بل محاولة مقصودة للحيلولة دون عودة هذه الخلافة فى يوم من الأيام، إذ لا يكفى نفى " الخلافة " من الزمن وإنما هم الغرب الأول القضاء على ما يجدد شرعيتها فى التاريخ. وهذا ما يفسر تلازم سقوط الخلافة مع تغريب الشرع.

وهذا ما دفع الأمير إلى توجيه كلمة إلى متقفي الدولة الحديثة ممن انتسبوا إلى الإسلام وتأثروا بالدعايات الغربية فدعوا إلى نهضة قومية فى البلاد الإسلامية ترفض كون القرآن أصل تشريعى للسلطة السياسية اقتداء بأوروبا التى نزعّت من حكوماتها كل صفة مسيحية فى نهضتها الحديثة فكتب الأمير مخاطباً هؤلاء :

" يقول بعض الناس ما لنا وللرجوع إلى القرآن فى أبحاث همم المسلمين إلى التعليم فإن النهضة لاينبغى أن تكون دينية بل وطنية قومية كما هى نهضة أهل أوروبا ، ونجيبهم أن المقصود هو النهضة سواء كانت وطنية أم دينية على شرط أن تتوطن بها النفوس على الخب فى حلبة العلم، ولكننا نخشى إن جردناها من دعوة القرآن أن تقضى بنا إلى الإلحاد والإباحية وعبادة الأبدان والتباع الشهوات، مما ضرره يفوت نفعه، فلا بد لنا من تربية علمية سائرة جنباً إلى جنب مع تربية دينية، وهل يظن الناس عندنا فى الشرق أن نهضة من نهضات أوروبا جرت دون تربية دينية ؟ وهل جرت نهضة اليابان دون تربية دينية ؟ " [١] . ويستدل الأمير على ارتباط أوروبا بالدين المسيحى بكلمات لبعض ساسات أوروبا الكبار، وبأن علم اللاهوت مازال يدرس فى كل جامعات أوروبا .

ثم يفسر الأمير مراد الأوروبيون من قولهم : (نهضة وطنية) أو (نهضة قومية) أو جامعة وطنية أو قومية، لا يكون مرادهم بالوطن التراب والماء والشجر والحجر، ولا بالقوم السلالة التى تتحدّر كلها من دم واحد، وإنما الوطن والقوم عندهم لقطبان كدالان على وطن وأمة بما فيهما من جغرافية وتاريخ وثقافة وحرث وعقيدة ودين وخلق وعادة مجموعاً ذلك معاً، وهذا الذى يناضلون عنه ويستبلسون كل هذا الاستبسال من أجله [٢] .

[١] ، [٢] لماذا تأخر المسلمون، شكيب أرسلان، ص ١٣٦

فالأمير لا يمل من عرض الشواهد والدلائل على كذب من زعم أن نهضة أوروبا مبنية على تقصيصها من كل نزعة مسيحية وأنها لاتعرف شيئاً إلا الأساطير العامة، وأن الدين المسيحي لاتهتم به حكومة من حكومات أوروبا أكثر مما تهتم بغيره من الأديان.

وكان الأمير ممن فهموا فظاعة الفتنة اللا دينية في تركيا وتوقعوا أنفراط عقد الإسلام عروة عروة " ولقد روج هذه الأغلوطة مصطفى كمال رئيس جمهورية أنقره لغرض في نفسه من جهة سلخ الترك تدريجياً عن العقيدة الإسلامية وصرفهم عن اللغة العربية فسار بتركيا سيرة من يجعل الدين الإسلامي أجنبياً عن الحكومة التركية كما أن الدين المسيحي هو أجنبى عن الحكومات الأوروبية الراقية.. " [١].

يرى الشيخ مصطفى صبرى أن المروجين لفصل الدين عن الدولة أحد اثنين: إما مستبطن للألحاد أو جاهل بمعنى مايقول لأن ترويج الفكرة لايتفق مع الإيمان بأن الدين منزل من عند الله عز وجل، وأن أحكامه المذكورة فى الكتاب والسنة أحكام الله تعالى بواسطة رسوله صلى الله عليه وسلم [٢]. ويؤيد ما ذكره الشيخ مآلت إليه الدولة فى تركيا من الأحوال الدينية، فلم يكن فصل الدين عن الدولة إلا مقدمة لإلغاء جميع ماتشتم منه راحة الإسلام من أوضاع الحكومة التركية، وهو ماعدهه الأمير شكيب فى حديثه عن ما أحدثه مصطفى كمال وحزبه المسمى " خلق فرقة سى " فقال عنهم أنهم أبطلوا المحاكم الشرعية بعد أن أبطلوا العمل بالشرعية وألغوا الوزارة التى كان أسماها " مشيخة الإسلام "، وحزفوا من دستور تركيا المادة التى فيها " إن الإسلام هو دين الجمهورية التركية. " وكانوا على مدة بضع سنوات أبطلوا إقامة مراسيم العيدين النحر والقطر [٣].

" وأما الكتابة التركية بالحروف العربية: فقد كان تعليلها فى ظاهر الحال تسهيل التعلم على النشء، وتقصير المدة اللازمة للقراءة ولكن الغرض الحقيقى منها أقصاء الترك عن العرب وإبطال قراءة القرآن تدريجياً وأهم من ذا وإذا إقناع أوروبا بأن تركيا قد تفرنجت تماماً وأنه صار من العدل أن تدخل فى العائلة الأوروبية ولهذا الغرض الأخير نفسه حمل مصطفى

[١] حاضر العالم الإسلامى ، شكيب أرسلان، ج ٣ ص ٢٥١

[٢] موقف العقل والعلم ، الشيخ مصطفى صبرى ج ٤ ص ٢٩٤

[٣] حاضر العالم الإسلامى ، ج ٣ ص ٣٥١

كمال الأتراك على لبس القبعة ليزدادوا إندماجاً في الأوروبيين " [١] .

ويدافع الأمير عن الشعب التركي المسلم فينفى عنه أن يكون الأتراك راضين مغتبطين بإلغاء الشريعة الإسلامية من المحاكم ورفع التعليم الديني من الكتاتيب والمدارس وإجبار النساء على السفور وخطل الإناث والذكور في دور العلم وحمل الأوتاس على الزفن مع الشبان ولبس القبعة والكتابة بالحروف اللاتينية إلى غير ذلك مما أحدثته الحكومة التركية (الأتقريه) الكماليه ويؤكد الأمير أن العقيدة الإسلامية لم تزعها حتى الآن في تركيا هذه السياسة اللادينية ولايزال الشعب التركي شديد الإعتصام بعروة الدين الوثقى تدل على ذلك مظاهره الدينية في استتبول وغيرها مما لم يخف على الأفرنج الذين أشاروا إليه في جرائدهم [٢] .

ولكن الأمير حذر من الخطر الذي يهدد إستمرار تمسك الشعب التركي بعقيدته الإسلامية إن أستمर الحكم اللاديني مدة طويلة ونشأة الأفواج الجديدة على ماهى عليه من فقد التعليم الديني [٣] .

ويرد الأمير زعم الأتقريين أن الحكومات الأوربيه قد ألغت للتعليم الديني من مدارسها، فالحكومات الكاثوليكيه بأجمعها مرتبطة أشد الارتباط بالدين الكاثوليكي، بما في ذلك الحكومة الفرنسية التى لاتوجب التعليم الديني فى المدارس الرسمية إلا أنها لاتعارضه فى غير المدارس الرسمية بل التعليم الديني مالى فرنسا بواسطة المدارس الأهلية [٤] ، فالدول الأوربيه وحكوماتها لم تقطع الصلة بالدين بل تحرص الحكومات الأوربيه دائماً أن تظهر فى كل فرصه بمظهر دينى مسيحي، ويسوق الأمير من الشواهد الكثير ليدلل على ارتباط الحكومات الأوربيه بالدين المسيحي وكنب الزاعمين بغير ذلك .

ويرى الأمير أن كل ماقلته أوربا من فصل الدين عن السياسة مجرد الفصل الإدارى كما هناك فواصل فى سائر فروع الإدارة بعضها عن بعض وأنه ليس من المعقول أن الدولة الراقية لا تكثرث لأموال الدين وهو الذى يحيا ويموت السواد الأعظم من رعاياها، فالدولة التى

[١] المرجع السابق ج ٣ ص ٣٥٢

[٢] [٣] حاضر العالم الإسلامى ج ١ ص ٣٥٣

[٤] المرجع السابق ج ٣ ص ٣٦٠

لا تهتم بأمر رعاياها الدينية تكون جاهلة معنى السياسة بالمرّة [١] .

"ومما لامشاحة فيه أن بين الديانة والسياسة فصلا اداريا بحيث كل منهما لها دوائر تختص بها . ولكن مرجع الجميع إلى الحكومة، والحال في بلاد الإسلام لا تختلف عن ذلك . فمسيخة الإسلام منفصلة عن سائر النظارات المدنية " [٢] .

"وخلاصة القول أن فصل الدين عن السياسة لم يكن معناه في أوروبا والممالك المتمتدة إهمال الدين ولاتجريد الحكومات من صبغته إذ أن الحكومات إنما هي ممثلة للشعوب فكما تكون الشعوب تكون الحكومات وما دامت شعوب أوروبا وأمريكا مسيحية فحكومات هاتين القارتين مسيحية قولاً واحداً . وما دامت أمة اليابان طاوية فحكومتها طاوية وما دامت الصين بونيه فحكومتها بونيه وما دام أهل صيام يعبدون الفيل الأبيض فحكومتهم تسجد للفيل الأبيض" [٣] .

إذا خرافة فصل الدين عن الدولة أو السياسة في أوروبا التي لا يزال تشدق بها بعض المضللين في الشرق ليس لها أصل إلا بالمعنى الإدري الذي هو جار أيضاً في بلاد الإسلام [٤] .

ومن أهم الأدلة التي يستشهد بها الأمير وتدل دلالة صارخة على تمسك الأوروبيين بالديانة المسيحية بل وتعصيم لها ؛ عضد الدولة الأوربيه للرسالات التبشيرية بالدين المسيحي [٥] مما دفع الأمير إلى أن يتساءل " فإن كانت الأديان عند الدولة الافرنسية على حد سواء فلماذا هذا الأجتهد في تنصير البربر وهم مسلمون؟ ولماذا هذه المساعي الحثيثة في تنصير العلويين سكان جبال اللاذقية وفي فصلهم عن الوحدة مع سوريا والحال أن العلويين هم فرقة من الفرق الإسلامية كما لا يخفى " [٦] .

[١] المرجع السابق ، ج ٣ ص ٣٥٧

[٢] حاضرم العالم ، شكيب أرسلان ، ج ٣ ص ٣٦٠

[٣] للمرجع السابق ، ج ٣ ص ٣٥٨

[٤] (يقول شكيب : " وقد كان في الدولة العثمانية كما يعلم كل أحد . فالصدر الأعظم كان ينظر في الأمور السياسية والإدرية خاصة وشيخ الإسلام كان ينظر في الأمور الشرعية والدينية خاصة ، وكل من المرجعين كان يعود إلى السلطان) تعليقات الأمير على ابن خلدون ص ٢٣

[٥] حاضرم العالم ، شكيب أرسلان ، ج ٣ ص ٣٥٧

[٦] لماذا تأخر المسلمون ؟ شكيب أرسلان ص ١٣٨

كما ينصح الأمير الأنجليز بالعدول عن دعايتهم الدينية في السودان والأوغانده وينصح لهولاندة بترك دعايتها الدينية بين مسلمي أندونيسيا " [١] .

وهكذا يكذب الأمير إدعاءات المضللين وعلى رأسهم حكومة تركيا الكمالية في قولهم أن الحكومات الأوربية لاسيما الراقية منها لاتعنى بأمور الديانة المسيحية، وعلان الأمير ذلك صراحة فيقول : " وحكومة تركيا الكمالية لاتصدق رعيته القول أصلاً عندما تقول لهم أن دول أوربا قد نبزت الديانة المسيحية ظهرياً ولأن رقيها المادى لم ينتهياً لها إلا بنبذ العقائد الدينية " [٢] . ويسخر الأمير من حكومة أنقره التى أعلنت كونها حكومة لادينية عملاً بمبدأ فصل الدين عن الساسه - ومعناه استقلال كل من الدين والحكومة عن الآخر ومساواتهما فى هذا الاستقلال، بالآ لا يتدخل كل منهما فى أمر الآخر وإن كانت هذه المساواه أيضاً مما لايرضاه الإسلام الذى لايرضى للكفر [٣] - وهى نفسها - أى الحكومة الأتقريه - لاتزال كل يوم تصدر أوامر وتسن قوانين متعلقة بأمور دينيه محضه من جعلتها الصلاة باللغة التركيه التى من أجلها ثارت الأفكار فى تركيا فى هذه الأيام ورفض الأكترون امتثال أوامر الحكومة بها وقالوا أنه لا بأس بأن يلقى الخطيب خطبة الجمعة بالتركى فإن الصلاة نفسها بالتركى فهى مخالفة للسنة [٤] .

ويرى الأمير أن الحكومة التركيه الكماليه تناقض نفسها بنفسها عندما تدعى الاقتداء بالحكومات الراقية فى فصل الدين عن السياسة وهى تتدخل كل يوم فى الأمور الدينية الصرفة، ويرى الأمير أنه كان من الأولى بهم انسجاماً مع مذهبهم أن يتركوا هذه الأمور لرؤساء الدين وحدهم . والحق أن تدخل الحكومة فى أمر الدين لايعد تناقضاً فى نظر الأتقريين لأنهم وضعوا الدين تحت أمر الحكومة، فمسألة الفصل بين الدين والسياسة ترمى إلى أكثر من مساواتهما فى الاستقلال وأمر " لأن السياسة التى يتولاها جانب الحكومة ويتخلل عنها جانب الدين عند الفصل التى معناها السيادة والإشراف على كل من يدخل تحت سقف البلاد، لابد أن تضع الدين تحت أمر الحكومة ونهيهام مع كل مايدخل تحت ذلك

[١] لماذا تأخر المسلمون ؟ شكيب أرسلان ص ١٣٨

[٢] حاضِر العالم ، شكيب أرسلان ج ٣ ص ٣٥٩

[٣] الشيخ مصطفى صبرى، موقف العقل ج ٤ ص ٢٩٣

[٤] حاضِر العالم ، ج ٣ ص ٣٥٩

السقف ومجرد هذا الوضع يناقى عزة الإسلام الذى يعلو ولا يعلو عليه كل المنافاة ويوجب الكفر، حتى واو فرض أن الحكومة تحترم دين الأمة دائماً وتخدمه ولا تمسه بشيء من الإضطهاد مع كونها قادرة عليه، من حيث أن سياسة البلاد بيدها لا بيد الدين" [١] .

ويقرر الأمير أنه يوجد فى أوروبا أقوام يجاهرون بعدم الاعتقاد ويناصبون الأديان وبخاصة الديانة المسيحية. ولكن هذا الجنس من الأوروبيين لا يزال قليلاً بالنسبة إلى السواد الأعظم، والأوروبيون يعلنون بأجمعهم أن ثقافتهم هى الثقافة المسيحية وأن مدنيتهم هى المدنية المسيحية وأن حكومتهم هى الحكومات التى يتألف منها ما يقال له " العالم المسيحى " [٢] . ثم يؤكد الأمير أنه ليس فى الدنيا سوى ثلاث حكومات تتأهض الدين باطنياً وظاهراً، وهى الجمهورية الحمراء الروسية والجمهورية الكمالية الأنقرية وحكومة المكسيك [٣] . ويذكر الأمير الأسباب التى دعت الحكومات الثلاث . إلى نبذ الديانة وأقامة الدول اللادينية وهى أسباب استبدادية ليس للأديان دخل فيها" وقد يكون فصل الدين عن الدولة أضر بالإسلام من غيره من الأديان لكون الإسلام لا ينحصر فى العبادات بل يعم نظره المعاملات والعقوبات وكل ما يدخل فى اختصاص المحاكم والوزارات ومجالس النواب والشيوخ فهو عبادة وشريعة وتنفيذ ودفاع، ويكون عموم نظر الإسلام هذا لكل شأن من شئون الدولة معابة عليه فى زعم المروجيين لفصل الدين عن الدولة، ومعابة تؤكد لزوم الفصل ، فى حين أن ذلك مزية للإسلام تصعده إلى سماء الرجحان بالنسبة إلى سائر الأديان، وتكون أمنع مانع لمبدأ الفصل " [٤] . وبعد أن يعدد الأمير مواقف الدول الكاثوليكية بإزاء الدين المسيحى ويثبت أنها بأجمعها على أشد ما يكون من الاعتصام به ، يقيم الأدلة من أقوال المصلح المسيحى الأشهر " كلفين " على تلازم السلطة السياسية مع السلطة الروحية لتحقيق العدالة وتنفيذ إرادة الله [٥] . لأن الحكومة العاملة بالقوانين الشرعية الإلهية تكون هى التى تراعى العدالة فى تطبيق القوانين أيضاً والتى ترى نفسها تحت مراقبة ولزاع من مخافة الله ، لا

[١] موقف العقل والعلم ج ٤ ص ٢٩٣

[٢] ، [٣] حاضر العالم ، ج ٣ ص ٣٥٨ - ٣٥٩

[٤] موقف العقل والعلم ، ج ٤ ص ٢٩٥

[٥] يقول الأمير : " هى سنة الله فى أرضه، ومادامت الأمم لا تستغنى عن الأديان ، فعلوها وحكوماتها لا تستغنى

عن الجمع بين الدين والسياسة " . ملحق ابن خلدون ص ٢٤

الحكومة التي لاتؤمن بالله ولا بقوانين، يقول (كلفين) : " إن الملك الذي لاينشد مجد الله فليس بالذى يقيم مملكة وإنما هو يقيم لصوصيه . وعلى الحاكم أن يقبل مراقبة رعاة الدين ويوطد بالاتفاق معهم نظام الدولة لا النظام المدني فقط بل النظام الدينى أيضا والنظام الأدبى والاجتماعى وعليه أن يعقب للصوص والفساق....الخ " [١] .

ومن الملاحظ هنا أن الأمير يكثر من الاستشهاد بكلام علماء وساسة الغرب، وذلك لأنه يخاطب النشء الجديد الذى أغرته دعاوى المتفرنجين حتى أن بعض النشء الجديد لايعتقدون بشيء ولا يحتفلون بأمر مالم ترو لهم فيه كلاما عن فيلسوف أوربي عظيم...." [٢] لذلك فالأمير يقيم الأدلة " من أقوال العلماء الأوربيين الذين ليسوا بمسلمين ليقال فيهم أنهم قالوا ماقلوه متأثرين بعقيدتهم التي نشأوا عليها وإنما هم من العلماء المنصفين الذين نشدوا الحق " [٣] . وهذه الطريقة سمة من سمات عصر أزمة الخلافة الذى أصبح الإعجاب فيه بكل وافد من الغرب وهما مسلطاً على الناس ، حتى احتاج الداعون بدعوة الإسلام إلى أن يضربوا للناس الأمثال بزعماء الغرب وفلاسفته ممن يحترمون دينهم .

[١] حاضر العالم ، ج ٣ ص ٢٦٤

[٢] المرجع السابق ، ج ١ ص ٤٢

[٣] المرجع السابق ، ج ١ ص ٣٧

دفاع الأمير شكيب أرسلان عن الشريعة الإسلامية

- رمى الشرع الإسلامي بالجمود لتعلقه بالمعاد و المعاش

وهذه شبهة جلاها الأمير شكيب أرسلان فيما جلا من شبهات عقلت أوهامها بعقول كثير من الناس وهى من جملة الدعايات التى يبثها أعداء الإسلام ورواد الاستعمار الغربى لصرف ناشئة المسلمين عن الشرع المحمدى بل تكره إليهم هذا الشرع وتحجب إليهم المروق منه . ونحن نعرض آراء الأمير شكيب فى مناقشتها لارتباط هذه الآراء بمذهبه فى الخلافة من حيث إيمانه بأنها جمعت بين السلطتين المالية والروحية دون أن يكون فى الجمع بينهما أى عائق لتقدم الأمة وعزتها . يقول الأمير " قرأنا وقرأ غيرنا ومازلنا نقرأ عن الخرافة التى معناها أن سبب تقهقر المسلمين هو الشريعة الإسلامية بسبب كونها أحاطت بأمور المعاد والمعاش معاً وجاءت بأحكام سرمدية لا تتغير ولا تتبدل وقضت بتطبيقها فى كل زمان ومكان بدون نظر إلى اختلاف الأزمنة والأمكنة إلى غير ذلك من الأكوابل التى منهم من يلقفها من دون رؤية ولا انعام نظر ومنهم من يعلم سرا لمسألة لكنه يتجاهل ذلك عمدا كراهية منه للإسلام وعملا لهدمه ، ومنهم من يرويه كحكاية حال ويظن أن لهذا الأمر بعض التأثير فى الحالة التى آل إليها المسلمون [١] .

[١] تعليقات الأمير على حاضر العالم الإسلامى ج ٢ ص ٢٤٢

الإستشراق والشرعة

« إن أهم أسباب الجفا ، بين الغربيين والشرقيين هو كون الإسلام جا . لهداية البشر كافة ، بحيث أتى على الوثنية في البلاد التي انتشر سلطانه فيها ، ودخل فيه من الصابئة والبعاقبة والنساطرة والمجوس واليهود وغيرهم جمهور كبير ، فخافت أوروبا النصرانية من سيطرته على ربوعها واتفق ملوكها وساستها ورجالها على حرب الإسلام وبدأت الحروب الصليبية التي دامت أكثر من قرنين ودهي بعد هذه الأحقاد والحروب والمكابد التي طالت ليالها السود وخاصة بعد أن هددت الدولة العثمانية أرجاء أوروبا زمناً طويلاً حتى دب الهرم فيها ، إلى أن يقول الخصم ما قد يحط من قدر خصمه ويصغر من أمره ، ويشكك في تراثه » ^(١) ، هذا هو ما فعله الغرب مع العرب محققاً خطته من خلال الإستشراق وغيره .

وهكذا بدأ التشكيك في مسيرته محاولاً أن يجتاح كل ما هو إسلامي فبدأ (رينان) يشكك في الإسلام مدعياً أنه عدو العلم والحضارة العقل ، وأخذ (كرومر) يشك أيضاً في الإسلام معلناً بأنه دين مناف للمدينة تصاماً وأنه لا يصلح للأعصر الحديثة مطلقاً فدعا المصريين إلى التحرر من القرآن والشرعة والدين واللغة والأدب ، وذهب (ليوتي) يشير الخصومة بين العرب والبربر ويشكك في القرآن واللغة والأحكام ، وينشئ محاكم البربر العرفية محل محاكم الشرعة الإسلامية ، واتجه (لا فيجري) يقيم المدارس التبشيرية ويحارب العربية ويدعو المغرب العربي إلى التسلك بحياته التي كان عليها قبل إسلامه . وجاء (هانوتو) فانقض على الحضارة العربية الإسلامية ، وادعى أن الإسلام دين بشري يقود الإنسان إلى التسكع والكسل والتواكل ، وذهب في تشكيكه إلى أبعد ما يمكن أن يتصوره العقل البشري فدعا أوروبا إلى القبض على القرآن وأتباعه ، وظهر (زويمر) فهاجم الفكر العربي الإسلامي بكل ما أوتى له من وسيلة .. ، وأخذ (مرجوليوس) يخطط للتشكيك في النبوة المحمدية والتراث والثقافة الإسلامية ،

واتجه (لامانس) إلى التشكيك في التراث العربي بأسره وكرس حياته كلها من أجل أن ينال من قدر العرب واللغة والقرآن ، وتخصص في دراسة صدر الإسلام لغرض هدمه .. ، وقام (جولدنزهر) بجهد جبار من أجل التشكيك في التراث العربي ، واتجه إلى التشكيك في الرسالة الإسلامية والفقه والأحاديث النبوية علاوة على تشكيكه في قيم التراث الأخرى .^(١)

ولم يقف المستشرقون عند حد ، « فهم حريصون على تجريد المسلمين والعقلية الإسلامية والفكر الإسلامي بصفة عامة من كل القيم الإنسانية والحضارية والابتكارات العلمية »^(٢) ، فالتشكيك في التراث العربي الإسلامي لم يكن إلا هجوماً صارخاً على كل ما هو عربي إسلامي ظهر فيه الاتجاه العقائدي للاستشراق في أجلي صورته التي نشرها ، مؤثراً بذلك كله في الفكر العربي الحديث وعلمانه حتى اشترك كثير من (المستغربين) من العرب والمسلمين في الخوض في تاريخ الإسلام وتشريعه كذباً وافتراءً عن سوء فهم أو سوء قصد ، وأداروا ظهورهم لمصادر الثقافة الإسلامية وهي القرآن الكريم والحديث النبوي والتاريخ الإسلامي وولوا وجوههم وأفندتهم شطر المصادر الغربية لحضارة الإسلام بدرسونها ويصدقونها ويتأثرون بها ثم يزعمون زعمها ويفترون افتراءاتها .

وهكذا اختلف الشرقيون في موقفهم من المستشرقين ، فمنهم من يعتد بهم ، ويشق فيهم ، ويرى أن لابد من الانتفاع بآثارهم ، ومنهم من يحمل عليهم أشد حملة ، ويعنف من يتأثرون بهم أو يأخذون عنهم أشد تعنيف .

ويعد (الأمير شكيب أرسلان) من زعماء الاتجاه الثاني^(٣) المناهض للفكر الغربي (الاستشراقي) فهو يقول : « وعلى كل الأحوال لا يقدر أحد أن يقول أن الشرقيين

١ - د. أحمد سمائلوفتش ، رسالة دكتوراه نولشت بالأزهر في ١٩٧٤/٩/٩ م ، بعنوان (فلسفة الاستشراق) ص ٦٨٢-٦٨٣ .

٢ - د. محمود حمدي زقزوق ، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ص ١٠٦ .

٣ - نجيب العقيقي ، المستشرقون ، ج ٣ ص ٦٠٦ ، عز الدين الأمين (نشأة النقد الأدبي الحديث بمصر) ص ١٠٣ .

لبسوا أدرى من الغربيين بآداب الشرقيين ولغات الشرقيين ، ولا يقدر أحد أن يدعى أن مرغليوس وغيره من المستشرقين يستطيعون أن يفهموا الكلام العربي أكثر من علماء العرب أهل اللسان الذي نشأوا فيه ، وأن من أحقق الحق أن يظن أن مرغليوث لكونه أفرنجياً صار يميز الشعر المصنوع على لسان الجاهلية من الشعر الجاهلي الأصلي ، وأنه صار يظهر له فيهما ما يخفي على مثل سيبويه والخليل والفراء والأخفش والمبرد وابن دريد وأبي على الفارسي وابن جني والزمخشري وأقرانهم»^(١)

ويقول الأمير شكيب : «إننا عرفنا كثيراً من هؤلاء المستشرقين بالذات وحادثناهم ونفضنا ما عندهم من علوم واسعة وآراء صائبة ونظرات دقيقة ولمحات عامة وطرق في البحث جليلة ، وأن منهم مؤلفين عظاماً ومنقبين دهاء ، ولكننا لا نتردد في القول إننا لم نجد منهم واحداً - إذا رجعت المسألة إلى العربية - نقدر أن نعهده عالماً وأن نقرنه إلى علماء هذه الأمة الحاضرين فضلاً عن الغابرين . وأتذكر أنني لقيت أشهرهم وسمعت منهم الخطأ في العربي ولكننا نظراً لكونهم أجانب عن اللسان نرى قليلهم كثيراً ونغضى على ضعفهم بما يعجبنا من عنايتهم بلساننا وآدابنا»^(٢)

وعرض الأمير منهج الأوروبيين في الدراسات الشرقية فيقول : «إنهم ببالغون في القليل ويريدون أن يجدوا لكل حادثة أسباباً غريبة وعللاً لا تخطر على البال .. ولا يزالون يغريون في إيراد الأسباب ويتنوعون في التخرصات والتكهنات ما شاءت خيالاتهم وما طالت تصوراتهم .. فإذا عثروا على حكاية شاردة أو نكتة فاردة في زاوية كتاب قد يكون محرفاً سقطوا عليها نهافت الذباب على الحلواء وجعلوها معياراً ومقياساً ، بل صيروها محكاً يعرضون عليها سائر الحوادث ويففلون أو يتغافلون عن الأحوال الخاصة والأسباب المستثناة واقتضاها الزمان والمكان»^(٣)

«وترى الأفرنجي مع ذلك لا ينظر إلى نزورة معلوماته في الموضوع الذي يطمع أن يحمره ولا إلى قلة بضاعته منه بل يهجم عليه هجوم من قتله عالماً وبقره اطلاعاً ، وتراه

١ - شكيب أرسلان ، مقدمة النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي لمحمد أحمد الفارابي ، ص ٥ - ٦ .

٢/٢ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق ، ص ٢ - ٣ .

لا يروى خبراً إلا جعل له توجيهها زعم أنه الواقع» (١١)

ويرد الأمير كل هذا التهور في تناول الدراسات الشرقية عند الغربيين إلى عداوة الغربي للشرقي «ويرجع كل هذا التهور إلى قلة الاطلاع من الأصل وهذا إذا لم يشب ذلك سوء قصد لأن الغربي لم يبرح عدواً للشرقي ورفيقاً له» (١٢)

ويرى شكيب أن أمثلة ذلك من كتابات المستشرقين أكثر من أن تحصى «فلا يكاد يوجد منها كتاب إلا وهو مشحون خلطاً وخبثاً ، مهما يكن من رفعة قدر مؤلفه ومن شهرته في العلم ، وأن الصحيح النادر منها هو الذي خلطه قليل بالقياس إلى غيره» (١٣)

«حتى أن (رنان) نفسه وهو من أكبر فلاسفتهم ومن أعلمهم بعلوم الشرق وبلغات الشرق وفلسفة الشرق ، وقد زار بنفسه الشرق وأقام بسورية مدة طويلة تجد له خلطاً عجيباً عن الشرق وأحكاماً خيالية ، وقد وجد من رد عليه وأثبت خلطه ونشر رده باللغة الفرنسية ، ولكن شهرة رنان العظيمة غطت على تلك الفضائح» (١٤)

ويؤكد الأمير شكيب أن من الغربيين من لم يتعلم العربية إلا على أمل أن يتتبع العورات ويحفظ المثالب ويتخذ من أعمالنا حجة علينا مثل الأب (لامنس) اليسوعي ، ومثله الدكتور (هارتمان) الألماني ، وقد عرفهما الأمير شكيب ورأى أن مثل هؤلاء لا ينبغي أن يسمع كلامهم في تاريخ العرب والعربية فضلاً عن أن يؤخذ به حجة. (١٥)

ويحدد الأمير أسباب أزمة المسلمين فيرى أنها ناتجة عن العرض الذي أصابهم : مرض تلقي أقوال الأوروبيين قضايا مسلمة حتى فيما يهرفون فيه بدون معرفة ، ومن هنا نشأ التشبث الذي تتخبطه لأن حقائقنا انقلبت ضلالات بلا سؤال ، وضلالات الأفرنج

١ - شكيب أرسلان . المرجع السابق ، ص ز - به .

٢ - شكيب أرسلان . المرجع السابق .

٣ - شكيب أرسلان . المرجع السابق .

تلقيت حقاني بلا جدال . (١)

كما نبه شكيب أرسلان العلماء والمفكرين من أهل الإسلام لمقاومة دسائس الجمعيات التبشيرية المنبثة في جميع الأقطار الإسلامية تحت أشكال متنوعة ، وكتب يفند مزاعم المستشرق (زويمر) الذي كان من رأيه في طريقة التبشير عدم مجادلة المسلمين بالبراهين العقلية - حيث يعلم أن قلعته ثمينة - بل الدخول عليهم من الجهة القلبية باستجلاب عواطفهم فقال : « ونحن نجواب المستر (زويمر) وأمثاله ممن فيهم من هو مقتنع بعمله مبتغ رجه الله في جهده ، إنه إذا كان المقصود دعوة الإسلام إلى الإنجيل فالمسلمون يؤمنون بالإنجيل الشريف ورسالة المسيح صلوات الله عليه وسلامه ، وإن كانت الدعوة إلى الإنجيل في الظاهر والسيطرة الأوروبية في الباطن فهذا حلم من أحلام المبشرين ، إذ لابد للإسلام أن يستعصي على هذه الدعوة ويقف في وجهها سداً منيعاً ، وإن كان مقصد هؤلاء المبشرين هو خلاص النفوس والاشفاق من هربها في النار الحاطمة ، والعياذ بالله .

فالأولى بهم أن يذهبوا إلى الوثنيين الذين هم أكثر من المسلمين عدداً في الدنيا ، وأحوج إلى الإرشاد ، بل أن يهدوا الملايين العديدة من أنفس المسيحيين الذين نبذوا الدين ظهرياً ودانوا بالتعطيل والإلحاد وأخذوا يحاربون الكنيسة » (٢)

ويختم شكيب رده على المستشرق (زويمر) المشهور بعداوته للإسلام ، بقوله : « فعلى الإنسان أن يدبر بيته قبل أن يعد يده لتدبير بيت جاره ، أما المسلمون فلا حاجة إلى تبشيرهم لأنهم يعبدون الإله الحق ولا يشركون به أحداً ، ولأن شريعتهم ملائمة بالفضائل والآداب ومكارم الأخلاق وإقامة ميزان (العدل) حتى مع العدو ، وتحث على العلم والإنسانية والحضارة وإغاثة الملهوف وحب القريب ، وعند اللزوم تدفد الدموع أيضاً على اليائسين » (٣)

١ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق .

٢/٣ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ص ٢٨٢ .

ولما كانت الشريعة الإسلامية هي الغاية الكبرى من الإسلام فقد كان لابد للاستشراق من توجيه الشبهات إليها ، ومحاولة البحث عن تناقضات يستطيع من خلالها أن يصل إلى هواء ، وهو محاربة الشريعة الإسلامية التي تزرع في قلوب المسلمين روح الإستقلال»^(١)

«وقد وضع حقد المستشرقين على الشريعة الإسلامية فيما كتبه كوفن وزينان وجولد زيهير ومرجليوش ولامنس ، وقد حاولوا إيهام المسلمين بأن الشريعة الإسلامية سبب تأخرهم وأنها عائق في سبيل تقدمهم ونهوضهم ، وأثاروا الشبهات حول نصوصها وعرضوا لما أسماه (تطور الشريعة) بتطور العصر وغير ذلك من المحاولات الباطلة التي عرفت عن الشرائع الوضعية التي تحتاج في كل عصر إلى تغيير مع روح العصر بينما الشريعة الإسلامية شريعة ربانية منزلة قد وضعها الشارع الأكبر محققة لقيام مجتمع الأمن والسكينة ، وجعلها ذات أطر واسعة وافية وقادرة على تقبل تغيرات العصور والبيئات ، وهي من أجل ذلك لا تحتاج إلى تطور لأن أسسها الثابتة راسخة البنيان ثم هي راسخة قادرة بعد ذلك على تقبل المتغيرات»^(٢)

وقد مر بنا كيف تصدى شكيب أرسلان لشبهة الفصل بين الدين والدولة ، وهي من الدعاوي التي أثارها الاستشراق لمحاولة تصوير الإسلام على هيئة المسيحية الغربية دين عبادي لا صلة له بنظم المجتمع ، ولقد كانت محاولة فصل الدين عن الدولة هي إحدى محاولات النفوذ الغربي الذي فرض على المجتمعات الإسلامية استعمال القانون الوضعي .

ويرى شكيب أن أوروبا تعرف أنه مادام الشرع المحمدي هو مدار العمل عند المسلمين كان هؤلاء يرون خضوعهم للأجانب ذنباً لا يغفره الله لهم إلا بالاستقلال التام وعاراً لا يدحضه إلا طرد الأجنبي المتغلب من المستعمرات التي غلب عليها ، وأية

١ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق ج ٣ ص ٣٣٩ .

٢ - أنور الجندي ، محاولة لبنا منهج إسلامي متكامل ، مج ٥ ص ١٩٠ .

مصيبة على أوروية أعظم من هذه .^(١)

لذلك حاول الإستشراق رمي الشرع الإسلامي بالجمود لجمعه بين السلطين
المادية والدينية ، ويعدم قدرته على مسايرة العصر ، وكانت من أخطر مجادلاتهم
الإدعاء بأن الشريعة الإسلامية مأخوذة من القانون الروماني .

ولقد تصدى الأمير شكيب أرسلان لكل هذه التخريصات وبين بطلانها وكذب ما
ذهب إليه المستشرقون ومن تأثر بهم وأيدهم من المتفرنجين .

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي (مرجع سابق) ج ٢ ص ٣٥ .

حزب المتفرنجين

ويقصد بهم أولئك (المسلمين الجغرافيين) الذين وافقوا الأوربيين على مزاعمهم - وفي طليعتهم الأتراك الأنقريون شعبة مصطفى كمال ومقلدوهم من أهل مصر - " فذهبوا إلى أن تأخر الممالك الإسلامية وتأخر تركيا إنما جاء عن إختلاط أمور الدين بالدنيا وعن عمل المسلمين بشرع سماوى أرادوا أن ينفذوه مفردا وأن يجعلوه سرمدا وأن يردوا إليه كل شئ ولهذا كان لامندوح للأمم الإسلامية بزعمهم إذا أرادت الرقى فى معارج الفلاح من أن تنبذ هذه الشريعة القديمة البالية التى أصبحت لا تصلح لعصر كعصرنا هذا ولا مفر لها من الأخذ بشرائع وقوانين إنما صلحت لهذا العصر لكونها وضعت بهذا العصر " [١] . ثم يسخر الأمير شكيب من كلمة هؤلاء المتفرنجين : " نحن لانريد شرعا فيه قال وقالوا ولكن شرعا فيه قلنا ونقول " [٢] . ويبين فساد هذا القول وبعده عن حقائق الأمور لأنه " ليس فى الدنيا شرع ولا قانون يخلوا من " قال " و " قالوا " ولا يستقى فى منابعه الى قواعد وأوضاع وأقوال سبقت منذ منين من وربما من آلاف من السنين " [٣] . ويقرر الأمير أن الهدف الحقيقى الذى سعى إليه هؤلاء المنتسبون الى الإسلام لم يكن فى مساواة العصر الحالى كما زعموا بل " ما أرادوا الا " التفرنج " لاغير " [٤] . ويقارن الأمير شكيب بين حال تركيا الإسلامية عندما كانت تعمل بمجلة الأحكام المحلية فى المعاملات المدنية [٥] ، وحال الأتراك عندما أخذوا بقانون سويسرا المدنى وقانون الجزاء الإيطالى البعيد عن عقليتهم وذوقهم ومنازعهم ومشاربهم ولم يستفيدوا من هذه القوانين شيئا إلا التحيز فى القضاء والصعوبة فى التطبيق حتى اضطروا فيما بعد لتعديلات كثيرة فى هذه القوانين؛ مما يثبت أن الذى قصده مصطفى كمال ورهطه لم يكن سوى مجرد التفرنج وأن تفهم أوروبا أنهم هم نبذوا التقاليد الإسلامية ورموا بالشريعة القرآنية عرض الحائط وأقاموا مقامها قوانين أوربية .

[١] ، [٢] ، [٣] ، [٤] ، [٥] تعليقات الأمير على حاضر معالم الإسلامى ، ج ٣ ص ٣٤٣ وما بعدها

[٥] أواخر القرن الهجرى الثالث عشر جمعت الحكومة العثمانية طائفة من كبار علمائها (مكذبا بالأصل ونصحيح الثالث عشر) وكلفتهم وضع قانون فى المعاملات المدنية تكون مأجده الفقه الإسلامى ونو من غير المذاهب المعروفة حتى كان الحكم المأخوذ يتمشى وروح العصر . وقد اجتمع هؤلاء العلماء وسنوا القانون الذى سمي (مجلة الأحكام العدليه) فى سنة ١٢٨٦ هـ وصدر الأمر بالعمل به فى سنة ١٢٩٢ هـ . عن (خلاصة تاريخ التشريع الإسلامى) عبد الوهاب خلاف - ص ١٠٣

وليس أدل على هذا من أن القانون المدني السويسرى الذى أتخذته تركيا لنفسها يتضمن أصولاً وقواعد ترجع إلى التشريع الرومانى القديم فهى أقدم عهداً من الفقه الإسلامى الذى يزعم مصطفى كمال أنه ألغاه بسبب توغله فى القدم . "وأما قانون العقوبات الإيطالى الذى أتخذته تركيا لنفسها أيضاً فهو قانون رومانى مسيحى وإيطالى كاثولىكى وفيه من الأوضاع اللاتينية القديمة والأعراف المسيحية الموروثة ما لا ينكره إلا المكابر" [١] . وهكذا يخلص الأمير شكيب إلى الحقيقة التى ينبغى أن تراعى عند اختيار القوانين وهى ألا تكون موافقة للزمان فقط بل للمكان أيضاً .

علاقة الدين بالسياسة فى حضارة الغرب

"ليس فى أوروبا قانون غير متأثر بالتعليم المسيحى والتشريع الرومانى وعليه يكون من الخطأ البين الاعتقاد بأن القوانين الأوربية هى كلها من باب التشريع الإنسانى الصنف وأنه لامدخل فيها للمبادئ الدينية ويكون تحكماً بالقول بأن الشريعة الإسلامية وحدها هى التى جمعت بين أحكام الدنيا والآخرة" [٢] . وهذه حقيقة يقررها الأمير وهى أن جميع الشرائع الإنسانية راجعة إلى أصول دينية وليس الشرع الإسلامى وحده بدءاً فى ذلك أما الإضافات والزيادات التى وضعها البشر فى اجتهادات معلقة على الأصول الدينية، ويستوى فى هذه الحقيقة أتباع الأديان السماوية وغيرهم من أصحاب الأديان الأخرى كديانة سيوا التى هى عقيدة أهل الهند وديانة بوذا التى هى عقيدة أهل الصين ؛ يقول الأمير "ومن طالع الشرائع الإنسانية عرف أنها بأجمعها سماوية بشرية أى أنها راجعة إلى أصول دينية واجتهادات بشرية معلقة عليها" [٣] وهذه الأصول الدينية هى التى تكسب الشرائع قدسيتها واحترامها من من قبل الناس ؛ وهو ما أشار إليه ابن خلدون نقلاً عن أحد الفلاسفة بأنه لابد للبشر من الحكم

[١] . [٢] . [٣] تعليقات الأمير على حاضر العالم الإسلامى ، ج ٣ ص ٣٤٥ ، ٣٤٦

الحكم الوازع ؛ وذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله يأتي به واحد من البشر ؛ و أنه لا بد أن يكون متميزاً عنهم بما يودع الله فيه من خواص هدايته ليقع التسليم له و القبول منه ؛ حتى يتم الحكم فيهم و عليهم من غير انكار و لا تزييف .." [١] .

ومن الشبهات التي يردها الأمير أن الإنجيل لم يتعرض لأمر الدنيا فيثبت أنها دعوة غير صحيحة فالإنجيل " ليس كتاب تشريع وإنما هو كتاب مواعظ وأداب أراد بها السيد المسيح صلوات الله عليه تهذيب النفوس وتطهير الأخلاق وإعادة الخلق الى روح الشريعة الموسوية فلم يرد الأتيان بشرع جديد لكنه نيه على وجوب اتباع الشرع القديم فالعهد الجديد إكمال للعهد القديم لانقضاء له كما صرح بذلك المسيح نفسه، فيكون الإنجيل أيضاً لم يخرج عن الشرع السماوي" [٢] .

وهكذا يخرج الأمير بحقيقة مؤكدة أن " الشرائع كلها راجعة إلى أصل سماوي ولكن قد فرغ الناس منها بقدر الاستطاعة وبحسب إحتياجهم وبعد التجارب المتعددة ومع مراعاة الأزمنة والأمكنة وأخذ بعض الناس في هذا عن بعض فكل قبيل قلد قبيلاً فيما هو موافق لحاله ونبذ ما هو غير موافق لحاله وجميع المشترعين إنما يقصدون الرفق بالعباد وحياطة الحق ما أمكن ويرمون الى غرض واحد هو مصلحة الأمة " [٣] .

[١] (٣) مقدمة ابن خلدون، مج ١ ص ٧٢

[٢] كما ذكر ابن خلدون ج ١ ص ٣٤٥ ، ولبلقاني رأى أخر ذكره في كتاب (التمهيد) يرى فيه أن الخلافة لا تصح

إلا في قریش - نظام الخلافة ، د. مصطفى حلمي ص ٤٧٠

[٣] رواه أحمد ٢٧٣/٤ وذكره ناصر الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ج ١ ص ٨ .

دفاع الأمير شكيب عن استقلال الشرع الإسلامي وأصالته منبته

عمل بعض المستشرقين على التشكيك بقيمة التشريع الإسلامي ، ذلك التشريع الهائل الذي لم يجتمع مثله لجميع الأمم في جميع العصور ، لقد سقط في أيديهم حين إطلاعهم على عظمته وهم لا يؤمنون بنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فزعموا أن فقهاء الإسلام بلغوا من الإحاطة بالنوازل البشرية وتبيين وجوه أحكامها ما بلغوه بما أخذوه عن الفقه الروماني ، وقد بين الأمير شكيب أرسلان تهافت هذه الدعوى ، وقال : إن كل من زعم أن الفقه الإسلامي مأخوذ من الفقه الروماني لا يكون أطلع على شيء من تاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه ولا التابعين .^(١)

ومن بين الغربيين الذين أكدوا هذا الزعم الميسو «غودفروادومومبيين» صاحب «تاريخ العالم» الذي يقول في موضوع ثورة إلعجم على العرب بعد استقرار الإسلام وإلقائه بجرانه على بلاد الأعاجم : «إن العرب كانوا يرون أنفسهم أعلى درجة من الأمم التي دانت بدينهم ، ولذلك نجد الإسلام نفسه ميز المسلم في القصاص على الذي ، كما كان الشأن في رومة بالنسبة للبرابرة ، وأما في القضايا المدنية ، فقد كانت أمور أهل الذمة عائدة للقضاة الذين يوليهم الخلفاء ، وهكذا دخلت أمور أهل الذمة في المحاكم الإسلامية ومن هنا كان تأثير القانون الروماني في التشريع الإسلامي دخل شيئاً فشيئاً»^(٢)

ويلق الأمير شكيب أرسلان على هذا النص بقوله : «إن هذه المسألة مما رهم فيه «دومومبيين» كغيره من مؤلفي الأفرنج الذين لم يقدروا أن يتتبعوا سير التشريع الإسلامي وكيفية استنباط الفقهاء للأحكام من الكتاب والسنة ، والإجماع والقياس ، فظنوا خطأ أن مأخذ التشريع الإسلامي من القانون الروماني»^(٣)

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٢ ص ٣٤٦-٣٤٨ .

٢ - المرجع السابق ج ١ ص ١٧١ .

٣ - المرجع السابق نفسه .

وستشهد الأمير شكيب في إبطال هذا الإدعاء ، بشهادة أخصائي (مسيحي) هو (صاوا باشا) الرومي من علماء الحقوق في أيام الدولة العثمانية ، والذي ألف كتاباً بالفرنسية سماه : « نظرية الحقوق في الإسلام » ^(١) تناول فيه بالبحث مسألة أخذ التشريع الإسلامي من القانون الروماني ، وينقل « شكيب » عن المؤلف - أعني صاوا باشا - « أنه كان يعتقد هذا الاعتقاد نظير غيره ، وبني ذلك على ما يعرف من كون بني أمية لبشوا في الشام مدة طويلة يعملون بالأحكام التي كانت باقية من أيام الرومانيين ، فلا عجب في أن يكون هو وغيره قد توهّموا أخذ قسم المعاملات في الشريعة الإسلامية من القانون الروماني الذي كان به العمل في سورية ، إلا أنه أحب أن يدرس هذا الموضوع درساً دقيقاً ، ويتعرف كيفية نشوء التشريع في الإسلام فاستجد بعض علماء أصول الفقه من الأتراك وقرأ الفقه الحنفي جيداً وذكر الكتب التي راجعها أو طالعها ، وتجرّد لمعرفة الأمر مدة طويلة ، فوجد هذا الذي معناه أن التشريع الإسلامي مأخوذ من القانون الروماني رأياً ضعيفاً أشبه بأن يكون خيالاً من أن يكون حقيقة » ^(٢)

ويعرض (صاوا باشا) في كتابه المقدمات التي بنى عليها العلماء الأوربيون اعتقادهم بأن تشريع فقهاء الإسلام الذين بدأوا التشريع في أيام الخلفاء العباسيين الأوائل إنما هو مجموعة أحكام تضاهي ما كان جارياً به العمل في سورية قبل الفتح الإسلامي . ويرى أن الأسباب التي حملت على هذا الظن معقولة إلا أن الحقيقة هي غير ما فكروا به في أوروبا .

ويكفي أن ينظر الإنسان إلى هذه المسألة نظر المدقق ويتابع سير الشريعة الإسلامية في تقدمها وفي أطوارها حتى يعلم (استقلال الشرع الإسلامي وأصالته منبعه) وأن هذا ليس من ذاك . ^(٣)

« ولا شك أن لكل تشريع منبعاً مختلفاً عن الآخر ، ففقه (يوستينيانوس) ^(٤) هو

١ - ٢/٢ - حاضر العالم الإسلامي (مرجع سابق) ج ١ ص ١٧١-١٧٤ .

٢ - نسبة إلى الإمبراطور الروماني (يوستينيانوس) .

عمل مبني على العقل السليم البشري ، وقد اصطبغ بالصبغة المسيحية ، وأما فقه الإمام الأعظم فهو مبني على كتاب الله (القرآن) وسنة الرسول . ولن ترى في الفقه الإسلامي حكماً واحداً غير مدعّم على هذا أو هذه . فاختلاف المنبعين لاربع فيه يظهر لكل من درس تاريخ فقه يوستينيانوس وفقه أبي حنيفة»^(١)

ولم يكتف هذا المؤلف الصدوق - أعني صاوا باشا الرومي - بهذا بل دخل الموضوع كما قال الأمير شكيب أرسلان : «وأورد خلاصة اجتهاد الإمام أبي حنيفة وأصحابه أبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني وزفر ثم من بعدهم من الأئمة ولخص تاريخ التشريع الإسلامي . وبين مآخذ كلها . وأثبت فلسفة الفقه الإسلامي المعبر عنه بعلم الأصول وقال إنني أدعو من بهمه هذا الموضوع أن لا يحكم فيه قبل أن يطالع هذا التاريخ المتسلسل للفقه الإسلامي مطالعة كافية»^(٢)

ويعلق الأمير شكيب أرسلان على كتاب (نظرية الحقوق في الإسلام) هذا فيقول : «وكتاب (صاوا باشا) هو أحسن كتاب قرأته بلغة أوروبية في هذا الموضوع ، والفرق بينه وبين غيره من المؤلفين أنه يبني حكمه على أدلة وبراهين ووثائق ونصوص وحقائق تاريخية وأن أولئك يبنون على ظنون وتخمينات ، وعلى نظر من جهة واحدة ، وعلى قولهم : لا بد أن يكون كذا ، وهناك أسباب تدعو إلى الظن بأنه كذا وكذا ، ومن يدري فقد يكون كذا وكذا . وهذه أشياء لا تصح أن تكون مداراً للأحكام ، ولا يقال لها (تمحيص) وإنما يقال لها (تخمين) . وما أصدق الآية الكريمة : «إن الظن لا يغني من الحق شيئا»^(٣)»^(٤)

١ - المرجع السابق ص ١٧٣ .

٢ - المرجع السابق نفسه ، ويقول الشيخ مصطفى صبري في تعليقه على شهادة (صاوا باشا) هذه : «ولعل احتفاظ صاوا باشا الرومي بدينه وقع احتفاظاً من الله بقيمة شهادته الغالية للتشريع الإسلامي . وهو مع هذا أقرب إلى الإسلام بكثير من المسلمين الذين قللوا الأوروبيين في إثارة الشبهة ضد هذا التشريع باحتمال كونه مأخوذاً من القانون الروماني . والله لا يضيع أجر المحسنين» (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين . ج ١ ص ٢٩٩ هامش) .

٣ - سورة يونس . آية ٣٦ .

٤ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي (مرجع سابق) ج ١ ص ١٧٣ .

وهكذا يرى الأمير شكيب أرسلان في شهادة هذا الباحث المسيحي المدقق (صاوا باشا) شهادة قيمة وعبرة عظيمة لأولي الأبصار ، وضربة قاضية على المرجفين في هذه المسألة ممن لا خبرة لهم بعلمي الفقه وأصول الفقه الإسلاميين ، ومن العجب أن الذين كتبوا فيها من المسلمين تقليداً للأوربيين ما قرأوا الفقه ولا أصول الفقه بقدر ما قرأ صاوا باشا المسيحي العثماني ^(١) ، ولعل فيما قرره مؤتمر القانون المقارن المنعقد في لاهاي من أن الفقه الإسلامي فقه مستقل بذاته ، وليس مستحداً من أي فقه آخر ^(٢) وفي اعتراف المؤتمر الدولي للقانون المقارن بنفاة الشرع الإسلامي وغزارة ثروة مذاهبه القانونية ، وتلبية حاجات العصر ، وتوضيحه المؤتمر بعقد حلقة للشرع الإسلامي في كل سنة ، وتأليف لجنة لوضع معجم له ييسر تصنيف دائرة معارف فيه (باريس ، يوليو ١٩٥١) ^(٣) ، ما يفحم المتعنتين منهم ، ويقنع المنصفين الذين لا يبغيون غير الحق سيلاً .

ويرى (شكيب أرسلان) أن الشرع الإسلامي هو شرع سماوي باعتبار الأصل وتشريع إنساني باعتبار الإجتهد والتفريع ^(٤) ، وأئمة الإسلام إنما فرعوا على أصليين هما القرآن والحديث ولكنهم أضافوا إليهما الإجماع والقياس فتوسعوا في الفقه ما ندر أن يكون تيسر لغيرهم ^(٥) ، ويحذر الأمير شكيب أرسلان من الخلط في هذه المسألة فما يسميه المسلمون (بالإجتهد) - والذي بلغوا فيه ما لم تبلغه أمة قبلهم ولا بعدهم ^(٦) - لا يشكك في مدى نسبة التشريع الإسلامي إلى الإسلام الأصيل كدين مرجعه القرآن والسنة .

١ - الشيخ مصطفى صبري ، مؤلف العقل ، (مرجع سابق) ج ٤ ص ٣٠٠ .

٢ - د . مصطفى الباصي ، الاستشراق والاستشراقون ما لهم وما عليهم ، ص ٢٢ .

٣ - نجيب العقيلي ، المستشرقون ، ج ٣ ص ٥٥٩ .

٤ / ٥ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٣ ص ٣٤٣-٣٤٨ .

ـ الاجتهاد لا ينفي الطابع الإسلامى للتشريع

يقول الامير : " لم يكن الدين الاسلامى وحده هو الذى يرجع إلى وحى سماوى بل جميع الشرائع قد بنيت على أصول دينية أو تأثرت بها ". وقد فرق الأمير هذه الأصول الدينية إلى قسمين عبادات ومعاملات " فقسم العبادات متعلق بالبارى تعالى الأزلى الأبدى الذى لا يتغير فلم يكن من شأن عبادته أن تتغير ولا كان دين من الأديان ولا الدين المسيحى مما جرت العادة أن تتغير أصوله بحسب المكان والزمان " [١] .

" وأما قسم المعاملات فهو وإن كانت له أصول من القرآن والسنة فقد كان فيه مجال الاجتهاد واسعا وكانت مصلحة الأمة هى المحور الذى يدور عليه ذلك الاجتهاد. وأينما تكون المصلحة فثم دين الله " [٢] .

وهذا القسم الثانى يشمل نظام الإدارة والقضاء والسياسة والجبابة وتدبير الحرب معاً دخل للتعبد والزلفى إلى الله فى فروعه بعد حسن النية فيه — فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم فى زمنه مشترعا فيه باجتهاده مأموراً من الله بمشاورة الأمة فيه [٣] .

ثم يفصل الأمير القول فى مسألة الاجتهاد ، فيبين أن الاجتهاد لا يكون مع وجود النص من الكتاب والسنة ، فإن لم يجد المسلمون النص من الكتاب والسنة ، عملوا بالقياس مع اشتراط بلوغ المجتهد مرتبة فى العلم يصح معها اعطاء الراى " وهذا لا يقدر أحد أن يقول فيه شيئاً لأن الاجتهاد له شروط لا يصح بدونها . وليس لكل إنسان أن يجتهد وأن يستتبط أحكاماً شرعية . وهذه رتبة عالية جداً لا يرقاها إلا من أحاطوا بالكتاب والسنة ووصلوا إلى الأمد الأقصى من الرواية والدراية ثم عرفوا من أحوال المجتمع البشرى ماتتجلى لهم به وجه المصالح ويظهر مكان سد الذريعة " [٤] .

وقد يزعم الطاعنون فى الشرع الإسلامى أن الشروط التى وضعها علماء الإسلام ليصح الاجتهاد شروط دقيقة ومبالغ فيها مما يقف فى وجه حرية الراى والعمل به ويزرد الأمير

[١] . [٢] شكيب أرسلان . حاضر العالم الإسلامى ج ٣ ص ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩

[٣] الخلافة ، الشيخ محمد رشيد رضا ، ص ١٠٣

[٤] حاضر العالم الإسلامى ج ٣ مج ٢ ص ٣٤٩

الأمير هذا الزعم فعلماء الإسلام لم يمنعوا العمل بالرأى لافى القديم ولا فى الحديث ؛ وغاية منافى الأمر أنهم اشتراطوا فى الرأى بلوغ مرتبة من العلم يصح بها اعطاء الرأى " وأما الرأى فى نفسه لمن قدر عليه فلم يمنعه أحد وكل رأى اتفقت عليه الأمة اجازوه وقالوا إن الأمة لا تتفق إلا على صواب واستدلوا على جواز العمل برأى الأمة بقوله تعالى : " وأمرهم شورى بينهم " [١] .

صلاحية الشرع الإسلامى لكل زمان و مكان و واجب علماء المسلمين

يرى الأمير شكيب أن هجوم أعداء الإسلام على الشريعة الإسلامية ، واتهامهم إياها بالجمود وبأنها لا تتلوى مع الوقت وبأنها لاتسع جميع الحوادث وبأنها قد تخالف المصلحة وقد يضطر المسلمون إلى ترك المصلحة من أجلها وغير ذلك مما ترمى به الشريعة ظلماً وعدواناً [٢] ؛ إنما يعود كل هذا الهجوم لسببين أساسيين ؛ أولهما : الجهل بالشرع الإسلامى ومزونه التى تجعله مناسباً لجميع الأمكنة والأزمنة ، سواء أكان للجهل ناتجاً عن عدم إدراك الطاعنين لجوهر الإسلام أو كان ناتجاً عن عدم رغبتهم فى الإدراك وتعتنهم . والسبب الثانى يرجع لتقصير علماء المسلمين فى بيان حقيقة الإسلام وجمودهم وعدم قدرتهم على الدفاع عنه بما تقتضيه حالة هذا العصر .

" فمن نظر إلى الكليات الفقهية مثل قولهم : العرف بإراض والعادة محكمة ولا ينكر تبدل الأحكام بتبدل الأزمان والضرورات تبيح المحظورات ، وإذا ضايق الأمر اتسع ومارآه المسلمون حسناً فهو حسن وعلم أن المذاهب الأربعة الحنفى والشافعى والمالكى والحنبلى قد أجازت العمل بالمصلحة المرسله أدرك من مرونة الشرع الإسلامى ومن سعة مذاهبه ومن تنزله على كل الحوادث ومن مناسبتها لجميع الأمكنة والأزمنة ما لا يدركه الجاهل ولا يريد أن يدركه المتعنت " [٣] .

[١] المرجع السابق ج ٣ ص ٢ ص ٢٤٩

[٢] حاضر العالم الإسلامى ج ٣ ص ٢ ص ٢٤٨

[٣] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامى ج ٣ ص ٢ ص ٢٤٨ ، ٣٥٠

ولاشك أن جمود بعض فقهاء شرع الإسلام وشدة تعصبهم لكل شيء قد سبق العمل به وشدة نفورهم من كل أمر يحدث ولو لم يكن فيه منافاة للشرع وعدم اجازتهم العمل إلا بما علموه ولو كانت المصلحة المتعينة تقتضى خلافه وتهافتهم على الجزم بحرمة ما لم تثبت حرمته برغم ماورد من التشديد والتكمير على كل من يقول بالحلال والحرام بغير علم كل هذا قد اتخذته أعداء الإسلام حجة على الشريعة الإسلامية" [١] .

ثم يرد الأمير حجج الطاعين في الإسلام مؤكداً حقيقة (إن الشريعة الإسلامية لا يمكن أن تخالف المصلحة) [٢] وذلك لأن الشريعة جاءت لمصالح العباد والله لا يشرع لهم إلا ما ييسر أمورهم ولا يجعل عليهم في الدين من حرج ، هذا إذا كانت المصلحة حقيقية لا يمكن أن تخالف الشريعة وما يقال أنه مخالف منها للشريعة فغير معترف بكونه مصلحة ، " فإن تعيين المصلحة ليس بالأمر السهل وقد يظن بعضهم المصلحة في شيء يظن غيرهم أنها في خلافه لاختلاف الذوق وقد يجمع أكثر الأمم على اصطلاحات وعادات هي في الواقع مخالفة للمصلحة مثل اجماعهم على الربا الذي مهما يكن من عمل العالم المتمدن به فليس هو من المصلحة الحقيقية فلا يجوز أن يقال إن تحريم الشرع إياه مخالف للمصلحة وأما المصلحة الحقيقية فلا يمكن أن يأتي الشرع بضدها " [٣] .

وبناء على القاعدة السابقة ينطلق الأمير في رده على من قد يقول إن حرية الرأي في الفقه الإسلامي مقيدة بالكتاب والسنة ، بمعنى أن الرأي لا يصح إلا إذا كان ضمن دائرة الإسلام ولم يصادم الكتاب والسنة ، ويعجب الأمير ممن يقول مثل هذا لأن قائله يفترض أن القضاء لا يكون موافقاً للمدنية العصرية إلا إذا كان غير مقيد بالكتاب والسنة ، والأمير يرى أن هذا الإقلاّب ليس بضروري أصلاً إذا كان الكتاب و السنة لا يأمران بالإمافيه المسلحة ولا يحملان الناس على ما فيه ضرر لهم [٤] .

تعقيب :

الدين الإسلامى هو الرسالة الخاتمة ، ولقد جاء الرسول صلى الله عليه وسلم بتشريعات ربانية واجب كل الوجوب التحاكم إليها كما بين الله تعالى فى القرآن الكريم المهمة التشريعية للكتب السماوية وعلاقتها ببعضها ووجوب الحكم بما فيها وعواقب الإعراض عنها وهيمة القرآن عليها . قال تعالى فى سورة المائدة :

" إنا أنزلنا التوراه فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما أستاذفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ؛ وقفنا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة ولأيناء الأنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ، وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ، وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعه ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم فيما أتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ، وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون ، فاحكم الجاهلية يبغيون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون " [١] .

[١] الآيات من (٤٤-٥٠) من سورة المائدة

إشتراط القرشية فى الخلافة

اجتهد فقهاء السياسة الشرعية فى وضع مواصفات ينبغى أن يتصف بها الأمير بناء على حقوقه وواجباته، ذكرها الماوردى فى الأحكام السلطانية فقال : وأما أهل الإمامة فالشروط المعتمدة فيهم سبعة : أحدها العدالة على شروطها الجامعة والثانى العلم المؤدى إلى الاجتهاد فى التوازل والأحكام والثالث سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان ليصح معها مباشرة ما يدرك بها والرابع سلامة الأعضاء من نقص يمنع عن استيفاء الحركة وسرعة النهوض والخامس الرأى المفضى إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح والسادس الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البيضة وجهاد العدو والسابع النسب وهو أن يكون من قريش لورود النص فيه واتخاذ الإجماع عليه [١] .

وعلى الرغم من وقوع الاجماع على اشتراط القرشية فى الخلافة ، وورود كثير من الأحاديث الصحيحة تشير إلى شرط النسب فى الإمام ، إلا أننا لا نعلم خلافاً على شرط من شروط الإمام وصفاته مما لم يرد فيه نص ، كالاخلاف حول هذا الشرط الذى وردت نصوص كثيرة فيه [٢] .

والحق أن أسباب أختلاف الفقهاء حول هذا الشرط ترجع إلى أسباب كثيرة منها اختلافهم فى صحة الأحاديث بسبب تعدد الدلالات أو تفاوت مدارك الناظرين فيها، ومنها تعدد الروايات وتعارضها أحياناً وموقف العلماء من هذا التعارض بالتأويل والتوفيق أو القول بالنسخ أو بترجيح رواية على أخرى .

وقد أشار ابن خلدون إلى خلاف العلماء حول شرط النسب فقال : "ومن القائلين بنفى اشتراط القرشية القاضى أبو بكر الباقلانى لما أدرك عليه عصبية قريش فى التلاشى والاضمحلال واستبداد ملوك العجم على الخلفاء فأسقط شرط القرشية وإن كان موافقاً لرأى الخوارج لما رأى عليه حال الخلفاء لعهدده. وبقي الجمهور على القول باشتراط وصحة

[١] الأحكام السلطانية ص ٦

[٢] محمود المرداوى ، الخلافة بين التنظير والتطبيق ص ١٠١

الإمامة للقرشي ولو كان عاجزاً على القيام بأمر المسلمين ، ورد عليهم سقوط شرط الكفاية التي يقوى بها على أمره. لأنه ذهبت الشوكة بذهاب العصية فقد ذهبت الكفاية وإذا وقع الإخلال بشرط الكفاية تطرق ذلك أيضاً الى العلم والدين وسقط اعتبار شروط هذا المنصب وهو خلاف الإجماع " [١] .

والأمير شكيب أرسلان يرى أن روح الإسلام الحقيقي هي مراعاة الكفاية والأهلية دون أي اعتبار آخر ولهذا فإن الأمير لا يذهب إلى مذهب إليه الجمهور من اشتراط القرشية في الخلافة لأنه يرى : "أن حصر الإمامة في أسرة أو عائلة أو عشيرة لا ينطبق على هدى الخلفاء الراشدين الذين كان يمكن كلا منهم أن يعهد بالأمر لولده، والحال أنهم لم يفعلوا ذلك " [٢] .

" فلا أبو بكر فكر في العهد لمحمد بن ابى بكر ، ولا عمر فكر في العهد لعبد الله بن عمر ، ولولا خروج معاوية على علي لكان علي أيضاً اقتدى بهم في إختيار من هو الأصلح لأمر الأمة " [٣] .

ويستشهد الأمير شكيب أرسلان على أن حصر الخلافة في قريش ليس أمراً محتتماً بقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه: "لو أدركنى أحد رجلين فجعلت هذا الأمر إليه لوتقت به ، سالم مولى أبى حذيفة وأبى عبيدة بن الجراح " ويلحق الأمير بأن سالم كان من الأعاجم كما لا يخفى ! " [٤] .

ولقد ذكر ابن خلدون أن قول عمر هذا لا تقوم به حجة لأن مذهب الصحابي ليس بحجة، وأيضاً فعولى القوم منهم ، وعصية الولاء حاصلة لسالم في قريش، وهى الفائدة فى اشتراط النسب على مذهب إليه ابن خلدون - ، ولما استعظم عمر امر الخلافة ورأى شروط كأنها مفقودة فى ظنه ، عدل الى سالم لتوفر شروط الخلافة عنده فيه، حتى من النسب المفيد للعصية كما نذكر، ولم يبق إلا صراحة النسب فراه غير محتاج إليه ، إذ الفائدة فى النسب إنما هى العصية وهى حاصلة من الولاء فكان ذلك حرصاً من عمر رضى الله عنه على النظر للمسلمين وتقليد امرهم لمن لا تلحقه فيه لائمة ولا عليه فيه عهده " [٥] .

[١] مقدمة ابن خلدون مج ٢ ص ٦٩٤ ط ٢ لجنة البيان العربى

[٢] ، [٣] ، [٤] تعليقات الأمير علي مقدمة ابن خلدون ج ١ ص ٢٦ ، ٢٧

[٥] تعليقات الأمير علي ابن خلدون ج ١ ص ٢٧

وقد رد الأمير شكيب على هذا بأن عمر بن الخطاب وإن لم يكن معصوماً فهو الذى روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال في حق " لو كان نبي يعدي لكان عمر " . فهو صحابي ولكن ليس كغيره من الصحابة ونقد دافع عمر المتعة واحتج بعمله الفقهاء من أهل السنة . وعلى كل حال لم يكن عمر بالذى يحفى عليه حكم الشرع في مسألة هي أجل المسائل [١] .

ومن أشهر الأدلة التي يتمسك بها المسترطون للنسب القرشي لمنصب الخليفة هو إجماع الصحابة على ذلك يوم السقيفة وأن قريش احتجت على الأنصار لما هموا يومئذ ببيعة سعد بن عباد و قالوا : " منا أمير ومنكم أمير " بقوله صلى الله عليه وسلم " الأنمة من قريش " ؛ و بأن النبي صلى الله عليه وسلم أوصانا بأن نحسن إلى محسنكم و نتجاوز عن مسيئكم ' ولو كانت الإمارة فيكم لم تكن الوصية بكم فحجوا الأنصار ، ورجعوا عن قولهم منا أمير ومنكم أمير ، وعدلوا عما كانوا هموا به من بيعة سعد لذلك [٢] .

ولكن الأمير شكيب أرسلان يرى في هذه الرواية أيضاً ما يدعو إلى تأييد رأيه بعدم اشتراط القرشية لأن سعد بن عباد ورهطه من الأنصار لم يكونوا بالذين يمارون قريشا في أمر الإمامة لو كانوا يعلمون أنها لا يجوز أن تتعدى قريشاً [٣] .

أما الحديث الشريف الذى يستند عليه من يقولون بحصر الخلافة في قريش " الأنمة في قريش " فيرى الأمير أن هذا جاء في زمن كانت الرئاسة في قريش فكانت أولى بهذا الأمر من غيرها ، وكانت العرب في قريش في صدر الإسلام تطيعها ما لاتطيع سواها . ولا ينبغي من ذلك أن هذا الأمر يجب أن يكون أبداً سرمداً في قريش فهما تقلبت الأحوال وتبدلت الأطوار ، وما دامت تطلع الشمس ، وما بل بحر صوفة " [٤] .

ولا يكتفى الأمير شكيب برد الاستشهاد بهذا الحديث على أنه لا يحمل الأمر بالوجوب وغاية ما في الأمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان " يقيم " حال العرب ومكانة قريش فيهم في الجاهلية والإسلام ، بل يذهب الأمير الى اتهام الفقهاء المثبتين للنسب القرشي

[١] تاريخ العلامة ابن خلدون - دار الكتاب اللبناني ج ١ ص ٣٤٤-٣٤٥

[٢] ابن خلدون (المرجع السابق) ج ١ ص ٣٤٣

[٣] تعليقات الأمير على ابن خلدون ج ١ ص ٢٧

[٤] تعليقات الأمير على ابن خلدون ج ١ ص ٢٧

بناء على هذا الحديث باجتماع جزء من الحديث وإهمال جزء فيقول :

"وما بالهم لا يذكرون أنه جاء في رواية هذا الحديث: "الأئمة من قريش ما أقاموا الدين" وجاء هذا الحديث في بعض المساند التي يعول عليها مثل صحيح مسلم . فإن كان حصر هذا الأمر في قريش معلقاً بهذا الشرط؛ فيكون قد انحل الإشكال " [١] .

فالأمير شكيب أرسلان لا ينازع في كون قريش الأولى بالإمامة من غيرها من عرب وعجم وإنما ينازع في حصر الخلافة في قريش الإسلامية في القرشي مع ضعفه وإقصاء غير القرشي عنها مع كفايته ورجحانه ، ولذلك فهو يرى في اشتراط إقامة الدين والقدرة على ذلك حلاً للإشكال ، فإن تحقق هذا الشرط في القرشي فهو أولاً بمكانه من قرابة الرسول عليه السلام ، ومن رئاسته القديمة .

والحق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقر الإمامة لقريش في حديثين شريفيين ، وأمر بعدم معاداتهم ومنازعتهم ، وشرط عليهم شروطاً أحد هذين الحديثين رواه البخاري في صحيحه قال: "حدثنا أبو ليثان أخبرنا شعيب عن الزهري قال كان محمد بن جبير بن مطعم يحدث أنه بلغ معاوية وهو عنده وفد من قريش أن عبد الله بن عمر يحدث أنه سيكون ملك من قحطان فغضب فقام فأنتى على الله بما هو أهله ثم قال : "أما بعد فإنه بلغني أن رجلاً منكم يحدثون أحاديث ليست في كتاب الله ولا تؤثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولئك جهالكم فإياكم والأمانى التي تضل أهلها فإن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن هذا الأمر في قريش لا يبعديهم أحداً إلا كبه الله على وجه ما أقاموا الدين " [٢] . والثاني : ما رواه أحمد بن حنبل في مسنده : "الأئمة في قريش ما حكموا فعدلوا ووعدوا فوفوا وأسترحموا فرحموا " [٣] .

والحديثان يشيران إلى أن هذا الأمر أى الإمامة والخلافة باقية في قريش فلين نازعهم عليه منازع قهر وفشل وخذله الله ولكن ذلك بشروط هي في حديث البخاري ما أقاموا الدين . وهي في حديث أحمد ما حكموا فعدلوا ووعدوا فوفوا وأسترحموا فرحموا . وبهذه الشروط التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم لاستمرار الخلافة في قريش

[١] تعليقات الأمير على ابن خلدون ج ١ ص ٢٧

[٢] صحيح البخاري ج ٩ كتاب الأحكام ص ٧٨

[٣] مسند أحمد ٢/٢٧٠ ، ٤/٤٢٤ .

ينحل الإشكال - كما قال الأمير شكيب - فلئن كان الشرط في حديث البخارى " إقامة الدين " شرط أ استمرار الخلافة فيهم ، فإن الشروط في حديث أحمد أوصاف لحالهم عندما لا يقيمون الدين فما يلزم عدم إقامة الدين في الحكم أنتفاء العدل في الحكم وعدم الوفاء بالتواعد ، والقسوة والبطش وعدم الرحمة للمسترحم .

وهذا يتلائم مع روح الإسلام التي حرث الأمير شكيب أن يبينها فقال إن روح الإسلام المبني على قاعدة (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وعلى قاعدة (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) فليس في الإسلام طبقات كما هي عند البراهمة ؛ الدين في هذه الطبقة والحكم في تلك الطبقة ، والصناعة في هاتيك الطبقة .. الخ ، وليس الإسلام في شيء من مشابهة اليهودية في أن الملك في السبط الفلاني ، وأن الكهنوت هو في السبط الفلاني .. الخ فكل هذه الأوضاع لا يعرفها الإسلام ، ولا يعرف إلا عمل الإنسان نفسه " [١] .

ويستشهد الأمير بقول عمر رضى الله عنه : " لو جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة " ، فلا ينظر رجل الى القرابة ، ويعمل لما عند الله ، فمن قصر به عمله لا يسرع به نسبه " [٢] .

ويستكر الأمير شكيب بعد قول عمر هذا أن تكون الشريعة التي يقول عمر فيها مثل هذا القول هي الشريعة التي تجعل الإمامة أرثا خاصاً بعشيرة خاصة الى أبد الدهر ، مهما كان في الخارج عنها من كفاية تزيد عن كفايتها ، وقدرة على حفظ بيضة الإسلام ترحج على قدرتها [٣] .

فالإمامة في قریش خاضعة لنواميس الكون التي جعلها الله في مخلوقاته ، فالله ينعم على المخلوق بنعمه حتى إذا فسد وطغى وظلم وعصى أخذه الله ، وقد روى أحمد في مسنده قول الرسول صلى الله عليه وسلم " أما بعد يامعشر فریش فإنكم أهل هذا الأمر ما لم تعصوا الله ، فإذا عصيتموه بعث إليكم من يلحكم كما يلحى هذا القضيب لقضيب في يده ثم لحى قضيبه فإذا هو أبيض يصلد " [٤] ، ولعل في ملول هذا الحديث أن الله سبحانه جعل الإمامة في قریش لتأخذها بحقها وإلا عاقبها ببعث من يلحها أو يزيلها كما يلحى أو يزال قشر القضيب ، على أن هذه الأحاديث نكل فيما تدل عليه أن الخلافة ستستمر في قریش ما اتصفت

[١] ، [٢] ، [٣] تعليقات الأمير علي بن خلدون ج ١ ص ٢٨

[٤] مسند أحمد ج ٦ رواه رقم ٤٣٨٠

بصفات واتسمت بسمات منها إقامة الدين، ومنها طاعة الله وعدم عصيانه ومنها العدل في الحكم والوفاء والرحمة، فإن سقطت تلك الصفات من قريش نزع الملك منها وما عادت الخلافة فيها .

وهذا ما ذهب إليه الأمير شكيب في قوله: "ولأن الذين أشرطوا القرشي في الخلافة استدركوا الأمر بقولهم: أنه إذا تساوى القرشي وغير القرشي في الإشتغال على شروط الخلافة فالقرشي بمكانه من قرابة الرسول عليه السلام ، ومن رئاسته القديمة؛ أولى من غير القرشي لهان الخطب ، ولكن مقتضى كلامهم أن القرشي بسلطان ذلك الحديث المتعلق بقريش في عهد كانت فيه هي الأول - مهما بلغ من الضعف ومن عدم الكفاية - فإنه أولى من غير القرشي مهما بلغ من القوة على حفظ حوزة الإسلام، ومهما بلغ من الضلالة والكفاية. فهذا الذي نراه مخالفاً لروح الشرع، ولما يتجلى من جميع أحكام الكتاب والسنة " [١] .

ولئن كان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "الأئمة من قريش" قد يفهم منه الأمر وقد يفهم منه مجرد الإخبار فإن قرينه "ما" الظرفية في قوله صلى الله عليه وسلم: "ما أقاموا الدين" و"ما حكموا فعدلوا ووعدوا فوفوا واسترحموا فرحموا" ترجح المفهوم الثاني أى مجرد الإخبار والتنبؤ إذ تنقضى الإمامة من قريش بإنتفاء شرطها منها فكان ذلك الحديث لو صح على ما رووه وارتفعت فيه كل شبهة مطبقاً لحالة قريش في أيام تقدمها ، فاما من بعد أن غلبت الأعاجم ، وقام فيها من رجح ميزانه على قريش في القوة والمنعة رجحاناً محسوساً لا يمتري فيه عاقل ، فقد أصبح من العبث أن نجعل المرجوح أولى من الراجح [٢] . وهكذا يذهب الأمير شكيب الى سقوط شرط القرشية في الخلافة بسقوط صفات الأهلية من قريش ووجوب جوازها في غيرهم إذا وجد من المسلمين من هو أجدر منهم على إقامة الدين .

ويستند الأمير على قاعدة ابن خلدون في العصبية لتأييد ما ذهب إليه، ويرى أن ابن خلدون قد جمع فأوعى في هذه المسألة وجاء فيها بالقول الذي لا يحسن معه الميراء عندما قال في مقدمته: "إذا ثبت أن إشتراك القرشي إنما هو لدفع التنازع بما كان لهم من العصبية والغلب ، وعلمنا أن الشارع لا يخص الأحكام بجبل ولا عصر ولا أمة ؛ علمنا أن ذلك إنما هو

[١] تعليقات على ابن خلدون ، (المرجع السابق) ج ١ ص ٢٨

[٢] المرجع السابق عن ابن خلدون ج ١ ص ٣٤٦ ، ٣٤٧

من الكفاية فرددناه إليها وطردنا العلة المشتبهة على المقصود من القرشية وهي وجود العصبية فأشترطنا في القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولى عصبية قوية غالبية على من معها في عصرها ليستتبعوا من سواهم ، وتجتمع الكلمة على حسن الحماية ولا يعلم ذلك في الأقطار والأفاق كما كان في القرشية إذ الدعوة الإسلامية التي كانت لهم كانت عامة، وعصبية العرب كانت رافية، فغلبوا سائر الأمم، وإنما يخص لهذا العهد كل قطر بمن تكون له فيه العصبية الغالبة " [١] .

" وإذا نظرت سر الله في الخلافة لم تعد هذا، لأنه سبحانه إنما جعل الخليفة نائباً عنه في القيام بأمور عباده ليحملهم على مصالحهم ، ويردهم عن مضارهم ، وهو مخاطب بذلك ولا يخاطب بالأمر إلا من له قدرة عليه . ثم إن الوجود شاهد بذلك ، فإنه لا يقوم بأمر أمة أو جيل إلا من غلب عليهم، وقل أن يكون الأمر الشرعي مخالفاً للأمر الوجودي " [٢] .

وبناءً على قاعدة ابن خلدون في العصبية يطمئن الأمير شكيب إلى أنه وصل إلى القول الفصل في مسألة اشتراط النسب في الخلافة بأن هذا الدين لم يقم بالأسرار غير المفهومة، ولم يمتحن أتباعه بما تعي به العقول ولا بما لا تظهر فيه وجوه المصالح، فكل معترك هذه المسألة من وجهة نظر الأمير " هي القدرة على حماية الإسلام وإقامة الشريعة على وجهها ، فمن كان أضلع بهذا الأمر من غيره بين المسلمين فهو الذي يريد الله ورسوله قياساً على ما لدينا من قواعد الشرع الأخرى التي هي ومبادئ العقل توأمان متلازمان " [٣] .

[١] . [٢] المرجع السابق عن ابن خلدون ج ١ ص ٣٤٦ ، ٣٤٧

[٣] تعليقات الأمير شكيب على ابن خلدون ج ١ ص ٢٩

تعقيب

ويجدر بنا أن نتساءل هل كان الأمير شقيب بموقفه من اشتراط النسب يهدف إلى تصحيح خلافة بنى عثمان انطلاقاً من نزعه العثمانية المعروفة عنه ؟ .

وما نراه حقاً أن العصر الذى عاش الأمير فيه هو الذى دفعه إلى الإجتهد فى فهم الحديث أو بترجيح روايه على أخرى، فلقد شهد الأمير لقطاع ملك قريش بعد أن صار الأمر إلى سلاطين العثمانيين وأصبحت الدعوة إلى رد الأمر إلى قريش أو الخروج على العثمانيين تهدد الأمة فى وحدتها وتعين المستعمر الأجنبى على هدم دولة الإسلام وهى أحوال قريبة الشبه بالأحوال التى دفعت للقاضى أبو بكر البقلان إلى نفي اشتراط القرشى لما أدرك عليه عضوية قريش من التلاشى والاضمحلال واستبداد ملوك العجم على الخلفاء فأسقط شرط القرشيه وإن كان موافقاً لرأى الخوارج لما رأى عليه حال للخلفاء لعهد [١] .

والأمير لم يكن ليكتف شرط القرشيه أو يمارى فيه إذا ثبت عنده بما لا يقبل الشك أن الأمر فيه كان الوجوب، بل مازال الأمير متشككاً فى الرواية متأولاً للمعنى مستنداً إلى آراء علماء سابقين لهم مكانتهم واحترامهم فى الفكر الإسلامى .

وأخيراً فإن الأمير لا يقطع بأن أمر الخلافة لن يعود لقريش بل يرى أن القرشى أولى من غيره إن صارت قريش قادرة على إقامة الدين، ولابد أن يختم الله لهذه الأمة بالخلافة على منهاج النبوة كما فتح لها بالنبوة كما بين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى الحديث الشريف " تكون النبوة فيكم ما شاء الله لها أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ثم تكون ملكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، ثم سكت " [٢] .

[١] كما ذكر ابن خلدون ج ١ ص ٣٤٥ ، و البقلانى رأى آخر ذكره فى كتاب (التمهيد) يرى فيه أن الخلافة

لا تصح إلا فى قريش - نظام الخلافة ، د. مصطفى خنمى ص ٤٧٠ .

[٢] رواية أحمد ٤ / ٢٧٣ وذكره ناصر الدين الألبانى فى سلسلة الأحاديث الصحيحة ج ١ ص ٨ .

الباب الثاني

الآراء الكلامية عند الأمير شكيب أرسلان

الفصل الاول

٢ - موقف الأمير شكيب أرسلان من عقيدة القضاء والقدر

يناقش الأمير عقيدة " القضاء والقدر " التى يرجع إليها " الجامدون " [١] أسباب تخلف المسلمين وتقدم الكافرين عليهم . فىرى أن تفسير القدر بالجبر تفسير فاسد حجب الكسل إلى كثير من المسلمين وجعلهم أعضاء مشلوله فى جسم المجتمع الإسلامى، وهو الخلق الذى جعل (الافرنج) يقولون أن الإسلام جبرى لا يأمر بالعمل لأن ما هو كائن هو كائن، عمل المخلوق أم لم يعمل [٢] .

ويسوق الأمير طائفة من الآيات القرآنية التى تربط الثواب والعقاب والفوز والفشل بالعمل الذى يعمل به المكلف ويرى فيها الدليل الواضح على إبطال تفسير القدر بالجبر .
والأمير شكيب يهدف من مناقشته لعقيدة القدر أن يحافظ على إظهار مسئولية المسلمين الخلقية والاجتماعية والدينية والسياسية عن واقعهم ، وفى نفس الوقت ينفى عن الإسلام اتهام الغربيين له بالجمود والتفويض والتسليم فيبين أن التسليم لله إذا كان مقرونا بالعمل فإنه يكون أنفع فى الدنيا والآخرة ، " والذى يريده الإسلام إنما هو أن يعقل الإنسان ويتوكل وإن يدبر لنفسه بهداية عقله الذى جعله الله مرشداً ، ويعلم مع ذلك أن ليس كل الأمر بيده ، وأن من الأقدار ما لا تتركه الأفكار وهذا صحيح " [٣] ويستشهد الأمير بأن النبى صلى الله عليه وسلم لما ذكر القدر سأل بعض أصحابه ألا تتكل ؟ فقال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له .

(١) الجامدون : هم العاجزون عن الإجهاد فى المسائل الشرعية بما يتفق والحاجات المتجددة للمسلمين . عن (د .

مصطفى حلمى - الخلافة ص ٥٢٢)

(٢) لماذا تأخر المسلمون / شكيب أرسلان ص ١٠٤

(٣) المرجع السابق ص ١١٠

وشكيب فى موقفه من القدر متأثر باستاذة الإمام محمد عبده الذى كان يفرق بين مذاهب (الجبر) وبين معنى القدر، فكتب يحدض شبهة من سوى بينهما، ويبين ما كان للإيمان بالقضاء والقدر من التأثير العظيم فى رفعة المسلمين، ويقول الإمام : " اعتقد الأفرنج انه لافرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبريين، القائلين بأن الإنسان مجبور محض فى جميع أفعاله وتوهموا أن المسلمين بعبقيدة القضاء يرون أنفسهم كالريشة معلقة فى الهواء تغلبها الرياح كيفما تميل، ومتى رسخ فى نفوس قوم أنه لاخيار لهم فى قول ولاعمل ولا حركة ولاسكون، وأنما جميع ذلك بقوة جابرة ، وقدره قاصرة، فلا ريب تتعطل قواهم ، ويفقدون ثمرة ماوهبهم الله من المدارك والقوى، وتمحى من خوطرهم داعية السعى والكسب، وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحولوا من عالم الوجود إلى عالم العدم" [١]

" وهكذا ظنت طائفة من الفرنجه، وذهب مذهبها كثيرون من ضعاف العقول فى المشرق ولست أخشى أن أقول : كذب الظان ، وأخطأ الواهم ، وبطل الزاعم وافتروا على الله والمسلمين كذباً - لا يوجد مسلم فى هذا الوقت من سننى وشيعى وزيدى واسماعيلى ووهابى وخارجى يرى مذهب الجبر المحض، ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة، بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزاء اختياريًا فى أعمالهم ويسمى بالكسب، وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم، وأنهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزاء الاختيارى ، ومطالبون بامتثال جميع الأوامر الإلهية، والنواهى الربانية، الداعية إلى كل خير، الهادية إلى كل فلاح، وأن هذا النوع من الاختيار هو مورد التكلف الشرعى، وبه تتم الحكمة والعدل " [٢]. ويبين الإمام الأثر الطيب الذى يتركه الإيمان بالقضاء فى نفوس المسلمين المؤمنين به من علو الهمة، وبث روح الشجاعة فى نفوسهم على نحو تصغر عندها العظائم، وتهون عليها مصارعة المتداند فيقول الإمام :

" الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد من شناعة الجبر يتبعه صفة الجراءة والإقدام وخلق الشجاعة والبسالة ويبعث على اقتحام المهالك التى ترجف لها قلوب الأسود هذا الانطباع يطبع الأنفس على الثبات واحتمال المكاره ومقارعة الأهوال، ويحلبها بحلى الجود والسخاء ويدعوها الى الخروج من كل مايعز عليها، بل يحملها على بذل الأرواح والتخلى عن

نظرة الحياة ، كل ذلك فى سبيل الحق الذى دعاها إلى الاعتقاد بهذه العقيدة " [١] .
 "والذى يعتقد بأن الأجل محدود، والرزق مكفول، والأشياء بيد الله يصرّفها كيف يشاء،
 كيف يرهّب الموت فى الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته، أو ملته، والقيام بما فرض الله
 عليه من ذلك، وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله فى تعزيز الحق وتشييد المجد على
 حسب الأوامر الإلهية، وأصول الاجتماعات البشرية " [٢] . ثم يقول الإمام : " بهذا الاعتقاد
 لمعت سيوفهم بالمشرق وانقضت شهبها على الحيارى فى هبوات الحروب من أهل المغرب،
 وهو الذى حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق فى سبيل إعلاء كلمتهم
 لا يخشون فقر ولا يخافون فاقة " [٣] . والإمام يؤكد أن الله أمتدح المسلمين بهذا الاعتقاد مع
 بيان فضله فى قول الحق (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم
 إيمانا، وقالوا : حسينا الله . ونعم الوكيل . فاتقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء
 واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم) [٤] . وهذه الآية الكريمة تشير إلى موقف
 المسلمين فى غزوة أحد و هى نفس الغزوة التى استشهد الأمير شبيب أرسلان بما كان من
 المسلمين فيها ؛ وما أصابهم نتيجة مخالفتهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم للرماة
 لتأكيد ما ذهب إليه بأن الإسلام هو دين العمل لا دين الكسل ولا هو دين الاتكال على القدر
 المجهول للبشر : فقال الأمير مشيرا الى تفسير قول الله تعالى (أولمّا أصابكم مصيبة قد
 أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم) [٥] . إن صاحب السؤال يعلم وأكثر
 المسلمين لا يعلمون أن هذه الآية خاطب الله تعالى بها أكمل هذه الأمة إيمانا وإسلاما وهم
 أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ تعجبوا من ظهور المشركين عليهم فى غزوة
 أحد فرد الله عليهم ببيان السبب وهو مخالفتهم أمره صلى الله عليه وسلم للرماة الذين
 يحمون ظهور المقاتلة بالألّا يبرحون أماكنهم سواء كان الغلب للمسلمين أو عليهم، فلما انهزم
 المشركون خالفوا الأمر لمشاركة المقاتلين فى الغنيمة، فكر عليهم المشركون حتى شج رأس

[١] تاريخ الاستاذ الإمام ، ج ٢٠ ص ٢٦١ ، ٢٦٢

[٢] [٣] تاريخ الاستاذ الإمام ، ج ٢٠ ص ٢٦١ ، ٢٦٢

[٤] سورة آل عمران من الآية ١٧٣-١٧٤

[٥] آل عمران من الآية ١٦٥

النبي صلى الله عليه وسلم إلخ .. [١] . فالأمير كأستاذة يرى أن عقيدة القضاء والقدر ليست لها علاقة بعقيدة الجبر ، " ولو كان في هذه الدعوى ذرة ما من الصحة لما نهض الصحابة أخير الناس بالاسلام وفتحوا نصف كرة الأرض في خمسين سنة " [٢] .

ثم يختتم الأمير حديثه حول هذه المسألة بقوله : " وحقيقة الأمر أن كل ما هو وارد في القرآن من آيات القضاء والقدر إنما كان مقصوداً به سبق علم الله بكل ما يقع ولم يكن مقصوداً به نفي الاختيار والتزهد في الكسب " [٣] .

والحق أن الأمير شكيب قد تنبّه وفي وقت مبكر إلى الأضرار الاجتماعية و الخلقية التي تصيب المجتمع بالأمراض ففتنك بالأمم و تهدد من كيانها إذا جعلت القدر حجة لكل أحد ، لاسيما عندما ينسحب الاحتجاج بالقدر من موقف الإنسان الفرد إلى موقف الجماعة فتكون المعصية اكبر و البلوى طامة حين تقاد الشعوب إلى ارتكابات الخلقية المضللة فتصاب بمعنى الرؤية للمستقبل وتكون فريسة للأمراض الاجتماعية والانهيارات الخلقية حتى إذا حققت عليها سنة الله في كونه فلا تجد علة أوحجة تعتذر بها إلا أنه (لاخبر يغنى عن قدر) [٤] .

لذلك كان يحذر من الجمود ويرى أن خطر الجامدين الذين يعتقدون أن الإسلام دين تسليم دون أن يكون هذا التسليم مقرونا بالعمل والسعى والكدح ، لا يقل عن خطر الجاحدين الذين يريدون أن يفرنجوا المسلمين ويخرجوهم عن جميع مقوماتهم ومشخصاتهم ، يقول شكيب : " فقد أضاع الإسلام ، جاحد وجامد " [٥] . فالمسلم الجامد هو الذي طرق لأعداء الإسلام على الإسلام ، وأوجد لهم السبيل إلى القالة بحقه ، حتى قالوا إنه دين لا يتألف مع الرقى العصري ، وإنه دين حائل دون المدنية "

" والحقيقة أن هؤلاء الجامدين هم الذين لا يتألف عقائدهم مع المدنية ، وهم الذين يحاولون دون الرقى العصري والإسلام براء من جماداتهم هذه " [٦] .

[١] . [٢] لماذا تأخر المسلمون ، مرجع سابق ص ١٠٩ ، ١١٠ .

[٣] المرجع السابق ص ١١١

[٤] قضية الخير والشر في الفكر الإسلامي ، د. محمد السيد الجليل ص ١٣٤

[٥] لماذا تأخر المسلمون ، ص ٨٨

[٦] لماذا تأخر المسلمون ، ص ١١٣

الفصل الثانى

- . موقف الأمير من الدروز
- . علاقة الدروز بالإسماعيلية الفاطمية
- . الجانب الباطنى فى عقيدة الدروز فيما يتعلق به :
 - * الألوهية
 - * يوم القيامة و الثواب و العقاب
 - * تأويل آى القرآن الكريم
- . الدرزية كمذهب ينتسب للإسلام
 - * موقفهم من أركان الإسلام
 - * موقفهم من رسول الله (صلى الله عليه و سلم)
 - * موقفهم من القرآن الكريم
- . حكم علماء الإسلام فى الدروز
- . نقد موقف الأمير من الدروز

موقف الأمير شكيب أرسلان من (الدروز)

إن ما كشف حديثاً ونشر عن مذهب (الدروز) خاصة بعد أن كلفت مشيخة العقل سامى مكارم بتأليف (أضواء على مسلك التوحيد) للرد على كتاب عبد الله النجار (مذهب الدروز والتوحيد) وبعد إكتشاف الكثير من مخطوطاتهم وكتبهم المقدسة ولاسيما كتابهم (مصحف المنفرد بذاته) يجعلنا نؤكد أن الإسلام الذى نفهمه من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وإجماع السابقين ولاسيما فى القرون الأولى قبل وجود للحاكم بأمر الله الفاطمى لايتفق مع الإسلام الذى يعنيه الدروز فى شىء . فهل تغيرت عقيدة الدروز عما كانت عليه عندما كتب الأمير شكيب أرسلان مقالاً^[١] يقرر فيه ، أن الدروز فرقة إسلامية جعل عنوانه (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً) وفيه يقول : (الدروز فرقة من الفرق الإسلامية ، أصلهم من الشيعة الإسماعيلية الفاطمية و الشيعة الإسماعيلية الفاطمية أصلها من الشيعة السبعية ، القائلين بالأئمة السبعة ، وهؤلاء هم من جملة المسلمين كما لا يخفى .

فإذا قيل أن الدروز هم من الفرق الباطنية التى لا يحكم لها بالإسلام ، فالجواب : إن الدروز يقولون إنهم مسلمون و يقيمون جميع شعائر المسلمين ويتواصلون بموافقة الإسلام والمسلمين فى السراء والضراء ويقولون أن كل من خرج عن ذلك فليس بمسلم . ولهذا أصبح من الصعب على المسلم الذى فهم الإسلام كما فهمه السلف الصالح . والذى سمع حديث (فهل أشققت عن قلبه) أن يخرج الدروز من الإسلام ، وفى الشرع المسمى قاعدة نحن لنا الظاهر والله يتولى السرائر ، وقد قال الله تعالى " ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا "^[٢] وهؤلاء لا يلقون السلام فقط ، بل يلقون السلام ويقولون أنهم مسلمون ويحفظون القرآن ويلقن ملقنهم الميت : (واذا جاءك منكر ونكير وسألاك مادينك ، ومن نبيك ، وماكتابك ، ومن إخوانك ومأ قبلك ، فقل لهما : الإسلام دينى ومحمد نبيى ، والقرآن كتابى ، وللكعبة قبلى ، والمسلمون إخوتى) وليس من شعائر الإسلام شىء لا يقيمه أو لا يوجب إقامته الدروز وإذا قيل أنه مع كل هذه المظاهر تحتوى

[١] شكيب أرسلان ، جريدة الشورى ، بتاريخ ١٥ جمادى الثانية سنة ١٣٤٤ هـ

[٢] سورة النساء ، آية ٩٤

عقيدتهم الباطنية التي تعرفها طبقة العقال على ما يصادم أركان عقيدة السنة والجماعة ولا يتفق معها في شيء ، فالجواب : لقد وجد في الإسلام أئمة كبار يترضى عنهم عند ذكرهم ، ولهم قباب تزار وتعلق فيها القناديل ، وكانوا يقولون بوحدة الوجود ، فهل وحدة الوجود مما يطابق السنة ؟ كلا ، فهل أخرج هؤلاء الأئمة من الإسلام ؟ كلا .

أما تجسد الآلهة فليس من عقيدة الدروز كما يتهمهم بعضهم ، والتجسد شيء والنترائي شيء آخر ، وأما تأويل أي القرآن الكريم بحسب زعمهم ، فكم من فرقة في الإسلام إنفردت بتأويل للآيات الكريمة [١] .

ويستمر الأمير شكيب أرسلان في دفاعه عن إسلام الدروز ، إلا أننا نجد في مقاله هذا ثلاث مسائل ينبغي الوقوف عندها ودراستها :

الأولى : علاقة الدروز بالإسماعيلية الفاطمية ، وكيف تطورت عقيدتهم عن عقيدة الإسماعيلية الشيعية .

الثانية : الجانب الباطني في عقائد الدروز ، وخاصة فيما يتعلق بالأنوهمية ، والشوابع والعقاب ، وتأويل أي القرآن الكريم .

الثالثة : الدرزية كمذهب إسلامي ، ومواقفهم من أركان الإسلام الخمسة ، ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم ، ومدى حرص الدروز اليوم على إظهار شعائر الإسلام والإرتباط بالمسلمين .

علاقة الدروز بالإسماعيلية الفاطمية

الإسماعيلية ، فرقة من فرق الشيعة سميت بهذا الاسم نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق الذي لم تعترف الشيعة الإثناعشرية بإمامته ، بينما وقف الإسماعيليون عند إمامته فسموا لذلك بالسبعية . وإسماعيل هو الابن الأكبر للإمام جعفر الصادق والذي توفي في حياة والده سنة ١٤٣ هـ وأراد جعفر أن يؤكد وفاة ابنه بأقوال شهود عديدين فكتب محضراً بذلك وأشهد عليه وإلى المدينة [٢] . وقد انقسم أتباعه بعد ذلك إلى ثلاث فرق :

الأولى : قالت بإمامة موسى الكاظم وعرفوا بالإثنى عشرية .

الثانية : قالت أنها منتظرة لإسماعيل لأن إسماعيل لم يمت ولكنه أظهر موته تقية من خلفاء

[١] أحمد الشرباصي ، الأمير شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام ، مرجع سابق ص ٢٠-٢١

[٢] الفصل في الملك والاهواء والنحل ، الشهرستاني ج ٢ ص ٥

بنى العباس .

الثالثة : قالت أن جعفرأ نصب ابنه إسماعيل للإمامة بعده فلما مات إسماعيل فى حياة أبيه علمنا أنه إنما نصب إسماعيل للدلالة على إمامة ابنه محمد ابن إسماعيل وهؤلاء يقال لهم المباركية^[١] .

وانقسمت المباركية إلى قسمين : قسم وقف عند إمامة محمد المكنوم وقال برجعته وأنه المهدي المنتظر وهؤلاء هم القرامطة ، وقسم قال باستمرار الإمامة فى أئمة مستورن حتى اللحظة التى حكمت فيها الدعوة الإسماعيلية حيث أسس الإمام للشرعى عبد الله المهدي الدولة الفاطمية فى المغرب^[٢] .

ومن أشهر دعاة المذهب الإسماعيلي (ميمون القداح) الذى وضع أسس المذهب . ومما يذكر فى هذا المجال أن مؤرخى الإسماعيلية يحلو لهم دائماً أن يتحدثوا عن هذه الفترة من تاريخ أئمتهم وهى الفترة التى تعرف عندهم (بدورالستر) - ابتداء من محمد بن إسماعيل وإنهاء بعبد الله ، فكل مؤرخ من مؤرخى الإسماعيلية تناول الحديث عن هذه الفترة بما يبدو له ، بحيث جاء حديثهم مضطرباً أشد الاضطراب مختلفاً أشد الاختلاف فهم مختلفون فى عدد أئمة هذه الفترة ، وهم مختلفون أيضاً فى أسماء هؤلاء الأئمة^[٣] .

ويعلق الدكتور محمد أحمد الخطيب على هذا الاضطراب التاريخي عند الإسماعيلية باعتقاده أن هذا الاضطراب يضاف إلى جملة الشبهات المحيطة فى نسب العبيديين إلى فاطمة الزهراء من ذرية جعفر الصادق ويؤكد ما رواه المقرئى أن عبيد الله الملقب بالمهدي ماهو إلا سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح الذى إدعى أنه خرج من ستره وأعلن إمامته ودعوته بعد أن كانت فى ستر وخفاء .

وبذلك دخل تاريخ الإسماعيلية فى دور جديد عرف (بدور الظهور) بعدما أعلن عبيد الله قيام الدولة العبيدية سنة ٢٩٧ هـ وقد استطاعت الدولة العبيدية أن تفتح مصر على يد أحد قوادها وهو جوهر الصقلى عام ٣٥٨ هـ فى عهد المعز لدين الله الفاطمى الذى نقل

[١] د. أحمد محمد الخطيب ، الحركات الباطنية فى العالم الإسلامى ، ص ٥٧-٥٨

[٢] عبد الله الأمين ، دراسات فى الفرق والمذاهب (مرجع سابق) ص ٥٩

[٣] د. أحمد محمد الخطيب ، الحركات الباطنية (مرجع سابق)، ص ٦٤

بعد ذلك عاصمة ملكه من المغرب إلى مصر حيث بنى القاهرة وخلف المعز ولده العزيز بالله ثم تولى الحكم بعد وفاته ولده أبو على المنصور الذى لقب بالحاكم بأمر الله الذى ناصر مذهباً انتشق عن الإسماعيلية سنة ٤٠٨ هـ عرف بالدرزية أعلنه دعاة الإسماعيليين الفرس الذين نادوا بالوهية الحاكم بأمر الله^[١] . وهنا نقف عند شخصية الحاكم بأمر الله الذى هو محور الحديث عن نشأة الدروز وتاريخهم لأن عقيدة طائفة الدروز تقوم على تأليه الحاكم وعبادته .

أسس الحاكم بأمر الله مركزاً لإعداد وتوجيه دعاة الإسماعيلية (أسماء دار الحكمة) ولهذه التسمية مغزى يدل على الاتجاه الفلسفى الذى أريد أن يتخذه هذا المعهد والذى يعتبر محور العقائد الإسماعيلية ، لذلك فقد إستقطب هذا المركز الدعاة الإسماعيليين من كل مكان^[٢] . وقد إحتشد فى دار الحكمة طائفة من دعاة الإسماعيلية الملاحدة فالتقوا حول الحاكم بأمر الله وزينوا له فكرة (ألوهيته) ، مما جعله وراء هذه الدعوة يرعاها و يشجع دعايتها^[٣] . ويسوق المؤرخون الذين تناولوا حياة الحاكم بأمر الله الكثير من الأخبار والتصرفات الشاذة والمتناقضة المنسوبة إليه ويؤكد بعضهم أن الحاكم كان يرعى بتصرفاته الشاذة هذه التمهيد لإدعائه الألوهية ولقد أصبحت هذه الأفعال والتناقضات عند الدروز أموراً تدل على ألوهيته لأن لها ظاهراً وباطناً ، والمعروف للإنسان العادى هو الظاهر فقط من تلك الأفعال ، أما باطنها فهو من إختصاص الدروز وحدهم . لقد بدأت الدعوة الجهرية لدعوة الحاكم عام ٤٠٨ هـ على يد ثلاثة من دعاة الإسماعيلية هم : حمزة بن على الزوزنى ومحمد بن إسماعيل الدرزى المعروف بنشكين والحسن بن حيدرة الفرغانى المعروف بالأخرم أو الأجدع . هذه الإعتقادات ظهرت فى ظل أجواء ومعتقدات العقيدة الإسماعيلية ، وهو ما يؤكد الأمير شكيب أرسلان بقوله ان أصل الدروز من الشيعة الإسماعيلية الفاطمية ، والحق أن نسبة الدروز إلى الإسماعيلية الفاطمية لا تقترب بالدرزية إلى العقيدة الإسلامية بل تباعد بين الإسماعيلية والعقيدة الإسلامية الصحيحة ولقد ذهب بعض الباحثين إلى القول : " إن عقيدة الدروز لم تخرج فى جوهرها عن جوهر المذهب الإسماعيلى الذى لم يكن مكتشفاً

[١] المرجع السابق ص ٦٩ - ٧٠

[٢] محمد عبد الله عنان ، الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ص ١٦٤

[٣] الحركات الباطنية ص ٢٠٢

لعامة الناس ، ولعل الحاكم حينما أعلن مذهبه كان يرى أن الوقت قد حان للكشف عن بعض العقائد البالغة السرية ، على حين خالفه في ذلك معظم الدعاة والسلطات الفاطمية الرسمية [١]. وبناءً على ذلك فإن إعلان الحاكم الربوبية لم يكن خروجاً عن المذهب الإسماعيلي ، وإنما كان مساساً بباطنية المذهب . ويؤيد هذا أن دروز اليوم يعتقدون بوجود التقاء بين الإسماعيلية والدروز في العقائد حتى أن الدروز يعتقدون أن الإسماعيليين إخوانهم ، ولكنهم يسمونهم بالتقصير [٢] .

والأمير شكيب أرسلان ينكر على من يقول أن الدروز من الفرق الباطنية التي لا يحكم لها بالإسلام مؤكداً أن الدروز يقولون أنهم مسلمون ويقيمون جميع شعائر المسلمين . ومع إقرار الأمير شكيب (الضمني) - كما أفهم - بأن عقيدة الدروز التي تعرفها طبقة العقال تحتوى على ما يصادم أركان عقيدة السنة والجماعة ولا يتفق معها في شيء إلا أنه يرى أن هذه الخلافات لا تخرج الدروز من الإسلام ثم ينفي أن يكون تجسد الإله من عقيدتهم ، وأنهم في تأويلهم لآيات القرآن الكريم لا ينفردون بذلك عن الفرق الإسلامية الأخرى .

وقبل أن ننهي حديثنا عن تطور العقيدة الدرزية عن الإسماعيلية نقدم ملخصاً لأصول العقيدة الدرزية وقواعدها لنستطيع أن نتطرق من خلالها بالتفصيل للجانب الباطني في هذا المذهب . فالدروز يعتقدون بالهوية الحاكم بأمر الله ، وفي رجعتة آخر الزمان ، وينكرون الأنبياء والرسل جميعاً ، ولا يأخذون بشيء من أحكام وعبادات الإسلام بل ينكرون أركان الإسلام جميعها ، وقد جعل الدروز بدل أركان الإسلام ، سبعة خصال توحيدية ، وهم يعتقدون بتناسخ الأرواح وانتقالها إلى الأجساد الإنسانية ، ولهذا فهم لا يعتقدون بالجنة والنار ، والثواب والعقاب ، فالثواب يكون بانتقال الروح إلى منزلة أرفع حينما تنتقل من جسد إلى جسد ويكون العقاب بتدنّي منزلتها ، أما القرآن الكريم فإنهم يقولون أنه من صنع سلمان الفارسي ، والذي هو حمزه في عصر الحاكم .

[١] محمد العزاوي ، فرقة النزاريّة عن الحركات الباطنية ، ص ٢١٢

[٢] عبد الله التجار ، مذهب الدروز والتوحيد ، ص ٢٨

الجانب الباطني في عقائد الدروز

الألوهية

سبق أن ذكرنا أن الدروز يطلقون علي مذهبهم إسم (مذهب التوحيد) ويرون أن مذهبهم للتوحيدى هذا قائم علي الإسلام ، غير أنه يفسر آيات التنزيل تفسيراً باطنياً خاصاً ، يخرجها عن باطن التأويل ، كما يرون أن مذهبهم يخالف أهل التنزيل (ويقصدون بهم المسلمين) في أنه ينظر نظرة خاصة فيما تتطوى عليه الألفاظ من معاني ودلالات روحانية ، ويخالف أهل التأويل (ويسمونهم أهل الباطن) ويقصدون بهذه التسمية الإسماعيلية ، أقرب المذاهب لمذهبهم في تفهم رموزها الخفية [١] .

وفلسفة التوحيد عند الدروز تقوم علي نفي الصفات والأسماء والحالات والجهات والقدم والتشبيه عن الله ، (بمعنى ان الله هو الجمال لاالجميل ، والقدرة لا القدير والحياة لا الحي ، والعلم لا العليم .. الخ فان الجميل لا يستغني عن الجمال والقادر تلزم له القدرة ، والحي تلزمه الحياة والعالم بالشيء لاغني له عنه ، كأنما هذه جميعا أمور أو اجزاء منفصلة عنه متبعة له أو كأنها غير ذاته [٢] .

ويرى الدكتور محمد كامل حسين أن ما ذكر عن التوحيد في رسائل الدروز ، وحديثهم عن لاهوتية المعبود ، يتفق تمام الاتفاق مع ما ورد في كتب الدعوة الاسماعيلية عن الله سبحانه وتعالى ففي كتاب ((راحة العقل)) لأحمد حميد الكرمانى ، الذى كان معاصراً لحمزه بن على ، نجد سوراً كاملاً ذا سبعة مشاريع عن التوحيد والتقديس ، وحديثه في ذلك كله هو حديث رسائل الدروز فقد جعل الكرمانى المشرع الأول : في بطلان كونه تعالى ليساً والمشرع الثانى في بطلان كونه تعالى أيساً والمشرع الثالث في أنه تعالى لاينال بصفة من الصفات ، أنه لايجسم ولا في جسم ، ولا يعقل ذاته عاقل ... ثم ختم المشرع السابع بأن أصدق قول في التوحيد والتسبيح والتمجيد والاثبات ما يكون من قبيل نفي الصفات الموجودة في الموجودات وسلبيها عنه تعالى [٣] .

[١] مذهب الدروز والتوحيد ، ص ٨٣

[٢] مذهب الدروز والتوحيد ، ص ٨٣

[٣] طائفة الدروز (محمد كامل حسين ، ص ١٠٤ - ١٠٥) - الحركات الباطنية (ص ٢٢٤)

ثم أن الدروز يأخذون هذه الأراء مجتمعة ويجعلونها في لاهوت معبودهم الحاكم بأمر الله ، فهم يعتقدون أن له حقيقة لاهوتية لاتدرك بالحواس ولا بالأوهام ، ولاتعرف بالرأى ولا بالقياس كما تقول الرسالة ١٣ : ((إن المولى سبحانه ، لا قديم ولا أزل لأن القديم والأزل مخلوقان . هو خالقهما... حقيقة لاهوته لاتدرك بالأوهام والحواس . ولا تعرف بالرأى ولا بالقياس ليس له مكان معروف ، فيكون محصوراً فيه ، وتخلو بقية الأماكن منه . ولا يخلو منه مكان فيكون عاجز القدرة . ولا هو بأول ، فيحتاج إلى آخر . ولا بأخر فيكون له أول . ولا بظاهر فيحتاج إلى باطن . ولا بباطن فيكون مستتراً بظاهراً)) [١] . والدروز لا يعتقدون أن الله دخل في جسم - تعالى الله عن ذلك - ولكنهم يعتقدون أنه سبحانه اتخذ له حجاباً وصورة ناسوتية ، احتجب بها أمام الناس [٢] . ومعنى هذا كله أن الإسماعيل الفاطمي المعروف (بالحاكم بأمر الله) هو عند الدروز بشر في الأعين المجردة ويعيش بين الناس كما يعيش غيره من البشر وذلك عند الذين لا يعرفون حقيقة ، أما الدروز الذين عرفوا حقيقة فيذهبون إلى أنه الإله المعبود اتخذ لنفسه صورة أنسية سماها الناس (الحاكم بأمر الله) . يقول عبد الله النجار تحت عنوان : (التجلي) ، أما التجلي فيقول المذهب مناقشاً : أنه سبحانه أظهر لنا حجابيه ومقامه رحمةً منه ورأفة (الرسالة ١٣) ((فإن قال قائل كيف يجوز أن نسمع كلام الباري سبحانه من بشر أو نرى حقيقة في الصور ؟ قلنا : انتم تعتقدون أن الله عز وجل خاطب موسى من شجرة ومن جبل وسميتموه كلم الله ، فإن كانت الشجرة " حجابيه " ، فإن من يعقل ويفهم أحق أن يكون حجاب الله مما لا يعقل ولا يفهم وكيف يجوز للباري سبحانه أن " يحتجب " في شجرة يخاطب كلمه منها ، ثم تحرق الشجرة ويتلاشى حجابيه ؟)) [٣] . وهذا الذي يذكره الأستاذ عبد الله النجار منقول عما كتبه حمزة في " الرسالة الموسومة لكشف الحقائق " . ويواصل الأستاذ عبد الله النجار عرضه لرأى المذهب في مسألة التجلي وكيفية إتخاذ المعبود لمقامات ناسوتية فيقول متحدثاً عن الإله - تعالى الله عما يصفون - نقلاً عن الرسالة ٣٦ أنه : (تقرب إلينا بنا . وأنس عقولنا بصورنا وظهر لنا بجميع أفعالنا . لتقبله بفهامنا . فلا نقول أن هذه الصورة المرئية هي هو ،

[١] مذهب الدروز والتوحيد ، ص ٨٤

[٢] الحركات الباطنية ، ص ٢٢٤

[٣] مذهب الدروز والتوحيد ، ص ٨٧

فنجعله محصوراً محدوداً . بل نقول هو هي ، إستاراً وتقرباً وتأنيساً ، بغير حد ولا شبه ولا مثل .

أو كما نطق القرآن (الآية ٣٩ من سورة النور) " كسراب بقية يحسبه الظمان ماءً ، حتي إذا جاء لم يجد شيئاً ووجد الله عنده ...) كمثل الناظر في جوهر المرآة فهو يرى نظير صورته بغير لمس ولا إدراك كيفية ولا تحديد ماهية (إن الله لو كان موجوداً علي صورة مخالفة لبريته . وظهر له بمعنى بليق لعظمة أولوهيته لم يشك أحد من البرية ، وارتمع التفاوت والتفاضل ، وسقط الثواب والعقاب) (الرسالة ٦٩) ولذلك : (ظهر في حد الطفولة ثم الكمال ثم اعتل في ظاهر الأمر . لنلا يكون عاجزاً عن ذلك) (عن الاعتلال) . فإن العجز (إرادة العجز والقدرة عليه) من القادر قدرة (الرسالة ٦٧) .

ويسمى الأستاذ عبد الله النجار إلى ربط ماورد في رسائل حمزة بالنظريات الفلسفية ، فينقل عن (الرسالة ٩) القول : (إن الروح لا تترك إلا بالجسم) ثم يعلق علي ذلك بقوله : فما أقرب هذا القول إلى نظرية (باروخ اسبينوزا) وموداهما أن الوجود يتألف من الطاقة العقلية والطاقة المادية أو المادة والوعي وإمتدادهما بالجسد والروح في الإنسان إنما هو حالة طارئة من حالات الله في الوجود .

ثم ينقل عن (الرسالة ٦٧) هذا القول في بيان وتبرير إعتقاد الدروز بتجلي المعبود في صورة ناسوتية : (فأى عدل يقتضي أن يكون فوق سبع سموات . علي كرسى . فوق السماء السابعة وقد كلفنا ، مع هذا ، عبادته ومعرفته ؟ . والمرء ليس في وسعه أن يعرف ماخلف الجدار القريب إن لم يكشف عنه . فإن ظهور الله نفس العدل . فلما صح أن إبن آدم أفضل المخلوقات ، وجب أن يختجب الباري في أشرف المخلوقات) .

وكذلك الرسالة ٧٠ تردد (أن فيثاغورث كان يعتقد أن البارى موجود نور محض . وأنه لابس جسداً ما ، يستتر به لنلا يراه إلا من استأهل ذلك واستحقه وقام في عبادته .. وهكذا يقول أفلاطون معلم أرسطو طاليس ومن أتبعه) .

(إن الباري سبحانه لا تكلوا الدار من وجوده طرفة عين ولو خلت الأرض منه لزال الت الحجة علي الخلق في تلك اللحظة) (الرسالة ٧٥) .

(ظهر بالشكل البشري لأن حكيمته قضت بذلك إشفاقاً علي جهل العالم المتمسك بالمحموسات . وإبتحاناً لهم . لتكمل عليهم الحجة) (الرسالة ٤٤) . فظهوره (أنسية لعقولنا . وشفقة منه علينا) (الرسالة ٢٤) . ثم يختم الأستاذ عبد الله النجار ببيان أن هذا

الظهور لم يكن ظهوراً حسيّاً مستشهداً بما جاء في الرسالة ١٩ من أن الحاكم بأمر الله حين كان يركب للخروج في النهار (كان للأتان ظل ، ولا ظل للراكب ... لاهوته المحجوب عنه . وناسوته المظهر لنا) [١] .

سبع مقامات

المقامات، عند الدروز والإسماعيلية ، هي الظهورات أو التجليات وهي نفس الوقت إمامات. والدروز يعتقدون أن الصورة الناسوتية للآله المعبود ظهرت في الأدوار الماضية ، ويعتقدون أنها سبعة أدوار والآله المعبود أظهر ناسوته في هذه الأدوار عشر مرات أو مقامات فهو في نظرهم واحد لا يتغير في كل دور أو مقام ، وفي رسالة السيرة المستقيمة حديث طويل عن الأدوار التي أظهر فيها المعبود ناسوته لأن المعبود إن لم يظهر ناسوته من حين لآخر لكان الناس يعبدون العدم [٢] . أما المقامات الناسوتية التي يعتقد الدروز أن المعبود ظهر فيها فيرتبونها كما يلي :

١- العلي .

٢- البار .

٣- أبو زكريا : ظهر في وقت السماء الثالثة سنة ٢٢٠ هـ .

٤- عليا : ظهر في وقت السماء الرابعة .

٥- المعلى : ظهر في وقت السماء الخامسة .

٦- القائم : كان طفلاً استودعه مع سر إمامته أبوه المعلى برعاية سعيد المهدي

الملقب (عبيد الله) سنة ٢٨٠ هـ ، وهو مؤسس الدولة الفاطمية . تلاه المنصور

من سنة ٣٣٤ هـ إلى سنة ٣٤١ هـ ثم المعز من سنة ٣٤١ هـ إلى سنة ٣٦٥ هـ .

، وهما مع القائم يعتبرون في المذهب الدرزي ذاتاً واحداً .

٧- العزيز من سنة ٣٦٥ هـ إلى سنة ٣٨٦ هـ . وأخيراً الحاكم (المنصور) وهما

في حساب المذهب واحد كقول الإنجيل : (أنا وألأب واحد) [٣] .

هذا هو الترتيب الذي ذكره عبد الله النجار في كتابه مذهب الدروز والتوحيد ، ونقله

عنه الدكتور محمد أحمد الخطيب في كتابه الحركات الباطنية ، ولكن الدكتور محمد كامل

[١] عبد الله النجار ، مذهب الدروز والتوحيد ، ص ٨٦ - ٨٧

[٢] طائفة الدروز ، ص ١٠٧

[٣] مذهب الدروز والتوحيد ، عبد الله النجار ، ص ٩٥

حسين ينقل عن رسالة السيرة المستقيمة ترتيباً آخراً للإبوار التي أظهر فيها المعبود ناسوته جعل ترتيب ظهور المعبود في صورة القائم قبل ظهوره في صورة أبي زكريا القرمطي .
ثم يعلق علي كل ذلك الدكتور محمد كامل حسين بقوله : (وليس لنا أن نناقش هذه العقيدة ، إلا أننا نحب أن نسجل أن ظهور أبي زكريا القرمطي كان أسبق من ظهور القائم بأمر الله ، ثم قولهم أن القائم كان بمصر وبني بها باباً يسمى الرشيدية - كل ذلك بعيد عن الحقيقة التاريخية ، حقيقة حاول القائم بأمر الله فتح مصر أكثر من مرة ولكنه لم يوفق ، فكيف أقام بها وشيد بها باباً ؟! [١] .

هذه هي عقيدة الدروز في التوحيد كما نقلها الباحثون عن رسائل الدروز من وجهات نظر متعددة ، وبأقلام متعددة وكلها تؤكد إيمان الدروز بالوهمية الحاكم ، ويؤيد ذلك ماكتبه الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه إسلام بلا مذاهب وهو الذي عاشر الدروز سنوات ، وعقد صلات طيبة مع زعمائهم وكتابهم ، واطلع علي الكتب المعاصرة بأقلام الاساتذة الدروز أنفسهم ، وقد تعرض في كتابه لما جاء في الكتب الحديثة عن الدروز بأقلامهم " مثل كتاب (مذهب الدروز والتوحيد) للأستاذ عبد الله النجار - الذي نقلنا عنه وللملاحظات التي أبدت عليه من الدروز أنفسهم ، في كتاب (أضواء علي مسلك التوحيد) الذي قدم له الأستاذ كمال جنبلاط بمقدمة طويلة ثم كانت له توطئة بقلم (بيازيد) وبحث موضوعي للدكتور سامي مكارم يقرر فيه اعتقاد مهم يجب علي الدرزي أن يؤمن به ، وهو أن الناسوت لا ينفصل عن اللاهوت ، ذلك أن الحجاب هو المحجوب ، والمحجوب هو الحجاب ، فالناسوت في اللاهوت مثل الخط من المعنى ، فيقول : (ويمكننا أن نقول : أن الناسوت من اللاهوت كالخط من المعنى ، وكما أن فكر الإنسان المحدود بالكيفية والإضافة والزمان ومماشابه ذلك لا يستطيع أن يدرك المعاني مجردة من الخط أو الصورة أو الصوت كذلك لا يمكن أن يدرك اللاهوت وجهه من الوجوه وإنما يتجلي الله في الناسوت ، ويكون هذا الناسوت قد تنزه عن كل مالمس هو في حقيقته وشموله فأضحى تشخيصاً للإنسان الكامل ، أي ناسوتاً مجرداً متطهراً مثالياً متزلاً بيجرد الباقي السرمدي فيه عن التوهم . وهذا هو التأسيس بالنسبة للآخرين) [٢] .

[١] طائفة الدروز ، ص ١٠٧

[٢] أضواء علي مسلك التوحيد / سامي مكارم ، ص ١٢٨

" هذه هي نظرهم لللاهوت والناسوت ، تظهر لنا بجلاء أن الدروز يؤمنون بظهور الله في شخص إنسان ، لأن الإنسان في نظرهم هو الأولي بإحتجاب الله في صورته ، بصفته أفضل المخلوقات . وأن ظهور الله - سبحانه وتعالى عما يقولون - بصورة ناسوتية سببه - كما يزعمون - رحمة الله للناس وعدلاً منه لهم في مشاهدتهم إياه ليؤمنوا به وبوجوده" [١] .

" وبما أن الحاكم بأمر الله هي الصورة للناسوتية الأخيرة لله - كما يزعمون - لهذا يعبدونه ويقصدونه ، وينتظرون ظهوره بعد غيبته وهذا المعتقد هو المركز الرئيسي عند الدروز [٢] . وسواء سمي هذا المعتقد تجسد - وهو ما ينفيه الأمير شكيب أرسلان بقوله (وأما تجسد الإله فليس من عقيدتهم كما يتهمهم بعضهم ، والتجسد شئ والسرائي شئ آخر [٣] - أو سمي ترائي أو حلول أو تجلي أو ظهور أو حلول اللاهوت في الناسوت فإن ذلك لن يغير شيئاً في حكم الإسلام ببطان هذا المعتقد والحكم علي معتقده بالكفر الصريح ، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : " ولاريب أن هذا القول - الحلول والتجسيد - كفر صريح باتفاق المسلمين ، فقد ثبت في صحيح مسلم ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت) [٤] فإذا قيل : ظهر في صورة إنسان وتجلي فيه فإن اللفظ بصير مشتركاً بين أن تكون ذاته فيها ، وأن تكون قد صارت بمنزلة المرأة التي يظهر فيها ، وكلاهما باطل ، فإن ذات الله ليست في المخلوقات ولا في نفس ذاته ترى المخلوقات كما يرى المرئي في المرأة) [٥] .

ويؤكد شيخ الإسلام ابن تيمية في موضع آخر إمتناع الإتحاد بين الخالق والمخلوق فيقول : (إن الإتحاد بين الخالق والمخلوق ممتنع ، لأن الخالق والمخلوق إذا إتحدوا ، فإما أن يكونا بعد الإتحاد إثنين كما كان قبله ، وهذا تعدد وليس بإتحاد ، وإما أن يكون الخالق قد إستحال وتبدلت حقيقته كسائر ما يتحد مع غيره ، وهذا ممتنع على الله ، إذا الإستحالة تقتضي عدم ما كان موجوداً والله تعالى واجب الوجود بذاته وصفاته الملازمة له والتي هي الكمال ، والتي إذا عدمت كان ذلك نقصاً يتزعه الله تعالى عنه) [٦] .

[١] ، [٢] الحركات الباطنية ، ص ٢٢٨

[٣] من مقال الأمير محل الدراسة

[٤] رواء مسلم في كتاب الفتن ورواه الترمذي في كتاب الفتن

[٥] ابن تيمية : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ، مجلد ٢ ، ص ١٧٩ - ١٨٠

[٦] أنور الجندي / المؤامرة على الإسلام ، ص ٥٤ ، عن عقيدة الدروز ص ٢٠١

وينقل الأستاذ أنور الجندى عن أبي حامد الغزالي قوله عن فكرة الإتحاد بين الله والإنسان :
(أن قول القائل : أن العبد صار هو الرب كلام يناقض نفسه ، بل ينبغي أن يتنزه للرب
سبحانه عن أن يجرى اللسان في حقه بأمثال هذه المحاولات . وطريقة البرهنة علي فساد
ذلك عند الغزالي ، هي أن يورد ثلاثة احتمالات لمثل هذا الإتحاد المزعوم :

١- إما أن تظل كل ذات من الذاتين موجودة .

٢- وإما أن تغنى إحداهما وتبقى الأخرى .

٣- وإما أن تغنيا معاً .

في الحالة الأولى : لا يكون هناك إتحاد وفي الثانية : كيف يمكن الزعم بأن هناك إتحاد بين
موجود ومعدم ؟ وفي الثالثة : لا يكون هناك محل للحديث عن الإتحاد ، بل الأولى أن نتكلم
عن الإتحاد والتناقض واضح في جميع هذه الاحتمالات . والعقل هو الذى يقرر وجود هذا
التناقض ، بعد أن جاء الشرع يبين فساد فكرة الإتحاد عند النصارى [١] .

نستنتج مما تقدم أن فكرة تجسد الإله في صورة إنسانية هو إجترأ علي الله الذى
(ليس كمثله شيء وهو السميع العليم) ، وهي فكرة جاء الإسلام لمحوها من عقول الناس ،
لأنها مستفاه من مذاهب وفلسفات تقوم علي الشرك والوثنية ، لذلك جاءت آيات كثيرة تكشف
كفر اليهود والنصارى لقولهم وإعتقادهم في حلول الله بإنسان . يقول الله تعالى : (وقالت
اليهود عزيز ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهنون قول
الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من
دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما
يشركون) [٢] .

وإرسال الرسل والأنبياء من قبل الله تعالى ، يدحض كل مزاعم بالحلول والإتحاد ، إذ
بظهوره وحلوله أو إتحاده في الإنسان ، ماكانت هناك حاجة للرسل والأنبياء . كما نستنتج
من ذلك أن فكرة الحلول والإتحاد لايمكن أن تتفق مع التوحيد الذى هو عقيدة المسلم كما
نفهمه من القرآن والسنة ، وكما نفهمه من أول كلمه ينطق بها الإنسان ليكون مسلماً هو
شهادة أن (لا إله إلا الله محمد رسول الله) .

[١] أنور الجندى / المواجهة علي الإسلام ، ص ٥٥

[٢] سورة التوبة ، آية ٣٠ ، ٣١

ولو أن هؤلاء الذين يعتقدون بالوهمية الحاكم وماز الواهى فى الضلالات والمناهات التى وضعها حمزه بن علي ، أصغوا إلى نداء عقولهم ما بقي واحد منهم على هذا الاعتقاد الواهى الذى لا يصدق عقل ، ولا تستسيغه نفس ، ولا يتفق مع الإسم الذى يرضونه لمذهبهم وهو إسم (مذهب التوحيد) ولا نجد مجالاً للإعتراض بأن دروز اليوم ينفون تأليه الحاكم بأمر الله عن معتقدتهم بعد ما ذكره الأستاذ عبد الله النجار فى كتاب (مذهب الدرود والتوحيد) أثناء حديثه عن الحاكم بأمر الله ، الذى يقول فيه : (وإني لأذكر عتاب كبير الأُمُياخ للفتات لأني ذكرت فى أحد الكتب المطبوعة أن أم الحاكم كانت صقلية . إذ قال لي أن الحاكم لا أم له ، مردداً ما جاء فى الرسالة ٢٦ :) حاشاً مولانا جلى ذكره من الأب والإبن والعم والخال . لم بلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) !! [١] .

يوم القيامة والثواب والعقاب

يعتقد الدرود أن الحاكم أظهر لاهوته سنة ٤٠٠ هـ ، وكان يتظاهر أنه من الخلفاء الفاطميين لستر ألوهيته لقلّة المؤمنين به ، وإستمر يظهر لاهوته حيناً ويخفيه حيناً آخر إلى أن أخفاه فى السنة الثانية عشرة (أي سنة ٤١١ هـ) ولا يظهر لاهوت آخر مرة أخرى إلا يوم الدين . فمتى سيكون هذا اليوم ؟ .

لم يحدد الدرود تاريخ هذا اليوم ، فرسائلهم تقول إن ذلك أمر مجهول ولكن سيكون ذلك فى شهر جمادى أو فى شهر رجب ، ولهذا اليوم علامات محددة عندهم [٢] . وقد اختلفت رسائل الدرود فى مكان ظهور الحاكم (بناسوته) فى هذا اليوم الآخر ، فبعضها وخاصة كتابات حمزة تذهب إلى أن ظهوره سيكون بمصر ، أما رسالة الأسرار ففيها تصريح بأن المعبود سيكون فى بلاد الصين يخرج من سد الصين العظيم وحوله شعب بأجوج ومأجوج وهم قوم يؤمنون بمذهب التوحيد [٣] ، ويكونون مليونين ونصف من العساكر مقسمة إلى خمسة أقسام ، كل قسم منها يتراأس عليها أحد الحدود فيدخلون مكة المكرمة [٤] .

[١] مذهب الدرود والتوحيد / عبد الله النجار ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

[٢] طائفة الدرود / محمد كامل حسين ، ص ١٢٤ .

[٣] طائفة الدرود / ص ١٢٥ .

[٤] الحركات الباطنية / ص ٢٤٨ .

ثم يتجلى لهم المعبود في صورة الحاكم بأمر الله من الركن اليماني وفي يده السيف فيقدمه إلى حمزة الذي يهدد بسيف الحاكم مخالفه العقيدة ويعطي الحكم للموحدين [١] .
ويعتقد الدروز أن الناس سينقسمون في يوم البعث إلى أربع فرق هم :

- أولاً : الموحدون (وهم عقال الدروز) ، وهم الوزراء والحكام والسلاطين .
- ثانياً : أهل الظاهر ، وهم المسلمون واليهود .
- ثالثاً : أهل الباطن ، وهم النصارى والشيعية .
- رابعاً : المرتدون ، وهم جهال الدروز [٢] .

ويجعل حمزة لكل طائفة غير أصحابه سيمة في جبينه أو يده ، وعذابا يتأذى به ، وجزية يؤديها كل عام ، ونحو ذلك من الهوان [٣] (عن مخطوطة في تقسيم جبل لبنان والمؤلف مجهول) .

أما عقيدة الدروز فيما يتعلق بالثواب والعقاب فمرتبطة بإعتقاد آخر يؤمن به الدروز وهو إيمانهم بالتناسخ والتقمص أي بانتقال النفس من جسم بشري إلى جسم بشري آخر ، فالأرواح - كما يزعمون - لاتموت لتبعث ، ولاتنام لتوقظ ، بل أن يوم الحساب - في نظرهم - نهاية مراحل الأرواح وتطويرها في الأجساد ، إذ يبلغ في هذا الوقت (التوحيد) غايته من الانتصار على العقائد الشركية ، وينتهي الانتقال والمرور في الأقمصة المختلفة [٤] . فالدروز يعتقدون أن المعبود ظهر في صورة ناسوتية حوالي سبعمائة مرة [٥] ، وأن حمزة بن على (العقل الكلي أو قائم الزمان) قد ظهر بأسماء مختلفة في كل دور من الأدوار التي ظهر فيها إليهم .

ويرى الدكتور محمد كامل حسين أن كتابات الدروز متناقضة في مسألة التناسخ ، فكتاباته حمزة بن على مؤسس المذهب بها تهكم بمن قال بالتناسخ شأنه في ذلك شأن

[١] طائفة الدروز / ص ١٢٥

[٢] دراسات في الفرق والمذاهب / عبد الله الأمين ، ص ١٤٩

[٣] تحركات الباطنية / ص ٢٤٩

[٤] مذهب الدروز والتوحيد / عبد الله التجار ، ص ٨١

[٥] طائفة الدروز / ص ١٠٩

دعاة الفاطميين ، مع اعترافه بظهور المعبود في صور ناسوتية ، وقوله أيضاً بأنه هو نفسه (أى حمزة بن على) ظهر في صور مختلفة في الانوار المختلفة ، معاً يدل على أن مفهوم التناسخ أو الحلول عند الفلاسفة هو غيره عند حمزة . اما في كتابات الدعاة الآخرين الذين جاءوا بعد حمزة ، فمذهب التناسخ واضح اشد الوضوح ، فنجد في رسالة الاسرار ومجالس الرحمة للأولياء الأبرار) أن الجسد لا يرجع بعد الموت ولكن النفس تحل في جسد آخر ، فنفس الموحّد تنتقل الي موحّد والمُشرك الي مُشرك ، ولا تتغير الأُنفس ولكنها تُغير قمصاتها (أى الجسد) [١] . ولذلك فهم يزعمون أن عددهم لا يزيد ولا ينقص ، لأن التقمص عملية دائمة متواصلة بين أرواحهم . وفي هذا المعنى يقول (بهاء) في أحد رسائله : (أليس قد صح عند كل ذى عقل ومعرفة بالحقيقة والفضل ، أن هذه الاشخاص ، أعنى عالم السواد الأعظم لم يتناقصوا ولم يتزايدوا ، بل هى أشخاص معدودة من أول الانوار الي انقضاء العالم والرجوع الي دار القرار .. أليس لو زاد العالم في كل ألف سنة شخصاً واحداً لضاقت بهم الارض . ثم لو أنه نقص في كل ألف سنة شخص واحد لم يبق منهم أحد ، فصح عند كل ذى عقل راجح أن الأشخاص لم تتناقص ولم تتزايد ، بل تظهر بظهورات مختلفة الصور على مقدار اكتسابها من خير وشر [٢] . ومن هنا كان اعتقاد الدروز الآن بالتناسخ ، فالذى يموت من البشر تنتقل روحه الي جسد يولد جديداً ، ويكون عدد الموتى مساوياً لعدد المواليد حتي يظل عدد سكان العالم دون زيادة أو نقصان [٣] . وبناء علي اعتقادهم هذا بالتقمص ، فانهم يؤمنون أن العذاب الواقع للإنسان يكون بنقلته من درجة عالية الي درجة دونها من درجات الدين وقلة معيشته وعمى قلبه في دينه ودنياه ، ويستمر تنقله من جسد الي جسد بتناسخ روحه في الأجساد وهو كلما تنتقل روحه من جسد الي جسد تقل منزلته الدينية . أما الثواب عندهم فيكون بنقلته بين الأجساد وارتفاعه في العلوم الدينية من درجة إلى درجة إلى أن يبلغ درجة حد " المكاسر " وهو حد من حدود الدين فيزيد في مالها الي أن يبلغ الي ارقى حد من حدود الدين [٤] .

ويحاول الدروز أن يجعلوا من آيات القرآن الكريم التي تدل علي البعث والنشور ، دليلاً علي اعتقادهم بالتقمص ، فهذا أحد كتبهم المعاصرين الأستاذ فؤاد الأطرش يأتي بعدة آيات

[١] طائفة الدروز / ص ١٠٩

[٢] رسالة " من دون فائم الزمان والهادي إلى طاعة الرحمن " عن الحركات البابلية ، ص ٢٤٠

[٣] ، [٤] طائفة الدروز ص ١١٢ ، ١٢٥

يزعم انها تدل علي التناسخ والتقمص ، ومن هذه الآيات قول الله تعالى ، " كلما مضجت جلودهم ، بدلناهم جلودا غيرها " [١] ، " كيف تكفرون بالله ، وكنتم امواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون " [٢] وقوله عز وجل (يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ويحيي الارض بعد موتها وكذلك تخرجون) [٣] . ويزعم الأطرش بعد مجيئه بالآيات بقوله : ان تشبيه النفس بالارض اثبات مادي علي التقمص لايقبل الجدل ، فلنتأمل في ادوار الأرض ومواسمها وموتها ثم حياتها . ويعلق الدكتور محمد أحمد الخطيب علي هذا بان الاستدلال بشيء لايعنى ابدا صحة هذا الاستدلال [٤] . والحقيقة أن مذهب التناسخ كان معروفا في الديانة البوذية والديانة الهندوكية ، كما عرف ايضا أن اليونانيين القدماء تحدث عنهم الفلاسفة وقسموه بين نسخ وفسخ ومسح ورسخ [٥] الا أن هذا المذهب دُخِل علي الاسلام ، بحكم الاسلام انه عقيدة باطلة تؤدي الي الكفر ، لأن الأخبار اليقينية التي جاءت عن طريق القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم بينت بطلان هذا الاعتقاد ، وأن الانسان بعد موته يسأل في القبر . فقد ثبت في السنة سؤال الملكين بعد الموت ، وفي القبر ، وهذا يدل بوضوح علي بطلان ما يتوهم به البعض من أن الروح تظل متقلة بين الأجسام ، كلما انتسخ وجود واحدة منها في جسدها التي هي فيه وانتقلت منه الي جسد آخر ، وهكذا نواليك [٦] .

والأمير شبيب أرسلان يحاول أن ينفي عن الدروز اعتقادهم بتناسخ الأرواح في مقاله السابق ذكره فيقول متحدثا عن الدروز انهم يحفظون القرآن الكريم ويلقن ملقنهم الميت ، واذا جاءك منكر ونكير وسألك ، ما نبيك ، ومن نبيك ، وما كتابك ، ومن اخوانك ، وما قبلك ؟ فقل لهما الاسلام ديني ، ومحمد صلى الله عليه وسلم نبيي ، والقرآن كتابي ، والكعبة قبلتي ، والمسلمون اخوتي .

يروى الأمير هذا ليؤكد إيمان الدروز بسؤال الملكين ، بعد الموت وهو الامر الثابت في

[١] سورة النساء ، آية ٥٦

[٢] سورة البقرة ، آية ٢٨ ، وقد وردت الآية هكذا بالكتاب والصحيح ' كيف تكفرون بالله ... '

[٣] سورة الروم ، آية ١٩

[٤] الحركات الباطنية ، ص ٢٤٣

[٥] طائفة الدروز ، ص ١٠٩

[٦] الحركات الباطنية ، ص ٢٤٤

القرآن والسنة مما يدل علي أن الروح مشغولة بصاحبها محبوسة له أو عليه .

غير أن الثابت من كتاب الدروز بعد حمزة بن علي ، ومما كتب عنهم من علماء متخصصين اطلعوا علي رسائلهم وكتبهم القديمة والمعاصرة ، يؤكد إيمان الدروز بالنقص علي النحو الذي بينا . ويؤيد هذا ماكتبه الدكتور سامي مكارم - والذي ينطق باسم مشيخة عقل الدروز - في كتابه (أضواء علي مسلك التوحيد) حيث يقول " إن الذين تقبلوا الدعوة وتعرضوا إلى الحقيقة في الماضي لايزالون يولدون من تقبل الدعوة . كذلك فإن النقص في معتقد التوحيد ليس تطورا للروح في هذا الدور ، بل هو قلب الروح في شتى الاحوال ، لكي يتسنى لها أن تختبر هذه الاحوال " [١] .

فمن لم يتقبل نداء الحق ، حسب معتقد التوحيد ، لايمكنه الا أن يحصد نتيجة أعماله في حياته التالية ، وكذلك الحال بالنسبة لمن تقبل هذه النداء وتعرف إلى الحقيقة " [٢] . وفي موضع آخر من كتابه يرد علي الأستاذ النجار الذي كذب في كتابه (مذهب الدروز والتوحيد) ، أن يتذكر انسان ما جرى في حياته السابقة وهو مايعرف عند الدروز (بالنطق) فيقول في معرض رده : " ويمكننا القول أن منطق عملية النقص لايتعارض مع تذكر الماضي ، خاصة عندما ندرك أن نزعات الفكر اللطيفة ، حسب عقيدة التوحيد ، تتطوى عند الموت ، في أعماق النفس المتنقلة من جسد إلى جسد . وهذه النزعات والافكار اللطيفة ، كبذور لإطلاق الحياة التالية ، هي التي تحدد وضع النقص المقبل ، فلا بد لبعض الأذهان إذا صادفت بعض الحالات المناسبة ، أن تتذكر الماضي المباشر الذي كانت تعيش فيه " [٣] . كل هذا لايدع مجالاً للشك في اعتقاد الدروز الآن بالتناسخ أو النقص علي مايشتمل عليه ذلك من مخالفة للدلة الشرعية الصريحة من القرآن الكريم والسنة .

ومن الآيات القرآنية التي تبطل هذا المعتقد ، قول الله تعالى مخبرا عن حياة البرزخ : " فلولاً إذا بلغت الحلقوم ، وأنتم حينئذ تنظرون ، ونحن أقرب إليهم منكم ولكن لا تبصرون ، فلولاً إن كنتم غير مدنيين ترجعونها أن كنتم صادقين ، فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم ، وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين ، وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم " [٤] .

[١] . [٢] . [٣] أضواء علي مسلك التوحيد / سامي مكارم ص ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٧

[٤] سورة الواقعة ، آية ٣٨ ... الحركات الباطنية ص ٢٤٤

وقال تعالى " واعد ربك حتى يأتيك اليقين " واليقين ما بعد الموت ، كما قال صلى الله عليه وسلم : " أما عثمان بن مظعون فقد جاءه اليقين من ربه [١] . وقد ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أتى المشركين يوم بدر في القلب ناداهم : " يا قلائد ، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ، فقد وجدتم ما وعنى ربى حقاً " وهذا دليل على وجودهم وسماعهم ، وأنهم وجدوا ما وعدوه بعد الموت من العذاب [٢] . وقد أخبرنا تعالى بأن هذه الإبدان التى فيها ارواحنا ستشهد علينا يوم القيامة بما عملت ، قال الله تعالى : " و يوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون ، حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ، وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون " [٣] .

مما تقدم من الأدلة الشرعية من الآيات والأحاديث دليل على بطلان التناسخ . وممن تعرضوا لمسألة التناسخ من علماء السلف ابن حزم الظاهرى رحمه الله ، الذى يقول عن عقيدة التناسخ أنه اعتقاد لا يقوم على برهان حسى أو عقلى ، وقد قامت الأدلة على حدوث العالم ، وما كان حادث فلا بد له من نهاية [٤] . وينقل ابن حزم عن القائلين بالتناسخ قوله : " إلى أن التناسخ هو على سبيل الجزاء ، ذلك أن الله تعالى عدل حكيم رحيم كريم فإذا هو كذلك فمحال أن يعذب من لا ذنب لهم بالجدى والقروح ، فعلما أنه تعالى لم يفعل ذلك إلا وقد كانت الأرواح عصاة مستحقة للعذاب بكسب هذه الأجساد لتعذب فيها " [٥] . ويشابه هذا اعتقاد الدروز أن من ذوى العاهات والمصابين كالأعمى والأعرج والفقير والجاهل ، كان مصابهم هو قصاص من ذنوبهم فى مدة حياتهم السابقة [٦] .

[١] سورة الحجرات آية ٩٩ - الحركات الباطنية ص ٢٤٥

[٢] رواه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد (عن الحركات الباطنية ص ٢٤٥)

[٣] سورة فصلت آية ١٩-٢٢ (عن الحركات الباطنية ص ٢٤٥)

[٤] المرجع السابق ص ٢٤٦

[٥] المرجع السابق ص ٢٤٦

[٦] الدروز والثورة السورية / كريم ثابت ص ٤٨

ويرد ابن حزم هذا الزعم بقوله : "ويكفى بطلان هذا الأصل الفاسد أن يقال له أن الحكيم العدل الرحيم على أصلكم لا يخلق من يعرضه للمعصية حتى يحتاج إلى إفساده بالعذاب بعد إصلاحه ولقد كان قادراً على أن يطهر كل نفس خلقها ولا يعرضها للفتن ويلطف بها إطفافاً فيصلحها بها حتى تستحق كلها إحسانه والخلود في النعيم ، وما كان ذلك ينقص شيئاً من ملكه " [١] .

وبناء على هذا فإن اعتقاد التناسخ باطل من الوجهة الشرعية العقلية ، والأصل في الشريعة أن كل قول لم يأت عن نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم فهو كذب وفساد ، وما دام لم يأت عن أحد من الأنبياء عليهم السلام القول بكل هذه المزاعم فقد أصبح قول الدرور فيها باطلاً.

تأويل آي القرآن الكريم

التأويل هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقتضيه به ، فإذا لم يكن اللفظ محتماً للمعنى الذي حمل عليه ولم يبين المتأول الدليل الذي حمّله على ذلك كان تأويلاً فاسداً بل تلاعباً بالنصوص [٢] .

وقد اتخذ الغلاة في الإسلام التأويل وسيلة لجعل عقائدهم شرعية وصحيحة ، فكان التأويل أداة لإيهام الناس أن آرائهم متفقة مع نصوص القرآن الكريم . ويجمع أهل السنة على تسمية هؤلاء الغلاة بالباطنية لأنهم جعلوا للقرآن ظاهراً وباطناً ، أما الظاهر فهو دلالات ألفاظه العربية حقيقة أو مجازاً ، وأما الباطن فهو ما وراء هذا الظاهر أو هذه الدلالات.

وهكذا أخذ الغلاة من الباطنية يحرفون اللفظ القرآني عن معناه الذي سيق له إلى معانٍ تتفق مع عقديتهم وتتسمج مع أهوائهم ، حتى صارت تلك الفرق الباطنية ترى في التحوير للمعنى الظاهري السبيل الوحيد لتفهم القرآن ، وبذلك أهملوا التفسير الصحيح ، بل صارت أحكام القرآن في رأي أتباع تلك الفرق غير واجبة الإتيان .

[١] الحركات الباطنية ص ٢٤٦

[٢] التفسير والمفسرون / د. الذهبي عن الفرق والمذاهب ص ٤٧

يقول الإمام أبو حامد الغزالي ، في كتابه فضائح الباطنية ، "فإنما لقبوا بها (أى الباطنية) لدعواهم أن لظواهر القرآن والأخبار بواطن ، تجرى في الظواهر مجرى اللب من القشور ، وأنها (أى الظواهر) بصورها ، توهم عند الجهال الأغبياء صوراً" جليلة ، وهى عند الأنكياء العقلاء رموز وإشارات الى حقائق معينة ، وإن من تقاعد عقله عن الفوص على الخفايا والأسرار ، والبواطن والأغوار ، وقنع بظاهرها ، مسارعا الى الإغترار كان تحت الأواصر والأغلال ، معنى (أى متقللاً) بالأوزار والأتقال وأرادوا بالأغلال : للتكليفات الشرعية ، فإن من ارتقى الى علم الباطن انحط عنه التكليف ، واستراح من أعبائه ، وهم المرادون بقول الله تعالى : ((يضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم)) أى يضع الله التكليف عن الذين علموا الباطن" [١] . والباطنيون بتأويلهم أى القرآن الكريم تأويلاً باطنياً يnehجون نهج اليهود الذين وضعوا كتاباً للتأويل الخفى للتوراة وأهم مسأله رية التعاليم وإمكان فك رموز التوراة ، وكذلك رمزية الأعداد والحروف ، وسموا كتابهم هذا (القبالة) وإليه تسب طائفة (القبالية) عند اليهود [٢] . "وكان تأويل ابن سبأ لقوله تعالى ((ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد)) وقوله : إني لأعجب ممن يقول برجمة عيسى ولا يقول برجمة محمد (ص) ، أول تأويل لمعاني القرآن الكريم ، فوضع بذلك هذا المذهب الباطنى بما فيه من قول بالرجعة ، والذى نشأ عليه مذهب التناسخ وقالت به حركات الغلو الأخرى" [٣] .

وطائفة الدروز كخيرها من الفرق الباطنية تؤول أى القرآن الكريم تأويلاً يتفق مع عقائدهم وإن خالف تأويلهم ظاهر النص وإجماع المفسرين . وقد مر بنا كيف أتى أحد كتابهم المعاصرين وهو الأستاذ فؤاد الأطرش بعدة آيات وزعم انها تدل على التناسخ والتقمص لا على البعث والنشور كما أجمع المفسرون ومنها قول الله تعالى ((كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها)) [٤] ، وقوله عز وجل ((يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون)) [٥] .

[١] عن الشيعة - المهدي الدروزى / د. عبد المنعم النمر ، ص ١٢١ .

[٢] دراسات في الفرق والمذاهب ص ٤٨ عن المعجم الفلسفى / د. جميل صليبا ج ٢

[٣] الحركات الباطنية ص ٣٢

[٤] سورة النساء آية ٥٦

[٥] سورة الروم آية ١٩

ويزعم الأطرش بعد مجيئه بالآيات بقوله: ان تشبيه النفس بالأرض اثبات مادي على التقمص لايقبل الجدل ، فلنتأمل في أدوار الأرض ومواسمها وموتها وحياتها" [١] .

ومن النماذج البارزة لتأويل الدروز لآيات القرآن الكريم اثباتا لمعتقداتهم ما ذكره حمزة في رسالته (الموسومة بكشف الحقائق) ، وفيها يفسر آيات من سورة الحاقة لإثبات صحة ما ذهب اليه في حدود الدين فيقول : "فهؤلاء الحنود المبعون الذين ذكرناهم ، هم أذرع السلسلة الذي قال في القرآن [٢] : "خذوه فغلوه" ، أى ضد الإمام إذا بلغ غايته وتمت نظريته ، خذوه بالحجج العقلية وغلوه بالعهد وهو الذبح الذي قالوا بأن القائم ينبج إبليس الأبالسة ، "ثم للجحيم صلوه" ، أى غوامض علوم قائم الزمان الذى يتحتم للعلماء والفهاء عند علمه ، أى يصمتوا ويتخيروا ، "ثم فى سلسلة ذرعا سبعون ذراعا فاسلكوه" أى ميثاق قائم الزمان الذى هو سلسلة بعضها فى بعض ، وهم سبعون رجلا فى دعوة التوحيد .

"وبعد هذا التفسير العجيب للغريب لآيات الله نجد حمزة فى هذه الرسالة يعيب على المسلمين الذين يفسرون هذه الآيات بأنها تهديد لأهل النار ويقول: "فهذه السلسلة الحقيقية ومعانيها ، لاكما ذكره الجاهل الحشوية ، فإن قالوا : بأن الله أراد بالسلسلة تهديد أهل النار والتعظيم عليهم فقد بطلت حجتهم هاهنا لأنه قال سبعون ذراعا ، ولو كان بسبب التعظيم لكان يجب ان يكون ألف ذراع ، فلما لم يذكر غير سبعين ذراعا ، أعلمنا انه اراد بذلك اشخاصا معروفة دينية توحيدية لايجوز لأحد أن يتجاوز حدهم ولايزيد ولا ينقص" [٣] .

وتأويل حمزة هذا لآيات سورة الحاقة يحاول به اثبات مبدأ اساسى فى العقيدة الدرزية ، وهو أن معبودهم اظهر من نوره حدودا خمسة ، ظهروا مع هذا المعبود فى جميع ظهوراته ، ورد ترتيبهم فى رسالة معرفة الإمام إلى :

أولاً : العقل الكلى وهو الحد الأول الذى أبدعه المعبود من نوره ، ويطلقون عليه أيضا دومعه ، وعلة العلل والأمر قائم الزمان ، والإرادة ، والإمام الأعظم ، وهادى المستجيبين وهو حمزة بن على بن احمد .

[١] الحركات الباطنية ص ٢٤٣

[٢] يقول الدكتور محمد أحمد الخطيب : هذه عادة حمزة ودعاته حينما يستشهدون بالقرآن . لا يذكرون من القائل لأنهم لا يعترفون بأنه من عند الله سبحانه

[٣] الحركات الباطنية ص ٢٥٨

ثانياً : النفس وهو الحد الثانى الذى أوجده العقل الكلى ويطلقون عليه أيضاً ذو مصّة ، والمشيئة ، وإدريس زمانه ، وأخنوخ أوانه ، وهرمس الهرامسة ، والحجة الصافية الرضية ، والشيخ المجتبى ، وهو أبو إبراهيم اسماعيل بن محمد بن حامد التميمى ، شهر حمزة بن على .

ثالثاً : الكلمة وهو الحد الثالث ويطلقون عليه أيضاً سفير القدرة ، وفخر الموحدين ، وبشير المؤمنين ، وعماد المستجيبين ، والشيخ الرضى ، وهو أبو عبد الله محمد بن وهب الفرشى .

رابعاً : السابق وهو الحد الرابع ويطلقون عليه الجناح الأيمن ، ونظام المستجيبين ، وعز الموحدين وهو أبو الخير سلامة بن عبد الوهاب السمرى .

خامساً : التالى وهو الحد الخامس والأخير ويطلقون عليه أيضاً : الجناح الأيسر ، ولسان المؤمنين ، وسند الموحدين ، ومعدن العلوم ، والذى يقول بالأفعال الصحيحة المعلومة ، والناصح لكافة الخلق أجمعين ، وهو الشيخ المقتضى بهاء الدين أبو الحسن على بن أحمد السموقى المعروف (بالضيف) [١] .

وقد جعل حمزة لمرتبة العقل سبعين حجة (أو درجة) هم حنود الإمامة والتوحيد ، وهم سبعون درجة موزعين ومنظمين حسب الشكل التالى :

١- النفس الكلية وله اثنا عشر حجة فى الجزائر ، وسبعة دعاة للأقاليم.

٢- الكلمة وله اثنا عشر حجة وسبعة دعاة .

٣- السابق وله اثنا عشر حجة فقط .

٤- التالى وله اثنا عشر حجة فقط ..

٥- الداعى المطلق وله مائتون واحد ومكالبان (أو مكاسران) .

وعن هؤلاء الحدود السبعين تفرعت الحدود جميعاً بين دعاة ومائتوين ومكاسرين .
وجميع الحدود الحرم منهم (الحرم هم الأربعة الذين يتلون للعقل الكلى) وغير الحرم كلهم من قبل العقل الكلى يسقط منهم من يريد ويرفع درجة من يشاء .

والحدود السبعون هم الذين ذكروا في القرآن الكريم على ما أوله حمزة بن علي بالآية الكريمة السابق ذكرها من سورة الحاقة ((ثم في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعا فاسلكوه)) أي ان ميثاق قائم الزمان حمزة بن علي الذي هو سلسلة بعضها في بعض وهم سبعون رجلا في دعوة التوحيد فمثل حمزة حدوده بالسلسلة لأن دعوتهم منتظمة بعضها ببعض [١].

كما تأول الدروز ((بسم الله الرحمن الرحيم)) تأويلاً هو نفس تأويل الفاطميين تقريباً ، فقالوا إن ((بسم الله)) سبعة أحرف دليل على سبعة دعاة أصحاب الأقاليم السبعة ، و ((الرحمن الرحيم)) اثنا عشر حرفاً دليل على اثني عشر دعاة الجزائر [٢].

وهذا التأويل مرتبط بتقسيم الإسماعيلية الأرض إلى عدة جزر ، وكل جزيرة تحتوى عدة أقاليم ، فالحجة مسئول عن الجزيرة ، والداعية عن الإقليم ، وقد أخذ حمزة ذلك عن الإسماعيليين .

ويعتقد الدروز أن حمزة ظهر في الأوار الكبرى والأوار الصغرى بأسماء مختلفة فهو شطنيل في نور آدم ، وفيثاغورث في نور نوح ، واليعازر في نور عيسى ، وأنه أي حمزة هو المسيح الحقيقي الحى الأبدى . والنظرية "التوحيدية" المتعلقة بدور عيسى تقول إن "الممد" لعيسى هو يسوع ، إذ أن لكل ناطق ممداً .

"ويسوع هو السيد الإمام العظيم ، صاحب البرهان والمعجز الذى اشارت اليه الرسل . وهو الذى تبعه الحواريون إخوته الأكرمون ؛ صلى الله عليه وسلم ، فلما صلب عيسى ودفن اجتمع يسوع بتلاميذه ... ((وما قتلوه وما صلبوه . ولكن شبه لهم)) وهذا ترديد للآية ١٥٧ من سورة النساء وتماها ((وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا . بل رفعه الله إليه)) [٣] . وهكذا يتأول الدروز ما ورد في القرآن الكريم عن الأنبياء بتأويلات خاصة لإثبات عقائدهم .

وإذا تتبعنا تأويلات الدروز لآيات القرآن الكريم لصعب علينا حصرها لكثرتها وغرابتها ، وقد مر بنا تأويلهم لقول الله تعالى ((فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب)) [٤] .

[١] محمد كامل حسين ، طائفة الدروز ، ص ١١٤

[٢] محمد كامل حسين ، طائفة الدروز ، ص ١١٥

[٣] عبد الله النجار ، مذهب الدروز والتوحيد ، ص ١٢٩

[٤] سورة الحديد ، جزء من الآية ١٣

تقول الرسالة ٣٦ إن الدين "الظاهر من قبله العذاب" والباطن (أى التأويل) فيه الرحمة (أى فيه مذهب التوحيد) ولم يقل هو الرحمة . وفى الشيء ما أودع فيه ، وليس هو الشيء بعينه . فدل بأن الباطل (أى التأويل) يدل على الرحمة (أى التوحيد) (١) . وفسرت الرسالة ٣٨ هذه الآية بقولها : ((السور الشريعة والباب الأساس كما قال الناطق : أنا مدينة العلم وعلى بابها . الباطن (أى التأويل وهو باطن التنزيل) فيه الرحمة (أى "حكمة" التوحيد) دليل على أن الرحمة غير الباطن (أى أن "الحكمة" غير التأويل) ... والقائم (أى العقل) صاحب الرحمة" (٢) .

وبهذا يتحول كتاب الله الى رموز وألغاز لا يمكن ان يفهمها أو يفسرها أحد المؤمنين إلا من خلال تأويلات حمزة بن على ، فهل يمكن لمثل هذه التأويلات أن تمت إلى الإسلام بصلة ، يقول الله تعالى: ((هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون أمانا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الأبواب ، ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب)) (٣) .

فأهل الضلال هم الذين يأخذون من كتاب الله بالمتشابه الذى يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم وينزلوه عليها ابتغاء الفتنة لإضلال أتباعهم إيهاماً لهم أنهم يحتاجون على بدعتهم بالقرآن .

ولقد فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين عنتهم الآية الكريمة : ((فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه)) - يعنى آيات القرآن الكريم - ((ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله)) ... إلخ ، فيما رواه الإمام أحمد عن عائشة رضى الله عنها أنه قال: "فإذا رأيتم الذين يجادلون فيه ، فهم الذين عنى الله فاحذروهم" وهى رواية البخارى (٤) ، فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم (٥) .

[١] عبد الله النجار ، مذهب الروز والتوحيد ، ص ٤٠

[٢] المرجع السابق

[٣] سورة آل عمران أية ٧ ، ٨

[٤] صحيح البخارى ج ٨ ص ٣٤٣ كتاب التفسير

[٥] تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤ - ٦

فالإسلام دين سهل واضح لا غموض فيه ولا تعقيد ولا رموز ، وقد احتج الله تعالى على العرب ، بأن القرآن عربى ، ومفهوم لهم ((إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون)) . فى أول سورة يوسف و ((إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون)) . فى أول الزخرف كما أفاد ذلك فى عدة مواضع ، واحتج على العرب بأنه عربى مفهوم للجميع ، وليس بأعجمى .
ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد ترك المسلمين على المحجة الواضحة ، لينها كنهارها ، فكل من حاد عن هذه السبيل ، فإما أعرض عن الصراط المستقيم ، وتفرقت به السبل ، حتى خرج بعضهم عن طريق الإسلام .

ونصوص القرآن الكريم تفهم طبقا لقواعد اللغة العربية من غير تعسف ولا تكلف ووفق ما فهمها صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن قال هؤلاء أو غيرهم : إن هذه المعاني الظاهرة إنما هي للعوام الجهلة من أهل السنة ، فهم لا يقصدون إلا التهرب من الاحتكام للقرآن .

وقد رد بعض المؤرخين فكرة التأويل الباطنى للقرآن الذى لا يعلم تأويله إلا الإمام ، إلى أصلها المجوسى الفارسى لأن الفرس اعتقدوا أن ملوكهم منحدرين من أصلاب الآلهة وأن الشاهنشاه إنما هو تجسيد الإله ، فابتدع الغلاة فكرة التأويل وجعلوها خاصة بالإمام الذى تجب طاعته وبالوحى من بعده ولو كان فارسيا يهدف تقريب الإسلام من المجوسية [١] .

الدرزية كمذهب ينتسب إلى الإسلام

الأمير شكيب أرسلان يثبت أن فرقة الدروز فرقة إسلامية - كما مر بنا - في كل شيء وهي أشبه بالفرق الصوفية التي لها تعاليمها الخاصة ولها تأويلاتها الخاصة . والدروز يعتقدون أنهم في طليعة المسلمين الأولين ، يقول عبد الله النجار : "إن هذا المذهب متفرع من الإسلام ، والإسلام من حيث انحصاره في القرآن ، وعدم خروجه عنه ، هو مدار المذهب الذي يفسر آياته على طريقته الخاصة . فهو ليس ديانة ، وكتبته تسمى الحكمة ، مما يدل على مصدرها الفلسفي . الحافل بالنقد والتفسير والتحليل والدحض والإثبات والتأويل" [١] . ويؤكد الأستاذ عبد الله النجار أن الدروز مسلمون لأنهم يتمسكون (بالتوحيد) الذي هو صلب الإسلام ، وهو أيضا صلب جميع فرقته ، أما الاختلافات في أشكال العبادة ، وفي فهمها وتفسيرها ، وألوان ممارستها فهذا لا يخرج الفرقة من الدين ، لأن الانتقال من دين إلى آخر لا يكون إلا بالانتقال من اعتقاد إلى اعتقاد آخر في جوهر المعبود كالانتقال عن عبادة الأصنام ، إلى عبادة آلهة عديدة إلى إله مركب ، إلى إله واحد ، وهو التوحيد [٢] . والباحث المدقق يظهر له بجلاء أن الدروز وإن قالوا أن عقيدتهم تقوم على التوحيد ، فإنما يعنون توحيداً خاصاً بمذهبهم ، وإن قالوا أنهم يتجهون إلى إله واحد فإنهم يعنون رباً آخرأ غير رب العالمين الذي يتجه نحوه المسلمون بالتوحيد . أما قولهم أن مذهبهم منحصر في القرآن ، وعدم الخروج عليه والمذهب يفسر آيات القرآن تفسيراً باطنياً خاصاً ، فقد رأينا كيف يذهب هذا التفسير الباطني بالمعنى بعيداً عما يؤمن به غالبية المسلمين . ولكن مادام الدروز حريصين على الإنتساب إلى الإسلام فقد يكون مطلوب منهم أن يوضحوا موقفهم من شريعة الإسلام وأركانه ، ولما كان القرآن - الذي يعتبرونه مدار مذهبهم - قد أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو رسول الله ، فقد يكون مطلوب منهم أيضا أن يوضحوا صلة مذهبهم بالرسول الكريم .

وعلى الصفحات التالية نتعرض للبحث عن موقف الدروز من أركان الإسلام وكتبهم المقدسة ، وموقفهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من خلال ما كتبه الدروز وما كتب عنهم قديما وحديثا ، وذلك لبيان مقدار ارتباط المذهب بالإسلام .

موقف الدروز من أركان الإسلام

لقد فرض حمزة على أتباعه سبع فرائض توحيدية ، تُغنى عن الصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد . يقول حمزة فى أحد رسائله: "... إن مولانا جل ذكره قد أسقط عنهم السبع دعائم التكليفية الفاموسية ، وفرض عليهم سبع خصال توحيدية دينية [١]

أولها : وأعظمها صدق [٢] اللسان .

وثانيها : حفظ الإخوان .

وثالثها : ترك عبادة العدم والبهتان .

ورابعها : البراءة من الأبالسة والطغيان .

وخامسها : توحيد المولى جل ذكره فى كل عصر وزمان .

وسادسها : الرضى بفعله كيفما كان .

وسابعها : التسليم لأمره فى السر والحدثان " [٣] .

وهذه الفرائض السبع التى فرضها حمزة هى عوض عن أركان الإسلام الخمسة بالإضافة الى الى الجهاد والولاية [٤] .

وفى رسالة لحمزة بعنوان (الكتاب المعروف بالنقد الخفى) يحاول فيها حمزة أن أعمال الحاكم قد بينت وأظهرت نسخ الشريعة وأركان الإسلام ، وفيها يحاول أن يهدم الشهادتين وهما أول أركان الإسلام (لا إله إلا الله محمد رسول الله) حيث يبين أن الجملتين دليل على السابق والتالى ، ثم يزعم أن هذا الركن ليس كما يفهمه المسلمون ويؤمنون به [٥] .

ويخلص الدكتور محمد أحمد الخطيب ما ورد فى رسالة حمزة بما يلى:

١- الشهادتان بدلان على عبادة الحاكم ، وعلى حدود الدروز ولاندلان على ما يقصده

أهل السنة ، ولا الإسماعيلية .

٢- وأن الصلاة هى صلة القلوب بعبادة الحاكم .

[١] الحركات الباطنية ص ٢٧٦

[٢] الدروز لا ينطقون كلمة الصدق بالصاد لحساب الجمل ...

[٣] مذهب الدروز والتوحيد ص ١٤٨

[٤] هي من فرائض الشيعة ويقصدون بها ولاية الإمام

[٥] الحركات الباطنية ص ٢٧٨

٣- وأما الزكاة فهي عبادة الحاكم ، وتزكية النفس .

٤- والصوم صيانة قلوبهم بتوحيد مولا لهم .

٥- والحج هو توحيد الحاكم .

٦- والجهاد هو السعى فى توحيد الحاكم ومعرفة [١] .

ويؤكد الأستاذ عبد الله النجار (إن مذهب التوحيد يوصى بممارسة الفرائض القرآنية) .

واثباتاً لقوله يقتطف من الرسالة ١٥ مايلي : ليس كل من عرف باطن شئ وجب عليه ترك ظاهره وفي الأشياء ما لا يجب ترك ظاهره . ولو علم تأويله على سبعين وجها . منها الطهارة وباطنها البراءة من الأبالة ، وطهارة القلوب من محبتهم . فلا يجوز لأحد ، ولا يستحسن العقل إذا عرف باطن الطهارة ، أن يدخل الخلاء ويخرج ولا يغسل ، ويقول أنه قد عرف . فإذا ترك ظاهرها يتوسخ ، ويقع عليه اسم النجاسة ، بل يجب على من عرف الباطن أن يزيد فى طهره ونظافته بدنه [٢] . كما يؤكد الأستاذ عبد الله النجار أن حمزة كان يوصى أتباعه بالتجاوب مع أهل السنة فى إقامة الفرائض الدينية فينقل عن الرسالة ٣١ قول حمزة : "... واجمع شمل الموحدين ، وكن لهم فى نفاسهم ، وأعراسهم ، وجنارهم ، على السنة " . كما ينقل عنه قوله فى الرسالة ٢٣ ((صونوا الحكمة عن غير أهلها ... واستتروا بالمأثور عند أهل .. فأنتم ترونهم من حيث لا يرونكم ... إلخ " . كل هذه الشواهد يسوقها الأستاذ النجار ليرد بها على مكفرى المذهب ، وفى معرض دفاعه عن تأويلات الدروز للقرآن الكريم يستشهد بكلام الإمام الشيخ محمد عبده : " إذا تعارض العقل والنقل ، أخذ بما دل عليه العقل ، وبقي فى النقل طريقان : طريق التسليم بصحة المنقول مع الإعراف بالعجز عن فهمه ، وتقويض الأمر الى الله فى علمه . والطريق الثانية تأويل النقل ، مع المحافظة على قوانين اللغة ، حتى يتفق معناه مع ما أثبتته العقل ... وإذا صدر قول يحتل الكفر من مائة وجه ، ويحتل الإيمان من وجه واحد حمل على الإيمان ، ولا يجوز حمله على الكفر " . ثم يغلط على هذا النص بقوله ان فى هذا القول المبين إيحاء الى رحابة الإسلام وتسامحه ، الذين انطلقت منهما التأويلات الباطنية ، ونظريات غلاة الصوفية وتعددت المذاهب الاسلامية ، ومنها مذهب الموحدين [٣] .

[١] الحركات الباطنية ص ٢٨٠

[٢] ، [٣] مذهب الدروز والتوحيد ص ١٤٨ ، ١٥٠

وعلى الرغم مما ذكره الأستاذ النجار من وصايا حمزة لأتباعه بأقامة الشريعة مع أهلها ، (واللطف بهم) ، على سبيل التقية ، إلا أن الدكتور مصطفى الشكعة يذكر في كتابه إسلام بلا مذاهب أنه لما قامت الفتنة الكبرى في لبنان بين الدرزي والموارنة سنة ١٨٦٠م ، بدأت آخر دلالة شعائرية بالإنقراض ، ونعني بها شعائر الصلاة في المساجد للكثيرة التي كانت منتشرة في القرى الدرزية ، ولجأ الدرزي ، بعد ذلك الى الخلوات يقرأون بها رسائلهم وتركوا المساجد نهائياً [١] . وقد اعترف شيخ عقل الدرزي الشيخ محمد أبو شقرا أخيراً في حديث شخصي للدكتور مصطفى الشكعة بأن صلاة الدرزي تختلف عن صلاة جمهور المسلمين ، فالفروض وإن كانت خمسة ، إلا أن عدد الركعات في كل صلاة يختلف عن عدد الركعات المعروفة ، وربما طريقة الصلاة نفسها. هذا والوضوء ليس ضروريا مادام المصلي نظيفاً....

ويستمر الشيخ في حديثه للدكتور مصطفى فيقرر: "الصوم معناه الإمتناع عن الرفث . ويجوز فيه الأكل والشرب ، وهو عشرة أيام من ذي الحجة ، تنتهي بالعيد. !! ، والزكاة معطلة ولاحدود لها. وهي ليست فريضة والحج لايعتبر فرضاً ، ولا يؤمنون بمناسك الحج بل ويسفهنها ، ويرون فيها مظاهر وثنية . مصدر التشريع عندهم القرآن وحده ليس غير !! وأحياناً بعض الاجتهادات . أما الحديث فمعطل ولا يؤمنون بمناسك ولا يؤخذ به !! ولا يجوز زواج الدرزية من غير الدرزي ، ولا زواج الدرزي من غير الدرزية ، وإلا كان باطلاً ، ولايجوز تعدد الزوجات" [٢] .

وهكذا فإن شريعة الدرزي قديماً وحديثاً تتلخص في إسقاط الفرائض الدينية التكليفية وعدم إقامة الفرائض الإسلامية ، والإعتراف بالخصال التوحيدية فمن اعترف بها فهو من "الموحدين".

موقف الدرزي من رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم

يقول الأمير شبيب أن الدرزي يلتقون موتاهم أن نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم ، فما مكانة محمد صلى الله عليه وسلم في العقيدة الدرزية ؟ ، وهل هي نفس المكانة التي يرفعه إليها سائر المسلمين ؟ .

[١] مصطفى الشكعة ، إسلام بلا مذاهب . ص ٢٠٨

[٢] نشيعة - المهدي الدرزي / د. عبد المنعم النمر ص ٢٥٦

فى كتاب (إسلام بلا مذاهب) ومن خلال حوار مع الزعيم السياسى الدرزى كمال جنبلاط ، ذكر الدكتور مصطفى الشكعة على لسان الزعيم الدرزى قوله: "ومحمد له مكانة محدودة" وهوليس إلا واسطة الرسالة [١]. وكلام جنبلاط عن "محمد" صلى الله عليه وسلم ومكانته المحدودة فى شريعتهم ، يعنى تأثره بما جاء فى احدى رسائل حمزة التى ينتقص فيها من رسالة "محمد" ، ويثبت لنفسه رسالة تفوقها فيقول: "وأنتم تعلمون أن لمحمد صلى الله عليه وسلم أربعمئة سنة وعشر سنين (لما كان حمزة موجوداً) ، لم يظهر دينه على الأديان كلها ، واليهود والنصارى أكثر من المسلمين ، والهند والسند والزنج أكثر منهم. فلو كان الرسول محمد له أيان هؤلاء (النطقاء) لكان يجب ان يكون المسلمين أكثر العالمين وأغلبهم فى الأولين والآخرين ، فلما لم يصح للمسلمين ذلك علمنا بأن الرسول الحقيقى ، هو عبد مولانا جل ذكره ، وهاديا إليه ، وإماما على أمره لعبيده" [٢].

والملاحظ أن حمزة يشير الى الأبياء بكلمة (النطقاء) وهو مصطلح شيعى ، فالناطق يقصدون به كل نبي والأساس الوصى . أما عند الدروز فالناطق والأساس هما إبليس والشيطان ، "فالأول - أى إبليس - ظهر فى جسم آدم ثم انتقل الى نوح ، ثم الى إبراهيم ، ثم الى موسى ، ثم الى عيسى ، ثم الى محمد ، ثم الى سعيد ! وأما الثانى - الشيطان - فظهر أولاً فى جسم شيت بن آدم ثم فى سام ، ثم فى اسماعيل ، ثم فى يشوع بن نون بعدها هارون ، ثم شمعون الصفا ، ثم فى على بن أبى طالب ، ثم فى قداح" [٣].

ويعتقد الدروز أيضاً ، أن القرآن قد أوحى حقيقة الى سلمان الفارسى - أى حمزة بن علي ، لأنهم يعتقدون أن حمزة ظهر بالتناسخ بعدة ظهورات منها بصورة سلمان الفارسى - وأنه كلامه ، وأن محمداً أخذه وتلقاه عنه ، ثم هم يزعمون أن الرسول صلى الله عليه وسلم طمس الرسالة ولم يبلغها ، حتى زعموا أن خطاب لقمان الذى خاطب به ولده : "يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر" [٤] هو خطاب سلمان لمحمد صلى الله عليه وسلم [٥].

[١] إسلام بلا مذاهب ص ٢٨٨

[٢] الشيعية - المهدي الدروز / د. عبد المنعم انمر ص ٢٥٩

[٣] الحركات الباطنية ص ٣٠٢

[٤] سورة لقمان آية ١٧

[٥] الحركات الباطنية ص ٣٠٣

وبعد هذا التصوير الذي لايرضاه أى مسلم ، مهما كان انتماءه المذهبي للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، نجد الدروز يتجاوزون ذلك إلى صحابة الرسول ايضا فيطلقون عليهم أشنع الأوصاف القبيحة والشتم ، فيصفون أبابكر وعمر بأنهما الفحشاء والمنكر ويؤولون الآية الكريمة " إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان" بأن المراد بها الخلفاء الراشدين الأربعة ، لأنهم من عمل محمد بن عبد الله [١] .

موقف الدروز من القرآن الكريم

على الرغم من تأكيدات شيوخ وعلماء الدروز أن القرآن وحده هو مصدر التشريع عندهم (حسب تأويلهم) إلا ان للدروز كتباً أخرى سرية تعد هي المصدر الرئيسي لمذهب الدروز. وقد ظهر حديثاً أن للدروز مصحفاً ينمونونه: (مصحف المنفرد بذاته). يقول الدكتور محمد أحمد الخطيب عنه : [٢] " يعتقد أن كتبه هو الأستاذ كمال جنبلاط الزعيم اللبناني المعروف والذي أغتيل قبل عدة سنوات، ويقال أنه تعاون في وضعه ووضع رسائل أخرى ، مع عاطف العجمي ، وبخط الشيخ عبد الخالق أبي صالح " ثم قال : "يتألف هذا المصحف من أربعة وأربعين عرفاً ، يحاكي فيه كتبه القرآن الكريم بترديد ما في رسائل الدروز القديمة ؛ فيحاول أن يقلد أسلوب القرآن الكريم ويقتبس منه تارة ويضمن كلامه بعض آيات القرآن الكريم تارة أخرى ، خاصة آيات النعيم والعذاب ، حيث جعلها خاصة بمن يعبد الإله المعبود عندهم - الحاكم - فمن عبده فله النعيم ، ومن كفر به فقد حق عليه العذاب ، ويعلق أحد كبارهم (عاطف العجمي) على هذا المصحف بقوله : "يكاد يفوق القرآن بلاغة" [٣] . وبينما يؤكد شيوخ الدروز (ومنهم شيخ العقل للشيخ محمد أبو شقرا) أن الشريعة مستمدة من القرآن .. نرى مصحفهم المنفرد بذاته ينكر القرآن ويعتبره فرية فيقول: "لقد ضل الذين جحدوا الحكمة واتبعوا فرية صحف اكتبوها فهي قبلة آياتهم ، يطونها بكرة وعشياً ، وقالوا هذان عند الله المعبود" وفيه: "إن مافي أيديكم لباطل وبهتان عظيم افترتموه أنتم وآباؤكم " [٤]

[١] مخطوطة في تقسيم جبل لبنان عن الحركات الباطنية ص ٣٠٤

[٢] ص ٣١٤ / الحركات الباطنية / د. الخطيب نقلاً عن كتاب "أبها الدنيا ي عودة إلى عرينك" ص ٤٩

لمؤلف مجهول

[٣] المصدر السابق ص ٥٢

[٤] (عرف عاقبة المكذبين) ص ٢٤ ، ٢٤٢

وفى هذا المصحف المنفرد بذاته ، وصف المسلمين بالضلالة والشرك: "لقد ضل قوم اتجهوا بأجسادهم الى بيت حجارة قلوبهم ، وغلوا فى كفرهم ، فألبس عليهم كل يوم خمس صلوات وضلوا عن نهج صاحب البيت ، جل ذكره ، وهو معهم ... إلخ" [١] .

وقد ضمن الدكتور عبد المنعم النمر كتابه (الشيعه - المهدي - الدروز - حقائق ووثائق) بعض صور الأصل من هذا المصحف وفهرسا لما جاء فيه من (أعراف) . ومن الكتب التى وضعها جنبلاط مع العجمى هذا أيضا ، رسائل بعنوان (المصحف الموسومة بالشرعية الروحانية فى علوم البسيط والكثيف) وهى تشبه المصحف المنفرد بذاته ويتكون من خمسة رسائل [٢] . ويبدو أن العقيدة الدرزية ظلت جامدة على أصولها التى وضعها حمزة وبهاء الدين إلى أن ظهر الزعيم الدرزي كمال جنبلاط والذى حاول أن يطور دينه بكافة الطرق ، فحاول أن يرجع أصول مذهبه الى مسالك الحكمة فى التاريخ القديم من الفلسفة اليونانية وخاصة الأفلاطونية القديمة ، والمسيحية ، والبودية ، والفرعونية ، والهندية ، والفارسية ، واليهودية ، إلى جانب الإسلام. لأن الحكمة فى نظره لاتفترق فى جوهرها ، لهذا قام بكتابة مصحفه المنفرد بذاته ليعزز وجهه نظره . ويتكون مصحف المنفرد بذاته من مائتين وست وسبعين صفحة بالبيانات التى ذكرت فى آخره بعد صفحة ٢٦٩ ... يشتمل على ثلاثة وأربعين عرفا - باعتبار عرف العهد والميثاق عرفا واحدا - أولها عرف الفتح ، وآخرها "بلاغ الحرمان . وعرف مسك الختام" [٣] . والأعراف كلها تدور حول الدعوة للإيمان بالحاكم ، وتدعيم النظرة إليه ، كإله معبود ، يتصرف فى الخلق كما يشاء ، فيغدق النعيم على المؤمنين به ، ويعذب الذين لا يؤمنون ! وقد اقتبس - كاتبه - كثيرا من آيات القرآن ، إما بنصها أو بتغيير فيها حسب مزاجه ، لتصب على الذين لا يؤمنون بالحاكم معبودا لهم ، أو يؤمنون به [٤] .

وما يهمنى من (مصحف المنفرد بذاته) هذا أنه يظهر بوضوح موقف الدروز المعاصرين من القرآن الكريم ومن المسلمين أجمعين ، فيدغمهم جميعا بأنهم عاكفون على عبادة الأصنام وضالون ، ويستتكر عليهم تصديقهم للقرآن الكريم وما جاء فيه من وعد للمؤمنين بالنعيم ، ووصف لهذا النعيم .

جاء في عرف اسحق ص ٧٩ : "ضل الذين قالوا : إنا الى ربنا منقلبون ، وسيدخلنا الجنة التى وعدنا فيها ما لعين رأت ، ولأنن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر ، وسيطوف فيها علينا ولدان مخلصون ، بأكواب وأبارق ، وكأس من معين ، لاتصدع عنها ، ولا نحن بمنزفين ، ولحم طير مما يشتهون ثم حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ولا نريد أن نعيد عليك يا أبا اسحق قالتهم ، وما فى أنفسهم من هذه الأئمة التى أوصلتهم بحبل آدمهم" ثم يقول بعد هذا مباشرة "قتل هؤلاء ما أصبرهم على نار جهنم ، وجحيم كبرياتهم" [١] .

والواضح بعد هذا أن عقلاء الدروز ومشايخهم قد حرصوا دائما على صرف الدروز - وبخاصة عامتهم وجهلاتهم - عن فهم القرآن الكريم فهماً صحيحاً ، وعملوا على حجبهم عن احكامه ، وقدسلخوا لبلوغ غايتهم هذه مسلكين : المسلك الأول هو تأويل النصوص القرآنية تأويلاً باطنياً خاصاً يخرجها من باطن التأويل ، وهذا مسلك حمزة بن على وبهاء الدين ومن تبعهم . أما المسلك الثانى فهو ما سلكه جنبلاط ومن معه بوضعهم كتاباً يبطل العمل بالقرآن الكريم ، بل ينكره ويعتبره فرية وبهتان عظيم . والهدف من الأسلوبين واحد ، وهو الإبتعاد بأتباع مذهبهم عن المصدر الرئيسى والأساسى الذى يقوم عليه بناء الإسلام الحق ، وهو القرآن الكريم .

حكم علماء الإسلام في الدروز

وبعد البحث في موقف الدروز من أركان الاسلام ، ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وكتابه القرآن الكريم ، يخرج البحث بنتيجة لأمفر من اقرارها وهى ان هذا المذهب لاصلة له بالاسلام والمسلمين ، وهى نتيجة معروفة لدى علماء الاسلام قديما وحديثا ، وان غابت عن عامة المسلمين.

ولقد ذكرهم شيخ الاسلام ابن تيمية هم والنصيرية في جواب سائل سألهم : "والدروزية هم أتباع هشتكين الدرزي ، وكان من موالى الحاكم أرسله الى اهل وادى تيم الله بن ثعلبة ، فدعاهم الى الإلهية الحاكم ويسمونه الباري العلام ، ويحلفون به ، وهم من الاسماعيلية القائلين بأن محمد بن اسماعيل نسخ شريعة محمد بن عبد الله ، وهم أعظم كفرا من الغالية ، يقولون بقدم العالم ، وانكار المعاد ، وانكار واجبات الاسلام ومحرماته ، وهم من القرامطة الباطنية الذين هم أكثر من اليهود والنصارى ومشركى العرب ، وغايتهم أن يكونوا فلاسفة على مذهب أرسطو وأمثاله ، أومجوسا . وقولهم مركب من قول الفلاسفة والمجوس . ويظهرون التشيع نفاقا ، والله أعلم" [١] . فقال شيخ الاسلام ردا عليه : كفر هؤلاء ممالا يختلف فيه المسلمون ، بل من شك في كفرهم فهو كافر منهم لا هم بمنزلة أهل الكتاب ولا المشركين ، بل هم الكفرة لضالون فلا يباح أكل طعامهم ، وتسبى نساؤهم ، وتؤخذ أموالهم فانهم زنادقة مرتكين لا تقبل توبتهم ، بل يقتلون أينما تقفوا ويلعنون كما وصفوا ، ولايجوز استخدامهم للحراسة والبوابة والحفاظ . ويجب قتل علمائهم وصلحاتهم لئلا يضلوا غيرهم ، ويحرم النجوم معهم في بيوتهم ، ورفقتهم ، والمشى معهم ، وتشيع جنازتهم اذا علم موتها . ويحرم على ولاة أمور المسلمين إضاعة مآثر الله من إقامة الحدود عليهم بأى شئ يراه المقيم ولا المقام عليه" [٢] .

ويضيف رحمه الله قائلا : ((ولايجوز دفنهم في مقابر المسلمين ، ولايصلى علي من مات منهم . أما استخدام مثل هؤلاء في تغور المسلمين أو حصونهم أو جندهم فانه من الكبائر ، وهو بمنزلة من يستخدم الذناب لرعي الغنم .

[١] الشيعة والتشيع / إحسان إلهي ظهير ص ٢٢٨

[٢] المرجع السابق عن فتاوى شيخ الإسلام ج ٣٥ ص ١٦١ - ١٦٢

وإذا أظهروا التوبة ففى قبولها منهم نزاع بين العلماء فمن قبل توبتهم اذا التزموا بشريعة الاسلام اقر أموالهم عليهم ومن لم يقبلها لم تنقل الي ورثتهم من جنسهم ، فان مالهم يكون فينا لبيت المال ، لكن هؤلاء اذا أخذوا فانهم يظهرون التوبة ، لأن أصل مذهبهم التقية وكتمان أمرهم ، وفيهم من يعرف ، وفيهم من قد لايعرف ، فالطريق في ذلك أن يحتاط في أمرهم ، فلا يتركون مجتمعين ولا يمكنون من حمل السلاح ، ولا أن يكونوا من المقاتلة ويلزمون في شرائع الاسلام ويجب علي كل مسلم أن يقوم في ذلك بحسب مايقدر عليه من الواجب ، فلا يحل لأحد أن يكتم مايعرفه من اخبارهم ، بل يفشيها ويظهرها ليعرف المسلمون حقيقة حالهم

والمعاون في كف شرهم وهدايتهم بحسب الامكان له من الأجر والثواب مايلعلمه الا الله تعالى ، فان المقصود بالقصد الأول هو هدايتهم (([١] .

بقى أن نقول أن دروز اليوم ثلاثة أصناف :

١- قسم الزعماء السياسيين والروحانيين : هؤلاء متمسكون بديانتهم تمسكهم بمصالحهم فكلما تمكن أفراد الطائفة من دينهم ، دانوا بالولاء والطاعة العمياء لرؤسائهم فهم يحافظون علي الدين حفاظا علي مراكزهم ومكاسبهم .

٢- وعامة الطائفة وجدوا آباءهم علي ملة وهم علي آثارهم مقتدون فهم عناصر طيبة بيد الرؤساء لايعملون فكرهم في صلاح عقيدتهم أو سلامتهم بل يأخذون من شيخ العقل الذي أخذ عن أسيادهم المعصومين .

٣- أما القسم الثالث وهم المتقفون : جلهم لا يؤمنون بعقائد الطائفة لأنها مرفوضة بمنطق العقل السليم لذلك نراهم بعيدين عنها دون أن يتعرضوا لها بسوء حفاظا علي ترابط أفراد الطائفة وقد التزم الكثيرون منهم الأحزاب القومية والسياسية [٢] .

وعلي عاتق هذا القسم الثالث من المتقفين تقع مسؤولية اعادة نشر الاسلام بين صفوف الدروز . كما ينبغي أن يحال بين العوام منهم ، وبين مشايخهم الذين مازالوا يصرون علي تلك الضلالات المهيئة للعقل الانساني ، وهذا ماطالب به الشيخ محمد رشيد رضا في أحد فتاويه التي سنل عنها [٣] .

[١] الحركات الباطنية ص ٣١٦ عن فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج ٣٥ ص ١٥٥ - ١٦٢

[٢] دراسات في الفرق والمذاهب ص ١٦٢ / عبد الله الأمين

[٣] فتاوى الإمام محمد رشيد رضا ج ١ ص ٢٧٦

نقد موقف الأمير شكيب أرسلان من الدروز

إن القارئ لمقال الأمير شكيب أرسلان عن الدروز والذي جعل عنوانه :
 ((ولاتقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً)) يشعر أن الأمير ينطلق في دفاعه عن
 إسلام الدروز إنطلاقاً عاطفياً ، وهذه النظرة العاطفية التي تناول بها الأمير موضوع مقاله
 غلبت على النظرة العلمية الموضوعية التي كان ينبغي عليه أن يلتزمها في مناقشة رأى
 القائلين بكفر الدروز وخروجهم عن جملة المسلمين .

فمع تأكيد الأمير أن الدروز يقولون عن أنفسهم أنهم مسلمون ويؤدون شعائر الاسلام لم
 يأت بدليل واحد يؤيد به صحة قوله ، فالمعروف عن الدروز أنهم هجروا المساجد ولجأوا
 الي الخلوات .

ثم يقول أن الدروز يلقتون موتاهم (وإذا جاء منكر ونكير وسألاك : مادينك ، ومن
 نبيك ، وما كتابك ، ومن اخوانك ، وما قبيلتك ؟ فقل لهما : الاسلام ديني ، وحمد نبي ،
 والقرآن كتابي ، والكعبة قبلي ، والمسلمون اخوتي .

والملاحظ على النص السابق أن الأمير لم يشر فيه إلى السؤال الأهم وهو من ربك ،
 فإن أجاب المسؤول ربي الله الذي لا اله الا هو ، فهو في جملة المسلمين حقاً ، أما إن أجاب
 بأن ربه الحاكم بأمر الله فهو خارج من الاسلام باجماع المسلمين مهما صلي وصام وزعم
 أنه من المسلمين .

أما قول الأمير شكيب رداً على من قال أن عقائد الدروز السرية الباطنية التي تعرفها
 طبقة العقال تحتوى على ما يصلح أركان عقيدة أهل السنة والجماعة ولا يتفق معها في شيء
 بقوله : قد وجد في الاسلام أئمة كبار يترضى عند ذكرهم ، ولهم قباب تزار وتطق فيها
 القناديل ، وكانوا يقولون بوحدة الوجود ، ثم يبين أن قولهم هذا مع مخالفته لمذهب السنة لم
 يخرجهم المسلمون من الاسلام ، ففي هذا القول اعتراف بأن عقائد الدروز الباطنية تحتوى
 على ما يخالف عقيدة أهل السنة " ولا يتفق معها في شيء " ، وإن اعترض الأمير أن يترتب
 على ذلك الحكم على الدروز بالخروج من الاسلام !

فالأمير شكيب أرسلان يريد أن يثبت أن فرقة الدروز فرقة اسلامية وهى أشبه بالفرق
 الصوفية التي لها تعاليمها الخاصة ولها تأويلاتها الخاصة ومع هذا فهي من جملة المسلمين .

ولقد كان الأمير شكيب - رحمه الله - من أعظم رجال العرب والمسلمين ، دافعاً عن العروبة والاسلام ، وحرصاً على تماسك الأمة فلا غرابة من حماسه في الدفاع عن الدروز ، وحرصه على أن يظلوا عرباً مسلمين ، وهم قومه الذين يفخر بانتسابه اليهم لانتسابهم الي قبائل عربية عظيمة ، ولتاريخهم الحافل في مناصرة الاسلام والمسلمين .

والأمير شكيب يرى في التمسك بالانساب أمراً محموداً ، فهو ضرورى لأجل الدول الراقية المهيبة التى تريد أن تعرف أصول الشعوب التى اشتملت عليها ممالكها ، والخصائص التى عرف بها كل من هذه الشعوب بما يكون أعون لها على تهذيبها وحسن ادارتها [١] .

ويرى الأمير شكيب أن حفظ الانساب أمر ضرورى لمن يسعى في اصلاح قومه أو نوعه بطريق الترفيق والتهذيب لأن الأخلاق والميول والنزعات المختلفة تتوارث كما تتوارث الأمراض والأعراض الصحية ، والدماء الجارية [٢] .

ويتحدث عن تمسك العرب بالانساب في تعليقاته على كتاب تاريخ ابن خلدون فيرى أن تمسكهم بأنسابهم كان يثير فيهم حمية ونخوة وتنافس على المجد من جهة ، وفتن وغداوات تصدع وحدتهم من جهة أخرى ، ويقرر أن الاعتزاز بالنسب اذا لم يؤد الي الانقسام عمل كريم وسنة حميدة [٣] .

ولقد عنى شكيب في كتاب (روض الشقيق) وغيره بالحديث عن أسرته ونسبها ومفاخرها ، فليس غريب أن يقف مدافعاً عن نسبها العربية ، وعن بقائها في الاسلام . ومن أهم ما يحمده في مقال الأمير حرصه الشديد على اسلام قومه ، وعدم رضاه بغيره بدلاً ، وقوله أن الدروز فرقة إسلامية قبل كل شيء وهو في ذلك مثله مثل الأمير عبد الله التتوخي الملقب بالسيد المتوفى سنة ٨٨٤ هـ بمدينة عبيه ، وكان من الذين عملوا على العودة بالدروز الي مذهب أهل الجماعة والسنة [٤] ومثل عادل بك النكدى الذى قال في خطبة له حينما حاول الفرنسيون التفريق بين الدروز والمسلمين : " ان الدروز مسلمون كانوا ولايزالون وأنهم لو لم يكونوا كذلك لصيرتهم عربيتهم مسلمين " .

[١] تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الاول ص ٣

[٢] نفسه ص ٣-٤

[٣] شكيب أرسلان داعية العروبة ، أحمد الشرباصى ص ١٥

[٤] طائفة الدروز ، محمد كامل حسين ص ١٢٧

ولكن يبدو أن جهود الأمير شكيب أرسلان وغيره ممن حرصوا على ألا يقطع الدرزي صلتهم بأخوانهم المسلمين وحولوا أن يدفعوا عن الدرزي تهمة الانسلاخ من الاسلام يبدو أن جهودهم هذه قد تبددت بعدما ظهر في العصر الحديث من بين الدرزي زعماء ابتعدوا بالفكر الدرزي عن الاسلام بعدما شاسعا ، فهذا الزعيم الدرزي كمال جنبلاط (وله احترامه واجتهاده بين رجال الدين وأراؤه مسموعة بينهم) يقول في حديث مع الدكتور مصطفى الشكعة وهو مدون في كتاب (اسلام بلا مذاهب) : ان الدرزي اعتنقوا الاسلام في مرحلة من مراحل عقيدتهم ولما كانت العقيدة متطورة عندهم فقد تحولوا عن الاسلام الى دين آخر مستقل هو (الدين الدرزي) [١] ١٠ هـ .

[١] الشيعة ، المهدى ، الدرزي ، عبد المنعم النمر ص ٢٨٢-٢٨٣ .

موقف الأمير من المعتزلة والأشاعرة

١- فرقة المعتزلة

يعرض الأمير شكيب فى تعليقاته على كتاب حاضر العالم الإسلامى ، للمستشرق ستودارد ، مذهب فرقة المعتزلة ، وهى الفرقة التى يرى فيها علماء أوروبا دائما طبقة تمثل الفكر الحر المطلق ، وتريد أن تتخلص من قيود التقليد الباعث الى الجمود الذى رسا عليه المجتمع الإسلامى [١] .

وفى البداية يروى الأمير ما قيل فى سبب تسميتهم بالمعتزلة أن أحد أئمتهم واصل بن عطاء كان يقرأ على الحسن البصرى ، ثم اعتزله لمسئلة خالفه فيها ، أما المعتزلة فيطلقون على انفسهم "أهل التوحيد والعدل" ثم يفصل ذلك فيقول: "أما التوحيد فلأنهم نفوا عن الله تعالى الصفات القديمة كالحياء ، والعلم ، والإرادة ، والقدرة ، ثم قالوا إنه حتى بذاته ، عالم بذاته ، مرید بذاته ، قادر بذاته ، ولم يقولوا كالأشاعرة وغيرهم حتى بحياه ، عالم بعلم ، قادر بقدرة ، مرید بإرادة ، بحيث أن الصفة هى غير الموصوف" [٢] .

"أما العدل فلكونهم يقولون إن العبد إنما يثاب ويعاقب على طاعته ومعصيته ، لأنه هو الخالق لأفعال نفسه [٣] دون الله تعالى الذى ينزه عن أن يضاف إليه خلق الشر" [٤] .

"وإذا كان العبد بحسب قولهم هو الخالق لأفعال نفسه ، فليس يلزم أن يكون هناك قدر سابق ، بل الأمر أنف ، يعنى مستأنف . ولهذا سماهم الناس (القدرية)" [٥] .

والأمير فى موقفه هذا يعبر عما كتبه خصوم المعتزلة عنهم ، أما المعتزلة أنفسهم "قلم ينكروا قضاء الله السابق بالمعنى الذى عبر عنه القرآن بقوله: ((وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين)) ، ولكن جميعهم أنكروا أن يكون قضاء الله بهذا المعنى يحمل معنى الجبر أو

[١] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامى ، ج٤ ص ٣٢٣

[٢] المرجع السابق ج٤ ص ٣٢٣

[٣] إن المعتزلة اذا قالوا إن الإنسان خالق أفعاله فلا يعنون بالخلق هنا معنى الإبداع من العدم ، لأن ذلك لله وحده ، وهم قد فصلوا بين خلق الجوهر فجعلوه لله ، وبين خلق العرض فجعلوه من مقدور الإنسان ... محمد السيد

الجليند ، قضية الخير والشر ، ص ٢٨٧

[٤] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامى "مرجع سابق" ص ٣٢٣

[٥] شكيب أرسلان ، المرجع السابق ج٤ ص ٣٢٣

الإكراه فلقد فهموا القضاء الإلهي على معنى تنزيهه يرتفع به عن مباشرة القبايح أو التعلق بها ، لأنه تعالى بيده الخير" [١] . وهنا يجب التفرقة بين نوعين من القضاء الإلهي :

النوع الأول : قضاء كوني قدرى ضرورى الوقوع تعبيراً عن مشيئة الله الناقذة فى ملكه التى لاتخلو من الحكمه والغايه ، ونفاد القضاء الكونى فى ملك الله لايحاسب عليه الإنسان ثوباً أو عقاباً [٢] .

النوع الثانى : قضاء دينى تكليفى شرعى مبنى على الاختيار وإرادة الإنسان وهو يتعلق بالشرعية أمراً ونهيًا ، وهو مناط الثواب والعقاب فى الآخرة [٣] .

والمعتزلة فهموا أن القضاء لا يكون إلا دينياً فقط وأهملوا القضاء الكونى ، مع أن العبادات إذا وقعت فعلاً كانت بقضاء الله ديناً وكوناً ، والمعصية إذا وقعت كانت بقضاء الله كوناً لا ديناً ، والمؤمن مطلوب منه ان يؤمن بالنوعين من القضاء [٤] . " كما أخطأ المعتزلة حين ظنوا أنه يجوز للمؤمن أن يحتج بقضاء الله على المعصية لأن الواجب فى ذلك أن يؤمن بالقضاء ولايحتج به لأن الله قد أبطل هذا الاحتجاج بالقضاء والقدر حين لجأ بعض الناس إلى ذلك فأخبر الله أن : "... حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب عظيم " لأن الإيمان بالقضاء واجب والاحتجاج به مرفوض وباطل" [٥] .

ويضرب الأمير مثلاً يوضح به الفرق بين مذهب السنة ومذهب الاعتزال فيقول : "كان مرة أحد أئمة المعتزلة ، يباحث أحد أئمة أهل السنة ، فقال المعتزلى : "الحمد لله الذى تنزه عن الفحشاء " .. فقال السنى : "الحمد لله الذى لايقع فى ملكه إلا ما يشاء " . فقال المعتزلى : " أريد ربك أن يعصى ؟ " فقال السنى : " أيعصى ربك جبراً ؟ " [٦] .

والخطأ هنا أن المعتزلة خلطوا بين الإرادة الدنية والكونية ، كما لم يفرقوا بين القضاء الدينى والقضاء الكونى فأنكروا أن تكون المعصية مرادة لله ، كما أنكروا أيضاً أن تكون بقضاء الله [٧] .

[١] ، [٢] ، [٣] ، [٤] ، [٥] . د . محمد السيد الجليند ، قضية الخير والشر ص ٧ ، ٨٦ ، ٨٧

[٦] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامى ، ص ٣٢٣

[٧] . د . محمد السيد الجليند ، قضية الخير والشر ، مرجع سابق ص ٨٨

والأمير شقيب أرسلان يرى " أن جمهور أهل السنة فرقوا بين الكسب وبين خلق الأفعال ، وجعلوا للإنسان جزءاً إختيارياً هو مناط الثواب والعقاب ، وشبهوا العبد الذي يعصى بعامل أمره السلطان بأن يكون عاملاً على بلد كذا وأوصاه بالعدل والتقوى ، فذهب إلى عمله وظلم الرعية وارتكب المعاصي ، فالسلطان من جهة لم يأمره بالظلم ولا بأباح له تلك الأعمال الموبقة ، ومن جهة أخرى هو السبب في وصول أذى ذلك العامل إلى الرعية لأنه لو لا تولية السلطان إياه ما تمكن من ظلمهم" [١] .

والأمير شقيب في موقفه هذا متأثر بما ذكره أستاذ الإمام الشيخ محمد عبده الذي قال : " أن كل الطوائف الإسلامية في هذا الوقت " يعتقدون بأن لهم جزءاً إختيارياً في أعمالهم ، ويسمى الكسب ، وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم ، وإنهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الإختيارى ... وهو مورد للتكليف الشرعى وبه تتم الحكمة والعدل " [٢] . وموقف الأمير هنا متأثر أيضاً بنظرية (الكسب) عند الأشاعرة ، " فلقد ذهب أبو الحسن الأشعري في تحديد علاقة الإنسان بفعله إلى أن قدرة الإنسان لا أثر لها في خلق الفعل أو إحداثه ولا في صفه من صفات الفعل وإنما تتعلق بالفعل على وجه آخر يسمى (كسباً) فالفعل مخلوق لله مكسوب للعبد في وقت واحد ، وأن الله تعالى يحاسب العبد في الآخرة ليس لكونه خالقاً للفعل أو فاعلاً له وإنما لكونه محلاً للفعل وكاسباً له " [٣] .

" والموقف الحق في ذلك هو ما كان عليه سلف الأمة وأئمتها حيث أثبتوا قدرة الإنسان وقالوا أنه فاعل لفعله حقيقة لامجازاً ، والله خالق فعله حقيقة لامجازاً . فقدره الله تتعلق بالفعل من جهة الخلق من العدم ، وقدرة الإنسان تتعلق به من جهة فعله وإحداثه" [٤] .

[١] شقيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ص ٣٢٤ .

[٢] رشيد رضا ، تاريخ أستاذ الإمام ، ج ٢ ص ٢٦١ .

[٣] د . محمد السيد الجلند ، قضية الخير والشر ، ص ٣٠٣ .

[٤] د . محمد السيد الجلند ، قضية الخير والشر ، مرجع سابق ص ٣١٧ .

٢ - الأشاعرة

يروى الأمير شكيب أن أبو الحسن الأشعري المولود بالبصرة (سنة ٢٦٠) المتوفى ببغداد (سنة ٣٢٤) ، قد بقى إلى الأربعين من عمره ملازماً لأبي على الجبائي حامل لواء الاعتزال فى عصره والمتوفى (سنة ٣٠٣) ، أخذاً برأيه ، إلا أنه لحظ فى آخر الأمر أن كثيراً من أقوال المعتزلة لا تنتم مع روح الشرع ، ففارقهم وأخذ يرد عليهم ، وكتب كتباً كثيرة قبل بلغت ٣٠٠ مصنف [١] .

وقد رأينا الأمير يذكر رأى الأشاعرة فى صفات الله تعالى عندما عرض مذهب المعتزلة فى التوحيد ، كما وجدناه متأثراً بنظرية (الكسب) الأشعرية عند مناقشته لمسئولية الإنسان عن أفعاله والعدل عند المعتزلة . والأمير لا يخفى إعجابه بالأشعري ، وينقل عن دائرة المعارف الإسلامية للفرنسية قولها : " إنه يعود إليه الفضل باستعمال المنطق والجدل فى العقيدة ، خلافاً لعلماء الإسلام الأولين ، وأنه بذلك تمكن من مناظرة المعتزلة ، وسائر البدع ، فهو بالفعل واضع الفلسفة العقلية الإسلامية أى علم الكلام " [٢] .

ويقول الأمير شكيب أن الأشعري بعد أن اعتزل الاعتزال ، صار ناصراً للسنن حتى صار نصف المسلمين تقريباً أو أكثر أشعرية فى علم الكلام ، ويستشهد بما ذكره عبد الوهاب السبكي فى (طبقات الشافعية) أن المالكية بأجمعهم وأكثر الشافعية هم أشاعرة ، أما الحنفية فيرجعون مذهب الماتريدى ، وهو يتفق فى الأساس مع الأشعري ، ويبينه فى نقاط ثانوية .

أما الحنابلة فيردون كلام الأشعري ويأخذون العقيدة بمثل ما أخذها السلف أى بدون فلسفة ، وقد يفرط بعضهم برفض التأويل فيرميهم الأشاعرة بالتجسيم ، ومن رد على الأشاعرة ابن حزم الظاهري [٣] .

[١] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ص ٣٢٤

[٢] . [٣] المرجع السابق ص ٣٢٥

ثم يعلق الأمير على ذلك بتأكيد اعجابه بشيوخ الأشاعرة ومتكلميهم فيقول : "ومما لا مشاحة فيه أن أعظم متكلمي الإسلام وسيوف السنه ، هم من الأشاعرة ونلك مثل : الباقلاني ، والقشيري ، وإمام الحرمين أبي المعالي الجويني ، ولو لم يكن منهم إلا حجة الإسلام الغزالي لكفى" [١] .



[١] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الاسلامي ، ص ٣٢٥

موقف الأمير شبيب أرسلان من الخوارج

- نشأة الخوارج

- فرق الخوارج وعقائدهم :

الفرقة الأولى : المحكمة

الفرقة الثانية : الأزارقة

الفرقة الثالثة : النجدات

الفرقة الرابعة : العجاردة

الفرقة الخامسة : الشعالبة

الفرقة السادسة : الصفرية

الفرقة السابعة : الأباضية

موقف الأمير شكيب أرسلان من :

الخوارج

نشأة الخوارج :

نشأت فرقة الخوارج فور إعلان نتيجة (التحكيم) بين أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص ، وذلك عندما طال النزاع بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، ومعاوية بن أبي سفيان ، واشتدت الحرب (في صفين) واتسع الخرق ، ومل كثير من المسلمين القتال ، وتذكروا فيما بينهم في طريقة ترفع الخلاف بدون استمرار على سفك الدماء ، فكانت هذه الطريقة هي (التحكيم) ^(١) .

ويرى أن معاوية رضي الله عنه حينما رأى بوادر انهزام جيشه استشار صاحبه عمرو بن العاص رضي الله عنه في حيلة تباعد بينه وبين عار الهزيمة فأشار عليه عمرو بن العاص برفع المصاحف على أسنة الرماح والمطالبة بتحكيم كتاب الله بين الفريقين وقد أثرت هذه الحيلة في صفوف جيش الخليفة الراشد رضي الله عنه حتى قال له الأشعث بن قيس الكندي وجماعة معه «وكان أميراً لعثمان على أذربيجان» القوم يدعوننا إلى كتاب الله وأنت تدعوننا إلى السيف فقال لهم على رضي الله عنه : أنا أعلم بكتاب الله وأشار رضي الله عنه إلى أن هذه حيلة ثم دعا رجاله إلى الاستمرار في القتال فأصر الأشعث ورفاقه على إيقاف الحرب وقالوا لعلي رضي الله عنه لترجعن الأشر عن قتال المسلمين وإلا فعلنا بك كما فعلنا بعثمان واضطر علي رضي الله عنه إلى أن يأمر الأشر النخعي بوقف القتال. ^(٢)

فهذه الفئة التي سئمت الحرب ، حملت علياً رضي الله عنه على قبول (التحكيم) بينه وبين معاوية ، وهي التي أشارت بإقامة أبي موسى الأشعري حكماً عنه ، ويرى

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٤ ص ٣٢٦ .

٢ - د . عبد القادر شبيبة الحمد ، الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

الأمير (شكيب أرسلان) أن طريقة التحكيم في حد ذاتها كواسطة في حل المنازعات بين المتخاصمين سواء أكانوا دولاً أو فرقاً هي طريقة فذة سبق بها المسلمون عصرهم ، وهي التي يجاهد كثير من عقلاء الأوربيين اليوم في جعلها هي المرجع الأول في فض المنازعات بين الدول بالطرق السلمية ، غير أن القصة المشهورة عن سير التحكيم بين علي ومعاوية رضي الله عنهما تبين سبب تفجر قيام الخوارج في الحال «إذ تعالت الهتافات من معسكر علي : كفر الحكيمين (لا حكم إلا لله) وانقلب المؤيدون أعداء وأصبحوا أكثر خطراً على علي من جيش معاوية»^(١)

ويروي الأمير شكيب أرسلان تلك القصة المشهورة عن خدعة عمرو بن العاص لأبي موسى الأشعري «بأن اتفق معه على أن يخلع علياً ومعاوية جميعاً ، ويربحا المسلمين من هذه الحرب الطاحنة ، وأنهم بعد ذلك يقيمون لهم خليفة يختارونه ، ولما كان أبو موسى أكبر سناً من عمرو ، كان التقدم له في الكلام ، فقام وأشهد أنه خلعهما ، وجاء الدور إلى عمرو ، فقام وأشهد على أنه خلع علياً دون معاوية ، وكانت لهذه الخدعة رنة في الإسلام لا تزال الناس تتذكرها إلى اليوم ، وبطل ذلك التحكيم ، واستمر القتال بين الفريقين»^(٢)

وهذه الرواية على النحو الذي ذكره (شكيب) محل شك إذ يرجع الدكتور الرئيس رواية المسعودي لأنها تنفق مع العقل وتتلاءم مع شخصية أبي موسى الأشعري الصحابي الجليل ، لأن هذه الرواية تنفي حدوث الخدعة ، وقد أخذ بالنص المروي عنها حيث قال فيه (ووجدت في وجه آخر من الروايات أنهما اتفقا على خلع علي ومعاوية ، وأن يجعل الأمر بعد ذلك شورى ، يختار الناس رجلاً يصلح لها) ، وبذلك أصبحت النتيجة الأخيرة للتحكيم ، رد الأمر إلى الأمة .^(٣)

كما يروي الدكتور عبد القادر شعبة الحمد مسألة التحكيم بطريقة مختلفة فيقول :

١ - د. مصطفى حلمي ، نظام الخلافة ، ص ١٥٤ .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي . (مرجع سابق) ص ٣٢٦ .

٣ - د. محمد ضياء الرئيس ، النظريات السياسية الإسلامية ، ص ٤٨ ط ١٩٥٠ م .

« .. ولما حان موعد التحكيم واجتمع الحكمان في دومة الجندل لم يؤد اجتماعهما للاتفاق على كلمة سواء ، بل أعلن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه لا يوافق أباً موسى في خلع علي ومعاوية وترك الأمر شورى ، وإنما يخلع علياً ويثبت معاوية »^(١)

وأياً كانت الطريقة التي تم بها التحكيم ، فالثابت أنها أفرخت أول حزب سياسي في الإسلام هو الخوارج^(٢) . فخرجت تلك الفئة من طاعة علي ومعاوية معاً ، وانفردت برأي غير رأي الجماعة ، وهو أنه لا حكم إلا لله ورسوله رأساً بدون خلافة ، فسماهم الناس من أجل ذلك خوارج^(٣) .

فرق الخوارج وعقائدهم :

الخوارج فرق متعددة جمعهم الإمام أبو الحسن الأشعري في أربعة فقط ، وهم : الأزارقة والأباضية ، والصفرية ، والنجدية ، واعتبر أن كل الأصناف سوى هذه الفرق تفرعوا من الصفرية^(٤) .

وقد ذكر الأمير شكيب أرسلان من فرق الخوارج تسع فرق ، وهم :

المحكمة ، والأزارقة ، والنجدات ، والبيهسية (*) ، والمعجاردة ، والميمونية والأباضية ، والثعالبة ، والصفرية ، وقال إن هذه أشهر فرق الخوارج ، ويقال لهم أيضاً الشراة لقولهم إننا شرينا أنفسنا في طاعة الله أي بعناها بالجنة حين خرجنا على الأئمة الجائرة^(٥) .

١ - د. عبد القادر شبيبة الحمد ، الأدب والفكر والمفاهيم المعاصرة ، (مرجع سابق) .

٢ - د. مصطفى حلمي ، نظام الخلافة ، ص ١٥٥ (مرجع سابق) .

٣ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي (مرجع سابق) .

٤ - د. مصطفى حلمي ، نظام الخلافة ، ص ١٦٢ (مرجع سابق) .

٥ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي (مرجع سابق) ج ٤ ص ٣٢٦ وما بعدها .

(*) وقد عد الأمير شكيب أرسلان فرقة «البيهسية» على أنها فرقة رئيسية من فرق الخوارج . ولكن المشهور عن أهل العلم أنها تابعة للأباضية ، و «البيهسية» هم أصحاب أبي بيهس البهضم بن جابر - الذي خرج أيام الوليد - وهؤلاء يرون أنه لا حرام إلا ما وقع عليه النص بقوله تعالى «قل لا أجد فيما أوحى إلي من أمر مما دأبوا به» . ويكفرون الرغبة بكفر الإمام . (شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٤ ص ٣٢٧ (المرجع السابق) .

ويرى الأمير شبيب أن عمود مذهب الخوارج إنكار الخلافة ، وأن الحكم يستمد من القرآن رأساً فلا حاجة إلى الخليفة ، وأنهم يمنعون التأويل فيه ، وبعضهم ينكر كون سورة يوسف من القرآن ، ويقولون هي قصة من القصص ، وبعضهم يكفر بالكبائر ، ومنهم من يكفر بالإصرار على الصغائر ، ومنهم من يصوب فعلة عبد الرحمن بن ملجم ذلك الشقي الذي قتل علياً .. ومنهم من يجوز نصب الإمام ولكن لا يشترطون فيه النسب القرشي .^(١)

الفرقة الأولى : المحكمة

وهم الذين يمنعون التحكيم ويقولون (لا حكم إلا لله) ، وهم في دفاعهم عن هذا المبدأ يعتقدون أنه لا تحكيم في دين الله لأحد من الناس إلا بالله ، ولهذا لا يحكمون بينهم حكماً ، فلما حكم أبو موسى الأشعري بين علي ومعاوية ، ثم قام بخلع علي ، كفروهم لأنهم حسب إعتقادهم جعلوا الحكم لأبي موسى الأشعري ، وينبغي ألا يكون هناك حكم إلا لله تعالى^(٢) ، ثم ذهبوا إلى النهروان وعسكروا هناك ، وكانوا على ما يروى أربعة آلاف مقاتل ، فصمد إليهم علي وما زال يقاتلهم ويستأصلهم اتقاء الفتنة وانتشار نظام الأمة ، إلى أن أفتاهم على بكرة أبيهم ، ولم يفلت منهم سوى تسعة نفر ، قبل ذهب منهم اثنان إلى عمان ، واثنان إلى كرمان ، واثنان إلى سجستان ، واثنان إلى الجزيرة ، وواحد إلى اليمن .^(٣)

ويروي أن علياً رضي الله عنه سألهم قبل بدء القتال : ماذا نقتسم مني ، قالوا نقمنا منك أنا قاتلنا بين يديك يوم الجمل فلما انهزم أصحاب الجمل أبحت لنا ما وجدنا في معسكرهم من المال ومنعتنا من سبي نسائهم وذرائعهم فكيف استحللت مالهم دون النساء والذرية ، فقال رضي الله عنه إنما أبحت لكم أموالهم بدلاً عما كانوا أغاروا عليه من بيت مال البصرة قبل قدومي عليهم أما النساء والذرية فلم يقاتلونا وكان لهم حكم

١ - المرجع السابق نفسه .

٢ - د . مصطفى حلي ، نظام الخلافة ، ص ١٥٨ (مرجع سابق) .

٣ - شبيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٤ ص ٣٢ (مرجع سابق) .

الإسلام بحكم دار الإسلام ثم لو أبحت لكم النساء ، أبكم كان يأخذ عائشة في سهمه
فخجل القوم . (١١)

ومن شبههم التي نقموا على علي رضي الله عنه فيها يزعمهم أنه محا إسمه من
إمرة المؤمنين يوم كتب إلى معاوية ، ولم يضرهم - أي الخوارج - بالسيف حين
نكوصهم عنه يوم صفين وكان واجبه أن يفعل ذلك ليرجعوا إلى الله ، وحكم الحكمين ،
وزعم أنه وصى فضيع الوصية .

ورد عليهم علي رضي الله عنه مدافعاً عن نفسه في كل ما وجه إليه ، ودحض
شبههم الباطلة بالحجة البالغة معتمداً على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه
وسلم . (١٢)

أما نزع إسمه من إمرة المؤمنين فكان لرسول الله صلوات الله عليه أسوة حسنة
لأنه قبل أن يتخلى عن (محمد رسول الله) إلى (محمد بن عبد الله) لأن المشركين في
صلح الحديبية لم يقبلوا إلا هذا وحجتهم في رفضهم أنهم لو آمنوا أنه رسول الله ما
حاربوه ، وقبل النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال : «إن اسمي واسم أبي لا يذهبان
بنبوتي وأمري» . (١٣)

ورد على دعواهم بامتناعه عن قتلهم يوم صفين ، فاحتج بالآية الكريمة : «ولا
تلقوا بأيديكم إلى التهلكة» فعزف عن محاربتهم لكثرة عددهم ولقلة أعوانه .

وتحكيمة الرجال أيضا له من آيات الله أسانيد ، فإن الله حكم في أرنب يباع بربع
درهم بقوله «يحكم به ذوا غُدل منكم» ، فلو استرشد الحكمان بما جاء بكتاب الله (لما
وسعني الخروج عن حكمهما) (١٤)

وقد أثر بيان علي رضي الله عنه فيهم فقال أكثرهم صدق والله وأعلن التوبة

١ - د . عبد القادر شيبه الحسد ، الأدبان والفرق والمذاهب المعاصرة ، ص ١٠٧-١٠٨ (مرجع سابق) .

٢/٣/٤ - د . مصطفى حلمي ، نظام الخلافة ، ص ١٦٤-١٦٥ (مرجع سابق) .

وانحاز إليه منهم ثمانية آلاف مقاتل وأصر أربعة آلاف على القتال بقيادة عبد الله بن وهب الراسبي ، فكانت موقعة النهروان في يوم ٩ صفر سنة ٣٣ هـ .

الفرقة الثانية : الأزارقة

وهم أتباع نافع بن الأزرق ، وهم الذين خرجوا بفارس وكرمان أيام ابن الزبير ، وقتلهم المهلب بن أبي صفرة .^(١)

وخلاصة مذهبهم أنهم يحكمون على مخالفيهم من هذه الأمة بأنهم مشركون وكانت المحكمة الأولى تقول هم كفار لا مشركون .^(٢)

وهم يكفرون علماً مع جمع من الصحابة ، ويصوبون فعل ابن ملجم ، ويكفرون القاعدين عن القتال مع الإمام ولو قاتل أهل دينه ، ويبيحون قتل أطفال المخالفين ونسائهم ، ويسقطون الرجم عن الزاني المحصن وحد القذف عن قاذف المحصن دون المحصنة ، ويكفرون بالكبائر ويقولون إن التقية غير جائزة .^(٣)

الفرقة الثالثة : النجدات

وهم أصحاب نجدة بن عامر ، وهؤلاء يكفرون بالإصرار على الصفائين دون فعل الكبائر - فالإصرار على الصغيرة شرك في زعمهم وارتكاب الزنا والسرقة وشرب الخمر دون إصرار ليس بشرك إذا كان المرتكب من موافقيهم ، ويستحلون دماء أهل العهد والذمة وأموالهم .^(٤)

ومن مذهبهم إكفار من أكفر القعدة منهم عن الهجرة إليهم ، وإكفار من قال بإمامة نافع بن الأزرق ، وأن الناس ليسوا بحاجة إلى إمام قط (وهو قول المحكمة) ، وجواز التقية .^(٥)

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي (مرجع سابق) ص ٣٢٧ .

٢ - د. عبد القادر شيبه الحمد ، الأدب والفكر (مرجع سابق) ص ١١٢ .

٣ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي (المرجع السابق) .

٤ - د. عبد القادر شيبه الحمد ، الأدب والفكر (المرجع السابق) ص ١١٨ .

٥ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي (المرجع السابق) .

٠ الفرقة الرابعة : العجاردة

وهم أتباع عبد الكريم بن عجرد من أهل فارس ، وهو في أصل مذهبه من النجدات ، ونسبه ابن حزم الى الصفرية ، وأشار الشهرستاني إلى أنه كان في الأصل من أصحاب أبي بهس الآتي ذكره إن شاء الله .

ولما شاع ذكر عبد الكريم هذا ودخل في فتنته كثير من الناس أخذه خالد بن عبد الله البجلي القسري وحبيه ، فلما حبس افترق أتباعه على ثمان فرق موالية لعبد الكريم وإن كان بعضها يكفر بعضها ، ومن هذه الفرق (الميمونية) وهم أتباع ميمون بن خالد ، وقد ذهب ميمون إلى إنكار عموم قدر الله ومشيتته وزعم أنه ليس لله تعالى في أعمال العباد مشيئة وليست أفعال العباد مخلوقة لله تعالى (وأن الله تعالى مريد الخير دون الشر) ^(١) ، وقال : إن أطفال المشركين في الجنة وأن أصحاب الذنوب كفار وأنه يجب قتال السلطان ومن رضي بحكمه ، وأما غير السلطان فلا يجب قتاله إلا إذا أغار عليهم أو طعن في دينهم أو كان دليلاً للسلطان .

كما أنكر الميمونية أن تكون سورة يوسف من القرآن الكريم وقد نسب هذا القول إلى عبد الكريم بن عجرد .

« ويقال إنهم يجوزون نكاح بنات البنات ، وبنات أولاد الإخوة والأخوات ، ورد ذلك في بعض الكتب ومن جملتها (صبح الأعشى) » ويضعف الأمير شكيب الروايات التي ينقلها (صبح الأعشى) عن كتب زعم أصحابها استباحة ذوات المحارم عند بعض الفرق المخالفة لأهل السنة ، ويعلق على ذلك بقوله : « إن اختلاف العقيدة يورث من التباغض والتنافر ما ينتهي بوضع أخبار كثيرة لا صحة لها ويتروى بها بين الناس حتى تصبح قضية مسلمة . » ^(٢)

ولكن الميمونة لا يختلف الناس في كفرهم لأنهم أنكروا ما علم من دين الإسلام

١ - المرجع السابق نفسه .

٢ - عبد القادر شيبه الحمد ، الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة . (ص ١٢٣-١٢٤ (مرجع سابق) - ١١٩) .

بالضرورة كإنكارهم (سورة يوسف) وإباحتهم بنات أولاد الإبن وبنات أولاد البنت وبنات أولاد الإخوة وبنات أولاد الأخوات .

الفرقة الخامسة : الشعالية

هم أتباع ثعلبة بن مشكان أو ابن عامر وقد كان مع عبد الكريم بن عجرد حتى اختلفا في شأن الطفل فكفر كل واحد منهما صاحبه .^(١)

وهم يرون الولاية على الصغير إلى أن يظهر عليه إنكار الحق فيتبرأون منه .^(٢)

الفرقة السادسة : الصفرية

وهم أتباع المهلب بن أبي صفرة ، ويرجع الشيخ الكوثري تصحيح الاسم إلى زياد بن الأصفر ، وقيل بل سموا صفرية بسبب صفرة ألوانهم من شدة العبادة والسهر .^(٣)

ومن رأيهم أن التكفير يقع فيما ليس فيه حد ، كترك الصلاة ، أما ما كان من الكبائر فيه حد الزنا ، فيكفي فيه الحد ولا يجب فيه التكفير .^(٤)

الفرقة السابعة : الأباضية

وهؤلاء ينتسبون إلى عبد الله بن إباح^(٥) ، بكسر الهمزة وقد تلفظ بالفتح ، وكان أول خروج الأباضية في زمان مروان الثاني الأموي ، وكان يقودهم حينئذ عبد الله بن يحيى وأبو حمزة (١٢٩هـ) .

١ - ٣/١ - عبد القادر شعبة الحمد ، الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة . (ص١٣٣-١٣٤) (مرجع سابق) - ١١٩ .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج٢ ص٣٢٩ (مرجع سابق) .

٤ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي (المرجع السابق) ج٢ ص٣٢٩ .

٥ - شكيب أرسلان (المرجع السابق نفسه) ، (ومن القريب أن ابن حزم رحمه الله ذكر أن عبد الله بن إباح رجع عن قوله إلى قول الثعالبة ، ثم قال : فبرئ منه أصحابه فهم لا يعرفونه اليوم - د . عبد القادر شعبة الحمد ، الأديان والفرق (مرجع سابق) ص١٣٩ - ويذكر المصطفى في التنبيه والرد على أهل الأهواء ، أن الأباضية أصحاب إباح بن عمرو الذين خرجوا من الكوفة) عن . د . مصطفى حلمي . نظام الخلافة (مرجع سابق) ص١٥٩ .

وقد تناول الأمير شبيب أرسلان فرقة الإباضية بتفصيل أكبر بكثير من تناوله لفرق الخوارج الأخرى ، كما فصل تاريخهم السياسي منذ نشأتهم حتى عصره ، وذلك لأن الإباضية أكثر فرق الخوارج إنتشاراً ، وكانت لهم بلدان ودول وحكومات كسائر فرق الإسلام الكبرى .^(١١)

وخلاصة مذهب الإباضية كما بينها شبيب أرسلان أنهم « يرون أن مرتكب الكبيرة كافر للنعمة ، لا كافر بالله ، ويرون أن دار مخالقيهم من الإسلام دار توحيد ، ولكن دار السلطان منهم دار بغي ، وهم يحتجون على كل من يتهمهم بمخالفة السنة ، ويقولون أنهم هم وحدهم الذين لم يحيدوا عن السنة ، ويقال أنهم يزعمون كونهم هم وحدهم الفرقة الناجية من أصل الثلاث والسبعين فرقة ، وهم لا يذكرون بعد الرسول صلى الله عليه وسلم من الخلفاء إلا أبا بكر وعمر ، وأما عثمان وعلي فلا يعجبانهم إذ قد خالفا نهج الرسول والصحابين بزعمهم »^(١٢)

« ويقولون بوجود نصب الإمام بين المسلمين إذا توفرت القوة والعلم لنصبه ، وأن القرشية ليست بشرط في الخلافة ، بل يكفي أن يكون الخليفة متصفاً بالفضيلة والتقوى ، سائراً بموجب الكتاب والسنة لتصح خلافته ، فإن انحرف عنهما وجب خلعه .

« ويقولون إن القرآن هو كلام الله خلقه الله تعالى ، وهو كقول المأمون العباسي ، وأنه تعالى لا يرى بالأنصار في الجنة ، وأن الثواب والعقاب أبديان ولا فناً للنعيم ولا الجحيم ، وأن الله يغفر الصغائر ولكنه لا يغفر الكبائر إلا بالتوبة »^(١٣)

« وهم يرجعون إلى الكتاب والسنة فقط ولا يعملون بالإجماع والقياس ، بل عندهم محلها الرأي »^(١٤)

« وهم يقولون : إن كل مسلم مكلف أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وأن على كل مسلم واجبات مفروضة نحو أخيه المسلم ، فمن لم يقم بما فرض عليه من هذا

١ - ٣/٢/١ - المرجع السابق نفسه .

٢ - تعليقات الأمير على حاضر العالم الإسلامي ، ج ٤ ص ٣٢٨-٣٤٦ .

التضامن الديني خسر حقه في خنو إخوانه المسلمين عليه ، ووجبت معاملته نظير عدو إلى أن يتوب وينيب»^(١)

ومما ذكره الأمير شكيب أرسلان عن تاريخ (الأباضية) السياسي ، أن هذا «المذهب الأباضي» وجد في بلاد عمان بانفرادها ، وشحط مزارها ، وحيلولة الفلوات من جهة ، والبحار من جهة أخرى ، بينها وبين سائر الأقطار أندوحة اتسع بها ، وسط جناحيه بدون زعج في قاصيتها ، وما زال ينتشر هناك حتى صار هو المذهب الغالب في بلاد عمان ومنها امتد إلى زنجبار . أما في شمال أفريقية فإن مذهب الأباضية ظهر في أواسط القرن الثاني للهجرة ، هو ومذهب الصفرية ، كلاهما من الخوارج ، وقد انتشرا كثيرا بين البربر الذين خرجوا مرارا على الدول العربية ، وكان أول دعائهم في شمالي أفريقية أبو الخطاب عبد الأعلى بن السماع المعافري الحميري اليماني ، خرج في جبل نفوسة ، وهو أول إمام للأباضية في تلك الأقطار ، ويقولون أنه أحد الدعاة الخمسة الذين يسميهم الأباضية «حملة العلم»^(٢)

ونشير هنا إلى إحدى تعليقات الأمير شكيب أرسلان على تاريخ الأباضية السياسي ، لأهمية هذه الحملة في بيان عقيدة الأمير ، وتيقظه في فهمه لأهداف أعداء الإسلام ، ففي أثناء حديث الأمير عن الحركات السياسية والنزاع على السلطة في عمان في العصر الحديث ذكر شكيب أن (عزان بن قيس) ثار على (تويني بن السيد سعيد) حاكم عمان ، وأعلن الطاعة لابن سعود سنة ١٨٦٤ م .

يقول شكيب : «ولما كان الإنكليز يعلمون أن الوهابية دعوة وأن الدعوات الدينية لا سيما إلى مبادئ السلف من الإسلام يخشى منها ، أهتموا بصدهم عن بلاد عمان ، وأمدوا تويني بالمدايق والأعتاد ، وأشاروا إلى رؤساء البلاد بأن ينضروا تحت لواء السيد تويني»^(٣)

موقف الأمير شكيب أرسلان من

البابية والبهائية

١ - البابية :

البابية من الفرق الباطنية ، وتسمى البابية نسبة إلى رجل كان يقال له ميرزا محمد علي الشيرازي ولد بإيران في غرة محرم سنة ١٢٣٦ هـ أو ٢٦ مارس سنة ١٨٢١ م ، « وهو الذي سمي نفسه (الباب) بمعنى الوسيلة الموصلة إلى معرفة الحقيقة الإلهية ، وتبعه أناس تلقبوا من أجله بالبابية »^(١)

وفرقه (البابية) ظهرت في بلاد العجم ، وهي من أشهر الفرق الإسلامية التي ظهرت في العصر الأخير ، وتميزت بكون أتباعها لم ينحسروا في الشرق والعالم الإسلامي ، بل وجد منهم في أوروبا وأمريكا أيضا .^(٢)

وقد كان السيد محمد علي الشيرازي من الشيعة الإثني عشرية ولكنه بدأ يجمع إلى مذهبه مذهب الإسماعيلية ، واشتغل بالدراسات الفلسفية^(٣) ، « وكان مفرماً منذ نعومة أظفاره بالبحث في الأمور الاعتقادية ، نازعاً إلى النسك ، حتى قيل أنه حمل نفسه على التقشف والتعبد الشاق ، بحيث كان يقعد الساعات الطوال في عين الشمس حاسراً عن رأسه »^(٤)

ويروي الأمير شكيب أرسلان أن الباب « زار كربلاء وأخذ عن رجل يقال له الشبيخ البحريني ، ولما عاد إلى شيراز شرع يقرأ في المساجد ، ويحمل في الجدال على رجال الدين ، فمال كثيرون إلى مذهبه .. ثم ذهب إلى الحج وأثناء رحلته ألف بعض الرسائل يقال أن أتباعه يعتقدون ما فيها وحياً وإلهاماً »^(٥)

١/٢ - تعليقات الأمير شكيب على حاضر العالم الإسلامي . ج ٤ ص ٣٥١ وما بعدها (مرجع سابق) .

٣ - عبد القادر شيبه الحمد . الأدب والفكر والمذاهب المعاصرة ، ص ٩٣-٩٤ (مرجع سابق) .

٤/٥ - تعليقات الأمير شكيب على حاضر العالم الإسلامي ، (المرجع السابق نفسه) .

ومن جملة ما ينسب إليه أنه قال أن علياً هو قبل نبيل ، ونبيل هو عندهم اسم محمد صلى الله عليه وسلم ^(١) ، وأنه خرج على الناس بفكرة أنه هو وحده الناطق بعلم الإمام المستور وأنه الباب إليه ، ثم ادعى أنه المهدي المنتظر ، ثم ادعى أن الله قد حل فيه وأنه هو الذي به يظهر الله لخلقه وأنه هو السبيل لإظهار موسى وعيسى في آخر الزمان ، ثم أعلن عدم إيمانه باليوم الآخر وأنكر الجنة والنار ، وذكر أنها رموز لحياة روحية متجددة ، ونحى منحى البراهمة والبوذيين ^(٢) .

ثم زعم أنه يجمع بين اليهودية والنصرانية والإسلام وأنه لا فرق بينها ، ثم أنكر أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين ، وأنكر كثيراً من الأحكام الإسلامية المعلومة من الدين بالضرورة ، وقد اطلع الأمير شكيب أرسلان على مؤلف له بالعربية يقول فيه : «إن الأنبياء أولى العزم كلما انقضت شريعة واحد منهم قامت قيامته ، وانتهى دوره ، وجاء دور الآخر كلما انقضت شريعة واحد منهم قامت قيامته ، وانتهى دوره ، وجاء دور الآخر وهكذا جاء آدم ، وبعد آدم نوح ، وبعد نوح إبراهيم ، وبعد إبراهيم موسى ، وبعد موسى عيسى ، وبعد عيسى محمد صلوات الله عليه وعليهم أجمعين ، وبعد محمد الباب مؤسس هذه النحلة المسماة بالبابية» ^(٣) .

ويروى أنه ألف كتاباً سماه البيان وزعم أنه كالقرآن ^(٤) ، ومن قبلوا هذه الدعوة في طهران الأخوان «ميرزا يحيى نوري» الملقب بعد ذلك «بصبح أزل» و «ميرزا حسين علي نوري» ، الملقب فيما بعد «ببها» الله ، وكذلك خاتون اسمها «زرين تاج» ولقبها «قرة العين» كريمة الملا صالح الباراكاني من قزوین ^(٥) .

ولما استفحل شأن الباب وكثر أتباعه أجمعت الحكومة الفارسية على استئصال

١ - تعليقات الأمير شكيب على حاضر العالم الإسلامي ، (المرجع السابق نفسه) .

٢ - عبد القادر شببة الحد ، الأديان والفرق (المرجع السابق نفسه) .

٣ - تعليقات الأمير على حاضر العالم الإسلامي ، (المرجع السابق نفسه) .

٤ - وهذا الكتاب بالعربي والفارسي ، وله أيضاً كتاب (بين الحرمين) و (تفسير سورة يوسف) (المرجع السابق) .

٥ - تعليقات الأمير (المرجع السابق) .

شأفتهم ، فقبضت على الباب واعتقلته في قلعة (ماكو) باذريجان ، وأخرجوا (صبح أزل) وأخاه (بهاء الله) إلى بغداد ، ثم أرسلوا إلى أدرنة بالاتفاق بين الدولتين العثمانية والفارسية ، ثم وقع الخلف بين الأخوين ، فأرسلت الدولة بهاء الله إلى قلعة (عكا) ، وصبح أزل إلى جزيرة قبرص . وأما (قرة العين) فإنهم أخرجوها لعهد الباب نفسه إلى بغداد ، وأنزلوها في بيت الآلوسي مفتي بغداد .^(١)

وينفي الأمير شكيب أرسلان ما قيل في شأن (قرة العين) هذه ، وقال إن الآلوسي قال عنها فيما بلغ (شكيب) ، (ماعهدت عليها من سوء) ، وقال أنها كانت تناظر المفتي الآلوسي وتباحثه وتدافع عن مذهبها ، ويروي عن (عباس أفندي) الملقب بعبد البهاء ابن بهاء الله إمام البابية ، وابن إمامها ، أن قرة العين بما أوتيت من الذكاء والفضل ، وسرعة الخاطر ، كانت تعجز المفتي الآلوسي على غزارة علمه ، وزخور بحر فضله^(٢)

وقد أعدم الباب في تبريز في ٢٧ شعبان سنة ١٢٩٦ هـ وفق ٨ تموز سنة ١٨٥٠ م^(٣)

٢ - البهائية :

ينقل الأمير شكيب أرسلان في تعليقاته على حاضر العالم الإسلامي عن المصباح (هوارت Huart) المستشرق الفرنسي في فصل له على البابية في الإنسيكلوبيديا الإسلامية الفرنسية ما أخذه عن (بيان) الباب من تعاليم البابية دون أن يتعرض لهذا الموضوع بجرح ولا تعديل تاركا عهده على رواته ، ثم ينقل عنه أيضا ترجمته (بهاء الله ميرزا حسين على نوري) الذي نسب المذهب إليه فيما بعد فقيلا (البهائية) فقال :

«إنه ولد في نور من بلاد المازندران في ١٢ نوفمبر سنة ١٨١٧ م ، ولما بلغ الثلاثين من العمر اتبع طريقة الباب ، وكان أخوه من أمه ميرزا يحيى الملقب بصبح أزل

قد أخذ بهذه العقيدة من قبل ، ولم يشاهد بها ، الله الباب بذاته لكنه أحبه بالغيب وصار أعظم مردييه بل سبق الجميع في هذه العقيدة ، وشحط الأولين والآخريين في هذه الطريقة الجديدة ، حتى صار عند جمهور البابية هو خليفة الباب ، والمصلي بعد الإمام في المحراب ، وفي سنة ١٨٥٢م أبعدته الحكومة الفارسية إلى بغداد على أثر محاولة أحد البابيين قتل الشاه وتعاضم الفتنة ، فأقام بنواحي السليمانية معتزلاً معتكفاً مشيراً إلى أنه هو الرجل الذي بشر بمجيئه الباب في قوله « من يظهره الله » ووضع هناك قواعد الدعوة التي قصد جعلها ديانة عامة ثم نقل إلى أدنة سنة ١٨٦٤م ، ثم إلى قلعة عكا في شهر أغسطس سنة ١٨٦٨م ، حيث أدركته المنية في ٢٩ مايو (أيار) سنة ١٨٩٢م ، تاركاً خلافته الروحية إلى ولده الأكبر عباس أفندي الملقب عبد البهاء» (١)

«وأما عقيدته فقائمة بأن لا يؤذي الإنسان أحداً ، وأن يحب الخلق بعضهم بعضاً ، ويتحملوا الظلم بدون مقابلته بالمثل ، ولا يشتغلوا إلا بالخير ، وأن يوطنوا أكنافهم ويعنوا بأمر المرض» (٢)

«والغاية من هذه الحياة هي السلام العام بواسطة هذا المذهب المجرد من الرهبانية والشعائر (التي يقال لها عند النصارى الطقوس) بل كل مدينة يلزم أن تؤسس لها معهداً للاجتماع تجلس فيه لجنة مديرة مؤلفة من تسعة أعضاء ، يقال لها «بيت العدل» ويكون دخل هذا البيت من الشركات التي لا يوجد لها وارث ، ومن متحصل الغرامات ، ورسم ١٩ في المائة على رأس المال ، يؤدي مرة واحدة لاغير» (٣)

«وممنوع في مذهبه النقشف والتبطل ، لأن الله خلق الإنسان وأحل له الطيبات من الرزق» (٤)

«وللبهاء» تأليف أهمها «الكتاب الأقدس» (طبع في بمباي ويطرسبرغ) وكتاب

١/٢/٣ - تعليقات الأخير على حاضر العالم الإسلامي (المرجع السابق) ج ٤ ص ٣٥٥-٣٥٨ .

٤ - المرجع السابق . وقد نقلنا هذا النص لنظهر جهود المستشرقين في إبراز هذا المذهب وعنايتهم بترجمته وعرضه على أوسع نطاق .

«الإيقان» (ترجمة دريفوس وحبيب الله الشيرازي في باريس سنة ١٩٠٤) وطرازات كلمات فردوسية وإشراقات وتجليات (ترجمت في قواعد البهائية سنة ١٩٠٦م) «وكلمات مكنون» (مطبوع بباريس سنة ١٩٠٥) و «دروس عكا» التي جمعتها ما دام كليفوردي بارنادي ... و «النور الإلهي» (مطبوع بلندرة سنة ١٩٠٨) ترجمة عن الأصل الفارسي المسمى دريفوس ...

«ولدريفس المذکور کتاب علی البهائية وتاريخها وأثرها الإجتماعي وقد ذكرها (براون) في كتابه «سنة بين العجم»

ويعلق شكيب أرسلان على النصوص السابقة بأنه نقلها عن المستشرق هوارت بدون زيادة ولا نقصان، والعهد في كل ذلك عليه وعلى من نقل عنهم. (١)

ولكن الأمير يعود فيقرر «أن البهاء وأولاده بمقامهم هذه المدة الطويلة بعكا أصبحوا بأشخاصهم معروفين لدى أهالي بلادنا المعرفة التامة ، بحيث صفا جوهرهم عن أن تعتوره الجهالة ، وامتنعت حقيقتهم عن أن تتلاعب بها حصائد الألسنة» (٢)

ويؤكد الأمير شكيب أن البهاء في فترة إقامته (بعكا) كان يقضي وقته معتزلاً معتكفاً ، وأنه ما اطلع له أحد على سوء ، ولا مدعاة شبهة في أحواله الشخصية كلها ، ويري (شكيب) أنه عرضت خصومة بين ولد البهاء (عباس أفندي) وبعض الممولين على حدود أرض فوصلت إلى المرافعة فكتب البهاء إلى ولده : «يا عباس انتنازعون وتترافعون على حفنة تراب ؟ فترك عباس الدعوى من فوره . (٣)

أما أولاد البهاء فكانوا أربعة السادة عباس ، ومحمد علي ، وضياء ، وبديع الله ، وفي عام ١٩٢٢م انتقل إلى الدار الآخرة عبد البهاء عباس ، وقد ذرف على الثمانين. (٤)

١ - المرجع السابق ، وقد نقلنا هذا النص لنظهر جهود المستشرقين في إبراز هذا المذهب وعنايتهم بترجمته وعرضه على أوسع نطاق .

وُلِدَ بالغ الأمير شكيب كثيراً في مدح مزاي عبد البهاء عباس أثناء تأبينه له ، وأشار في معرض ذلك إلى مسألة خطيرة ، وهي مرافقة نحر مائة وخمسين شخصاً من أتباع طريقة البهاء من الإيرانيين البهاء وأهله في مفاهم في عكا ، وليس فيهم إلا صاحب صنعة أو عمل ، وقد هجروا أوطانهم حبا بجوار البهاء وأولاده ، وكان عباس أفندي يكتنفهم بظله ويتعاهد جميعهم بفضله .^(١)

ويذكر شكيب أرسلان أنه اتصل بعبد البهاء عباس أثناء إقامته في عكا ، وجمعت بينهما صداقة ومودة ، حاول شكيب أن يستثمرهما من أجل أن يتعرف على حقيقة العقيدة البابية ، وصحة ما ينسب إليها ، فقص عكا مراراً ولا غرض له سوى الإستماع إليه ، وسأله عن حقيقة مذهبه ، يقول شكيب :

« وادّرت مرة على الكلام في موضوع العقيدة البابية بدون أن أسأله عن ذلك رأساً ، بل كنت أجيء إليه من باب المعارض استطرافاً ، وأحاول أن أحمله على هذا البيان استطراداً ، فسألته عما إذا كان من الممكن تمثيل الصفات الإلهية في أحد البشر بدون تصريح ، إلى ما يقال من كون الباب أو البهاء هو مجلي الصفات الربانية على الأرض ، فأجابني بأن الصفات معان ، والمعاني لا تتجسم ولا تشخص ، وأن المجردات لا تتجسد ، وأفاض في هذا الموضوع بالنفي وتبيين وجه الإستحالة ، فأجبتني : « فلماذا يقال إذاً أن بعض البشر يمثلون الصفات الإلهية على الأرض أو أنهم مظهر الألوهية في الخلق ؟ » فقال لي : « ليس الأمر كذلك ولكن الحديث يستفيض من القديم بقدر استعداد » وكررها : « بقدر استعداد » ، بقدر استعداد » ففهمت من هذا أن مقصودهم هو كون بعض النفوس مستعدة للكمال أكثر من سواها ، فهي تقتبس من النور القدسي بقدر صفاتها ، وأن هذا مبلغ عقيدتهم في الباب أو البهاء ، أو مبلغ عقيدة عباس أفندي نفسه ، الذي كان فيلسوفاً متكلماً فلا يمكن أن تكون عقيدته عقيدة العوام من البابيين »^(٢)

ويتذكر شكيب أن عبد البهاء عباس كان يشرح مرة عقيدة القضاء والقدر فقال له شكيب : « إلا أن هناك من يقول في التعريف ما هو كذا وكذا » فقال عباس : « هؤلاء هم العوام » فقال شكيب له : « كلا بل من العلماء من يقول هذا » فقال : « والعلماء فيهم عوام أيضاً » . (١)

وأخيراً فإن شكيب أرسلان يرى أن من واجب المؤرخ أن يثبت أنه بعدموت (بهاء الدين) وقع الخلف بين أولاده عبد البهاء من جهة ، ومحمد علي أفندي ، وضياء أفندي ، ويديع الله أفندي ، من جهة ثانية ، وكانت دعوى عبد البهاء أن إخوته نفسوا عليه الرئاسة وهو أحق بها وأولى ، ودعوى إخوته أنه خالف وصايا والدهم في كثير من الأمور ، مما جعل النفرة والجفاء يتمكنان من قلب عبد البهاء نحو إخوته ، حتى بعد أن سلموا له ، وما زال على الصرم والهجران حتى توفاه الله ولم يعقب ولدا ذكراً . فلم يستخلف أحداً من أخويه الباقيين ، وفضل عليهما حفيده من أولاد بنته فوق الخلف أيضاً بعد موته ، وانقسمت الفرقة البهائية إلى قسمين : منهم من يتمسك بوصية عبد البهاء ، ومنهم من لا يرى له حقاً في ذلك ، ويوجب إنتقال الزعامة إلى أخيه السيد محمد علي أفندي . (٢)

١ - تعليقات الأمير على حاضر العالم الإسلامي (المرجع السابق) ج٤ ص ٣٥٩ - ٣٦٠ .

٢ - تعليقات الأمير على حاضر العالم الإسلامي (المرجع السابق) ج٤ ص ٣٦١ .

نقد موقف الأمير شكيب أرسلان من البابية والبهائية

الدعوة البابية أو البهائية هي دعوة قديمة جديدة شكلتها أصول متعددة من الفكر الوثني والفكر التلمودي اليهودي والفكر المجوسي ، وهي واحدة من الدعوات التي ظهرت في إبان الإستعمار البريطاني بهدف إسقاط فريضة الجهاد أو تعطيلها ، وقد دخل يهود إيران هذه الحركة وحولوها وجهة متصلة بالماسونية ، وتحاول البهائية نشر دعوة وحدة الأديان بالخروج عن أصولها للدخول في دين جديد ، يقول بالسلام العام وتوحيد لغات العالم ومساواة الرجل بالمرأة ، واعتبار العبادة هي العمل .^(١)

ولقد بنى الأمير شكيب أرسلان موقفه من البابية على التشكك فيما نسب إليهم من عقائد ، وكان يقول «إننا تعودنا من أهل الفرق الكبرى شرقاً أو غرباً وفي الإسلام أو في النصرانية ، أنه كلما خرج عليهم خارج رموه بكل عضيبة»^(٢) وذلك لأن «إختلاف العقيدة يورث التباعد والتنافر ما ينتهي بوضع أخبار كثيرة لا صحة لها وترويضها بين الناس حتى تكاد تصير قضية مسلمة»^(٣) لذلك سعى الأمير شكيب إلى التعرف على العقيدة البابية بنفسه من إمامها عباس أفندي الملقب (بعيد البهاء) كما بينا ، وقد يكون الأمير محقاً في منهجه في البحث عن الحقيقة وفي تربيته وتثبته قبل حكمه على إحدى الفرق التي تنسب إلى الإسلام ، ولكن هذا المنهج هو محل نظر إذا كانت هذه الفرقة تنسب إلى الفرق الباطنية التي قد يظهر أتباعها غير ما يعتقدون لإيمانهم بالتقية والقول بالباطن .

ويعلق الأمير شكيب على الفتنة التي أحدثتها الدعوة البابية في العالم الإسلامي ، ومواجهة كثير من الباحثين لها ، وكشف زيفها فيقول : «أما من جهة تعاليم البابية ، فقد اختلفت الأقوال كثيراً ، وطعن فيها أناس كثيرون ، من جملتهم السيد جمال الدين الأفغاني ، ولعل وجه الطعن فيها هو بروزها بشكل سريعة جديدة ، حال كون الشرائع

١ - أنور الجندي ، محاولة لنا ، منهج إسلامي متكامل ، مج ٥ ، ص ٣٩٣-٣٩٤ .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ج ٤ ص ٣٥٢ (مرجع سابق) .

٣ - المرجع السابق نفسه ، ج ٤ ص ٣٢٨ .

كلها قد ختمت بالرسالة المحمدية ، فأما إذا تلقاها الإنسان على شكل وصايا وعزائم ، كما هو الشأن في الطرق الصوفية المتعددة ، فإنه يجد فيها كثيرا من الآداب السامية ، والمبادئ المعقولة» (١)

ولكن البابية لم تكن مجرد آداب ومبادئ معقولة فهي تدعو إلى وحدة الأديان وتدعو إلى وحدة الأجناس والشعوب ، وتحاول التبشير بعصر جديد يشرق على البشرية ، وهذا هو جماع ما حملته بروتوكولات صهيون ، ولا ريب أن كل دعوة تدعو إلى وحدة الأديان والأجناس إنما تحاول هدم الإسلام لأنه الدين الوحيد الذي يراى له أن يتدمج وأن ينصهر وعالمية الأديان لا تستهدف إلا القضاء على عالمية الإسلام (٢) ، وهذه المعاني كلها مستمدة أساساً من التلمود ، وأبرز معاني البهائية إسقاط فريضة الجهاد وهي دعوة حين تنشر بين المسلمين لا تنفيذ منها إلا الصهيونية العالمية التي تعرض على كلمات (الحرية والمساواة والإخاء) (٣)

والبهائية في أنظمتها أقرب إلى الماسونية وقد وجدت مناخها في كل المناطق التي ضعفت فيها بقظة الإسلام ، فقد استوطن البهائيون تركيا ، وعكا ، وحيفا قبل الحرب العالمية الأولى ، وكان لذلك أثره العميد في إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين (٤)

ويقول شكيب : «ولسنا نعرف بالتدقيق عدد الفرقة البابية ، فمنهم من يقول أنهم زهاء مائة ألف نسمة في العجم ، ومنهم من يقول بل ١٥٠ ألفاً ، ويقال أن منهم بالهند ، ومصر ، بين الإيرانيين المقيمين بهذه الحاضرة ، ومنذ نحو ٢٠ سنة أخذنا نسمع أن هذا المذهب انتشر بأمريكا ، وأنها قد ترجمت عقيدته إلى الإنجليزية ، وأخذ بها أناس كثيرون» (٥)

١ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق نفسه ، ج ٤ ص ٣٥٤ .

٢ - أنور الجندي ، محاولة لبناء ، (مرجع سابق) .

٣ - د. مصطفى حلي ، الإسلام والأديان ، ص ١٧٢ .

٤ - أنور الجندي ، محاولة لبناء ، (مرجع سابق) .

٥ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي (مرجع سابق) ج ٤ ص ٣٦٠ .

الباب الثالث

الآراء الفلسفية عند الأمير شكيب أرسلان

الفصل الأول

نقد الأمير شكيب أرسلان للفكر المادي الحديث

- تمهيد

- قضايا الإنسان في فكر الأمير شكيب أرسلان



ونظرية التطور

- عمر الإنسان

- مذهب النشوء والإرتقاء

- مذهب النشوء والإرتقاء في الغرب

- مذهب النشوء والإرتقاء في الشرق العربي

- رأي الأمير شكيب أرسلان في المبادئ الشيوعية والإشتراكية

تمهيد :

في أواخر القرن الثامن عشر ، وفي أثناء القرن التاسع عشر بأسره ظهرت بعض النظريات ، أو الفروض العلمية العامة ، التي حاول أصحابها أن يفسروا بها نشأة الحياة على سطح الأرض . وكانت هذه الفروض في حقيقة الأمر امتداداً لبحوث قام بها علم جديد هو علم طبقات الأرض ، فإن بحوث هذا العلم أثبتت أن المادة غير العضوية التي تتكون منها القشرة الأرضية مرت بأطوار عديدة ، وعصور جيولوجية حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن ، كما تدل على ذلك الحفريات التي تكشف لنا عن تكون طبقات أرضية متتالية بعضها فوق بعض في آماذ سحيقة .^(١)

ولقد راجت فكرة (التطور) في هذا العصر رواجاً كبيراً ، حتى أصبح يطلق عليه عصر التطور^(٢) ، ففي علم الأحياء أراد الباحثون أن يطبقوا فكرة التطور هذه على الكائنات العضوية كالنبات والحيوان ، وحاولوا اثبات أن ظهور الحياة يعتبر امتداداً لتطور المواد غير العضوية في ظروف ملائمة ، لكنهم اختلفوا في السبب المباشر للحياة^(٣) ، وفي علم الأديان راجت نظرية التطور الأديان ، وفي عالم الفكر راجت نظرية تطور المبادئ والنظم ، وسرت هذه الفكرة إلى كل ناحية ، فالعائلة والأخلاق والدولة تطورت ، وكل شيء في هذا الكون تطور ، وأصبح التطور يطلق على معاني التقدم والإرتقاء ، وصار من وراء ذلك خلط عجيب لا يكاد ينجر منه إنسان .^(٤)

والحق أن أي بحث متعلق بتصور (الإنسان) وخصائصه الفريدة لا يمكن أن ينفصل عن الدين ، فنحن - المسلمون - نؤمن « أن المصدر الوحيد الذي بمدنا بحقائق مؤكدة عن خلق الإنسان ومكانته وغايته هو القرآن الكريم ، ولذا عنى مفكروا الإسلام

١ - د. محمود قاسم ، جمال الدين الأفغاني حياته وعصره ، ص ١٧٥ .

٢ - فيس القرطاس ، نظرية دارون بين مؤيديها ومعارضها ، ص ١١ .

٣ - د. محمود قاسم ، جمال الدين الأفغاني (مرجع سابق) .

٤ - فيس القرطاس ، نظرية دارون (مرجع سابق) .

باستعداد نظرانهم من القرآن مباشرة»^(١)

«مثال ذلك ما كتبه ابن تيمية في تفسير لبعض الآيات القرآنية في هذا المجال مثال قوله تعالى : «وجعلنا من الماء كل شيء حي» ، وقوله عز وجل : «الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين» فأصل الإنسان التراب وقضله الماء وهنا تظهر القدرة الإلهية التي تبهر العقول وهو أن يقلب حقائق الموجودات فيحيلها من شيء إلى آخر ، فإذا خلق الله الإنسان من المني ، فالمني استحالة وصار علقة والعلقة استحالت وصارت مضغة والمضغة استحالت إلى عظام وغير عظام .

فالإنسان مخلوق خلقه الله - جواهره وأعراضه - كلها من المني أي من مادة استحالت فهي ليست مادة باقية أحدث الله فيها صورة الإنسان كما يزعم الفلاسفة .

ويقدم لنا الأصفهاني نظرة أخرى فيذكر أن الإنسان مركب من بدن محسوس وروح معقول مستنداً إلى قوله تعالى : «إني خالق بشرًا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين» فالروح هي النفس ويرى أن إضافتها إلى الله تعالى تشريفاً لها»^(٢)

«أما كمال الإنسان فيتحقق في أن يكون مراده هو الله سبحانه وتعالى لأن من لم يكن عبداً لله فلا بد أن يصبح عبداً لغيره»^(٣) .

«وهكذا فإن «الإرتقاء» في جوهره أخلاقي بحيث يصل الإنسان حينئذ إلى مستوى أفضل من (الملائكة) فلا يظهر الإنسان في ابتداء أحواله وإنما يظهر فضله عند كمال أحواله وليس أدل على ذلك من ثبات أحوال (الملك) الذي يتشابه أول أمره وآخره ، فالقاعدة الأساسية إذن إذا تكلمنا عن الرقي الإنساني وتقدمه الحضاري يكمن في

١ - د. مصطفى حلمي ، الإسلام والمذاهب الفلسفية - ص ١٩١ .

٢ - د. مصطفى حلمي ، (المرجع السابق نفسه) ص ١٩١-١٩٥ .

٣ - المرجع السابق .

رقبه الأخلاقي ونسبيله إلى ذلك الحرية بالمفهوم الإسلامي ، وهي تعني تحرير الإرادة الإنسانية من سلطان الهوى والشهوات والسمو بالفرائض وتهذيبها خضوعاً لأوامر الله عز وجل» ^(١)

وهكذا يضع (القرآن الكريم) الإنسان في موضعه الصحيح ، ويمده من تعاليمه وأحكامه وحدوده وهده بما يكفل له خير الحاضر والمستقبل ، وبما لا تستطيع عقيدة أخرى إمداده به .

« ولن يستطيع ناصح أن ينصح أهل القرآن بعقيدة في الإنسان والإنسانية أصح ولا أصلح من عقيدتهم التي يستوحونها من كتابهم الكريم » ^(٢)

ولكن النظريات المادية التي ظهرت في القرن التاسع عشر في أوروبا عن إرتقاء الإنسان ، بكونه حيواناً مترقياً عما دونه من الحيوانات « لم يزل يختار بمرحلتين مرحلة في رحلته النوعية التي استغرقت ألفاً من السنين ولم يزل ينتقل من طور حيوان إلى طور آخر ، من (أميبا) إلى قرد ومن قرد إلى إنسان حتى بلغ كماله النوعي ، وزعيم هذه النظرية وبطلها (دارون) الذي ظهر كتابه أصل الأنواع سنة ١٨٥٩م فكان حديث النوادي والمجامع والمدارس وشغل الناس الشاغل » ^(٣) كانت هذه النظرية اتجاهاً جديداً لم يسبق في المسائل البشرية وما يتعلق بها ، تقلب تيار الفكر وتصرف نظر الإنسان في الإستعلام والاستهداء في مسأله وفي تاريخه من الإنسان إلى الحيوان ، وتجعله يعتقد أن هذا الكون سائر بغير عناية إلهية ، وبغير أن تتداخل فيه قوة غير طبيعية .

إن مناقضة هذه النظرية للدين والعقل في المبادئ والغايات والنتائج الفكرية والخلقية وأثارها العملية واضحة ، بل كان هذا ديناً جديداً يهدم الدين القديم من الأساس ويحل محله ، فلا غرابة إذا إذا اضطرب لها رجال الدين وحسبوا لها كل حساب ، وخافوا على مصير الدين في أوروبا . ^(٤)

١ - المرجع السابق .

٢ - عباس محمد العقاد ، الإنسان في القرآن ، ص ١٨٦ وما بعدها .

٣ - أبو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم بالنعطاط السنين ، ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

وقد تصدى للرد على (مذهب التطور) هذا في الشرق الإسلامي عامة ، والشرق العربي خاصة نخبة من المفكرين وقادة الإصلاح والمجتهدين من أتباع جميع الأديان الكتابية . وقد هالهم إقبال الجمهور والدهما ، على هذه النظرية في أوروبا - رغم ما فيها من ضعف ونقص من الوجهة العلمية - فهموها أو لم يفهموها - وكان الأذهان كانت مهينة لمثل هذه النظرية .^(١)

والشرق في ظل التخلف المادي والتفوق الحضاري الغربي أصبح يعيش حالة من فقدان الثقة بالنفس والإضطراب جعلته مفتوناً بتقليد الغرب وتلقي كل ما يصدر عنه من أفكار ونظريات ومفاهيم في شتى مجالات السياسة والإجتماع والعلم والتربية وكأنها حقائق علمية لا مجال لمناقشتها .

لذلك كان إسهام رواد الفكر من المسلمين والمسيحيين ، وأصحاب الإجتهد من أهل السنة والشيعة ، وأتباع الكنائس الشرقية والغربية في بلاد العالم العربي ضرورة ملحة ، وقد وصلت أصداء الردود التي كتبها المشهورون من أولئك المفكرين إلى أطراف البلاد الإسلامية في الهند والصين .

ومن أشهر من تصدوا للمذهب النادى في العصر الحديث السيد/جمال الدين الأفغانى في كتاب (الرد على الدهريين) ، والشيخ/محمد رضا آل العلامة التقي الأصفهاني . وهو باحث فاضل من علماء الشيعة بكرايا . المعلي ، تحري النظر في مجموعة وافية من مراجع مذهب النشوء والإرتقاء العربية والأفريقية التي وصلت إلى الشرق الإسلامي ثم رد عليها في كتابه (نقد فلسفة دارون) ، والأستاذ/إبراهيم حوراني - وهو عالم لغوي مطلع على المباحث العلمية - وقد ألف في الرد على مذهب دارون رسالة «مناهج الحكماء في نفي داروين» وطبعها ببيروت (سنة ١٩٨٦م) رداً على مناقشة «الدكتور شبلي شميل» لرسالته الأولى ، فصب حملته الكبرى على موطن الضعف في المذهب وهو افتقاره إلى الدليل القاطع وتعويله على الشواهد التي توجي

بالرأي ، ولا تستأصل الشكوك أو تسكت المعارض المطالب بدليل لا يضعفه الاحتمال^(١).

ولقد كان الأمير (شكيب أرسلان) واحداً من مفكري الإسلام الذين شعروا بخطر تأثير هذه النظرية العميق على الأفكار والعقائد والحضارة والأدب والسياسة وفي أخلاق الناس .

لذلك حذر شكيب أرسلان العالم الإسلامي من الإستغراق في الفكر المادي الوافد من أوروبا ، ونسيان ما سوى القيم المادية ، وبين أن نشائج هذه المادية الجارفة ، والتربية اللادينية التي ليست فيها نصيب للأخلاق ومخافة الله عزوجل ستؤدي إلى عبادة المادة ، والإنقياد لشهوات البدن ، وضياح المثل العليا التي لا تتكون في الأذهان ، ولا تصير هدفاً للقرائح ومرمى للعزائم إلا عند المؤمنين بدين الله تبارك وتعالى.

كما قرر الأمير شكيب أن مذهب التطور أياً كان تفسير القائلين به لنشأة الأنواع ، ليس فيه ما يصح أن يستند إليه الملحدون لإبطال الدين أو إنكار الخالق أو القول بخلو الكون من دلائل القصد والتدبير .

وإذا كان لانتشار هذه النظريات المادية في أوروبا أسباب حتمية دينية وطبيعية وتاريخية ، جعلت علماء الطبيعة والعلوم يحطمون سلاسل التقليد ويبطلوا نظريات التوراة من جهة تكوين الأرض وبدأ الخلق ، كما بينوا زيف النظريات الجغرافية التي اشتملت عليها هذه الكتب وانتقدوها في صرامة وصراحة ، ومنها ما يرجع إلى رجال الكنيسة من جمود وجهل واستبداد وسوء تمثيل ، فليس في الإسلام ما يدعو إلى نبذ الدين ، ولا يوجد في القرآن شيء يخالف قواعد العلم ، بل إن في الرجوع إلى الإسلام والأخذ بما جاء في القرآن يزيد إيمان المسلم من شدة مطابقة آياته البينات للتحقيقات الحديثة ، ويحار فيها غير المؤمن بالوحي ، يقول شكيب أرسلان :

١ - عباس محمود العقاد ، الإنسان في القرآن (مرجع سابق) ص ١٢٣ .

«إن القرآن الكريم ليس بكتاب جغرافيا ولا قوسموغرافية ، بل كتاب توحيد تنزيه ، وتهذيب نفوس ، وتطهير أخلاق ، ومع هذا فلم يرد فيه شيء يخالف قواعد العلم بل وجدت فيه آيات بينات يحار غير المؤمن بالوحي من شدة مطابقتها للتحقيقات الحديثة سواء في علم الفلك ، أو في علم تكوين الأرض مما كان في عهد نزول القرآن مجهولاً»^(١)

ويستشهد الأمير شكيب بآيات من القرآن الكريم تنطبق على النظريات العلمية الحديثة التي ثبتت صحتها كحقائق علمية ، وذلك مثل آية :

«أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي» (*)^(٢) ويدعو الأمير شكيب إلى تأمل ما في هذه الآية من الإنطباق على جميع النظريات العلمية الحديثة التي معناها أن الأرض والأجرام الفلكية كلها كانت كتلة واحدة فانفصل بعضها عن بعض ، وكذلك أن الحياة بدأت في المياه^(٣)

وقول الله تعالى : «وكل في فلك يسمعون» (*)^(٤) التي تثبت أنه لا يوجد في الفلك جرم غير متحرك على الإطلاق مع أن الفلكيين في عصر القرآن كانوا يقولون بالمسارات والشوايت ، حتى التجأوا يومئذ عند تفسير هذه الآية إلى التأويلات والإحتمالات البعيدة ، إلى أن تقرر في علم الهيئة الجديد كون الأجرام الفلكية بأجمعها متحركة ، وصدقت الآية بدون أدنى تأويل^(٥)

وقوله تعالى : «من كل زوج بهيج» (*)^(٦) وكيف كرر ذلك مراراً حتى يفهم

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٢ ، ص ٣٤٥ .

٢/٥ - المرجع السابق نفسه ، ص ٣٤٦ .

(*) ٢ - سورة الأنبياء ، آية : ٣٠ .

٤ - سورة يس ، آية : ٤٠ .

(*) ٦ - سورة الحج ، آية (٥) - سورة (ق) ، آية (٧) .

الإنسان أن الخلق كله من حيوان ونبات وجماد ، مبني على الإزدواج حتى النبات فيه ذلك ، والجماد فيه القوتان السلبية والإيجابية مما لم يكن شيء منه معلوماً في زمن البعثة ، فلم يفهم العلماء بعد مرماه إلى أن تكلفت به التحقيقات العصرية» (١)

« يذكر الأمير شكيب هذه الآيات البينات وغيرها من الآيات التي تدعش القارئ المتعلم بما فيها من الحقائق العلمية (بشرط أن يكون ذا ملكة عربية ، يقدر بها أن يتدبر عمق غور تلك الآيات لا أن يكون أجنبياً عن أدب العربية) (٢)

وبهذا الفهم القائم على الإيمان بقدرة القرآن الكريم على المواجهة والتحدى أمام التفكير العادي الذي يلح على أن هذه الحياة الدنيا هي كل شيء ، ويبالغ في تصجيدها وتقديسها الإحتفاء بها والعرض على ترفيها وتزيينها ينطلق الأمير شكيب أرسلان في تصوره للوجود والإنسان ، وفي نقده للمذهب المادي الحديث المتمثل في (نظرية التطور) في شكلها العلمي والفلسفي وفي تطبيقاتها المعاصرة من خلال الفكر الشيوعي الذي أسس فلسفته (كارل ماركس ١٨١٨-١٨٨٣م) ليتم حلقة التطور ، (ويثبت بنظريته النظرية لتفسير التاريخ ، أن تاريخ الإنسان ، هو تاريخ البحث عن الطعام ، فتاريخه لا يعدو في قيمته الحقيقية ، أن يكون تاريخ أي حيوان يقتات على الأعشاب أو يفترس غيره من الحيوانات) (٣)

وهكذا جحد (ماركس) جميع نواحي البشرية غير الناحية الإقتصادية ولم يعر غيرها شيئاً من العناية ، ولم يقم للدين والأخلاق والروح والقلب وحتى العقل وزناً وقيمة ، ولم يعترف أن أحداً منها كان عاملاً من عوامل التاريخ ، وأن جميع الحروب والثورات في التاريخ لم تكن إلا ثأراً لبطن من بطن ، وجهاداً في سبيل تنظيم جديد للنظام الإقتصادي وطرق الإنتاج الصناعي . (٤)

٢/١ - المرجع السابق نفسه ، ص ٣٤٦ .

٣ - فيس القرطاس ، نظرية دارون بين مؤيديها ومعارضها (مرجع سابق) ص ١٧٣ .

٤ - أبو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم . (مرجع سابق) ص ٢٠٧ .

وشكيب أرسلان يرى أن الإسلام ليس بحاجة إلى (الشيوعية) لأن المبادئ الإسلامية فيها ما هو خير من الشيوعية ، والشرائع السماوية أقرب إلى المساواة ، وأرق بالضعف ، وأحذب على الفقر من القوانين البشرية .^(١)

كما يرى شكيب أرسلان أن الإسلام وحده هو القادر على صد المادية الجارفة ، «ففي الإسلام ، الطاقة الإيمانية عقلية في أكثر أحوالها ، تعتمد على الرشد والنقد والمحكمة ، وقد أمدتها هذا العصر العلمي الأخير بمدد لا يفنى من الحجج والبراهين ، وهكذا يصبح من السهل استعادة استقلالنا في مجال الأفكار»^(٢)

ولن يتحقق هذا الاستقلال إلا بإيجاد صورة من التماسك السياسي للدول الإسلامية ، وإعادة النظر في أساليب التربية ومناهج دراسة الثقافة الأوروبية ، وبعث (مدنية اسلامية) تنقذ أجيالنا من تشرب روح المدنية الغربية .

١ - شكيب أرسلان ، مجلة المجمع العلمي العربي ، المجلد ٤ ص ٥٣٥ .

٢ - د. مصطفى حلمي ، الإسلام والمناهج الفلسفية ، ص ٣ ٢ .

قضايا الإنسان في فكر الأمير شكيب أرسلان ونظرية التطور

عمر الإنسان

إن تقدير الزمن الذي مضى على ابتداء حياة الإنسان على وجه الأرض مرتبط بكل بحث عن أصل الإنسان في جميع المذاهب ، ومن أكبر الديانات التي عرضت لتاريخ الخليقة الديانة اليهودية التي قدرت عمر البشرية بخمسة آلاف أو سبعة آلاف سنة [١] ، وظل هذا الاعتقاد شائعاً حتى نهاية القرن السابع والثامن عشر دون أن يعرض لعلماء الغرب من مباحث الدين أو العلم ، شيء يدعوهم إلى تقدير عمر للخليقة يزيد على ستين قرناً بحساب السنين الشمسية ، ثم تتابعت الكشوف عن ظواهر الطبيعة كيفما تناولتها العلوم الحديثة ، فتضاءلت هذه القرون الستون حتى أصبحت كلمحة البصر الخاطفة [٢] بالقياس إلى أعمار الكائنات السماوية والأرضية . وقد أوقعت هذه الكشوف علماء أوروبا في مشاكل من جهة تطبيق هذه النظريات على التوراه ، وقد انقسموا في البحث عن حل لهذا المشكل إلى ثلاث فئات بين كلاً منهم الأمير شكيب فقال : إن الفئة الأولى حلت هذا المشكل برفض التوراه بتاتا وهؤلاء هم الفئة التي لا تقول بالأديان ، والفئة المسماة بالإلهييين وهم الذين يعتقدون بوجود الصانع ولا يقولون بالنبوءات . والفئة الثانية بقيت متمسكة بالديانة المسيحية ولكن مع الاعتقاد بأن التوراه دخلها تحريف كثير وأن فيها كثيراً مما أدخله اليهود .

وهناك الفئة الثالثة التي لا تقبل التساويل والتخريج في التوراه ولا ترضى بأن يقال أن فيها من أوضاع اليهود - وبالتالي فليس من التزويل - كما أنها لا ترضى أن يقال بأن الكتب المنزلة إنما تخاطب الناس على قدر عقولهم وتتجنب التصريح بما هو فوق أفهامهم خشية الفتنة وإدخال الشك على العقائد ، فهذه الفئة الثالثة هي الفئة المتكينة بالبقية إلى اليوم على العقائد التي كانت عليها النصرانية في القرون الوسطى وهي التابعة للكنائس سواء كانت الكنيسة الكاثوليكية ، أو الأرثوذكسية ، أو البروتستانتية [٣] .

[١] المصادر اليهودية ، على حسب تحقيق الفقيه (جيمس يوشر) المتوفى سنة ١٩٥٦ م تدل على ابتداء الخليقة في شهر أكتوبر سنة ٤٠٠٤ ق.م. ، وقد شرح أساتيدته التي بنى عليها هذا التقدير في كتاب ضخيم سماه السجلات القديمة ، والعهد الجديد ... (عباس العقاد - الإنسان في القرآن ص ٧٠) .

[٢] عباس العقاد - الإنسان في القرآن ص ٧ . [٣] شكيب أرسلان/ابن خلدون/ مأنق الجزء الأول ص ٣٠ .

وفى العصر الحديث ظهرت فئة من المفكرين الغربيين المنصفين نذكر منهم مفكرين فرنسيين كبيرين هما الدكتور (روجيه جارودى) والدكتور (موريس بوكاي) اللذين أنهى بهما تفكيرهما الى اعتناق الاسلام والتبشير به فيما يقدمانه من بحوث ومحاضرات [١] .

وقد خلص (موريس بوكاي) الطبيب الفرنسى الباحث فى دراسته القيمة (القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم) الى القول بأن سفر التكوين يتضمن أكثر المتناقضات وضوحا مع العلم الحديث ويحصرها فى ثلاث نقاط جوهرية :

(١) خلق العالم ومراحله .

(٢) تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الانسان على الارض .

(٣) رواية الطوفان [٢] .

واهم ما يمتنينا فى هذه النقاط الثلاث هو تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الانسان على الارض فيقول (موريس بوكاي) :إن التقدير العبري الوارد بالمعهد القديم يحدد تاريخ خلق العالم بسبعة وثلاثين قرنا قبل الميلاد ، وهو مخالف تماما لما نعرفه بواسطة العلم الحديث إذ من العسير معرفة ما يتعلق بخلق الكون ، وكل ما يمكن تحديده على وجه التقريب هو تكون النظام الشمسى تقريبا بأربع مليارات ونصف من السنوات [٣] .

كذلك أخطأت التوراة فى سفر التكوين عندما حددت الفترة الزمنية التى تفصل بين ابراهيم وآدم عليهما السلام - فادت الى الزعم بأن آدم عليه السلام كان قبل المسيح بثمانية وثلاثين قرنا . وقد ثبت أن هذه التقديرات الوهمية من عمل الكهنة اليهود فى القرن السادس قبل الميلاد ، وتتعارض مع المكتشفات العلمية التى حددت تاريخ الخلق بعصر سابق بكثير [٤] .

ويقرر (موريس بوكاي) بأنه لا أحد يستطيع أن يحدد بشكل دقيق تاريخ ظهور الانسان ، ومع ذلك فيمكن التأكيد بوجود أطلال الانسانية مفكرة وعاملة ويحسب قدمها بوحدات تتكون من عشرات من ألوف السنين .

وعلى أى حال فإن المعطيات العلمية تسمح بتحديد تاريخ الانسان أبعد بكثير من العصر الذى يحدده سفر التكوين لأوائل البشر [٥] .

[١] د. التهامي نكرة ، مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية ، ج ١ ص ٣٦

[٢] ، [٣] ، [٤] ، [٥] د. مصطفى حلمي ، الاسلام والاديان ، ص ١٥١ إلى ١٥٤

هذا فى موقف علماء الغرب مما جاء فى اليهودية والنصرانية من تحديد لعمر البشرية، أما عن موقف القرآن الكريم مما جاء عن عمر الإنسان بتقدير العلوم العصرية فإن الأمير شكيب أرسلان يقرر أن القرآن الكريم لم يوجب على المسلم مقدارا محددا من السنين لخلق الكون أو لخلق الإنسان فلا تناقض بين الاعتقاد بكون آدم وحواء هما أبوا البشر كما هو منصوص عليه فى القرآن وبين تقدير تاريخ الإنسان على الأرض بألوف السنين بدلا من العشرات أو الاحاد . يقول شكيب " إن الاعتقاد بكون آدم وحواء هما أبوا البشر هو منصوص عليه فى الكتاب ، فأما المدة التى ضربها أصحاب التوراة لوجود الإنسان فليس فى القرآن الكريم شىء يدل عليها ، بل هناك الآية الكريمة (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) " [١] .

ومع كثرة الدلائل التى وصلت إلى كشفها الجيولوجيا الحديثة تحت طبقات الأرض وفى أجوافها من العظام البشرية والمصنوعات اليدوية من صنع الإنسان القديم إلا أن العلماء لا يزالون يقررون بأن معلوماتهم مفتقرة إلى الإكمال ، فليس من المحقق أن يوغل التاريخ فى القدم إلى كل تلك الألوف من السنين ، ولكن المحقق أن إيغالها إلى تلك الدهور كلها أو ما هو أقدم منها ليس بالأمر المستغرب .

يقول الأمير شكيب : " إن الذين جزموا بقدوم عهد الإنسان بناء على ما كشفوه فى باطن الأرض ، وما نقبوا عنه فى الكهوف والغيران ، وما عثروا عليه عرضا واتفاقا فى قيعان البحيرات ، لا يزالون يقررون بأن معلوماتهم مفتقرة إلى الإكمال وأنه لا يصح الجزم إلا بالنظرية الاجمالية التى معناها كون الإنسان وجد ، لا من خمسة آلاف سنة ولا من سبعة آلاف سنة ، بل من أضعاف هذا العدد من السنين " [٢] .

والمحقق كذلك أن الإنسان القديم الذى دلت عليه تلك البقايا ، كان يستعمل الآلات الحجرية ، ويستعين فى كفاح أعدائه من الحيوانات الضارية بنصيب من الذكاء لم يكن معهودا من حيوان منها ، " وأنهم استدلوا على ذلك بوجود حجارة مضقولة على شكل الفؤوس كانوا يجهلون فى أول الأمر حقيقتها وكانت العامة تعتقد بأنها حجارة تتكون من السحاب " [٣] .

[١] المرجع السابق ص ٣٢ و الآية رقم (٥١) من سورة (الكهف)

[٢] شكيب أرسلان / بين خلدون / ملحق الجزء الأول ص ٣٢

[٣] المرجع السابق ص ٣٢

"ولما قال بعض علماء القرون الوسطى بأنها من صنع أيدي البشر رفضوا كلامهم ومنذ مائتي سنة تواترت الأدلة بكثرة ما وجد من هذه الحجارة في أعماق متفاوتة تحت التراب ، وتحت الماء ، ومنها ما بسقت من فوقه الأشجار ، ومنها ما تكونت من فوقه المعادن ، فحسب علماء الأزمنة الحديثة ما يستلزم وجود هذه الطبقات المترامية فوق تلك الأدوات التي صنعها البشر الأولون من الزمن الطويل والدهور والدهارير فحكموا بأنه لا بد لذلك من عشرات ألوف من السنين " [١] . فالإنسان منذ أقدم عهوده معيز بالعقل والنطق وهما صفتان إنسانيتان لاتنفصلان عن استخدام الآلة ولاعن الخاصة المميزة للحيوان الناطق من اعتدال القامة ومطوعة اليد للإرادة في حالات المشي والوقوف ، ولولا ذلك لما استطاع الإنسان ان يستخدم السلاح وأن يصنعه لإصابة الحيوانات الضارية من بعيد . ويؤيد هذا أن الاستدلال على وجود الإنسان في الأعصر المختلفة لم يقع بالرمم البشرية فحسب " بل وجدت له آثار اخرى وآلات وتصاوير يحكم على وجوده بوجودها والاثر يدل المؤثر " [٢] هذا هو رأى الأمير شكيب عن لبداء حياة النوع الانساني وهو مرتبط بليمانه بأصل الإنسان كما جاء بالكتاب ، أما الإنسان المتمدن فإن الأمير شكيب يدعو إلى عدم إهمال الأخبار القديمة التي يرويها الأقدمون عن ماضيهم البعيد في حياة الثقافة والحضارة الرفيعة فهي جزء من تاريخ الإنسان وليس لنا أن ننقضها بغير دليل ، ولاينبغي أن نحملها محمل الاساطير والأقاصيص الوهمية ، " فإنه مهما كان التواتر قد بداخله لقوال عامية ، وآراء ساذجة ، فإنه يرجع إلى تضارب صدق في الاصل لاشبهة فيه في مجموعه " [٣] .

ويستشهد الأمير بقضية تاريخ جزيرة العرب [٤] ، فان تاريخ العرب الأولين لم يبدأ

[١] شكيب ارسلان / ابن خلدون / ج ١ ص ٣٢

[٢] المرجع السابق ج ١ ص ٣٣

[٣] المرجع السابق ج ١ ص ٨٥

[٤] القضية الاصلية . ارتقاء مدينة العرب الى درجة عليا في اعصر متوغلة في القدم . وهذا يثبت استحالة صحة رواية الطوفان الواردة في التوراة : وتوضيح ذلك أن الطوفان حسب تقدير هذه الرواية وقع في القرن ال ٢١ أو ال ٢٢ ق.م ، أي في العصر الذي كانت ظهرت قبله في نقاط مختلفة من الأرض حضارات انتقلت أطلالها لأجيال التالية ، وهو ما يؤكد المعارف التاريخية الحديثة ، وعلى ذلك ينصح أنه لم يحدث انقطاع في هذه الحضارات ، وبالتالي لم تكن البشرية كلها كما تقول التوراة . و في ضوء ذلك كله -كما يرى موريس بوكاي - فإن النصوص التوراتية التي وصلت إلينا لاتعبر عن الحقيقة ، فلاد من وجود تحريف بواسطة البشر ... (موريس بوكاي : القرآن الكريم والتوراة والإنجيل و العلم) عن (الإسلام و الأديان) مرجع سابق ص ١٥٥-١٥٦ .

فى الحقيقة إلا منذ بدأ السياح الأوربيين بالاطلاع على الكتابات المنقوشة على الأحجار وأخذوا ينظرون فيها إلى أن تمكنوا من حلها وفهم معانيها ، فمنها ما وافق كتابات المؤرخين ، ومنها ما اختلفوا عنها ، إلا أن الكتابات قد جاءت بالجملة مؤيدة للتاريخ ، ولم يبق شك فى صحة المجموع وإن وقع اختلاف فى التفاصيل [١] .

فالأمر شكيب يرفض منهج المحدثين فى تعاملهم مع كل رواية تختلف من العصور الأولى وانتقلت إلى العصور الأخيرة على أنها فى عداد الأساطير ، ويرى أن الكشف الكثيرة التى تعاقبت خلال القرن التاسع عشر وتبين منها أن روايات الأقدمين لم تكن كلها من قبيل الأساطير يجب أن تكون عبرة ودرسا للباحثين " لأن للرفض بغير برهان أضر بالبحث من القبول بغير برهان ، لأن الذى يجزم برفض خبر قديم إنما يحكم بالاستحالة على الممكنات الكثيرة التى تجوز ولا تمتنع فى العقول ، وخير منه - عقلا - من يقبل شيئا ممكنا ، وإن لم يقدّر البرهان على وقوعه فعلا كما وقع بغيره من الممكنات " [٢] .

فالأمر لا يستبعد قيام حضارات إنسانية فى أزمنة موعلة فى القدم كما جاء فى الأخبار القديمة وإن لم تتكشف بعد الآثار التى تحدد متى ظهر هذا الإنسان المتمدن - إنسان الحضارة - [٣] على نحو دقيق ، إلا أن مسألة وجود الإنسان المتحضر قبل عصور التاريخ مرتبطة بالبحث عن أصل الإنسان ومكانته من الدين ، ويتجلى من خلالها موقف الأمير من مذهب النشوء والارتقاء أو التطور .

مذهب النشوء والارتقاء

تعرض الأمير شكيب أرسلان لمذهب النشوء والارتقاء فى تعليقاته على ابن خلدون ، وحث الناشئة من الأمة الإسلامية على أن يطالعوا هذا المذهب وغيره مما جد من النظريات الحديثة ، ويقارنوها بالنظريات القديمة ليظلوا على وعى بكل فكر جديد فى المجتمع الإنسانى [٤] . فالأمر يرى أن من أهم العلوم وألذها مطالعة الوقوف على كيفية نشوء مبادئ الحضارة الإنسانية ووضع أصولها ، ولكن ليس معنى هذا أنه مقتنع بكل ما جاء فى

[١] شكيب أرسلان / تعليقات على ابن خلدون ، ص ٨٥

[٢] عباس محمود العقاد / الإنسان فى القرآن ص ٧٦

[٣] إنسان الحضارة ذلك الإنسان الذى عرف شريعة ونظام المعاملة وسخر الحيوان . - المرجع السابق ص ٧٤

[٤] تاريخ ابن خلدون ملحق الجزء الأول ص ٣٢

نظرية التطور ، بل دفعه حرصه على الا يفوت الناشئة شئ مما يجب معرفته على أهل هذا الزمان ، ولو من قبيل العلم بالشئ ولا الجهل به ، إلى اضافة تلك الأفكار الجديدة والنظريات التى لم تكن معروفة فى أيام ابن خلدون ، أو كانت معروفة ولكن عند غير أتباع الأديان الثلاثة : الإسلامية ، النصرانية ، واليهودية إلى تاريخ ابن خلدون حتى يظل صالحا لكل الأعصر [١] .

والملاحظ أن الأمير يتناول جانباً واحداً من جوانب نظرية التطور ، فيتعرض لمن يقصرون التطور على الأحياء أو الجانب المتعلق بعالم الكائنات الحية العضوية التى تشتمل على النبات والحيوان والإنسان ، ولا نحيط بما عداها من الموجودات غير العضوية ، ولا يتعرض الأمير لمن يعمم تطبيق النظرية على الكون كله بما اشتمل عليه من مادة وقوة .. وهؤلاء "القاتلون بالتطور العام يواجهون مسألة الإيمان بالخالق ، فى كلامهم عن العالم وعن القوى المسيرة له من خارجه أو داخله ، ... ولا بد للقاتل بتعميم التطور من الفصل فى مسألة البداية والنهاية ... وهى لاتنفصل عن مسألة الخلق والخالق فى جملتها" [٢]

. "أما الذين يقصرون التطور على الأحياء ، يرجعون فى تعليل تطورها إلى عوامل الطبيعة ، وما تشمله من مؤثرات البيئة والمناخ وموارد الغذاء ووسائل الحصول عليه ، ولا يضرهم القول بهذا التطور إلى التعرض لما وراء هذه العوامل الطبيعية باثبات أو تكار" [٣].

ومن أشهر علماء هذا المذهب العالم الإنجليزي ، شارل دارون (١٨٠٩ - ١٨٨٢) الذى يشير الى الحد الفاصل بين البشرية والحيوانية أو مدى سرعان التطور على الجنس البشرى فيقول إنه "يتكلم عن الأطوار التى تؤثر فى جسد الإنسان ولا شأن له بما عدا ذلك من الملكات الروحية التى يقررها له الدين" [٤] .

وبناء على هذا فإن الأمير شكيب يقرر فى بداية حديثة عن أصل وجود الإنسان على وجه الأرض ، "إن الاعتقاد بكون آدم وحواء هما أبوا البشر هو منصوص عليه فى الكتاب ، فأما المدة التى ضربها أصحاب التوراة لوجود الإنسان فليس فى القرآن الكريم شئ يدل عليها

[١] تاريخ ابن خلدون ملحق الجزء الأول ص ٣٢

[٢] ، [٣] عباس محمود العقاد ، الإنسان فى القرآن ص ٨٠

[٤] المرجع السابق ص ٨٩

بل هناك هذه الآية الكريمة ((ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم))^[١] فلاتعارض بين اعتقاد علماء أوربة بمئات ألوف من السنين مضت على وجود الإنسان ، فضلاً عن وجود المادة الأرضية نفسها وبين البداية التي يقرها القرآن بأدم وحواء . ثم لا يذكر عدد السنين التي مرت على الإنسان ، وهي النظرية الاجمالية التي يصح الحزم بها والتي معناها كون الإنسان وجد ، لا من خمسة آلاف سنة ، ولا من سبعة آلاف سنة ، بل من أضعاف هذا العدد من السنين بينما تبقى نظريات النشويين الذين جزموا بقديم عهد الإنسان وتطوره بناء على ما كشفوه في باطن الأرض ، وما نقبوا عنه في الكهوف والغيران ، وما عثروا عليه عرضاً و اتفاقاً في قيعان البحيرات ، يقول شكيب إن معلوماتهم مفتقرة إلى الإكمال^[٢]

. ثم يستطرد الأمير في عرض الأدوار التي قسمها علماء الغرب للمدة التي قضاها الإنسان منذ وجد على سطح الكرة إلى أن صار معروفاً عند أعاليه فيقول إن اقرب الأدوار التي يزعم علماء أوربا الذين لا يتقيدون بالكتب الدينية أنهم وجدوا عظاماً بشرية تدل على إمكانية

[١] تعليقات الأمير على ابن خلدون ، مرجع سابق ، ص ٣٢ - آية : ٥١ سورة الكهف

ولهذه المطابقة بين دقة الإشارات الخاصة بالظواهر الطبيعية في القرآن الكريم وبين المعارف العلمية الحديثة . أقدم الدكتور (موريس بوكاي) على عقد مقارنة بين نصوص كتب اليهود والنصارى وبين القرآن الكريم ، وخلص منها إلى التأكيد بأن القرآن هو الوحي الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق جبريل - عليه السلام - وقد كُتب فور نزوله ويحفظه ويستظهره المسلمون عند الصلاة ، وأنه لا يحتوى على مفولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم الحديث . (د. مصطفى حلمي ، الاسلام والأديان (مرجع سابق) ص ١٤٨).

ولقد قدم (بوكاي) نتيجة بحثه التي تشرف أهل العلم فقال : >> كان هدفي الأول هو قراءة القرآن ، ودراسة نصه آية آية مستعيناً بمختلف التعليقات اللازمة للدراسة النقدية و انتبهت بشكل خاص إلى دقة بعض الإشارات الخاصة بالظواهر الطبيعية ، ومطابقتها للمفاهيم التي نمناها اليوم عن هذه الظواهر نفسها ، والتي لم يكن لأى إنسان في عصر محمد صلى الله عليه وسلم أن يكون عنها أدنى فكرة ، ثم قرأت أثر ذلك مؤلفات كثيرة خصصها كتاب مسلمون للجوانب العلمية في القرآن ، وعلى حين نجد في التوراة أخطاء علمية فادحة ، فإننا لا نجد في القرآن أى خطأ...<<.

وينتهي بوكاي إلى تقرير تلك الحقيقة : >> ... ليس هناك أى مجال للشك : فنص القرآن الكريم الذي نملك اليوم ، هو النص الأول نفسه ومن ذا الذي كان في عصر نزوله يستطيع أن يملك ثقافة علمية تسبق بحوالى عشرة قرون ثقافتنا العلمية ؟ حقا إن في إشارات القرآن قضايا ذات صبغة علمية تثير الدهشة <<.

(موريس بوكاي ، القرآن والتوراة والعلم ، ١٤٤ ، ١٤٨) ط دار المعارف بمصر ١٩٧٧ .

[٢] تعليقات الأمير شكيب على ابن خلدون ج ١ ص ٣٢ ، ٣٣

تواجد الإنسان فى هذا الدور ، هو الدور الرباعى ويقال له الجليدى " ولم يقع الاستدلال على وجود الإنسان فى تلك الأعصر بالرعم البشرية فحسب بل وجدت له آثار أخرى من أدوات وآلات وتصاوير يحكم على وجوده بوجودها والأثر يدل على المؤثر . فالإنسان وجد فى أواسط أوربة - مثلاً - معاصراً للماموث والرنه [١]

. "وبعد بحث وتقيب واختلاف بين العلماء الجيولوجيين اصطلاح الأوربيون على قسمة الادوار التى يعرفونها عن الإنسان الى ثلاثة . وهذه الأدوار الثلاثة هى عبارة عن المدة التى مضت فى بداية العصر الجليدى إلى أن أصبحت الحالة للجوية مقاربة لما هى عليه أوربة اليوم . ويقدرّون هذه المدة بألف قرن - أى مائة ألف سنة - [٢]

ثم يعرض الأمير للاختلافات التى وقعت بين علماء أوربا حول الدور الذى ظهر فيه الإنسان ، مثل ذكرهم الدور الثلاثى الذى سبق الدور الرباعى أو الجليدى واختلافهم حول إمكانية ظهور الإنسان فى هذا الدور وتحمله مالم تتحملة الحيوانات الكبيرة وفى عدم إمكان ذلك . "فبعضهم ذهب الى أن الإنسان وجد فى الدور الثلاثى بدليل وجود أدوات حجرية لا يمكن صنعها إلا بيد مخلوق هو على شئ من العقل ، وذهب المنكرون لوجود الإنسان فى الدور الثلاثى الى أن الأدوات المذكورة هى أحدث عهداً من ذلك الدور" [٣] .

ثم ينتهى الأمير إلى القول أن المفروض - مع الترجيح التام - أن الإنسان وجد فى الدور الرباعى .

ثم يسوق الأمير الأدلة والشواهد التى اعتمد عليها أصحاب نظرية التطور لإثبات أن الإنسان وجد فى العصر الرباعى ولكن على نحو أدنى من البشر الموجودين الآن ...

"قأماً من بقايا العصر الرباعي فقد وجدوا أكثر من رمة واحدة ، ووجدوها كلها متشابهة ، منها واحدة وجدت في جبل طارق ، وأخرى في (سبي Spy) من بلجيكا ، وأخرى في فرنسا ، ووجدوا من هذا النوع نفسه في أفريقيا الجنوبية في روديزيا ، فثبت من تشابه جميع هذه الرمم وجود طبقة بشرية في الدور الرباعي المذكور ، اصطلاح العلماء على تسميتها بطبقة (نياندرتال Neanderthal) وذلك لأن أول مثال منها وجد في واد اسمه وادى نياندرتال في ألمانيا" [١] .

ولقد تأكد العلماء ان أصحاب هذه الرمم بشر بما وجدوه معها من أدوات مصنوعة بالأيدى لا تدع شكاً في بشريتهم ، "ولكن كانت رؤوسهم مشابهة جداً لرؤوس الحيوانات ، وكانت الجمجمة مسطحة ، والجبهة ضيقة ، وكان القسم الأدنى من الرأس ضيقاً ، والوجه عريضاً ، والفكان ناتئتين الى الأمام ، والتقاطيع غير منتظمة ، والعيون كبيرة ، والأنف عريضاً مع ضيق في مركزه ، والذقن منقبضاً ، وغير ذلك من الملامح التي تثبت أن طبقة "نياندرتال" هي من الطبقات البشرية ، ولكنها أدنى من البشر الموجودين الآن..." وبالاختصار آدمى نياندرتال مكانه هو بين القرد والانسان الأخير .." [٢] .

وهنا تظهر مشكلة الإنسان الأول ، فعلماء النشوء والارتقاء يقولون : "إن إنسان نياندرتال هو على شبه كثير مع القردة المسماة أنثروبونيد "Anthropoide" ولكن ثبت ان هذا النوع من الانسان وجد في اواسط الدور الرباعي ، ولهذا لايمكن أن يقال إنه أقدم نوع من البشر ، لأنه قد ثبت وجود آثار الانسان في أوائل الدور الرباعي.." [٣] .

يقول شكيب إن العلماء عندما وصلوا إلى هذه النقطة صاروا يتساءلون كيف يمكن التلقيق بين هذين الأمرين؟

"فذهب هيكل "Heackel" الألماني من أقطاب علماء النشوء والارتقاء إلى أن الإنسان لم ينحدر من القرد المعروف بشبهه للإنسان الذي يقال له "أورانج أوتان" [٤]

[١] : [٤] تعليقات الأمير شكيب على ابن خلدون ج ١ ص ٣٤ ، ٣٥ / (orang-outang)

هذه كلمة من لغة الملايو مركبة من مقطعين (أوران) أي رجل و (أوتان) أي غابة ، وهو قرد يشبه الإنسان لا ذيل له ، ولا أشداق مدلاة ، وهو يعيش في جزيرتي بورنيو و سومطرة . ويمكن استئناسه إذا كان صغيراً ، كما يمكن تدريبه على تادية بعض الخدمات ...

(د.محمود قاسم ، جمال الدين الافتعاني حياته وفلسفته . ص ٢٠٦)

"وقال أصداد نظرية النشوء والارتقاء إنه لا يزال بين أقدم الطبقات البشرية وأقرب القردة إلى الإنسان مسافة شاسعة ، ولذلك يفترض وجود طبقة متوسطة وسموا هذا النوع بيتيكانثروب "Pithecantrope" فذهب بعض علماء أوربة إلى أنه إن كان قد وجد شبه بين آدمي نياندرتال وبين الأدمى المسمى بيتيكانثروب وبين هذا وبين القرد المسمى أورانج أوتان ، فليس يستلزم ذلك حتماً أن يكون الإنسان الحاضر هو من هذه السلالات ، بل إنسان نياندرتال انقرض فى أواسط الدور الرباعى ولم يترك بقايا" [١] . ثم يواصل الأمير فى وجوه الخلاف بين علماء النشوء والارتقاء وبين خصومهم الذين قالوا : إن الأثار البشرية التى عثروا عليها لاتصلح حتى الآن مداراً للحكم ، وخالفهم الذين قالوا ان بين إنسان نياندرتال والإنسان الحالى وجوه شبه كثيرة وأنه لا يمكن الحكم بانقراض إنسان نياندرتال وتبدل منه إنساناً من نوع آخر أكمل من الأول وهو الذى سموه بالإنسان العاقل "Home Sapiens" [٢] . ويطلق الأمير شكيب بقوله : "فاذا ثبتت نظرية الإنسان العاقل هذا فيكون قد انقطع ما بين الإنسان الحالى وبين الإنسان الأصلي الذى عاش فى النصف الأول من الدور الرباعى والذى يشابه القرد كثيراً" [٣] . بعد سلالة نياندرتال أخذ الأمير فى تعداد السلالات البشرية التى افترض علماء النشوء والارتقاء وجودها بناء على الرمم التى وجدوها فى أوروبا ، فذكر اسم كل سلالة والمكان الذى عثروا على بقاياها فيه وصفة الهيكل الخاص بكل نوع والذى يدل على مدى قرب أوبعد صفات كل سلالة من هيئة الإنسان الحالى . وقد اختلطت هذه السلالات بعضها ببعض ، ومزال الإنسان يتكامل الى ان صار كما هو الآن ، ومزال يزداد بسطة فى العلم والجسم ، وقد بدأ بأن يصنع بيده فى الدور الرباعى وهو ما يسمى "بالدور الحجرى" فقد وجنوا حجارة مقطوعة من أيام هذا الدور ، ثم بمرور الزمان صار الإنسان ينحت الحجر المقطوع" [٤] . ثم أخذ الأمير يعدد تقسيمات العلماء للأدوار التى بدأ الإنسان فيها يعمل بيده ، وقد وضعوا لكل قسم اسماً مأخوذاً من اسماء الأماكن التى وجدت فيها بقايا صناعية يفترض انها من صنع الإنسان الذى عاش فى هذا الدور . بعدها يذكر الأمير بالنقص فى الأبحاث التى اعتمد عليها علماء الغرب لوضع تقسيماتهم للأدوار التى بدأ الإنسان فيها يعمل بيده "لكون هذه التقاسيم كلها مبنية على الرمم التى وجدت فى أوربة ، والعلماء لا يعرفون شيئاً تقريباً عما

وجد من رمم الانسان الأول فى سائر القارات ، ولكنهم يحكمون بأن النشوء والارتقاء حصل من القارات جميعا كما حصل فى أوربة على وتيرة واحدة" [١] .

ثم يختتم الأمير تقديمه لخلاصة ما عند الاوربيين من نظريات حول نشوء الانسان وتطوره فيقرر انه مجرد ناقل لما يجب معرفته عن أهل هذا الزمان يقدمه لقراء تاريخ ابن خلدون حتى لا يفوتهم شئ مما يجب معرفته ولو من قبيل العلم بالشئ ولا الجهل به [٢] .



[١] . [٢] تعليقات الأمير شبيب على ابن خلدون ج ١ ص ٣٥ : ٣٨

مذهب النشوء والارتقاء في الغرب

على الرغم من انتشار القول بالتطور بين الكثيرين من علماء الغرب إلا أن مذهب النشوء مازال يواجه هجوماً شديداً من معارضيه الغربيين ، ولم يقتصر رفض المذهب من علماء الأديان وحدهم بل لقد اعترض عليه علماء الطبيعة أيضاً وأقاموا أدلة علمية على فساده كما طلبوا من دعاة تقديم أدلة علمية محسوسة على فعل الانتخاب الطبيعي في تحول الأنواع ، ولاسيما نوع الإنسان .

ومن علماء الطبيعة من أيده وتحمس له مثل " هكسلي " صديق داروين وصهره - ولكن بقي تحمسهم له باسم حرية الرأي أشد من تحمسهم له إيماناً بحقيقته واعترافاً بكافة براهينه [١] . ومن العلماء الطبيعيين من ذهب مذهباً متوسطاً ، فوافق على بعض قضايا المذهب الدارويني ، ورد بعضها بحجة فقد الأدلة الكافية .

ولقد أورد الأمير شكيب أرسلان اعتراضات بعض العلماء الغربيين للمذهب ليظهر أن الحملة عليه في البلاد الغربية لم تكن أضعف من أشباهها التي قوبل بها في بلادنا الشرقية يوم انتقل إليها للمرة الأولى .

يقول شكيب " ومن اشتهر في الرد على مذهب داروين الإنجليزي ، ولامارك إلا فرنسي في النشوء والارتقاء ، الأستاذ " فيالتون Vialleton " المدرس في جامعة مونتيلييه ، والأستاذ موريس توماس البلجيكي ، وغيرها ممن يقولون أن مذهب لامارك وداروين مناقضان للعلم ، وقال فيالتون : أن داروين قد ذهب في نظريته مذهباً جاهلاً ماهية القواعد التي تترك عليها الجزئيات ، وانخدع بعلاقات الأنواع بعضها مع بعض ، كما أن خلفاءه في المذهب قد نظروا إلى المناسبات الصورية التي بين الأنواع نظراً سطحياً ، وقرروا النشوء والارتقاء بدون تأمل كاف في كيفية قيام هذه الأنواع بوظائفها " [٢] .

ثم أخذ الأمير في عرض أفكار الغرب للأدلة العلمية التي أعتمد عليها النشويون لاثبات التطور ، و هي مجرد علامات ووجوه الشبه لايعتدو أن يكون إعادة لتصوير المشابه العامة التي يلمحها النظر لأول وهلة بغير حاجة إلى تشریح الأعضاء .

[١] عباس العقاد / الإنسان في القرآن ص ١٠٩

[٢] تعليقات الأمير شكيب علي ابن خلدون ص ٣٨ (Vialleton) عميد كلية الطب بجامعة مونتيلييه و استاذ علم

الأجنة فيها .(عباس العقاد / الإنسان في القرآن ص ١٣٢)

" فلأجل الربط بين الحشرات وذوات الأتداء من الحيوانات اجتمعوا على النطاق الصدرى الذى يعهد فى ذوات الأتداء المتصلة بالطيور ، لكن اذا أنعم الانسان النظر لايجد هذه الرابطة فى محلها ، لان هذا النطاق ليس فى الحقيقة جزءا من هيكل الصدر، بل هو خارج عنه ، وليس له اتصال بالقلب ، ولا بالأعصاب كما هو عند الحشرات فالمشابهة ليست أكثر من مشابهة سطحية والحال أن طبيعة الحيوانات ذات الأتداء لاتمتاز فقط بالنطاق الصدرى ، ولكن بمميزات أخرى ظاهرة فى جميع تكوينها ، وفى انسجتها العضوية ، وفى الجلد والشعر والعظام ، وكل مايعهد فى ذوات الأتداء .. " [١] .

" والخطأ نفسه وقع فى تقدير خصائص الأعضاء ، فداروين يرى أن أى عضو يقدر أن يقوم بأية وظيفة ، وهذا إهمال لحقيقة الوظائف الأساسية . فإن الأعضاء تؤلف مع الأنطقة آلات محركة لها فى كل نوع وظائف محدودة لايمكن أن عملها يتعدى من وظيفة إلى وظيفة ، إذ ليس من وسيط بين الجهازين . وفى طبقة الحيوانات ذوات الأربع إذا وجد نوع طيار مثلا يجب أن الكتف التى كانت فى البطن تحت مركز الثقل تصعد إلى الظهر لأجل أن تحفظ موازنة الحيوان عندما يطير ، ولولا ذلك لايمكن من الطيران . فهذا المركز الذى تأخذه الكتف من جديد لايمكن أن يحصل بالتدريج ، ولا مناص من أن يكون وضع انفا بدون تدرج . كذلك ذوات الأتداء السباحة التى يسير بها الذنب المتحرك من الأعلى الى الأسفل ، فيجب أن يكون لهذا الذنب قوة وقطر عظيمان ، بحيث أن الشق الأسفل يندفع إلى الأمام فيكون أفقيا بدلا من أن يكون عموديا كما هو فى سائر ذوات الأتداء " [٢] .

وقد أحصى الاستاذ " شامبان بنشر " فى كتابه عن تعليل التطور العلامات التشريحية التى يستند إليها النشونيون ثم عقب عليها قائلا : " انه لا احتمال لتسلسل الانسان من القردة كما نعرفها ، لأن القردة منفردة بتركيب خاص يستحيل تشريحا ان يتطور منه تركيب الانسان ، اذا كان الانسان قد نالاه خلال مليون سنة دماغ أكبر وقامة أقوم ويد - فوق هذا وذلك - أصلح للتناول والتصرف بالاستعمال " .

ويقول الأستاذ ب. ب. بيشوب في كتابه " النشوء منتقداً " : فليس فى السجلات الجيولوجية دليل ولاقرينة تؤيد القول بتطور الانسان من نوع آخر ، وأهم من ذلك أنه لا يوجد أمامنا دليل يؤيد تحول الأنواع فى عالم الحيوان أو عالم النبات وأن تشابه الأجنة الذى يتخذه بعض النشويون دليلاً على التشابه القديم بين أنواع الحيوانات دليل مكذوب ، لأن صور الأجنة الصحيحة لا تبرز هذا الشبه ، وما عدا ذلك من الصور المتشابهة فهو مزور باعتراف واضح تلك الصور العالم الألمانى الانست هكل ، فإنه أعلن بعد انتقاد علماء الاجنة له أنه اضطر الى تكملة الشبه فى نحو ثمانية فى المائة من صور الاجنة لنقص الرسم المنقول " [١] .

والأمير شكيب يورد نص قول فيالتون : أن القول بأن الجراثيم تعيد فى أثناء نموها الصور المتتابعة التى سبقت نوعها هو قول مرسل جزافاً ، وهو أشبه بالمجازمة بالحقيقة ، فى الجراثيم شينان ، البدايات البسيطة التى هى عامة لجميع النوع ثم الأجهزة والصور التى تتلو هذه البدايات . فالبدائيات لا يمكن أن تكون منها نوع خاص ، لأنها حويصلات بسيطة جداً شبه ببراغم تختلف كثيراً عما سياتى منها ، بل هى بدايات ساذجة عامة لا ينتج منها اقسام خاصة الا بعد النمو ، فالحويصة لا يمكن أن تشبه حيواناً تاماً مهما كان دنىء الطبقة ، ولكن تشبه حويصلة . والحويصة البشرية ذات الخلايا لا يمكن أن تشبه سمكة فى جهازها التنفسى ، ولكن قد تشبه حويصلة السمكة قبل أن يكتمل فيها هذا الجهاز .. " [٢] .

[١] عباس العقاد ، الانسان فى القرآن ص ١٠٥

<حلماً بحث الدكتور (برترى) مذهب (هكل) ، ونظرفى تلك الصور التى استند إليها وجد أنها لم تكن كلها صادقة ، بل بعضها مزوراً . فإن الصورة الثانية والعشرين تبعدى بالبسيط و الصورة الرابعة عشر التى سماها السوزور و الصورة الواحدة والعشرين التى سماها (الإنسان القرد) لم يكن لها وجود البتة . فكتب العلماء على صفحات الجرائد أنه مزور لهاتين الصورتين ، فهددهم برفع دعوى ثم وجد أنه لا مناص من الإقرار ، فكتب مقالة مؤرخة (٢٤ ديسمبر ١٩٠٨) بعنوان : (تزيير صور الأجنة) قال : إني أعترف رسمياً حسماً للجدل فى هذه المسألة أن عدداً قليلاً من صور الأجنة نحو ستة فى المائة أو ثمانية فى المائة موضوع أو مزور إلى أن قال : (قبعد هذا الاعتراف يجب أن أحسب نفسى مقضياً على و هالكاً و لكنه يعزى أن أرى بجانبى فى كرسى الإتهام منات من شر كانى فى الجريمة و بينهم عدد كبير من الفلاسفة المعول عليهم فى التجارب العلمية و غيرهم من علماء الأحياء (البيوجيا) فإن كثيراً من الصور التى توضع علم أبنية الأحياء و علم التشريح و علم الأنسجة و علم الأجنة المنتشرة المعول عليها مزور مثل تزيويرى تماماً لا يختلف عنة فى شئ >> .

(قيس القوطاس <خطرية داروين بين مؤيديها ومعارضيه> ص ٣٣-٣٤)

[٢] تعليقات الأمير شكيب على ابن خلدون ص ٣٩

ويكتفى الأمير شكيب بما أورده من ردود مفكرى الغرب وعلمائه على مذهب دارون ، ويحيل من أراد التوسع فى هذا الموضوع الى كتاب فيالتون المسمى : " بأصل الكائنات الحية وخيال النشوء والارتقاء " .

ثم ينتقل الأمير للحديث عن أثر مذهب النشوء والارتقاء فى الشرق وما قوبل به من الاعتراض ثم الرد عليه من قبل المفكرين وقراء العلم ورجال الدين الشرقيين كما تتابعت قبل ذلك بين مفكرى الغرب وقرائه .

مذهب النشوء والارتقاء في الشرق العربي

لقى مذهب النشوء والارتقاء في الشرق العربي مثل مالقيه من التحريف والإعتراض في البلاد الأوربية ، ولقد تصدى للرد عليه في الشرق العربي نخبة من المفكرين وقادة الإصلاح والمجتهدين من أتباع جميع الأديان الكتابية .

يقول الأمير شكيب : " ولقد كان أول من كتب عن مذهب داروين باللسان العربي الدكتور شبلى شميل اللبناني ، نشر في ذلك كتابا في مصر ضمنه مذهب داروين الإنجليزى ونجز الالمائى وجعل له مقدمة جاهر فيها بالمذهب المادى مجاهرة لم تسبق لأحد غيره في الشرق ، ورد عليه اذ ذاك الأستاذ الشيخ إبراهيم الحوراني من علماء المسيحيين الذين يردون المذهب المادى . وكذلك رد عليه اليسوعيون فى بيروت ، وبعض القسيسين المارونيين " [١] .

والأمير يشير في هذا الإيجاز إلى المناقشات التي اشتمت بين منكرى المذهب ومؤيديه في الشرق العربي بعد إعلان المذهب على يد الدكتور شبلى شميل وهو أحد أنصار مذهب النشوء ومن أشهرهم وأفصحهم بياننا في الشرق العربي ، حتى أنه كان يسبق دارون وأصحابه الى الاخذ بالنظريات النشوءية على علاقتها وإلى نفى كل صفة روحية أو غيبية فى الانسان " إذ قال فى مقدمة ترجمته لشرح نجتز على مذهب دارون : " أن الانسان على رأى هذا المذهب طبيعى هو وكل مافيه مكتسب من الطبيعة . وهذه الحقيقة لم يبق سبيل للريب فيها اليوم ، ولو اصر على انكارها من لا يزال مفعول التعاليم القديمة راسخا فى ذهنه رسوخ النقش على الحجر فالإنسان يتصل اتصالا شديدا بعالم الحس والشهادة ، وليس تركيبه فى شيء من المواد والقوى يدل على اتصاله بعالم الروح والغيب ، فان جميع العناصر المؤلف منها موجودة فى الطبيعة وجميع القوى التى فيه تعمل على حكم قوى الطبيعة .. فهو كالحیوان فزیولوجيا وكالجماد كیمالويا ، والفرق بينه وبينها فقط بالكمية لا الكيفية والصورة لا الماهية والعرض لا الجوهر فالإنسان يحس ، والحيوان يحس ، والإنسان يدرك ، والحيوان يدرك ، ونواميس التغذية واحدة فيهما ... غير أن الانسان يدرك أكثر من الحيوان لأنه أكمل تركيبا من الحيوان " [٢] .

[١] تعليقات الأمير شكيب على ابن خلدون ص ٤٤

[٢] الإنسان فى القرآن ، العقاد (مرجع سابق) ص ١٣٤

وقد تصدى للرد على الدكتور شبلى شميل الأستاذ إبراهيم حوراني - وهو عالم لغوى مطلع على المباحث العلمية - الف في الرد على مذهب دارون رسالة " مناهج الحكماء فى نفى النشوء والارتقاء " ثم اتبعها برسالة " الحق اليقين فى الرد على بطل داروين " وطبعها ببירות (سنة ١٨٨٦) ردا على مناقشة الدكتور شبلى شميل لرسالته الاولى .

والأستاذ حوراني يبدأ رده بذكر آراء علماء الطبيعة المخالفين لداروين فى القول بتحول الانسان عن غيره من الحيوان ، قال : " لأن العلماء لم يثبتوا مذهب دارون وكذلك نفوه وطعنوا فيه مع علمهم أنه بحث فيه عشرين سنة ومنهم العلامة ونشل مع أنه من أشد الناس ميلا إلى القول بالارتقاء بفعل الله ... ومنهم العلامة ولاس قال ماخلاصته ان الارتقاء بالانتخاب الطبيعى لا يصدق على الإنسان ولا بد من القول بخلقه رأسا ... ومنهم الأستاذ فرخو قال أنه يتبين لنا من الواقع أن بين الانسان والقرد فرقا بعيدا ، فلا يمكننا ان نحكم بأن الانسان سلالة قرد أو غيره من البهائم ، ولا يحسن ان نتفوه بذلك [١] .

ويرى الأستاذ حوراني ان أنصار مذهب النشوء ينقسمون إلى ثلاث فرق : معطلة ولألدرية والهيئة .. " أما المعطلة فهي التى نفت الخالق سبحانه وقالت بقدم المادة .. وأما اللألدرية فهي التى لم تتعرض لنفى الخالق ولا لاثباته ، وأما الالهية فهي التى اعترفت بالواجب تعالى ، وقالت بأنه خالق المادة والحياة ، وانقسمت هذه الفرقة الى اثنتين ، ظنت احدهما الانسان ابن القرد او صنوه ومنها داروين ، وقالت الاخرى بان الله خلق الانسان من البدء انسانا ومنها العلامة ولاس ، وعلماء هذه الفرقة اصحاب النشوء الالهى الذى قالت بإمكانه وصرحت بعدم البرهان على وقوعه وبأن عليه اعتراضات لم تدفع دفعا مقنعا " [٢] .

ثم أورد الأستاذ حوراني إحصاء بعض علماء الحفريات عن الأنواع التى وجدت فى باطن الأرض ، فقال أن ثمانية وعشرين فى المائة منها أنواع لم تتغير ، وسبعة فى المائة أنواع مهاجرة ، وخمسة وستين فى المائة لاسلف لها . وأما الأنواع التى نشأت بالتغير أو الأكواع الجديدة ، فلا وجود لها فى شيء من بقايا الحفريات .

[١] المرجع السابق نفسه ص ١٢٤

[٢] المرجع السابق ١٢٤ - ١٢٥

ويرد الأستاذ حوراني على استدلال النشويين بتشابه الاجنة بين الانسان وبعض الحيوان ، فيقول ان على هذا التشابه " ببساطة التكوين وقصر النظر .. بدليل ان التباين يعظم على توالي اقترابها من كمال التكوين ، فلا ينشأ من بيوض الانسان أو أجنثته سوى أناس ، ولا ينشأ من بذرة اللوز إلا اللوز " [١] .

وبحيل النشويين الى بحث الفيرنولوجيا - أي المشوهات - لتفسير الأعضاء الأثرية التي تثبت بعد ولادة الجنين ، ومن أمثلتها (الأعش) أي من له ستة أصابع وهو من أبسط الأمثلة ، والأمشوه المزدوج كهيلين وجوديث وهما الأختان الهنغاريتان المشهورتان ، كانتا ملتصقتين بالممتنيتين والأخداد والأحقاء ولدتا سنة ١٧٠١ وعاشتتا اثنتين وعشرين سنة وكانتا مختلفتي السجايا والأخلاق [٢] .

وقال عن الاختلاط الطبيعي أنه لا يمكن " أن يكون أس الارتقاء الدارويني لأن الطبيعة انما تؤثر في الموجود ، وليس لها ان توجد المعدوم ، فيمكنها أن تسمى العيون ... ولكنها لاتستطيع أن توجد البصر " ، " ويقضى مذهب داروين أن لاتجتمع الأنواع الدنيا والعليا بل تتعاقب وتسبق الأولى والثانية أبداً ، ولكن ذلك الاجتماع ثبت في المنقرضات والأحياء " [٣] .

أما رأي الأستاذ حوراني في مسألة قدم الإنسان فيظهر فيه تأثره بما جاء في التوراة حول تقدير عمر الإنسان ، فمذهب داروين يقتضي أن يكون الإنسان قديماً جداً " ولكنه تبين لأشهر العلماء وأكابرهم من النشويين وغيرهم أنه أحدث الأحياء وأنه كان من بضعة آلاف سنة ، وأثبت العلامة دوسون أنه كان في ثاني العصر الجليدي وهو المعروف بالأكثر أحدثية ... وقال الدكتور هويدن : نظرت أربع فرق مستقلة من الجيولوجيين في زمن نشوء الإنسان فاتفقت على أنه نشأ منذ ما بين ستة آلاف وسبعة آلاف سنة ... [٤] .

أما ردود الدكتور شبلي شميل على مناقشته فكلفت تكراراً لردود داروين ونجز وغيرهما من القائلين بتحول الأنواع ، وفحواها :

١- ان التباينات بين الأنواع لاتزيد على التباينات بين أفراد لنوع الواحد الا بالوراثة ، وهذه أثر ثابت لا يحكم عليه بالفترة المعلومة من تاريخ الانسان لانها تثبت بعد انقضاء مئات الملايين من السنين ..

[١] ، [٢] المرجع السابق ١٢٤ - ١٢٥

[٣] المرجع السابق

٢- وإن أنصاف الأنواع ليس من شأنها أن تعيش وتثقل ميراثها إلى زمن طويل ، لأن التوريث مرتبط بتمام الجهاز المميز للنوع وهو لا يتم في أنصاف الأنواع ، ولكن قد يدل عليه التناسل بين بعض الحيوانات كالخيل والحمير أو الكلاب والذئاب ، وقد يدل عليه " اكتشاف الطير العجيب - الأركوبتركوس - الذى وصل بين طائفتين من الحيوان منفصل بعضهما عن بعض انفصالا تاما وهما الطيور والحشرات " [١] .

٣- إن العلماء يخطنون في وضع حدود الأنواع ، وقد ذكر دارون " أن النباتي الإنجليزي وستن يذكر ١٨٢ نباتا انجليزيا عدها أنواعا مع أنها نباتات ، وقد قال هوكر في هذا المعنى مائنه : إن النباتيين يعدون الآن من ٨٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠ نوع من النبات ، فالنوع إذن غير محدود " .

٤- أن التحولات لا ينبغي أن يبحث عنها في الأنواع الحاضرة ، لأن كلا منها تطور عن أنواع سابقة له في سلسلة هي التي كان يمكن أن يجرى بينها التحول في أوانه ، ولكن الأنواع الحاضرة تتاعدت عن أصولها فابتعدت الأشياء المتحولة فيما بينها [٢] .

وفي إبان إحتدام المناقشة بين منكرى المذهب ومؤيديه نشر الأستاذ الشيخ محمد عبده رسالة أستاذة جمال الدين الأفغانى المعروفة باسم " الرد على الدهريين " وفيها يتعرض لمذهب النشوء والارتقاء ويناقشه ، ويرد على ما جاء فيه من نظريات .

وقد دافع الأمير شبيب أرسلان عن خوض الشيخ جمال الدين في نظرية يلزم للخوض فيها التخصص في العلوم الطبيعية فرأى أن هذا الاعتراض على الشيخ ليس بشيء ، " لأن التخصص شرط المباحث التفصيلية ، فأما في المبادئ العامة فالذى يلزم إنما هو الفلسفة ، ومن كان أطول فيها باعا وأفسح نظرا كان أحق بأن يتكلم بها ، فالسيد جمال الدين إذا يقدر أن يقول هنا " [٣] .

ونقل الأمير فقرات من كتاب الشيخ جمال الدين المعروف " بالرد على الدهريين " يناقش فيها مذاهب الدهريين في كيفية نشوء مبادئ الحضارة الانسانية ووضع أصول الأنواع ، ويخوض خلالها في مناقشة نظرية النشوء والارتقاء .

[١] المرجع السابق

[٢] المرجع السابق ص ١٣٤ - ١٣٥

[٣] تعليقات الأمير شبيب على ابن خلدون ص ٤٠

قال السيد جمال الدين : " ولما كشفت علوم الجيولوجيا (طبقات الأرض) عن بطلان القول بقدم الأنواع رجع المتأخرون من الماديين إلى القول بالحدوث . ثم اختلفوا فى بحثين ، الأول بحث تكون الجراثيم النباتية والحيوانية ، فذهب فريق إلى أن الجراثيم على اختلاف أنواعها تكونت عندما أخذ إلهاب الأرض فى التناقص ، ثم انقطع التكون بانقضاء ذلك الطور الأرضى ، وذهبت أخرى إلى أن الجراثيم لم تنزل لتكون حتى اليوم خصوصا فى خط الإستواء حيث تشد الحرارة .

وعجزت كلتا الطائفتين عن بيان السبب لحياة تلك الجراثيم حياة نباتية او حيوانية خصوصا بعد ما تبين لهم أن الحياة فاعل فى بسائط الجراثيم ، موجب لا لنتامها ، حافظ لكونها . ولأن قوتها العادية هى التى تجعل غير الحى من الأجزاء حيا بالتغذية فإذا ضعفت الحياة ضعف تماسك البسائط وتجانسها ، ثم صارت إلى الانحلال . وظن قوم منهم أن تلك الجراثيم كانت مع الأرض عند انفصالها عن كرة الشمس وهو ظن عجيب لا ينطبق على أصلهم من أن الأرض عند الانفصال كانت جذوة نار ملتهبة ، وكيف لم تحترق تلك الجراثيم ولم تمح صورها فى تلك النيران المستمرة ؟!

والبحث الثانى من موضع اختلافهم صعود تلك الجراثيم من حضيض نقصها إلى ذروة كمالها (يقول شكيب : وصل السيد هنا إلى مذهب النشوء والارتقاء) وتحولها من حالة الخداج والنقص ، الى مآثرها من الصور المتقنة ، والهيآت المحكمة ، والبنى الكاملة ، فمنهم قائل : إن لكل نوع جرثومة خاصة به ، ولكل جرثومة طبيعة تميل بها إلى حركة تناسبها فى الأطوار الحيوية ، وتجذب إليها مايلانها من الأجزاء الغير الحية ليصير جزءا لها بالتغذية ، ثم تجلوه بلباس نوعه . وقد غفلوا عما أثبتته التحليل الكيماوى من عدم التفاوت بين نطفة الانسان ونطفة الثور ونطفة - الحمار مثلا - وظهور تماثل النطف بالانحلال البسيطة . فما منشأ التخالف فى طبائع الجراثيم مع تماثل عناصرها ؟! ومنهم ذاهب إلى أن جراثيم الأنواع كافة - خصوصا الحيوانية - متماثلة فى الجوهر ، متساوية فى الحقيقة ، وليس بين الأنواع تخالف جوهرى ، ولا انفصال ذاتى . ومن هذا ذهب صاحب هذا القول إلى جواز انتقال الجرثومة الواحدة من صورة نوعية إلى صورة نوعية أخرى بمقتضى الزمان والمكان وحكم الحاجات والضرورات ، وقضاء سلطان القواصر الخارجية.

ورأس القائلين بهذا القول "دارون" وقد ألف كتابا فى بيان أن الإنسان كان قردا ، ثم عرض له التفتيح والتهديب فى صورته بالتدريج على تنالى القرون المتطاولة ، وتناثر

القوالب الطبيعية الخارجية حتى ارتقى الى برزخ "أوران أوتان" ثم ارتقى من تلك الصورة إلى أول مراتب ألبسان فكان صنف "البيم" وسائر الزوج ، ومن هناك عرج بعض أفرادها الى أفق أعلى وأرفع من أفق الزنجيين فكان الإنسان القوقاسى ..

"ويشير الأمير هنا إلى أن الدارويين يستندون فى التشوء والارتقاء على جماعهم وجدت فى أوربة تحت الأرض ، وليست هذه الجماع وهذه الهياكل أقرب إلى الإنسان القوقاسى منها إلى الإنسان الزنجى ، ولاتعنى بالعكس ، بل هى ناقصة عن كل منهما".

ثم يقول السيد جمال الدين: "وعلى زعم داروين هذا يمكن أن يصير البرغوث فيلا بمرور القرون وكر الدهور ، وأن ينقلب الغيل برغوثا كذلك !!"

ويلحق الأمير شكيب على قول السيد هذا عن مذهب داروين بأنه لا مبالغة فيه "لأن هذا المذهب يجعل البيئة والاحتياج والضرورة والتأثيرات الخارجية هى منشأ التنوع وأن كرور الدهور تحت هذه التأثيرات يؤدى الى ما يظهر عجيبا وربما يظهر مستحيلا وليس الأمر كذلك عندهم ، وأن الذى جعل كيمأويا كبيرا مثل (برتلو) يسمى مذهب دارون قصصا منتسح الخيال ، وهو حكم داروين بأطراد هذا المبدأ فى المخلوقات".

ثم يستمر الأمير فى عرض مناقشة السيد جمال الدين لنظرية دارون ، يقول السيد جمال الدين: "فإن سئل دارون عن الأشجار القائمة فى غابات الهند ، والنباتات المتولدة فيها من أزمان بعيدة لا يحددها التاريخ الاظنا ، وأصولها تضرب فى بقعة واحدة وفروعها تذهب فى هواء واحد ، وعروقها تسقى بماء واحد ، فما السبب فى اختلاف كل منها عن الآخر فى بنيتها ، وأشكال أوراقه وطوله ، وقصره ، وضخامته ، ورقبته ، وزهره ، وثمره ، وطعمه ، ورائحته ، وعمره ؟ فأى فاعل خارجى أثر فيها حتى خالف بينها مع وحدة المكان والهواء والماء ؟ أظن لاسبيل الى الجواب سوى العجز عنه !!

وهكذا لو عرضت عليه الحيوانات المختلفة البنى والصور ، والقوى والخواص ، وهى تعيش فى منطقة واحدة ، ولا تسلم حياتها فى سائر المناطق . أو عرضت عليه الحشرات المتباينة فى الخلقة ، المتباعدة فى التركيب ، المتولدة فى بقعة واحدة ولا طاقة لها على قطع المسافات البعيدة لتخلو الى تربة جديدة تخالف تربتها ، فماذا تكون حجته فى علة إختلافها ؟ كأنها تكون كسفا لا كسفا !.

بل إذا قيل له : أى هدى تلك الخيتم فى نقصها وخداجها ؟ وأى مرشد أرشدها الى استتمام هذه الحوارح والأنضاء الظاهرة والباطنة ، ووضعها على مقتضى الحكمة

وايداع كل منها قوة على حسبه ، ونوطها بكل قوة فى عضو إزاء وظيفة ، وإيفاء عمل حيوى ، مما أعجز الحكماء عن إدراك سره ، ووقف علماء الفسيولوجيا دون الوصول إلى تحديد منافعه . وكيف صارت الضرورة للعمياء معلما لتلك الجراثيم ، وهادياً خبيراً لطرق جميع الكمالات الصورية والمعنوية ؟ لا ريب أنه يقبع قبوع القنفذ ، وينتسكس بين أمواج الحيرة ، يدفعه ريب ويتلقاه شك الى أبد الآبدين الخ " .

ويمضى السيد جمال الدين فى إبطال المذهب فى جملته وتفصيله ويفند الأدلة التى اعتمد عليها النشونيون لإثبات نظريتهم مثل الخيل فى سيبيريا وبلاد الروسية أطول وأغزر شعرا من الخيل المولدة فى البلاد العربية فيقول : " إن السبب فيما ذكره هو عين السبب لكثرة النبات وقلته فى بقعة واحدة لوقتتين مختلفتين حسب كثرة الأمطار وقلتها ووفور المياه ونزورها أوجد علة النحافة ودقة العود فى سكان البلاد الحارة .. والضخامة والسمن فى أهل البلاد الباردة مما يسترى البدن من كثرة التخلل فى الحرارة وقلته فى البرودة ... " [١] .

ولكن الأمير شكيب لا يمضى مع الشيخ جمال الدين فى منحى الجزم بالرفض والحكم ببطلان المذهب ، بل يتوقف عند قول الشيخ : (لا يزال يرفعه ريب ويتلقاه شك إلى أبد الآبدين) ويقول عن هذا القول الأخير (ما أحسنه) لأنه " لا دارون " ولا " مارك " ولا تجز " ولا خصوصهم الكثيرون فى أوربا ، ولا " السيد جمال الدين " يقدر واحد منهم أن يقول قولا فى معضلة كهذه ويسلم من الاعتراض من جهة من الجهات ، وإنما هى نظريات يترجح بعضها فى نظر بعض العلماء ، ولا يكاد يجزم به حتى يقوم فى وجهه ما يمنعه من الجزم " [٢] .

فالأمير شكيب أرسلان لا يجزم برفض المذهب بل يرى أنه يستحيل القطع بشيء لنقص الأدلة مع تعليق النتيجة بانتظار الأدلة المقنعة ، هذا مع الإيمان به - إذا ثبت - لا يقضى بتكذيب العقيدة الدينية ، والعقلية فى الخالق عز وجل وفى القرآن الكريم الذى لم يحدد مدة زمنية لبدأ الخليفة ووجود الإنسان بل قال تعالى : " ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم " :

" فلم التكوين بنوع خاص بين مد وجزر ، وأخذ ورد ، وعكس وطرد لا ينتهى . وكيف يمكن أن ينتهى والآثار التى بفى أصحاب مذهب النشوء والارتقاء عليها آراءهم هى

[١] جمال الدين الأفغانى ، الرد على الدهريين ، من ص ١٨ الى ص ٢٣ (تعليقات شكيب على ابن خلدون)

[٢] تعليقات الأمير شكيب على ابن خلدون ص ٤٣

آثار ضئيلة جدا ، نسبتها إلى الموضوع نسبة النقطة إلى الغدير !!

وقد اعترفوا هم - يقصد النشونيين - بأن كل ماعثروا عليه في باطن الأرض إن هو إلا هيكلان أو ثلاثة في القارة الأوربية ، ولم يعثروا حتى هذه الساعة على شيء في اللقارات الأخرى التي هي أوسع من أوربة بكثير ! وما دامت الشواهد ضئيلة إلى هذه الدرجة ومنحصرة في بقعة واحدة ، فإنه يستحيل القطع بشيء " [١] .

[١] تعليقات الأمير شكيب على ابن خلدون ص ٤٤

تعقيب

وأمام هذه النهاية تبقى (القضية) أن هؤلاء الذين اعتنقوا المذهب المادي لم يقفوا أمام أي تناقض ، بل لقد عمدوا إلى الأدلة العلمية فحرفوا فيها وزوروا ولفقوا كما فعل (هيكلم) في تزوير صور الأجنة واعتسرافه بذلك ، بل وفي اتهامه لعدد من العلماء ووصفهم بأنهم شركاؤه في الجريمة .^(١) وكما حدث في قصة اكتشاف جمجمة إنسان (بلتدون) وكانت تجمع بين الجزء العلوي وله صفات بشرية لاشك فيها ، بينما الفك الأسفل يحتفظ بالعظمة القردية ، ولكن هذه (الجمجمة) التي أقامت الدنيا وأقعدتها وكانت دليلاً قاطعاً على صحة نظرية التطور اختلف العلماء في شأنها ، هل تعود لخلق واحد أم لمخلوقين « على أن الطامة الكبرى قد وقعت فيما بعد فاكتشف العلماء في سنة ١٩٥٣م أن بقايا إنسان (بلتدون) مزيفة ، وأنها زيفت عمداً بواسطة مكتشفها مستر داونسون المحامي بقصد خدعة العلماء »^(٢) فلماذا كل هذا الغش والتزوير للذين شوها الجور العلمي تشريحاً بليغاً ؟ إن الإجابة التي لا مفر منها أن أصحاب المذهب المادي يرمون إلى هدف أبعد بكثير من الوقوف عند حدود نظريتهم المادية ، فهم « يهدفون إلى غاية يريدون تأكيدها بعملهم الناقص ، وتلك الغاية هي إنكار الألوهية واستقلال النفس وخلودها ، حتى يستطيعوا التحليل من الدين أو النزول إلى مستوى الحيوان الأعجم الذي يتخذون حياته مثلهم الأعلى »^(٣)

١ - جيس التراطاس ، نظرية دارون بين مؤيديها ومعارضها (مرجع سابق) ص ٣٣-٣٥ .

٢ - المرجع السابق نفسه ، ص ٨٧ .

٣ - د. محمود قاسم ، جمال الدين الأفغاني حياته وفلسفته . ص ٢١٣ .

رأى الأمير شكيب أرسلان في المبادئ الشيوعية والإشتراكية

رأي الأمير شكيب أرسلان في المبادئ الشيوعية والإشتراكية

تنبه الأمير شكيب منذ وقت مبكر للخطر الذي تمثله المبادئ الشيوعية والإشتراكية على العالم الإسلامي ، وأكد أن « الشيوعية لابد من أن تنفذ مبادئها إلى البلاد الإسلامية مهما حاولوا وحاولت دول الاستعمار من مقاومة سريانها إلى الشرق »^(١) وذلك لأن بلاد الإسلام أصبحت ممهدة لتقبل ذلك الخطر القادم ، « فالمسلمون إلا النادر أهملوا الزكاة ونهاونوا بفرائض الدين لذلك هم مهددون اليوم بخطر الإشتراكية »^(٢)

ويرى الأمير أن « المبادئ الإشتراكية » تبث روح التباغض والشحناء وإثارة حرب الطبقات والشقاق في الأمم التي تنتشر بينها^(٣) ، ومن خصائصها الخطيرة أنها تقوم مقام العقيدة الدينية ، فتفتي الجنسية والقومية ، « إذ كما أن المسلم لابد أن يعترف بإخاء المسلم أيما كان أصله وفصله ، فالإشتراكي لابد أن يتضامن مع الإشتراكي في أي وطن كان ، ومن أي أمة كان ، وإن فضل الوطنية على الإشتراكية ، كان شأنه شأن المسلم الذي يفضل القومية على الإسلام »^(٤)

ويرى الأمير أن الشريعة الإسلامية بما تشتمل عليه من مبادئ التكافل والتراحم بين المسلمين ، وما تفرضه على كل مسلم من أوامر إلهية لا محيد عنها من إيتاء الزكاة - بكافة أنواعها - على الوجه الشرعي كفيلة بأن تحفظ للمجتمع المسلم وحدته وتماسكه في وجه الفتنة القادمة على شريطة أن تقوم الدول الإسلامية بفرض الزكاة ، التي هي ركن من أركان الإسلام على الوجه الشرعي ، وأن يكون لها وزارة أو إدارة في كل حكومة إسلامية ، تنظم أمر استيفائها ، وطريقة انفاقها ، فينتفي بذلك كل فقر وكل خصاصة بين المسلمين ، ويقل تفاوت الطبقات في درجات الرفاهية ، وتتوفر وسائل التمرير والمؤاساة والتعليم ، وتشمل نعماتها الجميع بدون منه غني على فقير ، ولا اعتداء كبير على صغير ، بحيث إذا دخلت الإشتراكية على بلاد الإسلام ، دخلت بدون ضوضاء ولا شقاق ، بل كانت سبباً لإحياء فرض من أقدس فروض الدين ألا وهو

الزكاة. (١)

ويرى الأمير أن الشريعة الإسلامية بما تفرضه على المسلمين من زكاة هي أوامر إلهية لا محيد للمسلم عن إنفاذها إذا أراد أن يبقى مسلماً ، وقد ورد ذكرها مقروناً بذكر الصلاة مراراً عديدة في القرآن الكريم ، لذلك فهي أوثق ، وأمتن ، وأجدر بأن يلتزم العمل بها المسلمون من المبادئ الاشتراكية المعروفة في أوروبا والتي هي أوضاع بشرية متفق عليها فيما بينهم (٢)

فالإسلام ليس بحاجة إلى الشيوعية ، والشرائع السماوية أقرب إلى المساواة ، وأرفق بالضعف ، وأحذب على الفقر من القوانين البشرية (٣) ، هذا مذهب الأمير شكيب أرسلان الذي دعا إليه دائماً ، حتى عندما التقى في سنة ١٩٢٧م وهو يزور موسكو «بمقام كولوننتاي» الروسية التي يسميها الروس «أم البلاشفة» والتي كان لها اليد الطولى في الثورة التي أطاحت بعرش قيصر ، وأقامت الحكم البلشفي ، وفي أثناء حديثها مع الأمير شكيب أرسلان تخاوره حول الشيوعية ، فيجأه (شكيب أرسلان) بأن البلاد العربية ليست بحاجة إلى الشيوعية لأن المبادئ الإسلامية فيها ما هو خير من الشيوعية ، ويشرح لها هذه المبادئ فتعجب بها (٤)

وفي حديث شكيب مع (مدام كولوننتاي) يتحدث عن فنون الأوقاف الإسلامية في البلاد الإسلامية ، وهو يقصد أن يعدد وجوه المساعدات الاجتماعية التي أوجت بها الروح الإسلامية ، فيذكر أن الزكاة ليست هي كل ما ينفق في وجوه الخير ، فهي الفرض المحتوم الذي لا مناص منه أولاً ، ثم هناك في المجتمع الإسلامي بعد هذا مؤسسات خيرية تسمى (الأوقاف) ، تبلغ نحو الثلث من أملاك المسلمين وجميعها محبوسة العين ، أي لا يجوز بيعها أو التصرف فيها ، وهي مرصودة الربع على وجوه البر وأنواع الإعانة

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ص ٣٦٢ .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ص ٣٦٢ .

٣ - شكيب أرسلان ، مجلة المجمع العلمي العربي ، المجلد ٤ ص ٥٣٥ .

٤ - شكيب أرسلان ، الشورى عدد ١٥/١٢/١٩٢٧م (عن شكيب أرسلان داعية العروة والإسلام ص ٨-٢) .

لبني الإنسان .

فمنها مدارس ومستشفيات ودور كتب ، ودور لعلاج المجانين ، ودور لعلاج المجازيم ، ودور ضيافة ، ومنها ما يوزع الخبز يوميا ، ومنها ما يوزع الحساء (المرق) ، ومنها مؤسسات لأشياء لا تخطر على بال الأوروبيين ، ولا يتنبه لها ولا يرصد لها الأرزاق الكافية إلا الأمم التي بلغت الشأو البعيد في الإنسانية .^(١)

ولقد بنى الأمير شكيب أرسلان رأيه في هدم الشيوعية على (حقائق الإسلام التي تتوج ما دعمه الفكر الإنساني والنظر العلمي التجريبي) ^(٢) ، فبين التناقض الذي يقوم عليه الفكر الشيوعي فعلى الرغم من أن الشيوعية دعوة مادية تنكر الأديان كلها ، وتهدمها من أصولها ، وتقتلعها من جذورها ، لأنها تعترف بغير المادة ، ولأنها تصرح بأن الدين وهم ، وبأنه مخدر يتعزى به الفقراء والكادحون ، فيصرفهم عن الكفاح في سبيل نيل حقوقهم إلا أنها تقيم (العقيدة الشيوعية) محل (العقيدة الدينية) وتقلدها في معالمها الرئيسية «حيث نشاهد الماركسية تتحول إلى بديل عاطفي وثقافي للمسيحية الأرثوذكسية مع إحلال ماركس محل موسى عليه السلام ولينين مكان المسيح عليه السلام وقيام مجموعة أعمالهما بدور الكتب المقدسة لهذه الديانة الإلحادية» ^(٣) أو ما يسميه شكيب أرسلان ، «إنجيل البلشفية الجديد» .

فهذا هو (شكيب أرسلان) يتكلم عما يبذله البلاشفة من جهود في الشرق وفي العالم الإسلامي ، إذ «يهمسون في آذان الشعوب المغلوبة على أمرها ، الناقمة الساخطة (إنجيل البلشفية الجديد) ، حملاً لهم على الهياج والشغب ، ثم الإنتفاض والثورة ، فكل حركة وطنية ومطمح قومي وسخط سياسي ومظلمة إجتماعية وتحكيم جنس في جنس ، جميع ذلك من الوسائل التي يتخذها البلاشفة وقوداً لنار الهياج ، فالإنتفاض ، فالعرب» ^(٤)

١ - المرجع السابق ص ٢٠٩-٢١١ .

٢ - د. مصطفى حلمي ، الإسلام والمذاهب الفلسفية ، ص ٢١٤ .

٣ - د. مصطفى حلمي ، الإسلام والمذاهب الفلسفية ، ص ٢١٤ .

٤ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٢ ص ٣٠٠ وما بعدها .

أما القول بأن الدين أفبون الشعوب ، فمن الجهل وصف الإسلام بالآفبون فإن من المعروف أن الإسلام يأبى للمسلم أن ينسى نصيبه من الدنيا ويأمره أن يأخذ من طبيباتها ، بل لقد ذهب أعداء الإسلام الذي لاحظوا أنه لا يمكن إتهامه بتحسين الجبن أو الاستكانة لاتباعه بوصفه بتقيض ذلك ، وبالفوا فيما وصفوه فيقولوا عنه إنه دين السيف أو دين القتال .^(١)

وبين الأمير (شكيب أرسلان) ذلك فيقول : إن الزعم بأن الإسلام مبني على الخضوع للقوة القاهرة كذب محض ، واختلاق - من القائل - ، فإن الإسلام أمر بأوامر ونهى عن نواه لايد للمسلم أن يجري عليها إذا أراد أن يبقى مسلما ، مهما وقف في طريقه ولو ذهب بذلك نفسه ، وهذا مبسوط في كتب الشريعة .. ، وليس للمسلم أن يتقي في دينه إلا في بعض نقاط لا يكون فيها خطر على وجود الإسلام^(٢)

ويمضي شكيب في تأكيد حرص الإسلام على عزة المسلم وعدم استسلامه لقوى الظلم والقهر ، فيقول : «ولو كان الإسلام مأمورا بالإستسلام للقوة الغالبة ، لما قاوم الرسول صلى الله عليه وسلم قريشاً وهي أقوى منه ، ولا قاوم الخلفاء الراشدون تلك الأمم ودوخوها وهم لمي يكونوا شبيها بالقياس إلى ما كانت عليه تلك الأمم . كلا ، فالإسلام مبني على العزة وعدم الميلالة بالحياة ولا بالمال في الذب عن شريعة الإسلام ، وإن القرآن ملآن بذلك والحديث الشريف مستفيض به ، وما سقط الإسلام إلا بعد أن فتر عمل أهله بتلك الآي ، وغلبت عليهم «كراهية الموت وحب الدنيا» وفقا للحديث النبوي الذي أنبأهم بالحالة التي وصلوا إليها وبالأسباب الداعية إلى حصولها ، وهو حديث «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل جانب تداعى الأكلة على القصاع ... الخ»^(٣)

١ - د. مصطفى حلمي . الإسلام والمناهج الفلسفية ، ص ٢١٥ (مرجع سابق) .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٢ ص ٣٣٢ .

٣ - المرجع السابق نفسه .

وشكيب يرى أن الدين ضروري للبشر ، وما ثورات (الإلحاد) إلا غمرات ثم تنجلي ، أو فورات ثم تخمد ، وأن النزغات الإلحادية التي تعرض للمجتمع الإنساني في بعض الأوقات ليست إلا عوارض مؤقتة ، لا تستطيع أن تكسب شكلاً عاماً ، ولا أن تستقر وتدوم ، ولا أن تقوم مقام العقائد الضرورية للبشر .

ويقرر شكيب أن التاريخ يبيننا بأن أمائيل لهذه النزغات وقعت ، حيث عصفت ريع الإلحاد في بعض الحقب ، ثم زالت واستقر الإيمان ، وعاد الأمر كما بدأ .^(١)

ويحذر شكيب (ملاحظة) المسلمين الجاهلين أو المتجاهلين لحقيقة ما ينطوي عليه هذا الفكر المادي من محاولة إقامة النهضة العلمية في البلاد الإسلامية على أسس (مادية) لادينية ، فيقول «إننا نخشى إن جردناها من دعوة القرآن أن تفضي بنا إلى الإلحاد والإباحة وعبادة الأبدان ، واتباع الشهوات ، مما ضرره يفوق نفعه»^(٢)

ولقد صدق استشعار الأمير (شكيب أرسلان) للأمور قبل وقوعها ، وسبق عصره في توقع ما أصاب العالم الإسلامي ، بعد أن انحدر ستر الغيب عن وجه المستقبل فجاءت الحوادث مصداقاً لشكبه .

وقد بين (شكيب أرسلان) أن هناك غرضين جد ورائهما البلاشفة : «غرض عاجل ، وهو محر التفوق الغربي سياسياً واقتصادياً محوياً تاماً ، وغرض أجل ، وهو بلشفة الشعوب الشرقية .. أما في الدور الأول : فالبلشفية مستعدة تمام الاستعداد لإحترام الأديان والعادات والتقاليد الشرقية ، والأخذ بنصرة الحركات الوطنية في الشرق ، أما في الدور الآخر فالأديان ، مثل الإسلام ستفقوض تماماً»^(٣)

١ - شكيب أرسلان ، الإرتسامات اللغاف ، ص ٨٤ .

٢ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخى المسلمون ؟ ص ١٣٨-١٣٩ .

٣ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي (مرجع سابق) ص ٣٠٠ ، وما بعدها .

الباب الثالث

الفصل الثاني

الفكر السياسي عند الأمير شكيب أرسلان

- تمهيد : شكيب أرسلان بين (الإصلاح الديني) و (الإصلاح السياسي)
- تصور الأمير شكيب أرسلان للدولة الإسلامية :
- استقلال النظام الاسلامي (الفرق بين الخلافة والملك)
- الأصول والمبادئ العامة التي تقوم عليها نظم الدولة الإسلامية :
- ١ - الشورى .
- ٢ - المساواة .
- ٣ - معاملة أهل الذمة ونشر الإسلام .
- الرؤية السياسية لمستقبل الأمة الإسلامية عند الأمير شكيب أرسلان
- تمهيد
- الجامعة الإسلامية
- الجامعة العربية
- آراء الأمير شكيب أرسلان في التربية
- بعث (المدنية الاسلامية) في مواجهة (الحضارة الغربية)

تمهيد : شكيب أرسلان

بين (الإصلاح الديني) و (الإصلاح السياسي)

كلمة « الإصلاح الإسلامي » من الكلمات الاصطلاحية التي إن لم يتحدد معناها بدقة حتى يكون لها شكل واضح لا لبس فيه ولا إبهام ، كانت مثار خلاف بين الناس ، وأدخلت في باب الإصلاح ما ليس منه .

فإن كان فهما « للإسلام » بأنه هو الذي كان عليه نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم وأصحابه مصابيح الهدى رضوان الله عليهم كما فهمه منهم التابعون لهم بإحسان ، فمن الإصلاح الاسلامي تجريد الاسلام من البدع الطارئة عليه ، وتخليصه من الدخيل الذي يحسب الجاهلون أنه منه وما هو منه ، ومن الإصلاح الإسلامي بث روح النشاط في المسلمين لإحياء مقاصد دينهم وتحقيق أغراضه ، وحسن التعبير عنه في الدعوة إليه وتأليف الكتب في حقائقه وأحكامه وتاريخه ، ومن الإصلاح الإسلامي تعويد المسلمين على حسن تمثيل الإسلام بأن يتخلقوا بأخلاقه ويتعاملوا بأدابه وينشئوا أبناءهم عليه حتى يكونوا جنوده في الحمية له ، وأولياءه في السرور بإنتشاره واعتلائه ، والحزن لما يصيب أهله من سوء حيثما كانوا ^(١).

من هذا المنطلق في فهما لمعنى (الإصلاح الإسلامي) نستطيع أن نميز ملامح الخط الإصلاحية الذي سار عليه الأمير شكيب أرسلان .

فقد انطلق الأمير شكيب أرسلان في دعوته الإصلاحية من مقدمة كبرى ، هي صلاحية الإسلام في جوهره لجميع العصور ، وما الوهن والإنحطاط الذي ينمي على الشعوب الإسلامية إلا نتيجة تقاعس المسلمين أنفسهم ، ودسائس الأجانب ومكائدهم ، لا نتيجة فساد ذاتي في معتقدهم الديني - كما يزعم الخصوم - فهذا المعتقد يركز على ركائز العقل ويقول بالحرية والاختيار وينكر التواكل والخمول ، ولكن المسلمين قد ضلوا السبيل وتنكبوا عن الإهتمام بهدي دينهم ، فصاروا إلى ما صاروا إليه من

الإنعطاط والجمود .

ولللخروج من هذا المأزق يجب أن يبعث الإسلام من جديد ويظهر من الشوائب التي لحقت به في غضون تاريخه الطويل ، والرجوع الى نهج السلف الصالح ، الذين أرسوا قواعد العقيدة الإسلامية .

يقول الأمير : « إن أسباب الارتقاء كانت عائدة بمجملها إلى الديانة الإسلامية التي كانت قد ظهرت جيداً في الجزيرة العربية فدان بها قبائل العرب وتحولوا بهدايتها من الفرقة إلى الوحدة ومن الجاهلية إلى المدنية ، ومن القسوة إلى الرحمة ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الواحد الأحد ... فالقرآن قد أنشأهم إذا نشأ مستأنفة وخلقهم خلقاً جديداً وأخرجهم من جزيرتهم والسيف في إحدى اليدين والكتاب في الأخرى يفتحون ويسودون ويتمكنون من الأرض بطولها وعرضها » (١)

ولم يقف الإسلام عند حد الفتوحات أو إقامة السلطان الواسع ، بل أسهم في بناء مدينة عربية إسلامية وضاعة دانت لها الدنيا سحابة قرون ثلاثة أو أربعة (٢) .

١ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ، ص ٤١ .

٢ - يقول شكيب : ... وقد بقي دور العرب هو الأول في وقته ، ولبشوا هم المسيطرون في الأرض ، لا يضارعهم مضارع ، ولا يغالهم مغالب ، مدة ثلاثة قرون أو أربعة ، ثم أخذوا بالإنعطاط ، وجعلت غلالهم تنقلص عن البلدان التي كانوا غلبوا عليها شيئاً فشيئاً ، وذلك بفتور الهمم ، وديب الفساد إلى الأخلاق ، وتبدع عرائم الدين ، لماذا تأخر المسلمون ؟ ص ١٢٤/١٢٥ .

ويؤيد الدكتور فهمي جدعان في كتابه : (أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العصر الحديث) ما ذهب إليه شكيب أرسلان بتحديد مرحلة التنوير في تاريخ الحضارة الإسلامية زمنياً بالقرن الأربعة الأولي للإسلام ، وذلك عندما قسم المراحل الثقافية - الاجتماعية لتاريخ الإسلام والعرب حتى يومنا الحاضر بأربعة مراحل هي :

(١) مرحلة التنوير وبناء الحضارة ، حيث تشمل زمنياً القرون الأربعة الأولى من تاريخ الإسلام .

(٢) مرحلة التوقف الحضاري والتوازن ، وتشمل القرن الخامس الهجري .

(٣) مرحلة الإنعطاط واختلال التوازن ، وتبدأ مع الغزالي حتى نهاية القرن الثامن الهجري ، وما تخلل هذه الحقبة من ركود وجمود على الصعيد الفكري ، متلازمة مع وقائع تاريخية مساعدة لهذا الخلل (سقوط الخلافة ، انحسار الوجود العربي ، الغزو التتري ، والمغولي والصليبي) .

(٤) مرحلة اليقظة والتنهوض ، وتبدأ مع العلامة ابن خلدون ومقدمته في البحث عن أسباب وعلل الإنعطاط وصولاً إلى مرحلة الإنسداد ، الأجنبي للعالم العربي وعراجته بالمدينة الغربية وما نتج عن ذلك من صراع وتوتر فكري =

• يقول الأمير : «ومدنية الإسلام قضية لا تقبل المماحكة ، إذ ليس من أمة في أوروبا سواء الألمان أو الفرنسيين أو الإنكليز أو الطليان الخ ... إلا وعندهم تأليف لا تحصى في مدنية الاسلام ، فلو لم تكن للإسلام مدنية حقيقية سامية راقية مطبوعة بطابعة مبنية على كتابة وسنته ما كان علماء أوروبا ، حتى الذين عرف منهم بالتحامل على الاسلام ، يكثر من ذكر المدنية الاسلامية ومن سرد توارخها ، ومن المقابلة بينها وبين غيرها من المدنيات ، ومن تبين الخصائص التي انفردت هي بها »^(١)

فهدف الأمير شكيب من حركته الإصلاحية هو إظهار قوة الشرع الاسلامي على إدارة المدنية الحاضرة واتساعه لكل ضرب من ضروب الرقي الصوري أو المعنوي بدون أن يقلق وجدانه المؤمن أو تتدخل عقيدته ، وبحيث تحبط آمال الاستعماريين الذين يحتلون لوضع الاسلام في موقف المعاند للمدنية .

وجذور هذا الخطر الإصلاحى لدى الأمير شكيب نجدها واضحة في دعوة الشيخ الأفغانى والإمام محمد عبده ، ولا عجب في ذلك فقد ذكرنا أن شكيب تتلمذ على الشيخين ورأى في فهمهما للعقيدة الشكل الوحيد الذي يرجى أن ينهض بالإسلام .

يقول «د. الدهان» في امتداد خط الأفغانى الإصلاحى من خلال محمد عبده ثم شكيب أرسلان : «كان الشيخ (الإمام) يردد في مجالسه ما تلقنه على يد جمال الدين الأفغانى من سعي الى الإصلاح وحج للإسلام وذود عن كرامته وتأليف فيه وعمل له ، وكان الإمام لا يفتر عن الحديث في رفع مستوى الأمة وتقديم أخلاقها والنهوض بها نهضة اجتماعية عن سبيل الثقافة والعلم ، في وعي صحيح وفهم عميق لا يسير في تقليد الغرب تقليداً أعمى وإنما يسعى في تربية العقول والنفوس .. وأصاخ شكيب إلى هذا كله واستهوته أحاديث محمد عبده عن شخصية جمال الدين الأفغانى .. هذا اللقاء بين الإمام والفتى كان نقطة تحول الأمير الناشئ صرفته عن الخيال والأحلام إلى واقع

= وثقاني ما يزال حتى أيامنا . د/لهي جدهان . أسس التقدم - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ١٩٨١م .

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامى ، ج ٢ ص ١١٩ .

العرب والمسلمين وأحلامهم والتقدم بهم ورد الاستعمار عنهم»^(١)

كان الإمام محمد عبده الحلقة التي ربطت شكيباً إلى حركة الإصلاح التي تزعمها جمال الدين الأفغاني ، لكن شكيباً لم يكن مجرد تابع في فكرة لفكر أستاذه بل أسهم بوعيه وحسه الفلسفي القادر على ربط ما تفرقت وتشتت من معطيات ووقائع ثم ردها إلى مبادئها ، وهو كذلك استمرار شجاع للخط الإصلاحية ، في تعميمه وتعميقه والدعوة له ، كما سعى بكل طاقته إلى تحويله واقعاً فعلياً في السياسة والثقافة والإجتمع .

إن أهم ما قدمه الأفغاني هو ربطه الإسلام الصحيح بالنضال السياسي والإجتماعي الذي يعني تحديداً وحدة الشعوب الإسلامية القادرة وحدها على رد غائلة التدخل الأوروبي^(٢) ، وكان يرى أن ما أمكن تحقيقه في بدء (المدنية الإسلامية) وازدهارها ، والإنصارات العسكرية التي حققتها في صدر الإسلام « يمكن أيضا تحقيقه وذلك بقطف ثمار العقل ، أي علوم أوروبا الحديثة وإعادة بنا ، وحدة الأمة »^(٣).

«ورغم أن محمد عبده قد صاغ برنامجاً عملياً يقوم على (التربية) مدخلاً إلى (الإصلاح) والتغيير»^(٤) منتقداً اعتقاد أستاذه الأفغاني أن العمل السياسي الصرف كفيلاً بأن يوصل الأمة إلى الصلاح المطلوب ، فهو يلتقي مع أستاذه في معظم مبادئه وقناعاته وغاياته ، « فهو يلاحظ ، كما الأفغاني ، أن المجتمعات الإسلامية تعاني انحطاطاً أخلاقياً واجتماعياً وسياسياً يبلغ حد الأزمة والدا ، لكن علة الأزمة والدا ، لا تقوم في الإسلام ولا في أركانه ، وإنما في الحال الذي انتهى إليها تفكير المسلمين»^(٥)

ويرى محمد عبده : أن الإسلام قد بنى مدينة زاهرة وله القدرة على استعادة ذلك ،

١ - د. سامي الدعان ، شكيب أرسلان ، ص ١٣٢ .

٢ - د. محمد شفيق شيبا ، شكيب أرسلان ، مقدمات الفكر السياسي ، ص ٤٩ .

٣ - ألبرت هوراني ، الفكر العربي ، في عصر النهضة ، ص ١٤٥ .

٤ - مقدمات الفكر السياسي ، (مرجع سابق) ص ٤٣ .

٥ - المرجع نفسه .

فالإسلام لم يكن دين آخره وحسب بل هو كذلك دين الدنيا وصلاح الناس وتقدمهم ، لكنه يميز في الموروث الديني الجوهري المبدئي الثابت الذي لا يتغير ، وبين ما هو غير جوهري غير ثابت وقابل لأن يتغير ، بل يجب أن يتغير ويتبدل ليتلائم مع حاضر الناس وواقع مطالبهم وحاجاتهم ، ولذلك فهناك امكانية فعلية للتوفيق بين الإسلام والعصر ، فالإسلام يحث على الأخذ بالنظر والعقل ، والأخذ بالعقل يوجب قبول ما يقدمه العلم الوضعي ومواكبته ثم الإسهام فيه »^(١)

وإذا كان الشيخ محمد عبده قد ابتعد في الفترة الأخيرة من حياته عن التوجيه السياسي مؤثراً تركيز نشاطه الخاص في الجانب العملي والديني^(٢) ، إلا أن أفكاره وأفكار أستاذه الأفغاني استمرت في توجيه فكر (شكيب أرسلان) ، ولذلك رأى المستشرق الأسباني المسلم (خيل بن أمية) شكيباً محاولة في السياسة على هدي إنجازات محمد عبده في الإصلاح الديني .

« ... كان الأمير يريد أن يعمل في السياسة ماعمله الشيخ محمد عبده في الدين ، وليس من سبيل إلى نكران ما استطاع تحقيقه في هذا السبيل »^(٣)

كما أشار إلى ذلك «ألبرت حوراني» بقوله : «أما شكيب أرسلان ، فمع أنه لم يتخل قط عن الاهتمام بالإصلاح الديني فقد جذبه السياسات القومية العربية .. »^(٤)

والباحث في فكر الأمير شكيب أرسلان السياسي يجد جذوره ومقدماته في أحوال عصره وأيام سيرته ، ولأن الأمير شكيب أرسلان عاصر حقبة استثنائية في تاريخ الأمة الإسلامية والعربية - نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين - شهد خلالها وقائع خطيرة متشابكة ومتعارضة ورأى بعينه خلاقة تتلاشى ودولة تنهار كما شهد ارتفاع الطابع التوسعي الغربي حتى بلغ ذروته في مطلع القرن العشرين ، لذلك كانت

١ - المرجع نفسه ص ٤٤ .

٢ - د . محمد البهي . الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي . ص ٩٨ .

٣ - محمد علي الطاهر . ذكرى الأمير شكيب أرسلان ، ص ٣٢٤ .

٤ - ألبرت حوراني ، الفكر العربي في عصر النهضة . ص ٢٧٠ .

سياسته متنوعة في أشكالها وصيغها ولكنها ظلت ثابتة ومتمسكة بالمبادئ والأهداف المخلصة لعقيدته وأمنه .

إن الإسلام - كما فهمه شكيب أرسلان - ليس دين تعبد فحسب ، وإنما هو رسالة من الله جاءت لخدمة الإنسانية وتقديساً لها ، ورغم كل ما أصيب به المسلمون من علة وضعف فإنهم هم الأمة الوحيدة على وجه الأرض التي تعد خصيم الأمم الغربية وغريماتها ومتافستها في قيادة الأمم ، لذلك كان الإسلام نقيضاً للإستعمار وأداة عمل ضده بقصد خير الإنسانية ولكي يستعبد المسلمون مكانتهم في قيادة الإنسانية إلى السعادة والفلاح في الدنيا والأخرة .

لهذا كانت سياسة شكيب أرسلان (إنسانية) في مواجهة السياسة الغربية المناهضة للإسلام والمسلمين ، وبهذا وصف شكيب نفسه سياسته فقال : «إن سياستي في الحقيقة مبنية على الإنسانية لاغير ، وعندى أن الإنسانية هي رأس السياسة ، وأن الذي يأخذ بسياستها لايعثر .. هذا هو مشربي الحقيقي ، ويرانى الناس مؤيداً للدين لأنى أرى الدين ركناً للإنسانية ، ولست أعتقد مجئ الأديان إلا خدمة للإنسانية وتقديساً لها ، وإلا فإن الله غني عن العالمين» ^(١).

والدين الإسلامي في رأي شكيب أرسلان مرتبط بالسياسة فهو عامل توحيد للمسلمين في رد غائلة العدوان والإستعمار يشد أزهم ويجمع شملهم ويمنحهم قوة أعظم ، يقول الأمير شكيب :

«فأما من جهة المسلمين فإن الجامعة الوحيدة التي كانت تجمع بين الترك والعرب والكرد والأرناؤوط والجركس ، فهي الجامعة الدينية ، ولولاها لكانت هذه السلطنة قد تفككت منذ قرون» ^(٢).

ويرى شكيب أن الإسلام قادر على الإسهام في نهوض الشعوب الإسلامية علماً

١ - أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان ، داعية انعومة والإسلام ، ص ١٥ .

٢ - مختارات من الأمير شكيب أرسلان ، ص ٢٩ .

وثقافته واجتماعاً ، واللحاق بركب العصر ، وهو أمر تحقق له في أيام المسلمين الذهبية ، وكانت أسباب الارتقاء عائدة إلى تمسك المسلمين بدينهم وأسباب التردي والضعف تعود إلى محيدهم عن جادة القرآن القويمه .

كما رأى شكيب أن المسلمين يحتاجون في بناء نهضتهم الحضارية الحديثة أن يعودوا إلى تراثهم لاستلھام ذاتهم التاريخية الخاصة التي تميز هويتهم وتبعث الثقة في أنفسهم وتعينهم في سعيهم الجاد نحو الحرية والعدل .

تلك هي الأسس والمبادئ التي بنى عليها شكيب أرسلان فكره الإصلاحی في المجال السياسي ، ولكن لم تكن أفكار شكيب السياسية مجرد طموحات نظرية « يوتوبيا » بل لقد حرص على أن يجعلها معياراً لتعامله مع الواقع السياسي الذي ساهم بجهده وآرائه ومواقفه في معالجة أحداثه .

« لم يكن شكيب أرسلان ، لحظة واحدة ، في هامش ما يجري ويتحول ، كان مرقعه الاجتماعي يمنحه قوة واضحة في كل المسؤوليات الرسمية التي تقلدها ، إلا أنه كان أكثر نفوذاً وقوة وهو خارج المركز والمسؤولية الرسمية » (١)

ونماذج حرص الأمير شكيب على ربط منهجه الإصلاحی السياسي بالواقع العملي كثيرة منها إصراره الدائب على ربط الوحدة الإسلامية بمضمون نضالي يقوم على الجهاد ومقاتلة الغزوة الأوروبية ، بل لقد شارك الأمير شكيب بنفسه في مقاتلة الإيطاليين إلى جانب المجاهدين بليبيا ، كما سارع إلى الإصلاح بين ملك السعودية وإمام اليمن حتى يمنع التدخل الأجنبي ، وكان عضواً في الوفد السوري الفلسطيني المطالب بالحرية ورد الحقوق أمام الدول الغربية ، وكان يقول :

« إن العالم الإسلامي يجب عليه أن يتحد إتحاداً دفاعياً تاماً ، مستمسك الأطراف وثيق العرى ، يستطيع بذلك الذیاد عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء المقبل » (٢)

١ - د . محمد شفيق شيا ، شكيب أرسلان . مقدمات الفكر السياسي . ص ١٤٣ .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ، ص ٣٠٧ .

ونحن لا نهدف من دراستنا تتبع الجانب العملي في سياسة الأمير شكيب أرسلان مع عظيم تقديرنا لجهاده وجهوده ، ولكننا أردنا أن نبعث في فكره النظري السياسي الإصلاحى الساعى إلى إعادة بناء الكيان السياسى للدولة الإسلامية فى العصر الحديث على أصول شرعية صحيحة وبيان اجتهدات الأمير شكيب فى مواجهة (واقع الأمة) المتمثل فى الفراغ السياسى الذى أحدثه إلغاء الخلافة العثمانية ، ومواجهة الهجمة الغربية السياسية والحضارية والفكرية والتي تهدد الأمة الإسلامية بالفناء ، أو فقدان الهوية .

ولقد تناول البحث (الفكر السياسى عند الأمير شكيب أرسلان) من جانبين :

الجانب الأول : « تصور الأمير شكيب أرسلان للدولة الإسلامية »

ويبحث فى مسألتين : المسألة الأولى :

استقلال النظام الإسلامى (الفرق بين الخلافة والملك)

ويهدف إلى إظهار رؤية شكيب أرسلان لتفرد النظام الإسلامى ، وتفوقه على كل الأنظمة السياسية التى قامت عليها الدول عبر العصور .

والمسألة الثانية :

تبين الأصول والمبادئ العامة التى تميز الدولة الإسلامية فى رأى شكيب وقدرتها على تحقيق مصالح الناس ، ويلوغ الغاية المقصودة من الشريعة الإسلامية وهى إقامة (العدل) فى الأرض ، وقد تجلّى هذا الهدف من خلال إبرازه لمبادئ الإسلام العامة التى تقوم عليها نظم الدولة الإسلامية وهى :

١ - الشورى .

٢ - المساواة .

٣ - التسامح أو معاملة أهل الذمة ونشر الإسلام .

أما الجانب الثانى : « الرؤية السياسية لمستقبل الأمة الإسلامية عند الأمير

شكيب أرسلان»

فببحث تدرج فكر شكيب أرسلان السياسي في تعامله مع الواقع السياسي للأمة الإسلامية ، ومحاولاته الجمع بين (المثل الأعلى) المتمثل في إقامة الخلافة وبين واقع المسلمين وصراعاتهم من أجل الحفاظ على كياناتهم السياسي في مواجهة حملات التغريب والتفتيت والشعبوية.

ولقد تدرج فكر شكيب أرسلان وموقفه السياسي على مرحلتين :

المرحلة الأولى : والتي امتدت إلى نهاية الحرب الأولى أو بعدها بقليل ، وتميز مضمون فكره خلالها بالتمسك بالجامعة الإسلامية وكانت تمثلها في هذه المرحلة (الخلافة العثمانية) حقيقة قائمة .

والمرحلة الثانية : وهي مرحلة ما بعد الحرب الأولى ، منذ مطلع العشرينات وإلى أيامه الأخيرة ، وتميز فكره خلالها في محاولات ملء الفراغ السياسي الذي أحدثه إلغاء الخلافة العثمانية ، وما ترتب عليه من فتح الباب على مصراعيه للإنتاجات الفكرية والمذهبية والعرقية من كل شكل وعلى كل لون .

ولقد عرضنا مراحل هذا التدرج من خلال دعوته إلى (الجامعة الإسلامية) وفكرة (الرابطة الشرقية) ثم إلى (الجامعة العربية) ، كما بينا منهجه لبعث الأمة الإسلامية بعثاً جديداً من خلال عرض آرائه في (التربية) ، وبعث (المدنية الإسلامية) في مواجهة (الحضارة الغربية) .

تصور الأمير شبيب أرسلان للدولة الإسلامية :

- استقلال النظام الإسلامي (الفرق بين الخلافة والملك) .
- الأصول والمبادئ العامة التي تقوم عليها نظم الدولة الإسلامية :
- ١ - الشورى .
- ٢ - المساواة .
- ٣ - معاملة أهل الذمة ونشر الإسلام .

استقلال النظام الإسلامي (الفرق بين الخلافة والملك)

أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الخلافة من بعده ثلاثون سنة فقال : " الخلافة ثلاثون عاماً ثم يكون بعد ذلك الملك [١] فهذا نص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفرق فيه بين مصطلح الخلافة التي هي : " نيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا ، فصاحب الشرع متصرف في الأمور : أما في الدين فبمقتضى التكليف الشرعية التي مأمور بتبليغها وحمل الناس عليها ، وأما سياسة الدنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم في العمران البشري " [٢] وبين الملك بما يحاط به من مزايا الترف وخصائص الأبهة .

ولقد اجتهد الأمير في إظهار الفروق بين معنى كل من الإصطلاحين فقال : إن الإسلام في أصله يفترق عن غيره من الملل بأن الخلافة فيه وإن أشبهت الملك من جهة الأمر والنهي - شرط مشاورة أهل الحل والعقد - فهي لا تشبه الملك في مزايا الترف وخصائص الأبهة التي يجيزها ملوك الأمم الأخرى [٣] .

وعلى هذا فليس كل من انتحل لقب الخلافة خليفة فقد أطلق لقب " خليفة " على ملوك عدول وآخرين مستبدين وعلى سلاطين منهم الصالح ومنهم الطالح ومنهم القوى ومنهم الضعيف وليسوا بخلفاء . ولذلك ذهب جماعة من أئمة السلف منهم أحمد بن حنبل رحمه الله إلى كراهة إطلاق اسم الخليفة على من بعد الحسن بن علي رضي الله عنهما ، واحتجوا بما رواه أبو داود والترمذي عن حديث سفينة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك " [٤] .

ويروى الطبري خبراً عن عبد الله بن مسعدة يبين أن معاوية بن أبي سفيان قد أدرك الفرق بين الخلافة والملك ، قال :

[١] رواه الامام أحمد في مسنده ، وصححه ابن حبان

[٢] ابن خلدون ج ١ ص ٣٨٦

[٣] تعليقات الأمير على ابن خلدون ملحق الجزء الأول ص ٢٤

[٤] الكفخشندی ، مآثر الأئمة في معالم الخلافة ج ١ ص ١٢

" انتقل معاوية من بعض كور الشام إلى بعض عمله فنزل منزلاً بالشام فبسط له على ظهر اجار (سطح) مشرف على الطريق ، فأذن لى فقعدت معه فمرت القطرات والرحائل والجوارى والخيول فقال : "يا بن مسعدة رحم الله أبا بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده الدنيا وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها ، وأما عثمان فأصاب من الدنيا وأصاب منه وأما نحن فتمرغنا فيها . ثم كانه ندم فقال : والله إنه لملك ساقه الله إلينا" [١].

فبالخلافة إذن نمط فريد من أنماط أنظمة الحكم تختلف عن الملك أو السلطنة ، أو كما يصفها الأمير شكيب : " الخلافة فى الإسلام ليست بملك ولا سلطنة ، وإنما هى رعاية عامة للأمة لإقامتها على الشرع الحنيف ، وردع القوى عن الضعيف فى الداخل ، وصيانة الإسلام ودفع المعتدى عليه من الخارج . وهى لاتعتقد إلا بإرادة الأمة . والسلطان الذى يؤتاه صاحب الخلافة هو من الأمة لاسلطان له عليها إلا منها" [٢].

والأمير يدعو من أراد أن يتعرف على النظام الحقيقى للخلافة فى الشرع الإسلامى أن يتأمل ماكان عليه الخلفاء الراشدون الأربعة ، فهو أشد صور الحكم الإسلامى إنطباقاً على الشرع [٣] ، وسيرة الخلفاء الراشدين هى المرأة الحقيقية لروح الإسلام [٤] .

والأمير بذلك ينطق بما جاء فى الحديث الشريف ، وعندما يقول " إن الخلافة لم تستم شروطها الصحيحة إلا فى الخلفاء الراشدين وبعد ذلك فالخلافة لم تكن إلا ملكاً عضوضاً قد يوجد فيه المستبد العادل والمستبد الفاشم ، وما انقادت الأمة إلى هذا الملك العضوض المخالف لشروط الخلافة ، سواء كان من العرب أو من الترك ، إلا خشية الفتنة فى الداخل والإعتداء على الحوزة من الخارج " [٥] .

وإذا أراد الإنسان أن يعرف ثمار شجرة الإسلام فعليه أن يدرس سيرة الخلفاء الراشدين التى تستخلص منها الأحكام الشرعية التى تميز نظام الخلافة والمبادئ التى يقوم عليها فتميزه كنظام مستقل سابق لأنظمة العصر .

[١] الطبرى ، ج ٥ / ٣٣٤

[٢] حاضر العالم ، ج ١ ص ٢٤٠

[٣] نفسه ج ١ ص ٢٤٠

[٤] نفسه ج ١ ص ٢٤١

[٥] المرجع السابق ج ١ ص ٢٩٠

ومن تلك المبادئ التي يقوم عليها نظام الخلافة في الإسلام مبدأ كون السلطة القومية من الأمة وهو مبدأ سبق به الإسلام أنظمة العصر، وليس كما يزعم الكثير من الأوربيين ومن تابعهم من المسلمين الجاهلين بتاريخ الشرائع : إن هذا المذهب من الأوضاع الغربية الأوروبية ، فقد عدة الإسلام في هذا الموضوع واضحة ، وحكم الخلفاء الراشدين " كان أمراً شعبياً محضاً وديمقراطياً بحتاً وأبعد شيء عن السلطان المطلق ، وللقرآن صريح في قوله تعالى : " وشاورهم في الأمر " وقوله " وأمرهم شورى بينهم " [١] .

والمبدأ الثاني أن الخليفة أو أمير المؤمنين لم يكن شخصاً مقدساً غير مسئول كما هو عند الأوربيين - في البابا - ولم تكن له مزية شخصية على سائر الأمة ، وكان إذا أخطأ يقيد من نفسه [٢] . ولم يخطر ببال أحد من الخلفاء الراشدين أن يورث أولاده الخلافة - كما يفعل الملوك - بل كانوا يلقونها عن ظهورهم إلقاء من يريد الخلاص من تبعها [٣] .

أما المبدأ الثالث - وهو بدوي - إن نظام الحكم كان يقوم على ما أنزل الله سبحانه حسب منهاج النبوة ، لا يفرق بين الخليفة وأهل الحل والعقد وسائر أفراد الرعية في وجوب الإمتثال لشرع الله ، وهو محلر الإستقامة التي تحدث عنها أبو بكر الصديق رضي الله عنه لما بويح للخلافة فقال : إنما أنا بشر ولست بخير منكم فراعوني فإني رأيتوني استقامت فاقبوني وإن رأيتوني زغت فقوموني " [٤] .

هذه هي المبادئ الأساسية التي يقوم عليها نظام الخلافة ، ولكن ما الفرق بين الخليفة والملك ؟ ولربما التبس الأمر على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب خشية الوقوع في الملك والإتحراف عن الخلافة كما نقل الأمير عن الطبقات الكبرى لابن سعد : أن عمر سأل سلمان قال له : أملك أنا أم خليفة ؟ فقال له سلمان : إن أنت جيتت من أرض المسلمين درهماً أو أقل لو أكثر ثم وضعت في غير حقه فأنت ملك غير خليفة ، فاستعبر عمر ثم قال أخبرنا محمد بن عمر قال عن سفيان بن أبي العوجاء قال : قال عمر بن الخطاب : والله ما أدري خليفة أنا أم ملك ؟ فإن كنت ملكاً فهذا أمر عظيم ، قال قتال : يا أمير المؤمنين إن بينهما فرقاً ، قال ما هو : قال الخليفة لا يأخذ إلا حقاً ولا يضعه إلا في حق فأنت بحمد الله كذلك ، والملك يصف الناس فيأخذ من هذا ويعطي هذا . فسكت عمر " [٥] .

فمن طبائع الملك التى تفرق بينه وبين الخليفة حرصه على الدنيا وترك العدل ، والاستبداد ، على أن عمر رضى الله عنه ، كان يعلم بعض طبائع الملك غير الذى ذكر أصحابه . وذلك أنه لما قدم الشام ولقى معاوية بن أبى سفيان واليه عليها ، فى أبهة الملك وزيه استنكر هذا الترف وقال : " اكسروية يا معاوية ! " فقال : " ياأمير المؤمنين إنا فى ثغر تجاه العدو وبنا إلى مباهاته بزينة الحرب والجهاد حاجة " فسكت عمر [١] . وكان عمر بن الخطاب إذا استعمل عاملاً كتب عليه كتاباً واشهد عليه رهطاً من الأنصار أن لايركب برذونا ولايأكل نقياً ولا يلبس رقيقاً ولايخلق بابه دون حاجات المسلمين ، ثم يقول اللهم اشهد . [٢]

وعمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يكن ليشق على عماله بالتضييق عليهم ، ولكنه أراد أن يضبطهم فلا يغترون طبقة متميزة فى الأمة يتمتعون بمراكب خاصة وملابس خاصة يحتجبون فى دواوين الدولة عن الناس ، وهذا هو فهم عمر للنظام الخلافى الذى كان يأخذ به نفسه ، فليست الخلافة مجرد نظام سياسى إدارى أو منهج حكم بل إتجاه سلوكى وخلقى بل اجتماعى أيضاً . وعليه فإن من . صائص الخلافة الراشدة إلزام المجتمع الإسلامى بمجموعة الأخلاق الإجتماعية التى حدتها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وسلوك الخلفاء الراشدين والصحابة الأولين [٣] . والامير شكيب يرى فى سيرة عمر مثلاً بارزاً يأخذ منه القارى صورة حقيقية عن كيفية الإسلام فى زمان الخلفاء الراشدين وعن روح الإمارة التى أمرهم بها الشارع صلى الله عليه وسلم ، وفى سيرته رضى الله عنه نبرنة للشرعية الإسلامية مما أصاب المسلمين بعد عهد الراشدين من فرقة وضعف ، لأن حقيقة الإسلام كما تظهر من سيرة الراشدين كانت معيار الفلاح والفشل للمسلمين ، " فكثرت كلما تمشوا عليها أفلحوا وسادوا وكلما انحرفوا عنها وهنوا وفشلوا (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)" [٤] . وفى تعليقات الأمير على (حاضر العالم الإسلامى) يعلق على قول (لوثروب ستودارد) الأمريكى : "إن العرب ما إنفكوا ينظرون الى الخلفاء الترك شزراً ويعدونهم

[١] مقدمة ابن خلدون ط ٣ ص ٢٦٠

[٢] ابن الجوزى ، سيرة عمر ص ٨٥

[٣] الخلافة بين التنظير والتطبيق ، محمود المرادوى ص ٢٨

[٤] تعليقات الأمير على حاضر العالم الإسلامى ، ج ١ ص ٢٥٨

المغتصبين للخلافة إغصاباً" [١] .

يقول شكيب : "إن الخلافة لم تستم شروطها الصحيحة إلا فى الخلفاء الراشدين ، وبعد ذلك فالخلافة لم تكن إلا ملكاً عضواً قد يولد فيه المستبد العادل والمستبد الغاشم" [٢] .
وبناءً على هذا فقد فرق الأمير شكيب بين أنظمة الحكم الثلاثة الملكى الإستبدادى أو الطبيعى كما يسميه ابن خلدون ، والملكى السياسى والخلافة التى وازع كل أحد فيها من نفسه وهو اثنين ، وهذا الفهم نجده عند ابن خلدون ويبرز فى قوله : "لقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة ، وأن الملك الطبيعى هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة ، والسياسى هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية ودفع المآثر ، والخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع الى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به" [٣] . وهذا النظام لم يتحقق إلا فى عهد الخلفاء الأربعة الذين خلفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويؤيد ما ذهب إليه الأمير ما سبق وشرنا إليه عن الثلاثين سنة التى أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أنها سنى الخلافة فى قوله "الخلافة ثلاثون سنة ثم يكون بعد ذلك الملك" [٤] وقول العلماء : لم يكن فى الثلاثين سنة بعده صلى الله عليه وسلم إلا الخلفاء الأربعة وأيام الحسن [٥] .

ويقال الأمير شكيب بين نظام الخلافة وبين النظام الدستورى الذى تحتكم فيه العامة الى قوانين سياسية فينقاد الجميع الى أحكامهما فيقول : "إن الخليفة ليس معصوماً عند اهل السنة ، وأنه لا يمتاز عن غيره من الرعية ، وأنه مقيد بالشورى ، وأنه ليس له ان يستبد بالأمر" ثم يقول الأمير : "ولعل قبلاً يقول : إن ملوك العصر الحاضر أيضاً مقيدون بالداستاتير التى وضعتها الأمم التى يلون امرها وليس لهم أن يستبدوا فى شئ ! وهذا لأجل

[١] سفودارد ، حاضر العالم الإسلامى ، ج ١ ص ٢٩٠

[٢] شكيب أرسلان ، تعليقاته على حاضر العالم الإسلامى ، هامش ص ٢٩٠ ج ١

[٣] مقدمة ابن خلدون ج ١ ص ٣٣٧

[٤] رواه أحمد واخرجه بن حبان

[٥] جلال الدين السيوطى تاريخ الخلفاء ، ط ١ ص ٩٠

فيه وأن الأمم الحديثة قيدت الملوك ولكن يبقى بينهم وبين الخلفاء الراشدين الفرق العظيم بأن ملوك الأعصر الأخيرة هم غير مسؤولين في أحوالهم الشخصية ، وأن الخلفاء في الإسلام هم مسؤولون كسائر الرعية .

ويبقى فرق آخر بأن الخلفاء كانوا من السذاجة والنقص في معيشتهم ما لم يكن احد قبلهم ولا بعدهم ، ولم يكونوا يأخذون من بيت المال إلا ما يسد عوزهم الضروري والحال أن الملوك ورؤساء الجمهوريات في الأعصر الأخيرة يتمتعون بالجرايات الوفرة ويعيشون فيترف عظيم لاينازع فيه أحد" [١] .

ويقتر الأمير بأن الخلفاء الراشدين لم يقع إنتخابهم الى أجل مسمى نظير رؤساء الجمهوريات ، ولكنه يؤكد أنه لا جدال في أن الخليفة أو أمير المؤمنين لم يكن شخصاً مقدساً غير مسئول كما هو عند الأوربيين ولم تكن له مزية شخصية على سائر الأمة [٢] .

ويرى الأمير أن من أكبر الفروق التي تميز الخلافة عن الملك أن الخلفاء الراشدين لم يخطر ببال أحدهم أن يورث أولاده الخلافة بل كانوا يلقونها عن ظهورهم إلقاء من يريد الخلاص من تبعاتها .

وملوك هذا العصر ينتقل الملك منهم إلى أولادهم فأحفادهم ، بينما كان الخلفاء الراشدون يعدون الى ذوى الكفاية من الأمة دون أولادهم . "فروح الاسلام الحقيقي هي مراعاة الكفاية والأهلية دون أى اعتبار آخر" [٣] .

وبعد .. فإن دارس الشرع الإسلامى يحق له أن يتساءل كيف انقلبت الخلافة ملكاً في الإسلام ؟ وكيف رضيت الأمة أن تنقاد لنظام سياسى مخالف لما كان عليه سلفها الصالح بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ؟

ويجب الأمير شكيب فيقول : " ما اتقادت الأمة إلى هذا الملك العضوض المخالف لشروط الخلافة ، سواء كان من العرب أو من الترك ، إلاخشية الفتنة فى الداخل والإعتداء على الحوزة من الخارج " [٤] .

[١] تعليقات الأمير على مقدمة ابن خلدون ج١ ص ٢٦

[٢] تعليقات الأمير على حاضر العالم الإسلامى ج١ ص ٢٤١

[٣] تعليقات الأمير على ابن خلدون ج١ ص ٢٦

[٤] تعليقات الأمير على حاضر العالم الإسلامى ج١ ص ٢٩٠

والحق أن خوف الفتنة ، وتغير أحوال المسلمين عن أحوال أسلافهم إبان عهد النبوة ، سببان أساسيان في إنقلاب الخلافة إلى الملك ثم إستقرار الملك ورضا المسلمين به .
يقول ابن خلدون في بيان ذلك ما نصه " فقد تبين لك كيف انقلبت الخلافة إلى ملك وأن الأمر كان في أوله خلافة ووازع كل أحد فيها من نفسه وهو الذين وكانوا يؤثرونه على كل أمور دنياهم وإن أفضت إلى هلاكهم وحدهم دون الكافة ، فهذا عثمان لما حصر في الدار جاءه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر وابن جعفر وأمثالهم يريدون المدافعة عنه فأبى ومنع من سل السيوف بين المسلمين مخافة للفرقة وحفظاً للألفة التى بها حفظ الكلمة ولو أدى إلى هلاكه". وهذا يبين أن الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه أثر أن يصل إليه الثائرون فيقتلوه على أن يقوم رهط من أنصاره بقتالهم فتقع الفتنة بين عامة المسلمين دون أن يجتهد في دفعها عنهم وهو راعِيهم ومسئول أمام الله عما استرجاه [١] .

ويروى ابن خلدون رواية أخرى عن على رضى الله عنه تبين تمسكه بمنهج الخلافة وتركه لأساليب الملك. وإن كان بها مصلحته يقول ابن خلدون : وهذا على أشار عليه المغيرة لأول ولايته باستبقاء الزبير ومعاوية وطلحة على أعمالهم حتى يجتمع الناس على بيعته ، وتتفق الكلمة ، وله بعد ذلك ما شاء من أمره ، وكان ذلك من سياسة الملك فأبى فراراً من الغش الذى ينافيه الاسلام . وغدا عليه المغيرة من الغداة فقال : لقد أشرت عليك بالأمس بما أشرت ثم عدت إلى نظرى فعملت أنه ليس من الحق والنصيحة ، وإن الحق فيما رأيته أنت ، فقال على : لا والله ، بل أعلم أنك نصحتنى بالأمس ، وغششتنى اليوم . ولكن منعنى مما أشرت به ذائد الحق . وهكذا كانت حالهم فى إصلاح دينهم بفساد دنياهم " [٢] . فعلى كرم الله وجهه أبى نصيحة المغيرة لأن العمل بها ، وإن كان فى مصلحته ، من سمات الملك وليس من سمات الخلافة التى اجتهد أن يتمسك بها وينهج نهج أسلافه فى التمسك بنظام خلافة النبوة .

ولكن هل كان العصر ملائماً لاستمرار الخلافة على نهج النبوة ؟ . لقد كان على رضى الله عنه يدرك إختلاف المحيط وأنه جاء فى عصر أهل دنيا وملك ، فسأله سائل ؟ ما بال الناس اختلفوا عليك وقد أجمعوا على أبى بكر وعمر ؟ فقال : لقد كان أبو بكر

وعمر خلفاء على أمثالي وكنت خليفة على مثلك " [١] .

وعلى قاعدة كما تكونوا بول عليكم " صار الأمر إلى الملك وبقيت معاني الخلافة من تحري الدين ومذاهبه والجري على منهاج الحق ، ولم يظهر التغير إلا في الوازع الذي كان ديناً ثم انقلب عصبية وسيفاً . وهكذا كان الأمر لعهد معاوية ومروان وإبنه عبد الملك ، والصدد الأول من خلفاء بني العباس إلى الرشيد وبعض ولده . ثم ذهب معاني الخلافة ولم يبق إلا اسمها ، وصار الأمر ملكاً بحتاً " [٢] .

ولقد ذهب العقاد إلى القول بأن " الصراع بين علي ومعاوية رضي الله عنهما لم يكن صراعاً بين رجلين وإنما كان صراعاً بين اتجاهين أو نظامين ، النظام الخلقي والنظام الملكي . فالأول : ذهب أهله وانقضى زمانه ، والثاني : استحل الناس واستحسنوه فهو أيسر لأهوائهم وأنعم لدينهم " [٣] .

قال ابن خلدون : " ولما وقعت الفتنة بين علي ومعاوية وهي مقتضى العصبية كان طريقهم منها الحق والاجتهاد ولم يكونوا في محاربتهم ببغرض دنيوي أو لإيثار باطل أو لاستشعار حق كما يتوهمه متوهم وينزع إليه ملحد وإنما اختلف جهادهم في الحق وسفه كل واحد نظراً صاحبه باجتهاده في الحق فاقتتلوا عليه " [٤] .

وبعد حسم الصراع وانتقال أمر العرب والمسلمين لبني أمية ، اقتضى الأمر وفق موازين القوة الاجتماعية وخوف الفرقة أو ما يسميه ابن خلدون (العصبية) أن تتحول الخلافة إلى ملكاً وراثياً . قال ابن خلدون : " ثم اقتضت طبيعة الملك الأفراد بالمجد ، واستثنى الواحد به ولم يكن لمعاوية أن يدفع ذلك عن نفسه وقومه فهو أمر طبيعي ساقته العصبية بطبيعتها واستشعرته بنو أمية ، ومن لم يكن على طريقة معاوية في إقتفاء الحق من أتباعهم فاعصوبوا عليه واستماتوا دونه ولو حملهم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم في الأفراد بالأمر لوقع في إفتراق الكلمة التي كان جمعها وتأليفها أهم عليه من أمر ليس وراثه كبير مخالفة " [٥] .

[١] الخلافة بين التنظيم والتطبيق ، محمود المرادوي ، ص ٣١ - ٣٢

[٢] مقدمة تاريخ ابن خلدون ج ١ ، ص ٣٦٩

[٣] عباس العقاد ، عبقرية الإمام علي ، ص ٤٣ عن الخلافة بين التنظيم والتطبيق ص ٣٢

[٤] [٥] مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٦٤ ج ١

ويزعم ابن خلدون أن الذي دعا معاوية إلى إثارة ابنه يزيد بالعهد دون سواه ، إنما هو مراعاة المصلحة العامة في اجتماع الناس وإتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني أمية ... فعدل معاوية عن الفاضل إلى المفضول حرصاً على الإتفاق واجتماع الأهواء والذي شأنه أهم عند الشارع .

وحرصاً على جمع كلمة المسلمين والخوف من إفتراق الكلمة امتنعت عبدة الخلافة الصحيحة فيما بعد ، فقد كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول إذا رأى القاسم بن محمد بن أبي بكر : " لو كان لي من الأمر شيء لوليتك الخلافة " . ولو أراد أن يعهد إليه لفعل ، ولكنه كان يخشى من بني أمية ، أهل الحل والعقد ، فلا يقدر أن يحول الأمر عنهم ، لنلا نقع الفتنة [١] .

[١] شكيب أرسلان . حاضر العالم الإسلامي ، ص ٣٢٥

الأصول والمبادئ العامة التي تقوم عليها

نظم الدولة الإسلامية

١ - الشورى .

٢ - المساواة .

٣ - معاملة أهل الذمة ونشر الإسلام .

ومن تأمل النصوص التي يستدل بها الأمير على وجوب الشورى فى الإسلام نجد أن مهام الشورى تقتصر على جانب واحد من جوانب الفقه والشريعة هو الاجتهاد والرأى ولا مجال لها مطلقاً فيما ورد فيه نص ، وقد يما رسخ الأصوليون هذه القاعدة فقالوا : " لا اجتهاد فى مورد النص " [١] . وليس أدل على هذا مما ذكره الأمير من الحديث " لما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل والياعلى اليمن قال لمعاذ : كيف تصنع أن عرض لك قضاء ؟ قال أقضى بما فى كتاب الله : قال : فإن لم يكن فى كتاب الله ؟ قال فبسنة رسول الله . قال : فإن لم يكن بسنة رسول الله ؟ قال اجتهد رأى ولاألو . ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله هذا وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله " [٢] ، فالشريعة قد جعلت باب الاجتهاد مفتوحاً لكل من كان حقيقاً به ، وجعلت المصلحة والضرورة وسد الزريعة من الأصول الكلية التى يرجع إليها [٣] ، وأوجبت على الإمام المشاورة فى كل ما لا نص فيه عن الله ورسوله ، ولا إجماعاً صحيحاً يحتج به ، أوما فيه نص اجتهدى غير قطعى ، ولا سيما أمور السياسة والحرب المبنية على أساس المصلحة العامة ، وكذا طرق تنفيذ النصوص فى هذه الأمور إذ هى تختلف باختلاف المكان والزمان فهو ليس حاكماً مطلقاً كما يتوهم الكثيرون بل مقيد بأدلة الكتاب والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين العامه وبالمشاورة [٤] . والأمير يستشهد بقول الله تعالى : " وشاورهم فى الأمر " وقوله فى وصف المؤمنين : " وأمرهم شورى بينهم " ، ولو لم يرد فى أمر الشورى الاهايتين الأيتين لكفى بهما دليلاً على وجوب الشورى فى الإسلام ، فالأيه الأولى أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهى جزء من قوله تعالى : " فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر " [٥] . وقد ذهب بعض السلف الى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان غنيا عن المشاورة فلولا إرادة جعلها قاعدة شرعية لما أمر الله بها " روى عن الحسن البصرى فى تفسيره قوله تعالى (وشاورهم فى الأمر) أنه قال :

[١] الخلافة بين التنظيم والتطبيق محمود المواردى ، ص ٢٢٢

[٢] ، [٣] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامى ، ج ٢ ص ٣٥٠

[٤] رشيد رضا ، الخلافة ، ص ٣٨

[٥] ابن عمران ، آية ١٥٩ " فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم

واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين "

" قد علم الله أنه ما به إليهم من حاجة ولكن أراد أن يستن به من بعده " [١] .
 فالمشاورة في حقه صلى الله عليه وسلم مندوبة لطبيب القلوب ، ومنهم من ذهب إلى
 وجوبها لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن مستغنياً عن غيره من الناس إلا فيما ينزل
 عليه فيه الوحي وقال " أنتم أعلم بأمر دينناكم " [٢] (رواه مسلم) . " ولذلك كانوا إذا
 راجعوه في أمر أمر به ورأوا المصلحة في غيره سألوه أقاله أو فعله بوحى من الله أم من
 رأيه ؟ فإذا كان من رأيه ذكروا رأيهم وقد يعمل به ويرجحه على رأيه كما فعل في يوم بدر
 فقد جاء صلى الله عليه وسلم أدنى ماء فنزل عنده فقال الحباب بن المنذر : يا رسول الله
 أرايت هذا المنزل أم نزل أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه ؟ أم هو الرأي
 والحرب والمكيدة ؟ ، قال " بل هو الرأي والحرب والمكيدة " فقال يا رسول الله ليس هذا
 بمنزل فاتهبض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فنناله ثم نخور ما وراءه .. إلخ ، فقال
 صلى الله عليه وسلم " لقد أشرت بالرأي " وعمل برأيه [٣] . وسواء أكان الأمر في حقه
 صلى الله عليه وسلم على سبيل الندب أو الوجوب ، إلا أنه في حق المؤمنين واجباً بالإجماع
 لأن الله سبحانه وتعالى وصف به المؤمنين فقال : " وأمرهم شورى بينهم " فذكر سبحانه من
 صفات المؤمنين التشاور فلا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه ليتساعدوا بأرائهم في مثل
 الحروب وما جرى مجراها [٤] . والآثار الواردة عن الراشدين في المشاورة كثيرة منها ما
 ذكره الأمير شكيب عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ورواه الدرامي والبيهقي عن
 ميمون بن مهران أن أبا بكر كان يسأل عامة المسلمين عما لا يجد فيه نصاً من الكتاب ولا
 سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، هن يعلمون عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه شيئاً فربما
 قام إليه الرهط فقالوا نعم قضى فيه بكذا فيأخذ به ويحمد الله تعالى (قال) وإن أعياد ذلك دعا
 رعوس المسلمين وعلماءهم فاستشارهم فإذا اجتمع رأيهم على أمر قضى به ، وإن عمر بن
 الخطاب كان يفعل ذلك ، وزاد أنه كان بعد النظر في الكتاب والسنة ينظر فيما قضى به أبو
 بكر أيضاً لأنه كان لا يقضى إلا بنص أو مشاورة [٥] .

[١] رشيد رضا ، الخلافة ، ص ٣٨

[٢] المرجع السابق ، ص ٣٨

[٣] المرجع السابق ، ص ٣٨

[٤] ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ص ١١٨ مج ٤

[٥] رشيد رضا ، الخلافة ، ص ٤٠

ومنه ما رواه علي كرم الله وجهه قال : قلت يا رسول الله إن نزل بنا أمر ليس فيه بيان أمر ولا نهى فما تأمرنا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم " شاوروا فيه الفقهاء والعابدين ولا تمضوا فيه رأي خاصة " [١] .

ومن تأمل هذه الآثار لنحظ الفرق بين سؤال عامة المسلمين عن الرواية وإختصاص الرؤساء والعلماء بالمشارة ، ذلك بأنهم هم جماعة أولي الأمر وأهل الحل والعقد الذين أمر الكتاب بطاعتهم بعد طاعة الله ورسوله وقال في إحالة الأمر إليهم (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) والحق أن الدولة الإسلامية قامت مع نظام صحيح أو قام النظام معها ، والأصل في الشورى أنها دعامة من دعائم الدولة وواجب من واجبات الحكومة الإسلامية كما يتجلى ذلك في نظام الحكم على عهد الراشدين ولا عبرة بالمحرفين عن هذا الأصل ؛ وهذا ما يؤكدده الأمير شكيب بقوله : " إن جميع الحكومات الإسلامية هي شورى ديمقراطية فطرة وخلقة والإستبداد فيها عارض ومن جعلتها الدولة العثمانية أو التركية الحاضرة " [٢] .

٢- المساواة

إن الدين لا يكون إلهياً سماوياً مرشحاً لأن تأخذ به الأمم المختلفة ، أحمرها وأسودها وادناها وأبعدها ، إلا إذا كان مؤسساً على هذه القاعدة المقدسة ، قاعدة المساواة [٣] .

وشريعة الإسلام حرصت على قيام الدولة الإسلامية بتحقيق العدالة بأوسع معانيها وفي شتى مجالاتها السياسية والإدارية والقضائية والاجتماعية والدولية ويتضمن ذلك حماية الحقوق والحريات العامة والمساواة في صورها المتعددة ، كما تقوم ممارسة الحكم على الشورى . ويرتبط تحقيق المساواة في الإسلام بمفهوم (الأمة) ، فالأمة في الإسلام تقوم على أساس عقيدى فكري لا على أساس عرقى ، كما يقوم مفهوم (الدولة) على نفس الأساس ، لا على أساس أرضى جغرافى أو تاريخى " كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف

وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله - آل عمران ١١٠ "

[١] رواه الطبراني في معجمه الوسيط وصححه السيوطي في مفتاح الجنة (محمد عوامة ، أثر الحديث الشريف في اختلاف الأمة ، ص ١٠٢)

[٢] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٤ ص ٧٠

[٣] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٤ ص ١٥٨

"وكنذك جعثناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا -
النقرة ١٤٣ . وقد ورد ما يشير ببقامة كيان سياسى نظامى لأمة الإسلام فى القرآن والسنة ،
عبر عن المسئول عنه ب (الإمام) و(ولى الأمر) [١] .

ومن هنا قامت أمة الإسلام ودولته على أساس انساني عالمى ، يقول الأمير شكيب :
وترى صورة الإسلام كلها فى هذه الآية "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم
شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم" يقول تعالى : إنه خلق البشر كلهم من أب
وأم وواجههم شعوباً وقبائل لتمييز بعضهم على بعض ، كلا ، بل ليعرف كل من أى قبيل
هو ، أما المزية فهى للتقوى فقط . وبهذه الآية انتشر الإسلام ، وفتح العرب تحت ظل رايته
الديموقراطية الحقيقية نصف المعمور ، ودخلت الأمم فى الإسلام ، ولا تزال تدخل فيه إلى
يومنا هذا" [٢] .

ويبين الأمير رفض الإسلام لأتمته ودولته أن ينغلقا على عصبية ضيقة فيستشهد
بالحاديث النبوية التي جاءت مؤيدة للآية الكريمة (فمنها "ليس منا من دعا إلى عصبية")
ومنها: "ليس لعربى فضل على عجمى ولا لعجمى فضل على عربى إلا بالتقوى: ومنها قوله
صلى الله عليه وسلم: لفاطمة ابنته : "اعلمى يا فاطمة فلن أغنى عنك شيئا يوم القيامة". أو
كما قال . وهذا فى معنى قوله تعالى : "لا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون" [٣] ثم يقول
الأمير : " وهناك حديث شريف أطلعنا على أسانيده حضرة الامام الكبير بقية السلف الصالح
الشيخ بدر الدين الحسينى المغربى نزيل دمشق وهو قوله صلى الله عليه وسلم: " ألا إن
بعض أهل بيتى يرون أنفسهم أولى الناس بى وليس الأمر كذلك إنما أوليائى المتقون من
كانوا وحيث كانوا . ألابنى لا أهل لأهل بيتى أن يفسدوا ما أصلحت" أو كما قال [٤] .

والأمير يرى أن الإسلام يفتح الباب أمام أى مسلم ليستعرب ، فمن تعلم لغة القرآن
فهو عربى ، فإنما العربية لسان ، وليست عرقا ودما ومن تعلم القرآن فقد درب على اللسان
العربى المبين ، بل يستطيع كل مسلم أن يصل بتقواه إلى الانتساب إلى أكرم البيوت
العربية ، والدليل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم "سلمان منا آل البيت" وذلك أنه عد
سلمان الفارسى نظرا لتقواه من آل البيت النبوى أكرم البيوت [٥] .

[١] د. محمد فتحى عثمان ، من اصول الفكر السياسى الاسلامى ص ٦٢

[٢] ، [٣] ، [٤] ، [٥] شكيب أرسلان - حاضر لعالم ج ٤ ص ١٥٧

والأمير لاينفى المزية التاريخية للعرب فى عصر الرسالة النبوية ، "فالشريعة الإسلامية تعرف للعرب أمة الرسول صلى الله عليه وسلم خصوصيات وفضائل ولكن هذا لا يخرجها قيد شعرة عن قاعدة التسوية العامة بين جميع الأمم" [١] .

فالعرب هم الذين نزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم ، وهم الذين حفظوا رسالة الإسلام فيما بينهم وحملوها الى العالمين وجاهدوا فى سبيلها ، وتمثلوا بسبب نبي سنوكهم وأخلاقهم ، وحفظوا كتابها وسنة رسولها ، وأنفقوا مما رزقهم الله من عث وقوة بدن وجهد وعزيمة ومال فى نصرة هذا الدين ، وقد كان الإسلام للعرب شرف تدين وعز الأبد "لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم ، أفلا تعقلون - الأنبياء / ١٠" والمفروض أن يكون العرب فى كل عصر أقدر على فهم القرآن والسنة إذ يتكلمون لغتهما ومن ثم يكونون أقدر على ابلاغ الرسالة ولءاء الأمانة ، وهى مسئولية عظمى وشرف كبير للعرب إذا قدروا ذلك حق قدره "وانه لذكر لك ، ولقومك وسوف تسألون - الزخرف ٤٤".

وعلى هذا فالأمير شكيب لا يرى فى الآيات والأحاديث والأثار التى أوردتها "ما يتصادم مع شيء من الأحاديث الصحاح الواردة فى فضل العرب ، ووجوب حب العزب ، ويكون كلام الله القديم جاء باللسان العربى المبين" [٢].

غير أن الأمير يعود فيقرر ورود أحاديث أخرى فى فضل غير العرب مثل "لو علق العلم بالثريا لنباته رجال من فارس" [٣].

وعلى أساس قاعدة المساواة المقدسة ظهر التضامن الإسلامى قوياً راسخاً ، وهو الذى حار فى أمر قوته نطس الأطباء الاجتماعيين ، ودهش من استحكام عراه جهابذة المؤرخين الأوربيين ، وليس هذا الا نتيجة قوله تعالى : "إنما المؤمنون إخوة" [٤] .

ويرتبط بالبحث فى المساواة فى الشريعة الإسلامية المؤسسة على التزام دولة الإسلام بتحقيق العدالة فى داخل المجتمع الإسلامى أو الدولة الإسلامية بشمول هذه العدالة لتعامل الحكومة الإسلامية مع غير المسلمين فى داخل دولة الاسلام ، وفى العالم كله "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين - الممتحنة ٨".

٣ - معاملة أهل الذمة ونشر الإسلام :

وهذه صفحة جديدة من صفحات (العدالة) في الإسلام ، فعدالة الإسلام الشاملة تحكم تعاملها مع غير المسلمين في داخل الدولة الإسلامية ، وفي العالم كله ، ولقد أفتى بعض العلماء المسلمين بأن الكافر العادل أفضل من المسلم الجائر ، لأن الأول لنا عدله وعليه كفره ، والثاني له إسلامه وعلينا جوروه ، وقالوا : إن الله يقيم الدولة بالعدل ولو على كفر ولا يقيمها بالظلم ولو على إسلام^(١).

ولقد قرر (شكيب أرسلان) أن الديانة الإسلامية لم تأمر بسوء المعاملة من المسلم لغير المسلم ، وإذا كان بعض المنتسبين إلى الإسلام قد فعل هذا فليس فعله حجة على الإسلام ، بل هو تعصب قبيح غير مندوب ولا مستحب ، والشرعة لم تأمر بشيء من هذا^(٢).

ومعنى قوله تعالى : « وليجدوا فيكم غلظة »^(٣) هو أنه يجب قتال المشركين الأعداء بشدة ، ويجب الإغلاظ عليهم في الحرب ، وليس معناه احتقار غير المسلمين في المعاملات الشخصية ، فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قام لعدي بن حاتم وهو نصراني وأجلسه على وسادته^(٤).

وشكيب قد أصاب كيد الحقيقة فيما ذهب إليه ، فإن القرآن الكريم هو الذي يقول في سورة الممتحنة : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلونكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم

١ - الاستاذ عبد الروهاب خلاف . بحث في مؤنصر (الإسلام والإصلاح الاجتماعي) سنة ١٩٣٨م عن كتاب : (من أصول الفكر السياسي الإسلامي) للدكتور محمد فتحي عثمان . ص ٩١ .

٢ - شكيب أرسلان ، الشورى ، ٧ يناير ١٩٢٥م (عن شكيب أرسلان داعية العربية والإسلام) ص ٢١٢-٢١٣ .

٣ - سورة التوبة . آية ١٢٣ . والآية كاملة : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين آمنوا يلوونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة . واعلموا أن الله مع المتقين » .

٤ - المرجع السابق .

فأولئك هم الظالمون» (١)

ومن الأمثلة التي تدل على سماحة الإسلام وعدالته ما جاء في كتاب شكيب « تاريخ غزوات العرب » من أن اليهود كانوا مضطهدين في أسبانية ، « وكان رجال الدين الكاثوليك يرهقونهم عسراً وبيالغون في إيذائهم .. فلما جاء المسلمون وفتحوا أسبانيا كان اليهود هناك في أشد العذاب ، فحررهم المسلمون من الرق ، وتركوا لهم الحرية التامة بأن يمارسوا شعائر دينهم ، فنشقوا نسيم الفرج » (٢)

فالإسلام لم يستعمل القوة ضد « الأديان » المخالفة للإسلام الواقعة تحت سلطانه ، ويدلل الأمير على ذلك في مقارنة بين التسامح والتعصب بين الإسلام وأوربة بما فعله الأتراك الذين « بقى تحت ولايتهم ملايين من المسيحيين من جميع الأجناس كانوا يقدرون في أوقات عديدة أن يستأصلوهم أو أن يحملوهم على الجلاء ، كما فعل ملوك أسبانية وفرنسا بالعرب » (٣)

إن الذي منع الترك عن حمل النصارى الذين كانوا تحت سلطانهم على الإسلام أو الجلاء هو الشرع المحمدي الذي يمنع الإكراه في الدين ويرضى من المعاهد بالجزية» (٤).

ويروي الأمير أن أحد السلاطين العثمانيين أحب إخراج الملايين من الأورام والبلغار والأرمن وغيرهم من الممالك العثمانية خوفاً من مغبة بقائهم « وكان كل مرة يعترض في ذلك شيخ الإسلام ويقول : ليس لنا عليهم إلا الجزية » (٥).

وهذا يثبت أن الإسلام هو الذي هذب الأتراك وحال بينهم وبين طرد المسيحيين من ديارهم (٦) ، مما يثبت حرص الإسلام على تحقيق العدالة وتسامح الشريعة الإسلامية ومساوتها بين الناس أمام الشريعة.

١ - سورة المتحنة ، آية : ٨ .

٢ - شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ، هامش ص ٣١/٣٢ .

٣/٤/٥ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ، ص ٢٣٨ وما بعدها .

ويؤيد ما استشهد به الأمير ما روى عن الخليفة عمر بن العزيز أن قوما من سمرقند وفدوا عليهم «فرفعوا إليه أن قتيبة بن مسلم دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر ، فكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضيا ينظر فيما ذكروا ، فإن أمر بإخراج المسلمين أخرجوا ، فنصب لهم جميع بن حاضر الباجي فحكم بإخراج المسلمين على أن يتابذوهم على سوا ، فكره أهل سمرقند الحرب ، وأقروا المسلمين»^(١).

وقد اتخذ بعض المستشرقين - أمثال «غودفروا دوموبين» صاحب «تاريخ العالم» من بقاء الملايين من غير العرب في ظل الدولة الإسلامية على عقائدهم ، وعدم تعرض المسلمين (للكتابيين) وإرغامهم على الدخول في الإسلام - نقول - اتخذوا من هذا مدخلا للطعن في عدالة الإسلام ، وردوا ذلك بزعمهم إلى النظرة العنصرية التي نظر بها العرب تجاه الأمم الأخرى ، يقول (دوموبين) : «أما الأعاجم .. فإن العرب لم يكونوا ينظرون إليهم كقوم مساوين لهم ، ولم يكن عليهم إلا أن يؤدوا الجزية ، وهكذا يكونون آمنين على دمائهم ، وأموالهم ، وعقائدهم . فأما اشراكهم في شرف الملة الإسلامية ومنافع الإسلام في الدنيا والأخرى فلم يكن في نظر العرب ضرورياً لأنهم قوم منحطون عن درجة العرب ، وحسب الأعاجم حريتهم الدينية لأنهم أهل كتاب ، فأما المساواة مع العرب فغير مطلوبة ، والعدالة إنما هي بين المسلمين فقط»^(٢).

ويرد الأمير (شكيب أرسلان) هذا الإدعاء ويبين أن عدم استخدام (الحكومات الإسلامية) للقوة في حمل أهل الكتاب الواقعيين تحت سلطانهم على الدخول في الإسلام هو مدعاة فخر للإسلام والمسلمين ولا يمكن أن يتخذ مدخلا للطعن في عدالة الإسلام ومساواته بين الناس ، يقول شكيب : «إن كلام (دوموبين) هنا لا يخلو من الخلط لا سيما عند ظنه أن العرب لم يكونوا مهتمين بإدخال العجم في الإسلام ، وإنما كان همهم الوحيد إسلام العرب ، نعم إنه لما كان الخلفاء سائرين على مقتضى الآية الكريمة : «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي»^(٣) لم يعترضوا أحداً من الكتابيين في دينه ،

١ - البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٤١١ .

٢ - حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ص ١٦٨-١٦٩ .

وهذا في الحقيقة من مفاخر الحكومات الإسلامية لأنه لا يوجد أنزله ولا أشرف من الحكومات التي لا تستعمل قوتها القاهرة في سبيل استجلاب الأمم التي تحت حكمها إلى دينها .. »^(٢).

فعدالة الإسلام في معاملة أهل الذمة والعهد من أتباع الديانات من رعايا الدولة الإسلامية حددها القرآن الكريم بما يكفل حريتهم الدينية ، وحقوقهم القانونية والقضائية ، ولكن هذا لا يمنع أصلاً هاماً من أصول الإسلام والذي ينبغي أن تقوم عليه الدولة الإسلامية ، وهو إلزام دولة الإسلام بنشر رسالته في العالم ، يقول الأمير : « فقد كانت جميع سياسة الخلفاء لا سيما الأتقيا ، منهم تدور على محور (نشر الإسلام) »^(٣).

ولذلك ينبغي أن يكون سلوك (الدولة الإسلامية) على أرضها في الداخل وبين دول العالم في الخارج قائماً على الأمانة والعدالة وحسن المعاملة متجنباً كل ما يكون فيه إساءة للإسلام ومدعاة للصد عن سبيل الله ، ويستشهد الأمير شكيب بالوقائع التاريخية التي تبين حرص الخلفاء الأتقيا ، على نشر الإسلام ومنها موقف الخليفة (عمر بن عبد العزيز) رحمه الله « لما شكوا أحد العمال بمصر من نقص النجارية بسبب إقبال أهل الذمة على الدخول في الإسلام أجابه الخليفة عمر بن عبد العزيز : ويحك أن محمداً جاء هادياً ولم يجيء جابياً .. »^(٤).

١ - سورة البقرة . آية : ٢٥٦ .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ص ١٦٩ .

٣ - المرجع السابق نفسه .

٤ - المرجع السابق نفسه ص ١٧٠ . وقد نقل شكيب لتأييد رأيه عدداً من الوقائع عن (عمر بن عبد العزيز) و (المأمون) و (المعتصم بالله) من كتاب نتوح البلدان للبلاذري .

الرؤية السياسية لمستقبل الأمة الإسلامية عند الأمير شكيب أرسلان

- تمهيد .
- الجامعة الإسلامية .
- الجامعة العربية .
- آراء الأمير شكيب أرسلان في «التربية» .
- بعث (المدنية الإسلامية) في مواجهة (الحضارة الغربية) .

- الرؤية السياسية لمستقبل (الأمة الإسلامية) عند الأمير (شكيب أرسلان) :

- تمهيد :

إن الفراغ السياسي الذي أحدثه ضعف (الدولة العثمانية) ثم إلغاء (الخلافة) في العالم الإسلامي دفع الأمير شكيب أرسلان لتقديم اجتهاده في علاج أزمة الخلافة الشاغرة بما يراه من نظام آخر بديل يحقق وحدة وفق روح العصر بصفة مؤقتة أو في صورة دائمة فرأيناه يدعو إلى (الجامعة الإسلامية) أو (الرابطة الشرقية) ثم إلى (الجامعة العربية) ، وأخذ يبصر المسلمين في الأقطار التي أنشبت الإستعمار مخالبه فيها وصادر حرياتهم وخيراتهم بسبب الجهاد لاستعادة عزتها والحكم بشريعتها ، ويضع أيديهم على ثغرات التخلف والتفرق التي نفذ منها الإستعمار إلى ديارهم وجثم على أنفاسهم ويدد البقية الباقية من حيوتهم ، ويؤمن أن سبيل الخلاص من واقع الأزمة يقوم على (تربية) وتنشئة أحدات المسلمين على أسس صحيحة ، وطالب بإحياء (المدنية الإسلامية) التي تبعث في قلوب المسلمين روح الاستقلال في مواجهة (الحضارة الغربية) .

ولقد حاول (شكيب أرسلان) أن يجمع بين المثل الأعلى والواقع ، ولقد تحقق المثل الأعلى الذي ينشده المسلمون في نطاق محدود من الزمان نطاق الخلفاء الراشدين الأربعة ، وهو أشد صور الحكم الإسلامي إنطباقاً على الشرع^(١) ، ولكن الراشدية ليست مجرد لقب لنظام الحكم الإسلامي في فترة محدودة من التاريخ كما أنها ليست مجرد التزام من الإمام المسلم بمنهج النبوة فحسب ، إنها إلتزام الأمة كلها بهذا المنهج الرباني ، لذلك تعددت أنماط الخلافة بتغيير الظروف وانحراف الأمة عن منهاج النبوة ، فعدم رشود الأمة وما يترتب عليه من تعذر وجود خليفة راشد لا يسقط مشروعية (الحكومة الإسلامية) ، بل لابد من قيامها أو الحد الأدنى منها وهو وجود حاكم مسلم واحد يقود الجماعة المسلمة كلها ويحكم بينها بما أنزل الله ، وقد عرفت الأمة نماذج

من نظام الحكم الإسلامي غير الخلافة (الراشدة) كما بين شكيب أرسلان هذا بقوله : «إن الخلافة لم تستم شروطها الصحيحة إلا في الخلفاء الراشدين ، وبعد ذلك فالخلافة لم تكن إلا ملكاً عضواً قد يوجد فيه المستبد العادل والمستبد الغاشم ، وما انفادت الأمة إلى هذا الملك العضوض المخالف لشروط الخلافة سواء كان من العرب أو من الترك إلا حشية التفتة في الداخل والأعتداء على الحوزة من الخارج» (١).

ونفي ظل الواقع الممكن يكون «للأمة الحق أن تبتهد في أشكال أخرى من أنظمة الحكم بحيث لا تخرج في حدها الأدنى عن الإطار الإسلامي أي أن تكون إسلامية متفردة غير متعددة ، وتنفذ حكم الله لا حكم الجاهلية» (٢).

وذلك لأن الإسلام كفيل بأن يقدم الإصلاح الدائم حسب الظروف القائمة والإمكانات المتاحة ، والله تعالى يقول : «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها» البقرة : ٢٨٦ ، «وما جعل عليكم في الدين من حرج» الحج : ٧٨ .

وقد يمكن في الغد ما لا يتحقق اليوم ، وقد نفذ (شكيب أرسلان) ببصره وبصيرته إلى حقيقة الإسلام وطبائع النفوس والمجتمعات ، فرأى أن شرائع الإسلام بمجملها ، وأحكام الإمامة جزء منها لا تصطدم مع الفطرة الإنسانية ، ولا تكلف الإنسان إماماً كان أو مأموماً إلا وسعه ، فلا يعقل أن نجد في تطبيق المنهج الإسلامي في الحكم أو في غيره عنساً أولاً يمكن تطبيقه في أرض الواقع العملي ، مهما قدم العهد وتغير الزمان والإنسان إلا أن نجد هوى متبعاً ..

وقد تنبه الأمير شكيب أرسلان من خلال تجاربه السياسية أثناء تعامله مع الواقع أن الإسلام يمكنه أن يتعايش مع التقسيمات العرقية أو القبلية شريطة أن تستقيم له ولا تتعارض معه ، فالإسلام أقر التقسيم القبلي ونهى عن العصبية القبلية ، ولئن كانت (القومية) أوسع نطاقاً من القبلية فهي أولى ألا يعارضها الدين بل يمكنه أن يتعايش معها بشرط استقامتها له وعدم تعارضها معه .

١ - المرجع السابق ج ١ ص ٢٩٠ .

٢ - محمود المرادي ، الخلافة بين النظر والتطبيق ، ص ٣٤٥ .

وبناء على ما تقدم رأى الأمير أن إحياء الخلافة ممكن إن أحب أناس أن يستجيبوا إلى ما يحبيهم ، وذلك بتكوين رابطة تجمع بين أقطار العالم الإسلامي «ومن مجموع الأقطار القوة المهيبة يتكون حينئذ رأس هو الخلافة إذا استقلت به إحدى دول الإسلام كانت رأسها تطأطى له الرؤوس»^(١).

ولقد كان للأمير (شكيب أرسلان) نظرة مستقبلية في الأمور السياسية صادقة ومتميزة ، وتدعو إلى الإعجاب ، فطالما تنبأ عن أمور قبل وقوعها فجاءت كما حدث «لا لأنه أوتى علم الغيب - فالغيب يعلمه الله - ولكن لأنه يحسن التدبير للأمور ، ويحسن التطلع إلى العواقب»^(٢).

وقد شهد له معاصروه بصدق فراسته ، ودقة تقديره للأمور السياسية الخطيرة قبل وقوعها ، يقول الدكتور زكي علي في هذا المقام :

«الأمير شكيب كثيراً ما تكهن في الأمور السياسية الخطيرة قبل وقوعها ، حتى إذا انحدر ستر الغيب عن وجه المستقبل جاءت الحوادث مصداقاً لتكهنه ، ودليلاً على صواب حكمه ، ولا غرو أن هذا يعزى إلى سلامة فطرته وأصالته رأيه وغلو معدن ذكائه ، وما وهبه الله من قوة فراسة فوق ما امتاز به من الخبرة وبعد النظر والتجربة خلال عشرات السنين من حياته السياسية»^(٣).

وشكيب أرسلان يلحظ من نفسه هذه الصفة ، ويعلمها بالتفكير والتأمل ، وكثرة المطالعة ، فيقول : «لست من الكهان ، ولا من العرافين ولله الحمد ، ولا أنا بعجزي وضعفي من الأولياء الذين يكاشفون بكثير مما وراء حجب الغيب ، ولكني أفكر وأتأمل ، وأكثر مطالعة الكتب والصحف ، لاسيما ما تعلق منها بالتاريخ والسياسة ، ولذلك تصح أقوالي عن كثير من الحوادث قبل وقوعها»^(٤).

١ - شكيب أرسلان . من رسالة أرسلها إلى (أكرم زعبيتر) سنة ١٩٣١م ، جريدة الشرق الأوسط ٢٤/٣/١٩٨٦م .

٢ - أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان ، داعية العروة والإسلام . ص ٢٥٥ .

٣ - المرجع السابق عن «الشباب» ١٥ ديسمبر ١٩٣٧م .

٤ - المرجع السابق ص ٢٥٦ .

ويذكر - شكيب - أنه تكهن بنشوب الحرب العالمية الأولى قبل بدنها بنحو سنة وأربعة أشهر ، ونشر ذلك في جريدة «الشعب» المصرية في ٢١ مارس سنة ١٩١٣ م ، وأعاد نشره حرفياً في مجلة الفتح عدد ٥ صفر ١٣٥١ هـ (١٩٣٢ م) ^(١).

ومن الوقائع الخطيرة التي تنبأ بها الأمير شكيب أن انجلترا ستنتكث وعودها التي أعطتها للعرب إبان الحرب العالمية الأولى ، وأن البلاد العربية ستصير إلى إحتلال الأجانب ، وأن فلسطين ستكون وطناً قومياً لليهود ، وقد كتب إلى الشريف حسين يحذره من ذلك ، وفي هذا يقول شكيب :

«لم يمنعنا من الاشتراك في الثورة العربية سوى اعتقادنا أن هذه البلاد العربية ستصبح نهباً مقسماً بين انجلترا وفرنسا ، وتكون فلسطين وطناً قومياً لليهود ، وهذا التكهن كان عندنا مجزوماً به ، حتى أنني كنت أقول قبل الحرب : لو ارتفع الغطاء ما ازدادت يقينا ، ثم انتهت الحرب ، وانتصر الحلفاء ، وارتفع الغطاء ، فما حصل بالفعل شي . غير ما كنا نقول» ^(٢).

وقال شكيب أن الملك حسين ملك الحجاز سيندم وسيخلع من ملكه وكذلك كان ، وتنبأ بأن فيه سيكون لجزيرة ، وكذلك كان .

ولما قيل له : ولماذا اخترت جزيرة ؟ . أجاب : لأن انجلترا لها جزائر كثيرة ، وقد نفى الملك حسين بعد ذلك إلى قبرص ^(٣).

كما تنبأ بنشوب الحرب العالمية الثانية وكتب سنة ١٩٣١ م يحذر العرب من تسانجها ، ويدعوهم إلى الاتحاد لدرء الخطر القادم ، ومما قاله في ذلك : «الوقت مخيف جداً ، والمستقبل مظلم حالك الظلام ، والحرب الأوروبية مهما تأخرت فهي آتية ، لا ريب فيها ، وقد ينشأ عنها من تقاسم بلدان الضعفاء ، ومن المعاضات والمبادلات ما نشأ في الحرب الماضية» ^(٤).

١ - المرجع السابق .

٢ - المرجع السابق ، ص ٦٠ - والملاحظ أن شكيب كتب هذا في (الشورى) عدد ١٠ إبريل ١٩٢٩ م .

٣ - المرجع السابق ، ص ٢٥٥ .

٤ - الفتح ، عدد ٤ شوال سنة ١٣٥٠ هـ .

كما بشر الأمير شكيب أرسلان بقيام (الجامعة العربية) قبل قيامها بسنوات طويلة ، فكتب في كتابه (الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف) أنه قال سنة ١٩٢٩م : «إن الأمة العربية سائرة إلى الوحدة ، مهما عارض في ذلك اللثام من أعدائها ، والمتفلسفون من أبنائها ، وأن هذه الوحدة آتية لا ريب فيها ، ولو بعد مئة سنة أو أكثر» (١).

كما واصل الحوض عليها مؤكداً ثقته في نظريته المستقبلية للأحداث فيقول - في سنة ١٩٣٧م - : «وأنتم أيها العرب الكرام : إذا دعوناكم للوحدة العربية فلا تقارمونا ، ولا تهزأوا بنا ولا تقولوا : خيالات ، ولا تحملوا على مشروع هذه الوحدة كما فعل كثير منكم يوم قمنا بالدعاية إليه منذ سبع سنوات ، ثم عادوا إلي رأينا ، وصاروا في مقدمة أنصاره» .

لقد أثبتوا للناس أننا - والحمد لله - موفقون في آرائنا ، مستشعرون للأمور قبل وقوعها ، وأنا ثنائي مرات في العشر نقول رأينا فينكره الكثيرون ، ثم تحققه الأيام ، وتزيد الحوادث ، ويتجلى فيه الصواب كفلق الصبح» (٢).

ومن أخطر الأمور التي تنبه لها الأمير (شكيب أرسلان) منذ وقت مبكر : «مؤامرة التجهيل بحضارة الإسلام» ، فحذر من خضوع مناهج التعليم في البلاد الإسلامية ، ومصادر الثقافة فيها للمصادر الأجنبية - وهو ما حدث طوال فترة الاستعمار الأجنبي- (٣) ، وبين (شكيب أرسلان) أن ضرر ذلك سيكون أشد من الإحتلال الأجنبي نفسه ، ونسيئته أنه بعد تقلص الإحتلال ليزال ثقة المسلمين في أنفسهم ويدفعهم إلى النظر إلى الغرب نظرة إكبار بصفته المثل الأعلى في الحضارة والتقدم والرفي .

لقد كان شكيب في الواقع اخصائياً في تشخيص المرض وأساليب علاجه ومداواته بل ووصف طرق الوقاية منه قبل وقوعه ، وعلى هذا الأساس وصف الدواء الواقي وهو

١ - شكيب أرسلان ، الارتسامات اللطاف ، ص ٢٠٧ .

٢ - الشورى - ٣ مارس سنة ١٩٣٧م .

٣ - د. مصطفى حنفي ، الإسلام والمذاهب الفلسفية ، ص ٢٦٦ .

(التربية) العلمية في إطار اللغة والتاريخ والعقيدة مما يحفظ للأمة شخصيتها ودينها .
 كما أثبت أنه بإمكان الحضارة الإسلامية أن تقدم للبشرية من جديد أجل الخدمات
 كما فعلت في الماضي ، وذلك بإثبات فضائل المسلمين على حضارة أوروبا والدعوة إلى
 إحياء (المدنية الإسلامية) .

وإذا كانت «الصيدلية» العربية والإسلامية تعمدت إخفاء هذا الدواء ، فسنحاول
 في الصفحات القادمة أن نظهره لعل الله أن ينفع بها الجهد المتواضع أمتنا الإسلامية ،
 ونكون بذلك قد ألقينا بعض الضوء على جانب جديد مشرق في فكر الأمير (شكيب
 أرسلان) .

الجامعة الإسلامية

الجامعة الإسلامية

يقوم تصور الأمير شكيب أرسلان للجامعة الإسلامية على إرادة إخراج المسلمين من وضع الإنحطاط والتفكك والضعف الذي أصاب الأمة الإسلامية في مواجهة تحدي الحضارة الغربية الحديثة الذي يظهر في أشكال عدة ومنع بتفوقه وسيطرته نجاح أي مشروع هادف إلى إعادة توحيد المسلمين .

وكانت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية قد نشطت بعد ولاية السلطان عبد الحميد بسنوات قليلة وعلى أثر انعقاد مؤتمر برلين وافتتاح مؤامرات التقسيم التي اتفقت عليها الدول الكبرى لانتزاع بلاد الدولة العثمانية من سيادتها بغير فارق بين الإسلامية منها وغير الإسلامية ^(١) ، ولقد أدرك الأمير شكيب أرسلان طبيعة الإتفاق بين الدول الاستعمارية فلم يكن ليعني في ذهنه إلا استمراراً للغزوة الصليبية ، تغيرت الأسماء والألقاب أم لم تتغير ^(٢) .

ولقد قدم الأمير شكيب أرسلان للعالم الإسلامي حقيقة تاريخية بالغة الدلالة وهي أن الغرب الاستعماري يرى في الإسلام الخطر الأعظم الذي ينبغي مقاومته ، بل يرويه «أعظم من الخطر البولشفي مهما كان الخطر البولشفي عظيماً» ^(٣) ويسوق الأمير لإثبات تلك الحقيقة الكثير من الأدلة التاريخية البارزة منها التواطؤ بين أوروبا والروسيا القيصرية على قهر الشرق وملاشاة الدولة العثمانية ، «حتى أن هناك جملة وردت في كلام العلامة (قريرو) فيها معنى كبير ينبغي أن ينعم النظر فيه جميع المشرقيين ألا وهي قوله : «أن الروسية وانكلترة مع تناظرهما وتنافسهما في الشرق كانت كل منهما شادة أزر الأخرى» ^(٤) .

ولم يقتصر هذا التضامن «بين أوروبا والروسية القيصرية فحسب بل بين أوروبا

١ - عباس محمود العقاد ، عبد الرحمن الكواكبي ص ٧٢ .

٢ - د. محمد شفيق شيا ، شكيب أرسلان ، مقدمات الفكر السياسي ، ص ١٦٦ .

٣/٤ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ص ٣٣١-٣٣٢ .

والروسية البولشفيكية نفسها ، مع شدة العداوة بين الفريقين »^(١).

« فإن الدول الغربية أثارت على البولشفيك كل قوم ترجو فيهم النهضة ، لقتال الحكومة البولشفية ، التي ترى فيها الخطر الأعظم على كيان الهيئة الإجتماعية الأوربية .. ولكن قد حذرت كل الحذر ، من أن تحرك على البولشفيك قوة اسلامية .. ولا راق لهم تسليح مسلمين .. وما ذاك إلا لأنهم يرون الخطر الإسلامي أعظم »^(٢).

ومن الأدلة البارزة التي تؤيد موقف الأمير شكيب النظري من الغرب الاستعماري « أن فارس عرضت على انجلترا المحالفة والدخول الى جانب الحلفاء في الحرب العامة ، فأبت انكلترا مساعدة فارس .. وأن مصر عرضت نفسها أثناء الحرب العامة أن تقاتل في جانب الحلفاء بشرط الجلاء الانكليزي عن مصر بعد الحرب فأبت انكلترا أيضا ذلك .. وأغرب منه أن (تركيا) عرضت على الحلفاء أن تكون معهم بشرط أن تأمن شروهم في المستقبل فأبى الحلفاء .. ويدبهي أن رفض الحلفاء هذه المساعدات من دول العالم الاسلامي مبني على أساس واحد ، وهو أن الحلفاء لو قبلوا مساعدات الحكومات الإسلامية أثناء الحرب العامة ، لما كان لانتفا أن يقتسموا فيما بعد الحرب بلاد الإسلام الباقية الإقتسام الأخير ، كما كانوا ينوون أثناء الحرب ، وكما فعلوا بعد الحرب »^(٣).

ويرد الأمير الدعوة بأن الحلفاء حالفوا سنة ١٩١٥م الشريف حسين ، وهذا ملك من ملوك الإسلام مما ينقض نظرية الأمير ، فيقول : « إنهم - أي الدول المستعمرة - ما قبلوا التحالف مع الشريف حسين بادئ ذي بدء لظنهم أنهم يستغنون عنه ، .. فلما طالت الحرب عادوا إلى قبول محالفة الشريف حسين أملا بفصل العرب عن الترك .. فلما وضعت الحرب أوزارها حتى عومل العرب معاملة الأعداء ، وتقسمت بلادهم غنائم »^(٤).

ويؤكد الأمير شكيب « أن الحلفاء طلبوا أثناء الحرب العامة العون من كل دولة ،

١/٢/٤ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ص ٣٢٩-٣٣١ .

وعرضوا التحالف مع كل حكومة ، حتى أصفر حكومات أمريكا ، ولم يكونوا ليقبلوا التحالف مع دولة من الدول الإسلامية علماً بما ينوونه للإسلام وجميع حكوماته في المستقبل وفراراً من مكافأة دولة إسلامية بالإبقاء عليها ^(١).

وهكذا ينتهي الأمير شكيب أرسلان إلى استنتاج تاريخي يؤيد فهمه لطبيعة الإستعمار الغربي للعادي للإسلام فيقول :

«فهذا من الحقائق الكلية التي ينبغي أن يتفطن لها المسلمون ولا يغيروها عن نظرهم ، وليعلموا أن الدول المستعمرة لا تقبل من الإسلام حتى ولا الصداقة ، وأنها لا ترضى من المسلمين في جانبهم بذل الأرواح والأموال إلا مجاناً» ^(٢).

وانطلاقاً من هذا الفهم العميق لروح العداوة الغربية للإسلام رأى الأمير شكيب ، ومن قبله الأفغاني «أن العالم الإسلامي يجب عليه أن يتحد اتحاداً دفاعياً عاماً ، مستمسك الأطراف وثيق العرى ، ليستطيع بذلك الزيادة عن كيانه ووقاية نفسه من الغناء المقبل» ^(٣)، فمن سنن البقاء أن يتحد الضعفاء في وجه القوي ^(٤)، ولأن رد الغزوة الأوروبية لديار المسلمين هو أمر يتجاوز طاقة شعب واحد أو قطر بمفرده أصبحت (الجامعة الإسلامية) ضرورة ملحة في نظر الأمير شكيب أرسلان .

فالجامعة الإسلامية إذاً أداة وحدة المسلمين ونهجهم ، وهي بمعناها الشامل ومفهومها العام «إنما هي الشعور بالوحدة العامة والعروة الوثقى لا انفصام لها بين جميع المؤمنين في المعمور الإسلامي ، وهي قديمة بأصلها ومنتشها منذ عهد صاحب الرسالة ، أي منذ شرع الرسول صلى الله عليه وسلم يجاهد فالتفت من حوله المهاجرون والأنصار معتصبين معه بعاصبة الإسلام لقتال المشركين» ^(٥).

فمنشأ الجامعة الإسلامية الأصلي هو المشاعر النفسانية الوجدانية العميقة في

٢/١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، (مرجع سابق) ج ١ ص ٣٣١ .

٢ - ستودارد ، المرجع السابق ج ١ ص ٣٠٧ .

٤ - شكيب أرسلان (المرجع السابق) ج ٤ ص ١٦٠ .

٥ - حاضر العالم الإسلامي ، (مرجع سابق) ، ج ١ ص ٢٨٨ .

المسلمين لصيانة الوحدة وتوثيق عرى الجامعة العامة ، كما أنها حركة سياسية دفاعية محمولة على الغرب رداً لاعتدائه ودفعاً لجوره ، وهي أخيراً سنة من سنن البقاء في عالم لا يدين إلا للقوة ولا يحترم إلا الأقوياء ^(١).

ولقد كان الأمير شكيباً أرسلان على وعي بالعقبات الكبرى التي تقف دون تحقيق دعوته إلى الوحدة الإسلامية العامة ، وهي :

أولاً : إنتماء المسلمين إلى أجناس متباينة وإلى دول قومية مختلفة مما ينوطي على مشكلة التوفيق بين الإنتماء الإسلامي والإنتماء القومي .

ثانياً : مشكلة التوفيق بين المسلمين وغير المسلمين في الدولة الواحدة .

ثالثاً : مشكلة الإنتماء المذهبي التاريخي بين المسلمين ^(٢).

وبناء على وعي الأمير بتلك العقبات الثلاث على طريق (الجامعة الإسلامية) فقد اجتهد شكيب في رصد كل مشكلة ، وناقش الدعاة إليها ، وبين موقف (الجامعة الإسلامية) منها .

فأمام التعصب إلى الجنس الذي أخذ يشتد في داخل العالم الإسلامي ، دعا الأمير إلى الأخوة الإسلامية القائمة على قاعدة المساواة ، تلك القاعدة المقدسة التي على أساسها ظهر التضامن الإسلامي قوياً واسعاً . يقول شكيب :

«وليس التضامن الإسلامي الذي حار في أمر قوته نطس الأطباء الاجتماعيين ، ودش من استحكام عراه جهاذة المؤرخين الأوربيين ، إلا نتيجة قوله تعالى : «إنما المؤمنون إخوة» ^(٣).

«وقد ظهرت في هذه الأيام الأخيرة فرق من الأمم الثلاث العربية والتركية والفارسية ، لا يريدون أن يعرفوا هذا الأصل العظيم ولا أن يقيموا له وزناً ، بل زعموا أنه هو الذي كان منشأ ضرر هذه الأمم» ^(٤).

١ - يقول شكيب : «والحقيقة أن القوة المسلحة هي العامل الوحيد الذي يؤثر بالأفزع» ويقول : «والحق أن القوة المادية هي معبود الغربيين قبل الشرقيين» (المراجع السابق) ج ٢ ص ٣٣٤-٣٣٥ .

٢/٣/٤ - شكيب أرسلان . حاضر العالم الإسلامي . ج ٤ ص ١٥٨ .

وهكذا يرصد الأمير شكيب ظهور النزعات الجنسية الإقليمية نتيجة إنتشار الأفكار والآراء والروح الغربية ، ثم يعرض الأمير إدعاءات الداعين إلى العصبية الجنسية الذين يرفضون أن يكون الدين الاسلامي هو الرابطة التي تجمع بين الشعوب الاسلامية ، والتي ينبغي أن تقوم عليها رابطة التعاون السياسي ، فيقول :

« فالذين هم من العرب يعلنون أنه لولا أخوة العرب مع الترك بالإسلام لما فقد العرب ملكهم وسلموا به للترك ، والذين هم من الترك يقولون لولا هذه الأخوة الإسلامية التي فرضها الدين لما بذلت الدولة العثمانية قوتها في الذب عن القضية الإسلامية، بل كانت حصرتها في الذب عن القضية التركية فحسب ، والذين هم من الفرس يقولون ما لنا وللعرب والترك ، كل من الأمتين عدوة لنا فلولا الاسلام لم يكن لنا بهما أدنى رابطة، فيجب أن نعود فرساً كما كنا »^(١).

وقد فند شكيب مزاعم هؤلاء الذين لا يرون الاستمسك بجامعة إسلامية تشم منها رائحة الدين، وتستوحش منها نزعاتهم العنصرية ، وبين أن الإسلام لم يضر أية أمة من هذه الأمم بشيء، لا في دين ولا في دنيا ، وأن تلك الأخوة والرابطة التي جمعت بين المسلمين هي التي مكنت لهذه الأمم في الأرض ، وبها عزوا بين الأمم قروناً طويلة ، يقول الأمير شكيب :

« والجواب على الفتن الأولى ، أنه لولا تلك الأخوة الشرعية ما أمكن العرب أن يقوموا بتلك الفتوحات الباهرة في صدر الإسلام ، ولا دانت بدينهم الأمم ، ولا اتخذت كتابهم دستوراً ، ولا نبههم نبيها ، فإن كانوا فقدوا الملك فيما بعد ، فلم يفقدوه إلا بتنازعهم وتنافسهم ، ولعل الأخوة الشرعية التي يشكون ضررها قد لطف الضرر الذي أصابهم من أثر السقوط ، بحيث أن الأمة الحاكمة فيما بعد كانت ترعاهم نوعاً وتبقى عليهم بسبب جامعة الإسلام ، فلما أدبل منها بدول غير إسلامية ذاقوا طعم الفرق بين تلك الدولة الإسلامية والدول الأجنبية التي خلفتها في الحكم على العرب »^(٢).

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج٤ ص١٥٨ (المرجع السابق) .

٢ - المرجع السابق ، ج٤ ص١٥٨ / ١٦٠ .

« والجواب على الفئة الثانية أن الأواصر الإسلامية لم تضر الترك في شيء بل أعطتهم ملكاً طويلاً عريضاً ، وجاهاً كباراً لبشوا يستطيعون به على الأمم مدة قرون وأحقاب . من أيام الأتابك والطولونيين إلى السلاجقة إلى العثمانيين الذين لم يقتصروا على الملك فقط بل استولوا على الخلافة الإسلامية أي على الرئاسة العليا على ثلاثمائة مليون مسلم بين مطلع الشمس ومغربها .. إن الترك أصبحوا بعد هذا بالنسبة إلى المجموع جزءاً كبيراً في المملكة فلم يكن ليتسنى له التسلط على بقية الأجزاء لولا الوحدة الإسلامية التي جمعت بينه وبين العرب والأكرد والجراكسة والأرناؤوط والبربر وكونت من كل هؤلاء عصبية واحدة ، ولولا كونه قائماً بحياطة الدين الإسلامي تلك الحياطة التي هي عنوان الدولة العثمانية »^(١).

« وجوابنا على الفئة الثالثة أن الإسلام لم يضر فارس بشيء في دين ولا في دنيا ، أما من جهة الدين فإنه نقلها عن عبادة النار إلى عبادة الواحد الأحد ، وأما من جهة الدنيا فقد ازدهرت فارس بعد الإسلام ازدهاراً لم تعرفه من قبل إلا قليلاً ، لا بل استولت فارس على الدولة العباسية العربية وصارت هي روح تلك الدولة برباطة الإسلام وحده ، لا بقوة فارس نفسها »^(٢).

ويختتم الأمير جوابه على هذه الفرق الثلاث بتوجيه خطاب لفئة من المصريين أيضاً - الذين « يذهبون إلى أنه » ليس فيهم شيء غير مصري « وأن المسألة المصرية ينبغي أن تبقى منفصلة عن كل مسألة شرقية إسلامية أو غيرها »^(٣) فيحذر الجميع بأنهم مقبلون على منحى سيانسي جديد ، وليس للإتسان أن يحكم على الشيء الجديد إلا بعد التجربة ، ولكن الأمير شكيب يؤكد بعيد نظره السياسي ، ونظرة المستقبلية الثاقبة أن (سياسة الإنفراد) هذه ستقود الجميع إلى الفشل فمن سنن البقاء أن يتحد الضعفاء في وجه القوي « وما لا مشاحة فيه أنه لا أمل باستقلال الشرق مادام مفكك الأجزاء »^(٤).

٢/١ - المرجع السابق ، ج٤ ص ١٥٨ / ١٦٠ .

٣ - المرجع السابق ج٤ ص ١٥٠ .

٤ - شكيب أرسلان - داعية العروبة والإسلام - تأليف أحمد الشياصي ، ص ١٥٢ .

ولقد سبق الأمير شكيب أرسلان عصره بالدعوة إلى سياسة (التكتلات) وهي تتمثل في أسس صورها في (الجامعة الإسلامية) لأهمية العقيدة الدينية الكبرى في توثيق الروابط بين المواطنين ، وفي إيجاد قومية مؤمنة لهم ، فإن أبى دعاة العصبية العصرية ، فليعدلوا على الأقل إلى جامعة وطنية شرقية تشمل جميع الشرقيين من أمة كانوا .

« فليست الجامعة الإسلامية هي العروة الوحيدة التي يقدر أن يعتصموا بها ، بل الجامعة الشرقية إذا اتسقت على الوجه المطلوب في أسس كانت أوسع نطاقاً ، ولكن هذه الجامعة أيضاً توجب التضامن مع سائر الشرقيين من كل أمة ومذهب » (١) .

ويعود الأمير شكيب ليثبت ضرورة الجامعة الإسلامية كتوفيق بين مقتضيات التعصب القومي ومقتضيات التعصب الإسلامي فيذكر أن « الدول الاستعمارية تحارب الجامعة الإسلامية والرابطة الوطنية معاً ، ولكنها تخاف من الجامعة الإسلامية أكثر ، وذلك لأن الجامعة الإسلامية تقول أن من يخرج عن الرابطة الوطنية يعد في نظر قومه خائناً وكافراً معاً ، فلا يكون أثماً أمام الناس وحسب بل يكون أثماً أمام الله أيضاً ، وغير خاف أن رابطتين أشد من رابطة واحدة ، وأن رابطة يعتقد صاحبها أنها منوط ثواب أو عقاب في الآخرة هي أمتن من رابطة لا ثواب ولا عقاب فيها ، وإنما هي دنسورة محضة » (٢) .

ويلخص الأمير شكيب براهينه على رأيه في تفضيل الرابطة الإسلامية الدينية على الرابطة الجديدة الوافدة التي تسمى (بالوطنية) المجردة عن الإسلام ، فيقول :

أولاً : الوطنية المجردة الملحدة لا تمنع الذويان في الأجانب كما تمنعه العقيدة الإسلامية ، فإن الأولى تمنعه من الجهة الدنيوية فقط ، وأما الثانية فتمنعه من الجهة

١ - شكيب أرسلان ، الفتح ٨ شوال ١٣٤٩ هـ .

٢ - شكيب أرسلان ، « لعبة العروة والإسلام » (مراجع سابق) ، ص ١٤٨-١٤٩ .

١ - « وقد كان السيد جمال الدين أول من وضع أساس الجمع بين الرابطة الشرقية السياسية والجامعة الإسلامية وتولية العاملين لكل منهما وجهته من غير تعارض وكل من ترجمه من المسلمين والنصارى يعتبر له بذلك » محمد رشيد رضا - تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ١ ص ٢٨٩ .

الدنيوية والأخوية معاً .

ثانياً : الوطنية المجردة عن الإسلام معرضة لما ليست تتعرض له الجامعة الإسلامية من خطر انحلال الأخلاق التي هي دعائم الأمم .

ثالثاً : العقيدة الوطنية المجردة لا تبعث من الآمال في حسن المآل ما تبعثه العقيدة الإسلامية المبنية على المواعيد الصريحة بالقرآن لمن عمل به .

رابعاً : العقيدة الوطنية المجردة لا تزرع في صدر الشرقيين عزة النفس والاعتقاد بالكرامة الشخصية كما تزرعه العقيدة الإسلامية في صدور المؤمنين الذين يقول لهم قرآنهم : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

خامساً : العقيدة الوطنية المجردة تفك ما بين المسلمين من عرى الارتباط ، مما يفقدهم بذلك قوة لا عوض لهم عنها ^(١) .

أما العقبة الثانية التي تعترض قيام (الجامعة الإسلامية) فهي مشكلة التوفيق بين المسلمين وغير المسلمين في الدولة الواحدة ، وفي هذا يقرر الأمير شكيب أن قوة الأخوة والرابطة بين المتحدين في العقيدة أمر طبيعي ، ولكن هذا لا يمنع أبداً من التأخي في الوطنية بين المسلمين وغير المسلمين ، فيقول : « وإن كان بين المسلمين أثر من الجامعة الإسلامية فليس من عجب في ذلك لسببين :

أحدهما : أن التضامن بين الضعفاء أمر بديهي لا يحتاج إلى برهان ، حتى ولو لم ينتموا إلى عقيدة واحدة ، فكيف إذا اتحدوا في عقيدة ؟

الثاني : أن المسلمين من حيث المجموع يعتقدون بقرآنهم وشريعتهم ، ويؤمنون فيهما سعادتهم وراحة وجداناتهم ، وفي القرآن الكريم : « إنما المؤمنون إخوة » فالمسلم يجد إخاءه للمسلم فرضاً محتماً عليه ، وموازرتة من باب الشرع الذي من ترك شيئاً منه فهو آثم .

١ - د . محمد شفيق شيا . شكيب أرسلان . مقدمات الفكر السياسي . ص ١٦٥ .

ولا يؤخذ من ذلك أن هذه الأخوة بين المسلمين حاجزة دون الإخاء مع غير المسلمين ، كما يتوهم بعضهم ، أو كما يفترى آخرون ، كلا ، بل يرتبط المسلمون مع غير المسلمين برابطة الإنسانية^(١) .

إن جوهر الدعوة إلى الجامعة الإسلامية سياسي إلى حد بعيد ، ولذلك فهي لا تتوجه بالعداء إلى الفرق الدينية الأخرى ، وإنما إلى الاستعمار الغربي تحديداً ، يقول الأمير :

« فالجامعة الإسلامية ليس معناها في نظرنا أن يقوم المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ليؤلفوا كتلة واحدة ليقاتلوا كل من هو غير مسلم » فالجامعة الإسلامية هي أكثر من ذلك ، فهي تجمع المسلمين إلى غير المسلمين في إطار الغايات الواحدة ، هي تقدم للشرقيين عموماً ، وليس للمسلمين فحسب ، يعتصمون بها فتغدوا أداة توحيد للشعوب المقهورة ، تماماً كما وجد الأوروبيون أداة توحدتهم :

« فبعد أن تقرر وجود هذا التضامن المتين بين جميع الأوروبيين في وجه الإسلام والشرق بأسره ، لا عجب أن يكون هناك تضامن بين الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً^(٢) لا سيما أن بين هؤلاء رابطة دينية ... »^(٣) .

ولذلك لا يرى شكيب في قيام الجامعة الإسلامية خطراً على غير المسلمين في داخل البلاد الإسلامية ، بل هي دعامة للشعوب الشرقية بأسرها ، ويستشهد شكيب لذلك بقضية فلسطين إذ أن كثيرين من المسلمين يؤيدونها ويدافعون عنها برابطة الإسلام ، فيقول شكيب : « إن الجامعة الإسلامية ليست بخطر على غير المسلمين من العرب ، بل هي عضد للشعب العربي بأسره ، فلماذا يعطف مثلاً مسلمو الهند والجاوي والفرس والترك والبشناق والأرناؤوط على فلسطين ؟ الجواب : لأنها مسلمة ، لا لأنها عربية »^(٤) .

١ - شكيب أرسلان ، داعية العروبة والإسلام ، (مرجع سابق) ، ص ١٤٩ .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، (مرجع سابق) ، ج ١ ص ٢٣٨ .

٣ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٢ ص ٢٤ .

٤ - شكيب أرسلان ، مجلة النور ، عدد ١٩٢٥ / ١٢ / ٣١ .

أما وضع غير المسلمين في داخل الدولة الإسلامية فقد حدده الشرع الإسلامي في حقوق أهل الذمة ، والتاريخ يشهد على الترك في عهد الدولة العثمانية « بقي تحت ولايتهم ملايين من المسيحيين من جميع الأجناس كانوا يقدرون في أوقات عديدة أن يستأصلوهم أو أن يحملوهم على الجلاء ، كما فعل ملوك اسبانية وفرنسا بالعرب .. إن الذي منع الترك عن حمل النصارى الذين كانوا تحت سلطانهم على الإسلام أو الجلاء هو الشرع المحمدي الذي يمنع الإكراه في الدين ويرضى من المعاهد بالجزية »^(١).

وثمة عقبة ثالثة تخترق الأقطار والشعوب الإسلامية وتحول دون اجتماعهم ووحدتهم ، وهي الإنتماء المذهبي التاريخي بين المسلمين ، فالمسلمون ينقسمون تاريخياً إلى سنة وشيعة ، وفي داخل كل قطر من أقطار العالم الإسلامي تتعدد المذاهب ، وقد تختلف الفرق والعصبية في القطر الواحد وبين من ينتمون إلى جنس واحد وأصل مشترك وتجمعهم رابطة الإسلام .

ولقد حرصت الدول الإستعمارية على بث الإحن أينما حلت وعلى بث النعرات والعصبية في الشعوب الإسلامية ، وأخذت تدفع هذا ضد ذاك كيما يكون الشقاق مدخلاً لتدخلها وحجة لاستعمارها ، يقول شكيب :

« إذا كان عمال فرنسا منذ أول احتلالهم لسورية ، أي منذ سنة ١٩١٨م إلى ساعة تحرير هذه السطور ، لم يفتروا يوماً واحداً عن تأريث الضغائن الدينية بين المسلمين والنصارى في سورية وبين النصارى والدروز في لبنان بعد أن كانت هذه الضغائن والذحول قد سكنت وتلاشت تقريباً ، فتجد سورية ولبنان اليوم في أسوأ حال من هذه الجهة مما بذرتة يد الاحتلال التي ظنت أنها لا تمتد إلا على بساط شقاق ، ولا تتمكن إلا من خلال فتنة ، فماظنك بما كان يفعله عمال فرنسا في الجزائر من تحريك الإحن بين العرب والبربر »^(٢).

لذلك حرص الأمير شكيب على مواجهة التعدد المذهبي الذي يصيب رابطة العقيدة

١ - أحمد الشريفي وشكيب أرسلان داعية العروة والإسلام ، ص ٨٠ . نقلاً عن « عروة الإتعاد » ص ٣٦ .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ص ١٨٧ .

الواحدة بالضعف ، إن لم نقل بالشلل في وجه التحدي الغربي ، و أبرز الأمثلة التي تمثل سياسة الأمير في جمع الكلمة وعدم التفرقة بين الأمة دفاعه عن إسلام الطائفة الدرزية وأصولها العربية ، وفي ذلك يستشهد بموقف الدولة العثمانية منهم فيقول :

«والدولة العثمانية أيام كانت هي الخلافة الإسلامية عرفت الدروز مسلمين ، ولما كان جماعة من مشايخ دروز حوران في الاستانة صدرت إرادة السلطان عبد الحميد الخليفة يومئذ بأن يصلوا الجمعة وراء في جامع يلدز ، ولهذا أنا لا أفهم : ما وجه الضرورة لفتح مسألة ديانة الدروز وما فيها من مخالفة الإسلام ، في وقت يسفك فيه الدروز دماءهم بأسراف في الدفاع عن حوزة تسعة أعشارها - لا بل أكثر من تسعة أعشارها - للمسلمين ، لأن الدروز في سورية ١٥٠ ألف نسمة ، والمسلمين يزيدون على المليونين»^(١).

ويختم الأمير شكيب دفاعه عن عروية الدروز قائلاً : «فأولئك الذين يعدون الأجانب بأن آل معروف - يقصد الدروز - يكونون إلى جانبهم على الأمة العربية قد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيتاً . فمهما يكن من العوامل فإنه متى انقسم الناس ، ولحق كل فريق بأهله ، فأبناء معروف لا يخرجون عن الجامعة العربية ، ولا من الجامعة الإسلامية ، ولن يقدر أحد أن يخل بهذه القاعدة : «فمن نكث فإنما ينكث على نفسه»^(٢).

والأمير شكيب أرسلان لا يستطيع في دعوته إلى الوحدة بين المسلمين تجاهل انقسام المسلمين إلى سنة وشيعة ، وهو الانقسام الأخطر في تاريخ الإسلام ، وخاصة بعد انتشار (التشيع) في بلاد فارس واتخاذها أداة سياسية المقصد منها مقاومة الحكم العربي .

ولقد بحث الأمير شكيب أرسلان نشأة التشيع ورأى أن العرب أقدم فيه من

١ - المرجع السابق ، ج ١ ص ١٨٩ .

٢ - المرجع السابق ، ج ١ ص ١٦٢ .

الفرس ، « فالتشيع لم يبدأ في فارس بل بدأ في الحجاز نفسه أي في موطن العرب .
وظهر بعد ذلك في الشام بواسطة أبي ذر الغفاري »^(١١) .

« ولكن مما لا مشاحة فيه أن أهل فارس يغفلون في علي وآل البيت أكثر جداً من
الشعبة العرب ، كالزيدية في اليمن ، والمتأولة في الشام ، والشيعية في العراق »^(١٢) .

وعلى الرغم من تشيع العجم لآل البيت مع علمهم بأنهم من العرب الأقحاح إلا أن
تشيعهم لم يقرهم من العرب ، بل بقوا على بغضهم للعرب واستكبارهم الخضوع لهم ،
وهذا ما سجله الأمير شكيب ولمسه بنفسه من مخالطة بعض فضلائهم ، وكان مشار
دهشته وتعجبه ، يقول شكيب :

« ومن الغريب أن كثيراً من العجم مع تدينهم بالإسلام ، وشدة استمسакهم بالتشيع
لآل البيت ، لا تزال تمجد فيهم في الأحابيين آثار البغضاء للعرب ؛ وهم يعلمون أن آل
البيت الذين يقدسونهم هذا التقديس كله هم عرب أقحاح ، بل هم سنام العرب »^(١٣)

ويخرج الأمير شكيب من دراسته وتأمله لنفسية الفارسي التي تجمع بين الحب
والبغض في مكان واحد - كأن الواحد من هؤلاء له نفسيتان إحداهما إسلامية والأخرى
فارسية^(١٤) - بحقيقة خطيرة لها أثر عظيم في خلخلة تماسك الوحدة الإسلامية عبر
التاريخ ، وهي « أن القومية الفارسية لم تندثر بالديانة الإسلامية التي جاءت من العرب ،
وأن هناك عوامل خاصة تجعل الفرس يميلون إلى آل البيت ، منها أن استيلاء العرب
على فارس أوجد في العجم متناوأة للدولة ، التي استولت على بلادهم ، وأزالت ملكهم ،
فلذلك رأيتهم انتصروا لبني العباس والعلوية ، يوم كانوا يبدأ واحدة في حرب بني أمية
الذين كانوا مركزهم الشام ، ومازالوا حتى حولوا الخلافة إلى العراق ، وصارت الدولة
العباسية كما يقول كثير من المؤرخين مطبوعة بطابع المدنية الفارسية »^(١٥) .

١ - المرجع السابق ، ج ١ ص ١٦٣ .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ص ١٦٣ .

٣ - المرجع السابق ج ١ ص ١٨٧ .

٤ - المرجع السابق ج ١ ص ١٦٤ .

٥ - المرجع السابق ج ١ ص ١٤٤ .

كما أن الفرس قد نقلوا كثيراً من عقائدهم القديمة إلى الإسلام ، وانتقصوا على العرب مراراً ، وحاولوا تأسيس ممالك فارسية في وجه الخلافة العباسية ، وأنهم أيضاً احتفظوا باللسان الفارسي في وجه اللسان العربي ، وأن تشيعهم للعلوية إنما كان أكثره ناشئاً عن أغراض سياسية في أصلها^(١).

وهكذا ظل العجم عامل ضعف في كيان الأمة الإسلامية المتماسك عبر العصور فلما كان هذا العصر (عصر القوميات) - اقتداءً بالأمة الأوروبية في الزمن الأخير - اشتدت (القومية الفارسية) أكثر من ذي قبل ، وذلك نظير ما حصل عند الترك^(٢).

وشير الأمير إلى خطورة التمادي في بعث العصبية إلى درجة ظهور الدعوات في بعض الممالك الإسلامية إلى نبذ الإسلام وبعث المعتقدات الوثنية القديمة بعد أن أنقذهم الله منها ، وطهرهم من سفالاتها ، يقول الأمير :

« وصار كثير من ناشئة الفرس يبحثون عن دين فارس القديم ، وذلك نظير ناشئة الترك الذين أخذوا يبحثون عن عبادات أجدادهم ، وعن الذنب الأبيض الذي كانوا يعبدونه ، حتى صوروه في بعض كتبهم الحديثة^(٣).

ونقل الأمير شكيب رد المرحوم موسى كاظم شيخ الإسلام على حنين بعض شبان الترك إلى ديانتهم القديمة وإلى عبادة الذنب الأبيض استكباراً لاتباع الأمة التركية ديانة صادرة عن العرب قوله :

« إن العرب كانت عندهم عبادات كهذه تقشعر منها الأبدان ولكنهم اقتلعوها بالإسلام واقتفروا بأن الله لطف بهم ، وأنقذهم منها ورفعهم عن مستوى تلك السفالات. وأما أنتم فتريدون أن تتناسوا الاعتقاد بالباري تعالى ، وتذكروا عبادة الذنب الأبيض.. فيالأسف !!^(٤).

وما قبل لناشئة الفرس والترك يقال لبعض ناشئة المسلمين :

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ص ١٦٤ .

٢/٤ - المرجع السابق ، ج ١ ص ١٦٧-١٦٨ .

« من أمة الجاوي الذين يبحثون عن مذهب بوذا الذي كان مذهب الجاوي قبل أن أسلموا ، ويدرسونه وكأنهم يريدون أن يحيوا آثاره »^(١١).

« كذلك في الهند شبان كثيرون من المسلمين يكرهون الجامعة الإسلامية ويفضلون عليها الجامعة الهندية اتباعاً للهنداك »^(١٢).

« وعند بعض الناشئة المصرية نزعة محسوسة إلى الأوايد المصرية القديمة ، والحضارة الفرعونية ، وميل إلى التفصي من النسبة العربية والحضارة العربية »^(١٣).

« وكل هذا تعصباً من هؤلاء الأقوام لقومياتهم بزعمهم وشعوراً منهم بشيء من الكبر عن أن يتبعوا ملة ليست من سلالتهم »^(١٤).

وعلى كل هؤلاء الذين تجاوزت عصبيتهم حدود الجنس والنسب إلى التعصب للمذاهب والمعتقدات البالية مع ما فيها من وثنية وحط من قدر الإنسانية بل وتفضيلها على دين الحق والهداية الذي أخرج الله به الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإيمان والعزة ، بدعوى استكبارهم الخضوع لدين أصله من العرب ، يرد الأمير شكيب بأن الإسلام ليس بدين يفرق بين عربي وعجمي ، وأن مبدأه الأساسي : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وأن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم لم يبعث إلى العرب وحدهم بل إلى البشر كافة ، فإن كانت المساواة تامة في دين من الأديان أمام الخالق تعالى فهي في الإسلام^(١٥).

ومن أعجب الشواهد على فساد عقل هذه الفئة سواء من الترك أو من العجم أنهم يجعلون الأمم الأوروبية قذوئهم في كل شيء ولا يرون : « أن الأوروبيين وهم أرقى الأمم والغالبون على أكثر الكرة الأرضية وهم يعلمون أنهم جميعاً من الجنس الآري ، يتبعون ديانة رجل يهودي من الجنس السامي المحض ، ولا يستنكفون عن أن يعبدوه وعن أن يؤلّوه ، ومنهم من يعبد أمه .. فهل سمعنا أن أحداً من الأفرنج استكبر أن يتبع سيدنا

١/٢/٣ - المرجع السابق ، ج ١ ص ١٦٧-١٦٨ .

١/٤ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ص ١٦٨ .

عيسى علي السلام ؟ .. كلا » ^(١١).

« أفلم يكن في ذلك عبرة للعجم والترك وغيرهم ممن يأبى كبير بعضهم أن يتبعوا دين النبي العربي وهم غير مكلفين أن يزلوه ولا أن يقدسوه تقديس الأفرنج للمسيح » ^(١٢).

ثم يختتم شكيب رده المفحم على أدعياء القوميات هؤلاء بقوله « فياليتهم اقتدوا بالأفرنج في عدم ادخال العقائد في القوميات » ^(١٣).

وأمام كل هذه العقبات لا يفقد الأمير شكيب تفاؤله ، ولا ثقته في نجاح دعوته إلى (الجامعة الإسلامية) بل يرى أن المحن التي حلت بالدول الإسلامية ، والضعف الذي أصاب الأمة في العصر الحاضر قد نبها المسلمين إلى ما يهددهم من خطر ، وإلى ما يضره الغرب لهم جميعاً من الغدر والشر ، فكان ذلك سبباً في طرح ما بين الأحزاب المختلفة من الأحقاد ، واجتماع مشاعر المسلمين على وجوب نبذ الفرقة والتماسك أمام العدو المشترك .

يقول شكيب : « ولما كان ضعف الأمة الواحدة يزيل ما بين أحزابها المختلفة من الأعتقاد فقد كان من نتائج ضعف الأمة الإسلامية في العصر الحاضر ، زوال كثير من البغضاء ، التي كانت عند العجم لأهل السنة ، وزوال مثل ذلك من أهل السنة للشعبة ، وقد يورث الخير شراً والشر خيراً » ^(١٤).

ويؤكد الأمير شكيب « أن الأمة الفارسية في العصر الحاضر تشعر بشعور العالم الإسلامي جميعه ، فتهتم لتركيا ، ولبلاد العرب ، وللمصر ، وللمغرب ولكل بلاد الإسلام اهتماماً أكيداً ، ويكرثها ما يكرث المسلمين ، ويسرها ما يسرها » ^(١٥).

١ - ٣/٢/١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج١ ص ١٦٨ .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج١ ص ١٩٢ .

٣ - المرجع السابق .

ولقد ظل الأمير شكيب أرسلان منذ نعومة أظافره مناصراً (الخلافة الإسلامية) ، على اعتبار أنها المظهر السياسي الأعلى (للجامعة الإسلامية) ^(١) ، وعلى الرغم من محاولات الأمير في معالجة دولة الإسلام ، وتحذيره من سقوطها إلا أن التاريخ جرى على غير ما يشتهي ويروم ، وانتهت الحرب العالمية الأولى بسقوط الخلافة الإسلامية بعد هزيمة الدولة التي كانت قوام أمرها وواسطة عقدها .

ومع أن شكيب قد أدار ظهره لحكام تركية بعد أن قطعوا روابطهم بالعرب والمسلمين ، وأخذ يجاهد مستقلاً من أجل وحدة العرب وأخوة المسلمين ، فقد ظل يظهر حزنه على إلغاء الخلافة ، لأنها كانت في نظره أحسن علاقة جامعة بين المسلمين ، وهو مع ذلك يقول في تعقيبه على فصل الجامعة الإسلامية من كتاب (حاضر العالم الإسلامي) : «إن الخلافة لم تستم شروطها الصحيحة إلا في الخلفاء الراشدين ، وبعد ذلك فالخلافة لم تكن إلا ملكاً عضوضاً قد يوجد فيه المستبد العادل والمستبد الفاشم ، وما انقادت الأمة إلى هذا الملك العضوض المخالف لشروط الخلافة سواء كان من العرب أو من الترك إلا خشية الفتنة في الداخل والاعتداء على الحوزة من الخارج» ^(٢).

ولقد تصدى الأمير شكيب أرسلان لدعاة (القومية العربية) في زمن (الخلافة العثمانية) ، ولكن بعد تنكر الحكام الأتراك للإسلام - أولئك المسلمون الجغرافيون (كما يصفهم شكيب) الذين تواطأوا مع الأجانب في لوزان على إلغاء الشريعة الإسلامية من بلادهم ^(٣) - إلتفت الأمير إلى الأمة العربية ، فرأى يشاقب بصره ونظرته أن الإبقاء على البلاد العربية إبقاء على عمود الإسلام ، فأطلق أول دعوة للوحدة العربية ، وأول فكرة لتأليف (الجامعة العربية) بوصفها أفضل بديل مساح من (الجامعة الإسلامية) التي تفككت عراها بسقوط (الخلافة الإسلامية) ، حتى قال له الملك فيصل : «أشهد بأنك أول عربي تكلم معي عن الوحدة العربية» ^(٤).

١ - أحمد الشرياضي ، وشكيب أرسلان داعية العربية والإسلام ، ص ٢١٤ .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ج ١ ص ٢٠٠ «هامش» .

٣ - أحمد الشرياضي ، وشكيب أرسلان داعية العربية والإسلام ، ص ٢٢٠ .

ومع ذلك ظل الأمير مخلصاً (للجامعة الإسلامية) ولم يتخل عن الدعوة إليها ، مؤمناً بمستقبل الإسلام ، واثقاً بسيادته للعالم ، وينشره العدل بين ربوعه ، وإقامته السلام والطمانينة مقام الحروب والقتال : « هذا وأن رأينا الذي نعول عليه أولاً وآخراً ، ونرجع إليه باطناً وظاهراً ، أن الشرق أجمع سيتنبه من رقدته ، وينهض من كبوته ، وأنه كما شهد القرن التاسع عشر استقلال أمريكا بأسرها ، فم سوف تشهد بقية القرن العشرين استقلال آسية بعروتها وزرها ، وأنه لا تمضي الثمانون سنة الباقية لتعام هذا القرن حتى يلي الإسلام بلاده ، ويبلغ من نعمة الاستقلال مراده ، ليس هناك كهانة ولا عرافة ، ولا هي مقاصد ترك بالرقى أو العيافة ، ولكن يعرف المستقبل من الحاضر ، ويدل الأول على الآخر » (٢) .

« هذا وإن نهوض الشرق هو الشرط الأول في سؤدد السلام ، وراحة الأنام ، وحقن الدماء الحرام ... زما دام الغربيون يرون الشرق لجيوشهم مجالاً ، والإستعمار لدول أوروبا ليلاً تقفوه يميناً وشمالاً ، فالحروب بين الدول قائمة متتابعة إلى قيام الساعة .. والإختراعات التي تفتخر بها المدنية مصروفة إلى استئصال البشر وناهيك ما في مدنية كهذه من الشناعة » (٣) .

« وما دامت جمعية الأمم مثل العروض بحراً بلا دماء ، ما وجدت إلا لتلبس الإعتداء حلة قانونية ، وتسوغ الفتوحات بتغيير الأسماء ، لا بطيعها سوى ضعيف عاجز ، ولا تستطيع أن تحكم على قوى متجاوز .. »

« فلا مندوحة للأمم الشرقية عند الإقتداء باليابان في إلتماس السنعة ، ومضارعة الدول الغربية في ارتياد العلم واقتباس الصنعة » (٤) .

١ - شكيب أرسلان ، « رشيد رضا » ص ١٦١

٢/٣ - شكيب أرسلان ، جا ص (ك) ١٩٢٥/٣ م .

الجامعة العربية

الجامعة العربية

مع سقوط السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٨م انتهت السياسة الإسلامية في الإمبراطورية العثمانية ، وبرزت العصبة القومية التي حاربها عبد الحميد بكل جهده أيام حكمه ، وكان العرب والترك يلتقون عند الإسلام الذي يوحد بينهم ويسوي بين أفرادهم ، فلما صاح الترك مفاخرين بطورانيبتهم استيقظ في العرب فخرهم بمجدهم القديم ، فبدأ العرب - وهم الأمة التي ظهرت فيها الرسالة الإسلامية ونزل كتابها بلسانهم - يستنكفون من حكم الترك الذي بسط عليهم نفوذه منذ القرن السادس عشر .

ولكن لم تظهر المسألة العربية ظهوراً مستقلاً في التاريخ الإسلامي عن الفهم الإسلامي للأمة إلا بعد أن أعلن الشريف حسين (الثورة العربية) في ٩ شعبان سنة ١٣٣٥هـ (١٠ يونيو ١٩١٦م) على وعد من الإنجليز أن يجعلوه ملكاً على الدولة العربية التي تشمل جزيرة العرب والعراق وبلاد الشام ، وأن لا يعارضوا في تنصيبه خليفة على المسلمين ، وخاض الحرب هو وأولاده في سبيل ذلك إلى جانب الحلفاء حتى دخلوا دمشق تحت رايته ، راية الثورة العربية ^(١) .

ولقد كان الأمير شكيب أرسلان على وعي بما ستجره هذه الثورة على العرب من ويلات ، فكتب للملك حسين حين علم عزمه على الإغارة على سوريا مع الجيوش الإنجليزية ، ينهائه عن المضي فيما هو فيه من دعوة زعماء السوريين للخروج على الدولة العثمانية والإلتحاق بالجيوش الحسيني العربي ، ويحذره عاقبة هذه الغارات التي يضرب فيها العرب بالعرب خدمة لمصلحة العدو ، إذ يقول : « أتقاتل العرب بالعرب أيها الأمير ، حتى تكون ثمرة دما ، فاتلهم ومقتولهم استيلاء ، انكثروا على جزيرة العرب ، وفرنسا على سوريا ، واليهود على فلسطين ؟ » ^(٢) .

والأمير يحذر في رسالته من غدر الإنجليز الذي يملأ التاريخ شواهد ، ويخاطب القائمين بالدعوة العربية والمخدوعين بها قائلاً :

١ - د. محمد محمد حسين ، أزمة العصر ، ص ٥٠ .

٢ - المار ٢٥ ، ج ٩ ص ٧١٣ ص ٧١٢-٧١٨ .

« قل لهؤلاء القائمين بالدعوة العربية ، الناهضين لحفظ حقوقها وأخذ تاراتها : ماذا إلى اليوم آمنوا من حقوق العرب بقيامهم ؟ ليقولوا لنا ماذا أقاموا للعرب من الملك حتى نشكرهم ونقر بفضلهم ، لأننا عرب نحب كل من أحب العرب ، ونبغض كل من أبغض العرب ، ولا نبالي بالقبيل والقال أمام الحقائق »^(١).

ولقد سلم الكثيرون بصواب رأي شكيب في القضية العربية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، ومنهم من صارحه بهذا واعتذر إليه ، ومنهم من وضع يده في يد شكيب ، ومنهم من اقتنع عملياً وإن لم يعتذر بلسانه^(٢) ، ويقول شكيب في ذلك : « فلما انجلى الغبار وانكشفت الأسرار ، وعرفوا أنني ما تكهنت إلا بما وقع عادوا فوضعوا أيديهم في يدي وعولوا علي ، ومن هؤلاء الطلح فيصل رحمه الله ، فإنه ما سقط عن عرشه في دمشق حتى أرسل إلي بمكاني في برلين رسالة تدل على منتهى الثقة ومزيد الاعتقاد بإخلاصي للقضية العربية ، وأفضى إلي بأسرار لا يفضي بها إلى أعز الناس عليه ، وبعد ذلك بسنوات جاءني منه كتاب هو عندي يقول فيه : أشهد بأنك أول من تكلم معي من العرب في قضية الوحدة العربية »^(٣).

« والواقع أن الذين دعوا إلى (الجامعة العربية) في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي كانوا مختلفين في تصورهم لهذه الجامعة ، متباينين في أغراضهم التي يستهدفونها من وراء هذه الدعوة ، كانت الجامعة الإسلامية وقتذاك هي الرابطة التي تربط أجزاء الدولة العثمانية ، وتجمعهم تحت راية السلطنة العثمانية التي جمعت بين الزعامة السياسية والزعامة الدينية منذ تلقب سلاطينها بلقب الخلافة الإسلامية »^(٤).

« وكان بعض دعاة ما سمي في ذلك الوقت بالجامعة العربية من المسلمين خاصة لا يرون تعارضاً بينها وبين الجامعة الإسلامية ، ويسلمون بأنها هي الجامعة الأولى ،

١ - المرجع السابق .

٢ - أحمد الشراصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، ص ١٠٧ .

٣ - شكيب أرسلان ، السيد رشيد رضا ، ص ١٦٠ .

٤ - د . محمد . عبد حسين . الإسلام والعصارة الغربية ، ص ٢٠٨ .

والأهم بين المسلمين في سائر الأرض .. »^(١)

« وكان بعضهم الآخر يدعو إلى نقل الخلافة للعرب .. »^(٢).

« وكان هناك فريق ثالث من المسلمين أنفسهم واقع تحت تأثير الدعوات القومية المتطرفة التي اشتدت حركتها في أوروبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .. وهذا الفريق يلتقي في تصوره القومي مع غلاة القوميين من الترك الذين يدعون إلى القومية الطورانية ، والذين كان أكثرهم منضماً إلى حزب الاتحاد والترقي .. »^(٣).

« أما المسيحيون .. فقد كان من الطبيعي أن يكونوا ضمن الفريق الذي يرى الجامعة العربية قومية خالصة ، لأنه غير داخل بحكم مسيحيته في الجامعة الإسلامية ، وليس له ولا قلب لها ، فكل الذي يربطه بالدولة هو الولاء السياسي .. »^(٤).

وقد تسابق الاستعمار الإنجليزي والفرنسي والصهيونية إلى احتضان الحركة العربية الشائرة على تركيا منذ ظهورها ، وقد وجدوا أنها تلتقي مع أطماعهم في فترة مرحلية تمهد لتحقيق أغراضهم .

كما أكد الأمير شكيب أن الإنجليز كانوا على اتصال بالشريف حسين قبل وأثناء الحرب الكبرى الأولى ، وكانوا يتظاهرون بالموافقة على نقل الخلافة الإسلامية إلى الشريف حسين حتى يطمئن إليهم ، ويسلس لهم القياد^(٥).

لذلك دعا الأمير شكيب العرب إلى عدم الإنخداع بدعاوي الاستعمار ، وإلى

١ - المرجع السابق ، وكان يمثل هذا الفريق في مصر (مصطفى كامل) .

٢ - بدأ هذا التصور الإسلامي في مصر واضحاً في كتاب الكواكبي وأم القرى . كما كان يبدو في صحيفة والنار لمحمد رشيد رضا ، وإن كان الأخير قد دأب على مهاجمة الشريف حسين من بعد ، حين تبين له أنه آلة في يد الإنجليز لتحقيق أهدافهم لا لتحقيق أهداف العرب د. محمد محمد حسين . الاتجاهات الوضعية ، ج ٢ ص ١٢٣ .

٣ - د. محمد محمد حسين . الإسلام والعصاة الغربية (مرجع سابق) ص ٢٠٩ .

٤ - المرجع السابق .

٥ - شكيب أرسلان . حاضر العالم الإسلامي ج ١ ص ٣٩٠-٣٩١ .

وجوب الإلتفاف حول راية الخلافة العثمانية ، والإعتصام بها في وجه الأطماع الاستعمارية التي تنتظر بفارغ الصبر الوقت الملائم لاقتسام البلاد الداخلة في هذه الدولة.

ولم يكن هذا هو رأي الأمير شكيب وحده ، بل كان يراه أيضا جمع من العرب ، وإن كانوا قلة بالنسبة إلى مخالفهم ، ولذلك نرى شكيب يتحدث عن استمالة الإنجليز للعرب ، وجعلهم ضد تركيا في الحرب العالمية الأولى ، ثم يقول : « فصار بين العرب حزب غير قليل ينزعون إلى الانفصال عن الدولة قلبا وقالبا ، متوقعين لذلك أول فرصة ، ولا يمكن أن يقال أن هذا رأي الجمهرة من الأمة العربية ، بل في الحقيقة كانوا عقلا . العرب يفقهون أنه إذا وقع الانفصال بين العرب والترك تسقط بلاد العرب تحت حكم الأفرنج ، فلذلك كانوا يختارون البقاء تحت حكم الدولة العثمانية خوفاً من حكم الأجانب » (١).

وانتهت الحرب العالمية الأولى ، ووزع المشرق العربي بين إنجلترا وفرنسا كما توقع شكيب أرسلان ، أما المغرب العربي ، فقد كان شطر منه في يد فرنسا من قبل ، وكانت مصر في قبضة جيوش الاحتلال الإنجليزية منذ الثورة العربية ، وكانت ليبيا محتلة بالجيوش الإيطالية منذ غزتها قبيل الحرب العالمية .

وعند ذلك شهد الجميع بعيد نظر الأمير شكيب أرسلان ، وسلامة موقفه السياسي من أحداث عصره ، ودقة استشعاره للأحداث قبل وقوعها ، حتى قال الحاج أمين الحسيني سنة ١٩٥٥م : « أن شكيب لم ينخدع في الحلفاء مع المنخدعين ، وكان يجاهر بهذا ، ويقول لمخالفيه : « أنا أشد عربية منكم ، ولكن أعلم أن الحلفاء سينكثون عهودهم وستظهر الحقائق لكم » (٢).

ولقد كان الأمير شكيب أرسلان واثقا في حسن تقديره للأمور ، مؤمنا بصواب الخط السياسي الذي ينتهجه ليس بمجرد الحدث والتخمين بل بناء على قرائن وأدلة

١ - شكيب أرسلان ، تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ٣٤١ .

٢ - أحمد الشراصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، ص ١١٠ .

ثابتة عنده^(١)، وبناءً على تفكير سياسي عميق لا ينخدع بظواهر الأمور ومقدماتها ، وكان على وعي بما يدبر لأمته في الخفاء ، وكان يقول : « لقد أثبتوا الناس أننا - والحمد لله - مرفقون في أرائنا ، مستشعرون للأمور قبل وقوعها ، وأنا ثمانى مرات في العشر نقول رأينا فينكره الكثيرون ، ثم تحققه الأيام ، وتزيد الحوادث ويتجلى فيه الصواب كفلق الصبح »^(٢).

ولكن تركيا العثمانية الإسلامية سقطت في امتحان الحرب ، فكان لسقوطها وقع بذل زحول في الكثير من المفاهيم والمعتقدات السياسية الراسخة في العالم الإسلامي ، كما سقط بسقوطها الشكل السياسي للجامعة الإسلامية التي كانت هاجس شكيب أرسلان وشاغله في المرحلة الأولى من حياته ، وبدأ بعدها في التحول إلى المرحلة الثانية في اتجاه (الجامعة العربية) .

ولكن التحول هذا هو تدرج وامتداد وليس إنقلاباً^(٣)، ففهم الأمير شكيب أرسلان للجامعة العربية في المرحلة الثانية لم يكن سوى امتداد طبيعي لجوهر الغايات التي حكمت جهاده في سبيل الجامعة الإسلامية في المرحلة الأولى .

وينطلق الأمير شكيب أرسلان في فهمه (للجامعة العربية) « بأن العرب لم يكونوا ليتحدوا في يوم من الأيام إلا بالإسلام ، ولولا الإسلام لبقوا شعوباً وقبائل يقتتلون في جزيرة العرب إلى يوم القيامة ، وبأسهم أبداً بينهم .. »^(٤).

« فلما جاء الإسلام ووحّد بينهم في الدين ، وقال الله تعالى : « إذ كنتم أعداءً ، فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً »^(٥) ، لم يلبثوا أن خرجوا من جزيرة العرب

١ - يقول شكيب : « أنه عرف تقسيم فرنسا وإنجلترا لسورية وفلسطين سنة ١٩١٢هـ وأنه سيشرح هذا في كتاب « البيان عما شهدته بالبيان » المرجع السابق ص ١٠٦ .

٢ - الشورى . ٢٠ أغسطس ١٩٢٥م .

٣ - د . محمد شفيق شيا ، شكيب أرسلان ، مقدمات الفكر السياسي ، ص ١٣٧ .

٤ - شكيب أرسلان ، مقدمة ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ١٦-١٧ .

٥ - من سورة آل عمران آية ١٠٣ .

بقوة هذا الاتحاد ، ففتحوا نصف العالم في ثمانين سنة ، ولم يقف في وجوههم شيء .

ولكن بعد أن بعد عندهم بعهد النبوة وخلافة الراشدين ضعفت فيهم العقيدة التي كانت مدار العمل عند سلفهم ، وعادت فتجددت بينهم العصبية الموروثة عن الجاهلية ، فرجعوا يقتتلون على المضرة واليمنية في الإسلام ، كما كانوا يقتتلون قبل الإسلام ، ورجع بذلك زرعهم هشيما ، ويدرم عرجونا قديما^(١) .

فالأمير يؤمن أن العقيدة الإسلامية جعلت الإسلام هو العروة الوثقى ، وجعلت أخوته فوق كل رابطة^(٢) ، ويأن لا وحدة للعرب إلا بالإسلام ، وأن في الإبقاء على الأمة العربية مترابطة إبقاءً على عمود الإسلام .

ولا يرى شكيب تعاضاً ولا تصادماً بين الوحدة العربية والأخوة الإسلامية ، بل هو فوق ذلك يرى أن الوحدة العربية تتضمن خيراً وقوة للشرقيين والمسلمين ، فيقول : « فأمّا اتحاد العرب والجامعة العربية فليس في ذلك إلا ما يزيد الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً قوة ومنعة »^(٣) .

وكان موقف الأمير شكيب أرسلان من فكرة إنشاء الجامعة العربية هو موقف الإسلاميين الذين بدأوا يعيدون التفكير بعد نهاية الحرب العالمية الأولى فيما آل إليه أمر المسلمين والعرب ، ورأوا أن البديل الوحيد من الجامعة الإسلامية بعد هزيمة تركيا وزوال الخلافة الإسلامية هو الجامعة العربية^(٤) .

ولكن لم يكن تحول الأمير شكيب أرسلان من الدعوة إلى الجامعة الإسلامية إلى الجامعة العربية إنقلاباً ، بل كان نتيجة لتدرج منطقي فرضته أحداث عصره المتلاحقة ، فمع إلغاء الخلافة العثمانية انهارت الجامعة الإسلامية في وجهها السياسي ، وكان الأخطر من ذلك أن الشعوب الإسلامية بدت وكأنها أعرضت عن الجامعة الإسلامية ،

١ - المرجع السابق .

٢ - المرجع السابق .

٣ - مجلة الفتح ، ٩ ، رجب ١٣٤٠ هـ (عن أحمد الشريافي ، شكيب أرسلان داعية العروة والإسلام ، ص ١٤٦) .

٤ - د . محمد محمد حسين ، الإسلام والحضارة الغربية ص ٢١٢ .

وأخذت تبحث عن بديل آخر تظنه أكثر انسجاماً وتوافقاً مع شروط العصر ، وقد ساعد على نمو هذا الشعور ما بثته الدول الإستعمارية من الادعاء بأنها مستعدة لببحث موضوع استقلال الشعوب الإسلامية فيما لو تخلت عن فكرة الجامعة الإسلامية ، وقد لاحظ شكيب أرسلان تصاعد هذا الاتجاه في الفكر السياسي فقال في جملة ما ذكره عن أسباب تخلي العالم الإسلامي عن معاونة نوري حنري في جهاد: ضد الأسيان : «فشوا الإعتقاد في تركيا ، ومصر ، وقسم من بلاد المغرب ، بأن سياسة الإتحاد الإسلامي شيء مضر بالمسلمين ، حافز لأوروبا على التآب عليهم ، ومنعها استقلال ما يرجى استقلاله منهم حال كون الشعوب الإسلامية لو قامت بصانحة وطنية أو قومية خالية من صبغة الدين ، لما وجدت أوروبا بأساً من إعطائها استقلالها ، فأما شعور أوروبا بكون الإسلام في وجهها متماسكا بعضه مع بعض ، فإنه مما يزيد تصميمها على سد كل طريق فرج في وجه أبنائه» (١).

ولقد عمت هذه الظاهرة الخطيرة أرجاء العالم الإسلامي ، كما يلاحظ شكيب : «وقد زاد هذه العقيدة رواجاً في تركيا ، فشر الدعوة التوراتية التي معناها أن الأتراك ينبغي أن يكونوا تركا في الأول ثم مسلمين في التالي ، بل يذهب الغلاة من التوراتية إلى محاربة الإسلام بكل الوسائل ، لأجل قلع نفوذه لمحور الصبغة العربية من بين الأتراك» (٢).

«كما زاد ذلك رواجاً بمصر مراعاة جانب القبط الذين رأى بعض كبار الزعماء ، أن إدماجهم الحقيقي في الكتلة الوطنية المصرية ، متوقف على نفض اليد من الجامعة الإسلامية» (٣).

«ولا تخلو هذه النزعة من البلاد العربية أيضاً ، لا سيما بين الحزب الذي انتقض على الأتراك أيام الحرب العامة ، والذي تحالف مع الانجليز وتمنى فوزهم في الحرب ،

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٢ ص ١٩٢-١٩٣ .

٢ - المرجع السابق .

٣ - المرجع السابق .

بحجة أن الذي ينبغي أن يكون نصب نظر العرب هو القومية العربية ، لا الجامعة الإسلامية ، وإن هذه الجامعة توجب نفور انكلترا التي كانت عند هذه الفئة مناط آمال العرب ... بخلاف ما لو كانت النزعة عربية قومية ، فإن انكلترا ترحب بها ترحيباً (١) »^(١).

وهكذا انتشرت الدعوات القومية الانفصالية في أنحاء العالم الإسلامي ، ودفعت خط الجامعة الإسلامية إلى الظل لتتقدم عليه سياسة الإنفراد والنزعات العنصرية ، بينما ازداد شكيب أرسلان يقيناً بأن «التكتل» هو السبيل الوحيد للنجاة ، وأن تلك الدعوات القومية الانفصالية لابد أن تنتهي إلى القضاء على الشعوب الصغيرة أيام قوى الغرب الساحقة ، فرأى أنه «إذا كان هؤلاء لا يرون الاستمساك بجامعة إسلامية تشم منها رائحة الدين ، وتستوحش منها نزعاتهم العنصرية ، فليعدلوا على الأقل إلى جامعة وطنية شرقية تشمل جميع الشرقيين من أية أمة كانوا إذ كان من سنن البقاء أن يتحد الضعفاء في وجه القوى»^(٢).

وفي ظل هذه الوقائع بدأ التحول في سياسة الأمير شكيب إلى الجامعة الشرقية «فليست الجامعة الإسلامية هي العروة الوحيدة التي يقدر أن يعتصموا بها ، بل الجامعة الشرقية إذا اتسقت على الوجه المطلوب في آسية كانت أوسع نطاقاً ولكن هذه الجامعة أيضاً توجب التضامن مع سائر الشرقيين من كل أمة ومذهب ، ومما لا مشاحة فيه أنه لا أمل باستقلال الشرق ما دام مفكك الأجزاء»^(٣).

ولكن الأمير شكيب كان يخلط بين فكرة الجامعة الشرقية والجامعة الإسلامية ، وظهرت المحاولة الأولى لإنشاء رابطة من هذا النوع بعد الحرب العالمية الأولى عندما اشترك شكيب أرسلان مع جماعة من دعاة الجامعة الإسلامية السابقين - ومنهم طلعت

١ - المرجع السابق .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج١ ص ١٦٠ .

٣ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج١ ص ١٦٠ .

باشا ، الصدر الأعظم السابق ، المقيم في برلين ^(١) - في تشكيل النادي الشرقي في برلين ^(٢).

«وفي سنة ١٩٢٢م تألفت جمعية الرابطة الشرقية ، وحدد قانون الجمعية أغراضها بأنها «توثيق الروابط بين الأمم الشرقية بالتعاون الفكري بينه . ودرس حضارة الشرق وما يناسب اقتباسه لهضته من الحضارة الغربية ، وأن تتوصل إلى ذلك بإرسال العلماء والاقتصادية ، وحث دعوتها باللسان والقلم ، وإيفاد بعض رجالها إلى البلاد الشرقية للتعارف والتآلف ، وإنشاء شعب فيها ، وعقد مؤتمرات دولية في جهات متعددة لتبادل الأفكار ... الخ» ، ومع أن الجمعية قد صرحت بأن غرضها غير سياسي ولا ديني ، وبأنها جامعة للشرقيين من كل الأديان ، فقد كان اتجاهها الإسلامي واضحاً ، فهي ترسل مندوباً لمقابلة الخليفة في الأستانة ، وهي تبدأ نشاطها بالمساهمة في جمع التبرعات لترميم قبتي المسجد الأقصى والصخرة سنة ١٩٢٣م ، ثم تحيي في العام التالي ذكرى جمال الدين الأفغاني ، وتتدخل في محاولة التوسط بين الملك حسين ملك الحجاز وبين السعوديين لوقف القتال . ثم تساعد بعد ذلك في جمع التبرعات لجرحي «الرفين» في ثورة مراكش ، ولضحايا الاحتلال الفرنسي في «دمشق» ، وللدفاع عن عرب فلسطين الذين قدموا للمحاكمة سنة ١٩٢٩م لاشتراكهم في الثورة ضد استمرار هجرة اليهود ، وهكذا يتبين من عرض أعمال هذه الجمعية التي ظلت قائمة إلى سنة ١٩٣١م ، أن معظم نشاطها قد اتجه إلى البلاد الإسلامية ، والعربية منها خاصة» ^(٣).

وتلا ظهور (الرابطة الشرقية) ظهور (جمعية الشبان المسلمين) في آخر سنة ١٩٢٧م ، وقد انصرف معظم نشاطها الإسلامي - كسابقتها - إلى العالم العربي ، فأُسست لها فروع في فلسطين وفي سورية وفي العراق ^(٤).

١ - وذلك قبل اغتياله في ١٥/٣/١٩٢١م .

٢ - د. محمد شفيق شيا ، شكيب أرسلان ، مقدمات الفكر السياسي ، ص ١٩٠ .

٣ - د. محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، ج ٢ ص ١٢٨ .

٤ - المرجع السابق ص ١٢٩ .

وشكيب كان يعلق أملاً كبيراً على جمعيات الشبان المسلمين ، ويرى أن المسلمين نهضوا نهضة مذكورة بعد الحرب العالمية الأولى ، ونفضوا غبار الخمول عن نفوسهم ، ومن أحسن ما قاموا به إنشاء جمعيات الشبان المسلمين في مصر وفلسطين وسورية والعراق ^(١) .

وعندما اجتمع الزعماء العرب حين اجتمعوا في القاهرة ، وشكلوا اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني سنة ١٩٢٢ م ، قرروا تأليف وفد عربي يدافع عن سورية وفلسطين ، ويسعى لتحرير هذين القطرين من براثن الإستعمار ، فيبسط قضيتهما أمام الرأي العالمي . ويتابع المحاماة عن حقوقهما والعمل لاستقلالهما في جمعية الأمم بجينيف ، ولم يجدوا بداً من الاستنجد بشكيب والإفادة من ثقافته ورجولته وإخلاصه ونضاله ، فانتخبوه سكرتيراً أول الوفد ، وأرسلوا إليه برقية إلى برلين تدعوه إلى تأليف الوفد المذكور .

وسافر شكيب من برلين إلى جنيف سنة ١٩٢٥ م للقيام بهذه المهمة المقدسة الجديدة بتكليف من قومه ^(٢) ، وتاريخ ١٥ سبتمبر يقدم إلى عصبة الأمم نداء مطولاً بالفرنسية ، يطالب فيه بسرعة الإعتراف باستقلال سورية ولبنان وفلسطين وبالسُلطان القومي لهذه الأقطار الثلاثة ، ويحق هذه البلدان في أن يرتبط بعضها مع بعض بحلف بينها ، ويطالب بإلغاء نظام الإنتداب ، ويجلاء القوات الأجنبية عن سورية ولبنان وفلسطين ، وادخال سورية ولبنان الكبير في عصبة الأمم مع إعلان استقلالهما التام الناجز ... الخ ^(٣) .

وهكذا نزل الأمير شكيب إلى ساحة العمل السياسي العربي ، وكما اتسمت الجامعة الإسلامية بالطابع النضالي المعادي للغزوة الأوروبية الصليبية السياسية ، كذلك اتسمت الفكرة العربية الصاعدة بمواجهة الاستعمار الأوروبي العسكري/السياسي/الاقتصادي .

١ - أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروة والإسلام . (مراجع سابق) ، ص ٢٢٨ .

٢ - د . سامي الدعان ، الأمير شكيب أرسلان حياته وأثاره . ص ٨٤ .

٣ - شكيب أرسلان ، الشورى ، ١٩٢٥/١١/٥ .

ولنظرة شكيب وفراسته الصادقة في الأمور السياسية الخطيرة ، حتى أنه طالما تنبأ عن أمور قبل وقوعها فجاءت كما حدث ^(١) ، أخذ يدعو العرب إلى الإتحاد وهو في أثناء تكراره لدعوته يندّر ويحذر من مستقبل الأمة العربية إن بقيت مفككة فيقول سنة ١٩٣١م :

«الوقت مخيف جداً ، والمستقبل مظلم حالك الظلام ، والحرب الأوروبية مهما تأخرت فهي آتية لا ريب فيها ، وقد ينشأ عنها من تقاسم بلدان الضعفاء ، ومن المعاوزات والمبادلات ما نشأ في الحرب الماضية .

فالبلدان العربية تحت الخطر ، بل الخطر الشديد ، إنني لأعلن العرب هذه الحقيقة من الآن ، وليس أمامهم لدرء الخطر إلا الإتحاد ظاهراً وباطناً ، أنه إذا نشبت حرب أوروبية تفلت كل من قيده ، وصار كل قوى يستعمل قواه ، والحق بعد ذلك للغالب ، وقد ينتهي الأمر بالإتفاق ، ولكن على ظهر الضعيف » ^(٢).

ولقد كان شكيب فيما يقول الرواة أول من دعا إلى إنشاء (الجامعة العربية) عقب الحرب العالمية الأولى ^(٣).

يقول الأستاذ عبد العزيز عزت عن شكيب : «وهو أول من نادى عن عقيدة وإيمان بتكوين جامعة عربية تعمل على تضامن العرب كافة واسعادهم واستقلالهم ، وكان يقول ان شريعة الرسول صلى الله عليه وسلم التي تسوي بين المسلم وغير المسلم في بلاد الإسلام : (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) تجعل مواطنينا غير المسلمين تواقين للإستقلال معنا ، وتاريخ الدول الإسلامية أعظم شاهد على هذه المساواة في جميع الحقوق وتماث الحرية» ^(٤).

١ - يقول د. زكي علي في هذا المقام : «الأمير شكيب أرسلان كثيراً ما تكهن في الأمور السياسية الخطيرة قبل وقوعها ، حتى إذا اندلعت شر الفيب عن وجه المستقبل جاءت الحوادث مصداقاً لتكهنه ، دليلاً على صواب حكمه . ولا غرو أن هذا يعزى إلى سلامة فطرته وأصالته رأيه .. فوق ما أمتاز به من الخبرة وبعد النظر والتجربة خلال عشرات السنين من حياته السياسية » شكيب أرسلان داعية العروبة (مرجع سابق) ص ٥٥

٢ - الفتوح ، عدد ٤ شوال سنة ١٣٥٠هـ .

٣ - أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، (مرجع سابق) ، ص ١٢٢ .

٤ - المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

غير أن (الجامعة العربية) - كما ذكرنا - لم تكن نقيضاً للإسلام في فكر شكيب، أو بديلاً عن (الجامعة الإسلامية) كمشروع سياسي، فالكثير من عناصر الجامعة الإسلامية ومكوناتها قد وجدت طريقها إلى فكرة العروبة، كما استلهمت (الجامعة الإسلامية) في ضرورة الوحدة، وحدة المشرقيين ووحدة المستضعفين، واستلهمت في ذلك كله طابع الجامعة الإسلامية النضالي المعادي والمقاوم للفوزة الغربية الاستعمارية، فالجامعة العربية اعتبرت في فكر الأمير أكثر توافقاً مع وقائع المرحلة وتحدياتها، وأقرب نفعاً في تأمين مستلزمات الوحدة والنضال.

«وهكذا لم يتردد عرب الجامعة الإسلامية، ولم يقعدهم انكفاء الإسلام السياسي، بل انخرط الكثير من قادتهم في معركة دفع الاستعمار الأوروبي عن البلاد العربية، ويات أكثرهم أعضاء نشطين في حركة المقاومة العربية الآخذة بالانتشار والتصاعد، ونكتفي بذكر بعض هؤلاء أمثال الحاج أمين الحسيني، علاء الفاسي، أحمد زكي، ساطع الحصري وغيرهم، كان شكيب أرسلان بين أكثر هؤلاء نشاطاً واندفاعاً وإقداماً في خدمة القضية العربية الاستقلالية»^(١).

لقد رأى الأمير شكيب ومعه فريق من الإسلاميين أن قوة (الجامعة العربية) مستمدة من أنها جزء لا يتجزأ من (الجامعة الإسلامية)، ومن النماذج القوية التي تعبر عن هذا التصور الإسلامي للجامعة العربية ما نشر في صحيفة السياسة تحت عنوان «الوحدة العربية - وهل هي خيال؟».

«لم تكن الوحدة العربية فكرة اليوم، فهي ريبية الدعوة المباركة للجامعة الإسلامية الكبرى، أو قل إنها جزء لا يتجزأ منها، بل لا نكون مغالين إذا اعتبرناها حجر الزاوية في بناء تلك الجامعة العتيقة التي نعتقد أن عناصر تكوينها من روحية وثقافية وحضارة وتقاليد هي العناصر نفسها، مصقولة بمبرد التطور، التي يقوم عليها نشدان الوحدة العربية»^(٢).

١ - د. محمد شفيق شيا، شكيب أرسلان مقدمات الفكر السياسي، (مرجع سابق)، ص ١٩٥.

٢ - ملحق السياسة الأدبي عدد ٦ رجب ١٣٥١ - ٥ نوفمبر ١٩٣٢ لعبس بنذك - عن الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، لمحمد محمد حسين، ج ٢، ص ١٨٠، (مرجع سابق).

وشكيب أرسلان يرى أن تكون الوحدة اتحاداً عسكرياً واقتصادياً وسياسياً يضمن البقاء للجميع حتى لا تنفك مشكلة الاتحاد الإداري عقبة في طريق تنفيذ مشروعه ، فالوحدة العربية لا توجب « تمام اندماج مملكة بأخرى ، بل هي ممكنة بسهولة مع إبقاء كل من العراق وسوريا والمملكة العربية السعودية ممالك مستقلة بإدارتها الداخلية »^(١).

ويتحدث عن الاتحاد العربي بين الدول الأربع : « الشام والعراق ومملكة ابن سعود ومملكة اليمن » ثم يذكر أنه عند اتحاد جميع هذه البلدان يبلغ العرب الذين فيها من العدد ثلاثة وعشرين مليوناً من الأنفس « فإذا وجدت مصر في شرقها ثلاثة وعشرين مليوناً عربياً متحالفاً تحالفاً عسكرياً ، اقتصادياً ، اجتماعياً ، متحدتين كتلة واحدة في وجه كل مناوئ ، فلا نظن أنها تتردد في أن ترتبط مع هذه الأمة العربية الكبيرة ارتباطاً متيناً وثيقاً عسكرياً واقتصادياً ، وتصير عندنا بذلك (جهة شرقية) هائلة يربو عدد أهلها على خمسة وأربعين مليون نسمة »^(٢).

ويلاحظ أنه استعمل كلمة « جهة شرقية » مما يدل على تواصل الخط السياسي في فكره الذي بدأه من الجامعة الإسلامية إلى الرابطة الشرقية إلى الجامعة العربية استجابة لجملة الحقائق التاريخية والسياسية التي استجدت مع نهاية الحرب العالمية الأولى ، ودون أن يكون في ذلك التحول تراجعاً أو انقلاباً .

ويقرر الأمير شكيب في مواقف مختلفة الروابط التي تربط شعوب العربية من العقيدة الدينية واللغوية والجزائر وتشابه الظروف الاجتماعية والحوادث التاريخية والمطامح السياسية وأهداف الرقي المدني والاقتصادي ، ويذهب بعد ذلك إلى تأكيد إيمانه بتحقيق تلك الوحدة العربية ، فيقول : « إن الأمة العربية سائرة إلى الوحدة ، مهما عارض في ذلك اللثام من أعدائها ، والمتفلسفون من أبنائها ، وأن هذه الوحدة آتية لا ريب فيها »^(٣).

١ - من محاضرة لشكيب عن «الوحدة العربية» في النادي العربي بدمشق يوم ٢٠ سبتمبر ١٩٣٧ عن أحمد الشراصي ، شكيب أرسلان داعية العربية والإسلام (مرجع سابق) ص ١١٥ .

٢ - المرجع السابق ص ١١٦ ، ويلاحظ أنه كان يقول هذا في سنة ١٩٣٧ م .

٣ - شكيب أرسلان ، التزامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف ، ص ٧٢ .

أما تصور الأمير للمستقبل السياسي للجامعة العربية فيقوم على أساس أن «العرب أمة كاملة ، أي أن لها جميع العناصر التي يقتضيها كيان الأمم من الوجهة السياسية والإجتماعية فلها عرق واحد ولسان واحد وأكثرية دين واحد ، وتاريخ واحد كما أن لها مصالح واحدة ، ومنافع واحدة وآمالا واحدة ، ولكن الذي فت في عضد هذه الأمة ، وأقصاها عن السير في مواكب المدنية والرقى هو تفكك حلقاتها واستعمار الأجنبي لها»^(١).

ويحدد الأمير شكيب دوره وهدفه من (الجامعة العربية) فيقول : «أنا جندي من جنودها له ثلاثة أهداف جلية وواضحة تمام الوضوح .

الأول هو الاتحاد ، والثاني هو التحرر ، والثالث هو السير في مواكب النهضة والعلم والبعث»^(٢).

ومع ذلك كله ، فلم يكن طريق الدعوة إلى (الجامعة العربية) ميسراً ولا ممهداً ، فقد كانت تعترضه عقبات كثيرة ، ولم يكن الاحتلال الأجنبي الذي قطع أوصال بلاد العرب هو شر هذه العقبات وأخطرها^(٣) فهناك المسيحيون الذين تخوفوا من أن تتكشف الرجة العربية عن شكل جديد من أشكال التسلط الإسلامي^(٤) ، وقد يكون لهذا النفور من المسيحيين عذرهم فيما ذهبوا إليه ، فقد لقي هؤلاء من عنث الحكام ومن فساد الإدارة في أواخر الدولة العثمانية ما نفرهم من الارتباط بالحكم الإسلامي جملة^(٥) ودعاهم إلى تفضيل الاستعمار الأوروبي (الأفرنجي) أبياً كان وبأية صورة احتل البلاد على ابن وطنهم ، وأحياناً على ابن جلدتهم المشارك لهم في السراء والضراء ، بحجة كونهم مختلفين مع ابن وطنهم في الدين .

وقد أوضح الأمير شكيب أرسلان عقم هذه السياسة وسقمها ، ومخالفتها للعقل

١ - محمد علي الطاهر ، ذكرى الأمير شكيب أرسلان ، ص ٢٤٢ .

٢ - المرجع السابق .

٣ - د. محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية (مرجع سابق) ص ١٣٦ .

٤ - صالح بن عبد الله العبد ، فكرة القومية العربية في ضوء الإسلام ص ١٧٦ .

٥ - د. محمد محمد حسين ، الإسلام والحضارة الغربية ، ص ٢١٣ .

والكرامة والمصلحة في مقالة تحت عنوان «العروة جامعة كلية» نشرت في «عروة الاتحاد» في أيلول ١٩٤٠م ، ثم أعاد نشرها كاملة الشيخ أحمد الشرباصي^(١) ، تحدث فيها الأمير شكيب عن الروابط التي تجمع بين المسلمين والمسيحيين ، وأهمها رابطة الدم ، بالأصل ، ثم المصالح ، واللغة ، والوطن ، وضرب الأمثلة ، وبين كيف يرجع نصارى العرب إلى أصول عربية ، كما تحدث عن تأثير العقيدة الدينية ، وأنها لا تنفي رابطة الدم ، وبين أنه لا تعارض بين الوحدة الإسلامية والوحدة العربية ، وأن الحروب الصليبية هي التي أوجدت العداوة بين المسلمين والمسيحيين ، ويشير إلى اتحاد المسلمين والأقباط في مصر ، ويجعل ذلك قدوة لسورية^(٢) .

ولنا أن نقف هنا عند ثلاث مسائل أولاها شكيب كبير عنايته وتعد بذروة تصوره السياسي حول (الجامعة العربية) :

الأولى : يرى شكيب أن رابطة الدم من أقوى الروابط الجامعة بين الشعوب ، وأن رابطة العقيدة الدينية لا تنفي رابطة الدم ، يقول الأمير شكيب : «إن العرب سواء كانوا مسلمين أو نصارى هم عرب ، لا يقدرون أن يبتزروا من أصلهم ، ولا أن ينسلخوا عن أرومتهم العربية ولا نزاع أن رابطة الدم كانت ولا تزال من أقوى الروابط الجامعة بين الشعوب ، ولا نزاع أيضا أن رابطة العقيدة الدينية هي ذات تأثير عميق في اجتماع الشعوب وافتراقها ، ولكنها لا تنفي رابطة الدم ، ولا تمحوها من الوجود ، لاسيما إذا كانت رابطة الدم معززة برابطة الجوار ومقتضيات المصلحة المادية المشتركة»^(٣) .

ثم يقرر الأمير حقيقة هامة ثبتت في وعيه السياسي بفعل التجربة الغنية التي خبرها أمدا طويلا : «لقد أثبتت التجربة أن رابطة الدين على أهميتها لم تكن هي كل شيء ، وأن رابطة اللغة ورابطة الدم كان لهما في جانبها مكان من البال لا يقل عنها»^(٤) .

١ - في كتابه : «شكيب أرسلان داعية العروة والإسلام» .

٢ - شكيب أرسلان «العروة جامعة كلية» عن «داعية العروة والإسلام» (مرجع سابق) .

٣ - المرجع نفسه ص ١٦٢

٤ - المرجع نفسه

وينقل الأمير شكيب أرسلان عن الفيلسوف « ريتان » الفرنسي : أن أقوى جامعة بين الشعوب هي « جامعة الإرادة » في الاجتماع ^(١) ، ثم يعلق شكيب بقوله : « ونحن أولاً - نجد بين المسلمين والمسيحيين في الشرق لا جامعة واحدة بل جامعات كثيرة كلية ، منها وحدة الأصل ، وليس ذلك بالأمر الذي لا تبالي به الشعوب .. وزد على هذه وحدة المصلحة الراهنة المشتركة في الحياة الدنيا ، وهي لا تقل شأنًا عن الوحدتين السابقتين ^(٢) .

ويرد الأمير الإعتراض بأن في الشعوب العربية أنساباً متباينة وأقواماً لا يجري فيها الدم العربي الصراح ، فيقول : « وإن كنا نريد البحث والتدقيق فأية أمة في العالم تظهر أنها من أصل واحد اليوم لم تكن مركبة في الأصل من عناصر شتى ؟ ^(٣) .

فالنسب العرقي النقي وهم لا وجود له في أمم الأرض جميعاً ، ومثل هذا لا تخلو منه أمة ، حتى أن العرب أنفسهم - وإن كانوا جميعاً ساميين - لبسوا من أصل واحد ، فمنهم العرب البائدة ، مثل عاد وثمود وطسم وجديس ، ومنهم العرب العاربة ، وهم سلالة قحطان ، ومنهم العرب المستعربة ، وهم سلالة إبراهيم الخليل عليه السلام ، ومع ذلك فإن العرب أمة واحدة ، لا يقدح في وحدة أصلها إلا شافي . أو حاسد أو مشاق معاند ^(٤) .

« فإن كان في الأمة العربية اليوم أقوام هم من أصل آرامي أو كنعاني أو نبطي ، أو غير ذلك ، فهذا لا يقدح في كونهم من جملة الأمة العربية الكبيرة البالغة سبعين مليون نسمة ، اتحدوا في الأصل السامي ، ثم اتحدوا في اللغة العربية ، وحسبك باللقمة العربية عنواناً على العروبة » ^(٥) .

المسألة الثانية : وهي ما أشار إليها شكيب في النص السابق ، بقوله « اللغة

١ - المرجع نفسه

٢ - المرجع السابق

٣ - المرجع نفسه

٤ - المرجع نفسه

٥ - المرجع نفسه

عنوان على العروبة» ، فشكيب أرسلان يرى أن عامل وحدة اللغة سابق على غيره من العوامل ، وأن الأمة تتكون أساساً بهذا العامل مهما تعددت الأصول ، وتباعدت الأقاليم ، وتباينت التقاليد والعوائد .

وبهذا التصور اللغوي للأمة تصبح اللغة أهم عوامل التوحيد القومي «وليس اللغة العربية وحدها هي (البوتقة) التي ذابت فيها قبائل شتى فصيرتها جسماً واحداً وروحاً واحدة ، بل كل لغة من اللغات الكبرى كالانكليزية والألمانية والإفرنسية والطلبانية والروسية قد كانت (بوتقة) ذابت فيها عناصر مختلفة الأصل قصارت عنصراً واحداً»^(١).

ويشير الأمير إلى الترابط الوجداني الذي تحدثه اللغة في نفوس المجتمعين عليها حتى أنه قلما تضلع إنسان في لغة قوم إلا أحب أولئك القوم ، ولهذا نجد أكثر علماء العربية من التصارى - سواء كانت أصولهم عربية بحتة ، أم لم تكن - يحبون العرب ويفتخرون بالعروبة ، وقد كان من الفرس ومن الترك علماء بالعربية جعلهم اتقانهم للعربية من أنصار العروبة^(٢).

وهنا يلحح الأمير عاملاً هاماً من عوامل تفكك عرى (الجامعة الإسلامية) ، وهو إهمال تدريس اللغة العربية - بعد أن كانت عامل توحيد للشعوب الإسلامية - في تركيا «وغلب على ناشئها تعلم اللغات الأوربية ، وإهمال اللغة العربية التي كانت لغة العلم عندهم من قبل»^(٣) ضعف ميل الأتراك إلى العرب ، بل انقلب إلى النفور ، وانتهى بالعداوة . وما نقوله عن الترك في هذا الباب نقدر أن نقوله عن الإيرانيين^(٤).

المسألة الثالثة :

وهي تأكيد الأمير شكيب على عدم وجود تعارض بين الوحدة الإسلامية والوحدة

١ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق ، ص ١٧١ .

٢ - المرجع السابق ، ص ١٧٢ .

٣ - وفي هذا يقول جمال الدين الأفغاني : «... أما الأتراك فقد أمهلوا أمراً عظيماً وحكمة نافعة قالها السلطان محمد الفاتح رحمه الله عليه وأحب أن يعمل بها السلطان سليم وهي قبول اللسان العربي لسان الدولة ، محمد باشا المخزومي ، خاطرات جمال الدين الأفغاني ، ص ٨٨ .

٤ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق ، ص ١٧٢ .

العربية ، هي مسألة دقيقة ناقشها الأمير شكيب أرسلان بعناية المفكر الحريص على التوفيق بين أبناء الوطن الواحد ، وقد تختلف معه في بعض الرأي لكننا نتفق معه في الإطار العام وفي الغاية والهدف .

بداية يقرر شكيب أرسلان أن الدين الإسلامي جعل العقيدة الإسلامية فوق كل شيء ، ونهى الذين آمنوا عن أن يتولوا الذين لم يؤمنوا ، ولو كان هؤلاء من ذوي قرياهم ، أو كانوا أصولهم أو فروعهم ^(١) .

ويستشهد بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء . إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ، قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتمسكوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين » ^(٢)

ثم يرد الأمير شكيب أرسلان على المعارضين لفكرة الربط بين العروبة والإسلام ظناً منهم أن في الجمع بينهما جمع بين نقيضين ، فإذا كانت « الوحدة الإسلامية هي المقدمة على كل وحدة أخرى من النسب واللغة والحوار والمصالح المشتركة ، فأية فائدة إذن أن يتحد نصارى العرب مع المسلمين منهم ؟ » ^(٣) ويرى شكيب أن الجواب عن ذلك سهل إلى الغاية ، وذلك من وجوه :

الأول : أنه إذا كان القرآن جعل الرابطة الإسلامية فوق كل شيء فإنه جعل الحق في المعاملات فوق الرابطة الإسلامية حتى أنه سوى في الحق بين المسلمين وغير المسلمين ، ونهى عن أن تكون العداوة الدينية سبباً لحرمان الأعداء من حقوقهم .

فقال تعالى في سورة المائدة : « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله

١ - شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام (مرجع سابق) ص ١٧٤ .

٢ - سورة التوبة آية ٢٣-٢٤ .

٣ - المرجع السابق ص ١٧٥ .

إن الله شديد العقاب» آية : ٢

وقال تعالى في السورة نفسها : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » آية : ٨ (١).

وهكذا يقوم الأمير بإثبات الغاية المقصودة من الشريعة الإسلامية وهي إقامة (العدل) بين الناس ، ولهذا أمر الله المسلمين أن يقوموا بالقسط ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين ، وأمر بالعدل ولو مع العدو ، وجعل العدل في الحكم وفي القول مفروضاً في كتاب الله فانتقطع بذلك خوف غير المسلمين من الإجتماع مع المسلمين في دولة إسلامية تحكم بشريعة الإسلام .

« فإذا كان الشرع الإسلامي لا يبيع لمسلم أن يجور على مسيحي ، أو على أي كان من غير المسلمين ، ولو كان عدواً له وللإسلام عموماً ، وكان يوجب أن يوفر لهذا العدو حقه غير منقوص ، فأى مكان بعد هذا للخوف من الإجتماع مع المسلم في حكومة واحدة ؟ وأي محذور من جعل القرآن رابطة الدين فوق كل رابطة ، وهي لا تقدر أن تبطل حقاً ، ولا أن تمحق باطلاً في معاملات المسلمين مع غير المسلمين ؟ » (٢).

أما الوجه الثاني الذي يدعو إلى ترابط المسلمين بالمسيحيين في داخل (الجامعة العربية) فهو أن الشرع الإسلامي قد فرق بين المشركين وبين أهل الكتاب ، الذين منهم اليهود والنصارى ، فإن هؤلاء بالنظر إلى عقيدتهم بالخالق تعالى ينظر إليهم الإسلام بغير النظر الذي ينظر به إلى الملحدين والمعتولين والمشركين (٣) ، فيقول الله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٤).

١ - المرجع نفسه .

٢ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

٣ - المرجع نفسه .

٤ - سورة المائدة آية ٦٩ .

ويعتقد الأمير شكيب أن الله تعالى جعل باب الرحمة مفتوحاً لأهل الكتاب ، ويستشهد على اعتقاده هذا بقول الله تعالى في آخر سورة المائدة على لسان سيدنا عيسى : ^(١١) « ما قلت لهم إلا ما أمرتني به ، أن اعبدوا الله ربي وربكم ، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شيء شهيد ، إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » ^(١٢) .

وهناك وجه ثالث لتقارب المسيحيين مع المسلمين ، يرى الأمير أن من لم يتأمل القرآن العظيم لا ينتبه إليه ، وهو أن الله سبحانه وتعالى قد جعل اليهود والمشركين أعداء للمسلمين من دون النصارى ، وقد ورد هذا بالنص الصريح ^(١٣) في قول الله تعالى : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكثبنا مع الشاهدين » ^(١٤) .

ويؤكد الأمير شكيب أن المسلمين في صدر الإسلام وما بعده كانوا لا يعتبرون النصارى أعداء لهم ، وكان ذلك عقيدة عندهم مدة قرون متعددة ، « ولكن العداوة بين المسلمين والمسيحيين لم تبدأ في الشرق إلا بعد أن فكر الغرب في الاستيلاء على الشرق ، وزحفت الأمم الأوروبية كلها على المشرق ، تريد القضاء على دولة الإسلام ، بحجة استنقاذ بيت المقدس .. ولم تزل أوروبية تنفخ في هذا النفير من ذلك الوقت وكلما هدأت حركة العدا ، بين المسيحيين والمسلمين في الشرق جاءت الدول الأوروبية فأشعلت نارها » ^(١٥) .

ما يفرق إذاً بين العربي المسلم والعربي المسيحي إنما هي إحن داخلية وغريبة

١ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق ص ١٧٦ .

٢ - سورة المائدة آية ١١٧-١١٨ .

٣ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق ، ص ١٧٧ .

٤ - سورة المائدة ، آية ٨٢-٨٣ .

٥ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق ، ص ١٧٩-١٨٣ .

تعود إلى الإرث الصليبي قديما والمد الأوروبي الاستعماري الجديد^(١)، ولكن (الجامعة العربية) الناطقة لشمل المسلمين والمسيحيين من العرب «هي أشد قوة وأحصف مبررة بالنظر إلى وحدة الدم واللغة والمصلحة من روابط سائر الأمم الدامجة بعضها مع بعض»^(٢)، وهي أيضا ثابتة بالشرعة الإسلامية كما تقدم .

والأمير شكيب أرسلان لا يرى في اختلاف العقائد الدينية سببا لاختلاف العقائد السياسية ، وبناء على ذلك فالعروية تمثل في فكر الأمير كتلة سياسية في مجال الصراع العالمي الذي لم يعد فيه مكان للكتل الصغيرة لضعف إمكانياتها ، ولعجزها عن الدفاع عن نفسها أمام الطامعين ، وعليها في سبيل هدفها أن تغلب على أسباب الفرقة بكل أشكالها سواء بين أبناء الأديان المختلفة أو بين أبناء الدين الواحد ، يقول شكيب :

«ولنا الأمل في أن تكون العروية سواء كانت من جهة الدم أو من جهة اللغة هي الجامعة الكلية ، لا بين المسلم والمسيحي فقط ، بل بين أبناء الفرق الإسلامية من سنة وشيعة ودروز وعلويين واسماعيليين ، وبين الفرق المسيحية بعضها من أتباع الكنيسة الشرقية وأتباع الكنيسة الغربية»^(٣).

ولكن تبقى العروية في فكر شكيب أرسلان (عروية إسلامية) ، فظروف نشأتها في ظل دولة إسلامية جامعة للشمل تختلف عن ظروفها مع تفرق الشمل واختلاف الكلمة ، فإذا كانت هذه الدعوة قد فتت بالأمس في عضد (الجامعة الإسلامية) ، فهي في هذه المرحلة - إذا صححت مسيرتها - الخطوة الأولى في الطريق إلى هذه الجامعة^(٤).

«فالعرب هم أقرب الناس بين المسلمين إلى تحقيق وحدة جامعة يحكم اللغة المشتركة التي تربط بعضهم ببعض من ناحية ، والتي تربطهم بأصول الدين الإسلامي من

١ - د. محمد شفيق شيا ، شكيب أرسلان مقدمات الفكر السياسي ، (مرجع سابق) ، ص ٢١٩ .

٢ - شكيب أرسلان ، (العروية جامعة كلية) ، دأعية العروية والاسلام (مرجع سابق) ، ص ١٨٦ .

٣ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق ، ص ١٨٧ .

٤ - د. محمد محمد حسين ، الاسلام والحضارة الغربية (مرجع سابق) ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

ناحية أخرى ، وبحكم تجمع دولهم وتلاصقها واتفاق العادات أو تقاربها على الأقل مهيئون لأن يكونوا نواة إسلامية صلبة تنبع على العالم الإسلامي من ثقافة الإسلام»^(١).

(الجامعة العربية) هي نقطة البدء التي لا بديل منها في هذه المسيرة الطويلة نحو (جامعة إسلامية) لا سبيل إليها الآن^(٢).

لذلك فرح شكيب أرسلان لما تألفت (الجامعة العربية) وحياتها ، وتعنى لها التوفيق ، ومن أقواله الأخيرة : «إن الجامعة لن تستطيع تنفيذ مبادئها والاطمئنان إلى مستقبلها دون أن يكون لها جيش مرهوب الجانب تستطيع أن تشترك فيه جميع دول (الجامعة العربية)»^(٣).

وينقل «محمد علي الطاهر» مدى فرح الأمير شكيب وقد عاد إلى وطنه سنة ١٩٤٦م بعدما تحقق حلمه بتأسيس الجامعة الغربية^(٤) ، كما ينقل تأبين الشيخ بشارة الخوري للأمير بعيد وفاته في بيروت «... فرحت للبنان وسورية ولجميع البلاد العربية إذ وجدت لها مشأخية في جامعة سعت لها طول حياتك ، فتحققت بها أمنيتك ومساغيبك»^(٥).

وأحسن ما قيل في تقدير سعي الأمير شكيب أرسلان وجهاده في سبيل وحدة العرب وجمع كلمتهم ، ما كتبه رشيد رضا عنه عندما لبي شكيب أرسلان دعوة الحاج أمين الحسيني لإصلاح ذات البين بين إمام اليمن وابن سعود ولوقف الحرب اليمنية الحجازية فقال رشيد رضا : «... واستجاب له (الحاج أمين الحسيني مفتي القدس) من أوروبا أكبر كتاب الأمة العربية وأمير البيان فيها الداعي إلى وحدتها المحامي عن حقيقتها المصانف عن ملتها ورئيس الوفد السوري الفلسطيني في جنيف ، مثابة سياسة

٢/١ - المرجع نفسه .

٣ - د. سامي الداهان ، شكيب أرسلان ، حياته وأثاره ، ص ٩٩ (مرجع سابق) .

٤ - أصبحت (الجامعة العربية) حقيقة واقعة في ٢٢ مارس ١٩٤٥م حين اشترك في توقيع ميثاقها سبع دول عربية ، هي : مصر والمملكة العربية السعودية وسورية ولبنان وشرق الأردن والعراق واليمن . (الاتجاهات الوضعية ج ٢ ص ١٨٩) .

٥ - محمد علي الطاهر ، ذكرى الأمير شكيب أرسلان ، ص ٣٤ .

الأمم كلها ، الأمير شكيب أرسلان»^(١).

- تعليق حول تحول الأمير من (الجامعة الإسلامية) إلى (الجامعة العربية) :

لم يجانب الأمير شكيب أرسلان الصواب عندما توجه بكل طاقته نحو (الجامعة العربية) ، فما العرب إلا مسلمون «بل هم جرثومة الإسلام وأصله الأول وقلبه النابض ، فإذا عجزنا عن تقديم جامعتهم وحملها على الإسلام ، فنحن أعجز عن تقويم جامعة المسلمين وحملها عليه»^(٢) ، وإذا كان «فريق من الإسلاميين ظلوا متأثرين بالظروف التي أحاطت نشأة الجامعة العربية حين كانت فكرة ومبدأ ، وبعد أن أصبحت مؤسسة سياسية ، وظلت في تقديرهم فرعاً من الاتجاه القومي الوافد على بلاد المسلمين من أوروبا ، والذي كان سبباً في تعزق الجامعة الإسلامية»^(٣) ، فقد أدى إعراضهم عنها إلى ترك الميدان مفتوحاً «لتسلل زعامات غير إسلامية أقحمت عليها مذاهب ومناهج في السياسة والاقتصاد تناقض الإسلام»^(٤).

١- شكيب أرسلان ، السيد رشيد رفح ، أو إخاء أربعين عاماً ، ص ١٨٩ .

٢/٣ - د. محمد محمد حسين ، أزمة العصر ، ص ٤٤-٥٥ .

آراء الأثير شقيب أرسلان في (التربية)

آراء الأمير شكيب أرسلان في

(التربية)

إن الضعف والاضمحلال اللذين أصابا الدولة العثمانية (دولة الخلافة) لم يصدرا عن الخلافة نفسها - كما يقول الذين لا يدققون في أسرار الأمور أو الذين في قلوبهم مرض - وإنما كان مبعثهما - في رأي شكيب - حال المسلمين في العالم الإسلامي ، « فقد كان العالم الإسلامي قبل الحرب العامة معتمدا على الدولة العثمانية يراها كل شيء ، ويطلب منها كل شيء ، ويظن نفسه مستترحا بوجودها » ^(١) وكان المسلم لا يفكر ولا يريد أن يفكر في مسائل الإسلام العامة اعتقاداً منه بأن هناك دولة كبرى وخلافة هي المرجع لكل هذا وإنها ناظرة إلى كل هذا .

« وصار هذا الاعتقاد وسيلة للمسلم أن يكمل ويهمل ويقول لنفسه : مالي وللإهتمام بما يهتم به من هو أولى وأقدر مني ؟ وربما قال : بما لا يعنيني » ^(٢) .

« فهذا الاعتماد أضر الخلافة وأضر العالم الإسلامي نفسه ، أضر الخلافة لأنه حملها كل شيء من الفلبين إلى المغرب وألقى كل المهام عليها فعجزت ورزحت تحت الحمل حتى عجزت عن حفظ ما هو بيدها فضلا عن البعيد .

وأضر نفسه لأنه بتشغيل أن كل المهام قائمة بها الخلافة في استانبول أهمل كل سعي وكل عمل وصار ينظر إلى نفسه كقاصر ليس له أن يهتم بشيء مع وجود وليه فصارت الدولة ضعيفة وصار العالم الإسلامي ضعيفا وصار ضعف كل منهما يزيد ضعف الآخر » ^(٣) .

وهكذا يلقي الأمير شكيب بتبعة ضياع الخلافة على عاتق المسلمين أنفسهم ، وبالتالي فقدانهم لكيانهم السياسي ، فماذا تفعل الدولة إذا كان أفرادها لا يقومون بواجبهم في نصرتها والعمل على سلامتها ورقيها « فصارت الحال أشبه بجسم جميع

٤/٣/٢١ - رسالة مطولة أرسلها « شكيب أرسلان » من لوزان إلى « أكرم زعبيتر » سنة ١٩٣١ م نشرت في سلسلة مقالات بعنوان « ذكريات مع الأمير شكيب أرسلان » بقلم أكرم زعبيتر بجريدة (الشرق الأوسط) ١٩٨٩/٣/٢٢ وما بعده .

أعضائه شلاء أو مصابة ، فالرأس مهما كان مفكراً لا يستطيع مع ضعف الجسم كله شيئا » .

«والحقيقة لو كانت أقسام العالم الإسلامي كلها ملأى حياة لكانت الدولة العثمانية أقوى دول الأرض إذ كانت رأساً لثلاثمائة وخمسين مليون آدمي ، كل واحد منهم قائم بوظيفته في نصرتها ولكنها كانت رأساً لثلاثمائة وخمسين مليوناً منهم ٣٠٠ مليون تقريباً في حكم القاصرين ، فماذا يفيد القاصرون مهما كثروا» (١) .

والآن وبعد إلغاء الخلافة وانفراط عقد الأمة الإسلامية ، يحدد الأمير شكيب مذهبه في الطريق الواجب اتباعها لتحرير الإسلام وإنهاضه ، فيدعو المفكرين والمهتمين بمستقبل الإسلام إلى الإلتعاط بعبر التاريخ ودروس الأحداث الجارية ، وقد أثبتت الوقائع وشهد التاريخ بأن الفرد المسلم هو الأساس الذي يقوم عليه بناء الدولة الإسلامية ، «فالآن يجب علينا أن نؤسس من تحت .. يجب أن نربي الفرد الإسلامي فنخرجه فرداً عاملاً قائماً بالواجب عليه سواء كان زارعاً أو صانعاً أو تاجراً أو حاكماً أو معلماً أو مصلحاً ... الخ ومن مجموع الأفراد القائمين بما عليهم حق القيام يتألف البلد الزاهر الراقى .

ومن مجموع البلدان الزاهرة الراقية تتألف القوة المهيبة التي لا تحصل على القوة إلا حصلت على الاستقلال لأن هذين لازم وملزوم» (٢) .

«ومن مجموع الأقطار القوية المهيبة يتكون حينئذ رأس هو الخلافة إذا استقلت به إحدى دول الإسلام كانت رأسها تطاوى له الرؤوس» (٣) .

هذا هو مذهب الأمير شكيب في النهضة الإسلامية ، ويقوم على تربية الفرد ثم البلد ثم القطر ثم العالم الإسلامي ، وهذا لا يتحقق إلا بالمجاهدة والتضحية واستذكار سير الشعوب التي جاهدت وضحت فنالت حريتها واستقلالها :

١ - رسالة مطبوعة أرسلها «شكيب أرسلان» من لوزان إلى «أكرم زعبيتر» سنة ١٩٣١م نشرت في سلسلة مقالات بعنوان «ذكريات مع الأمير شكيب أرسلان» بقلم أكرم زعبيتر بجريدة (الشرق الأوسط) ١٩٨٦/٣/٢٢م وما بعده.

«نحن أمة كسائر الأمم ، بشر كسائر البشر ، نتبع طرق الأمم التي كانت فقدت استقلالها ثم استقلت .. طريقهم أنهم بعد أن انقضت حكوماتهم ودولهم عمدوا إلى الجمعيات ، جمعيات منها سرية ومنها علنية قانونية ، فهذه قامت لهم مقام دولهم ، قام الفكر مقام السلطة ، قامت السلطة الشعبية مقام السلطة الأجنبية الحاكمة ، ولم تزل تتقوى حتى تناولت السلطة القانونية باسم الوطن»^(١).

يعتقد شكيب أن هذا النسيج التحتي من الخلايا هو عصب نهوض الأمة ومقدار ما تشتد هذه الأعصاب وتتقوى وتزداد عددا وصلابة تقترب ساعة الخلاص .

يقول الأمير : «إن الجمعيات وهي ما يسميه الترك التشكيلات هي طريق الخلاص ، جمعيات خفية ، جمعيات قانونية ، لجان ، شركات ، نقابات ، كل هذه التشكيلات سواء كانت خيرية أو علمية أو اجتماعية أو تجارية أو صناعية أو زراعية قوى للوطن ومنايع حياة له ، وهذه الجمعيات لها صناديق ، وهذه الصناديق وجودها يعلم البذل أو ما يعبر عنه بالتضحية ، فإذا صارت في الوطن الواحد عدة جمعيات وشركات ولجان وكل واحدة منها لها صندوق ملآن صارت في الوطن عدة قوى أو عدة أجنحة تنهض به»^(٢).

ويرى شكيب أن تعدد هذه التشكيلات في داخل الوطن الواحد تجعله أشبه بعضو ملآن دما في جسم الإسلام ، فإذا كان كل من الأعضاء ملآن حياة تألف منها جسم نشيط وثيق قوي سريع ناهض ، جميع ما فيه يؤدي ما عليه تماما فنال مراده في هذه الحياة .

«وهي الطريقة الإقلينية أي أن كل إقليم يبدأ بنفسه ويوطد مداميك حائطه ، فإذا رأى نفسه تقوى وارتأش وصار قادرا على النهوض التفت إلى جاره ومد يده إليه» .

ويؤكد الأمير شكيب أن القرآن العظيم هو أقوى رابطة تجمع قلوب المسلمين في كافة أقطار العالم الإسلامي : «وأما الجامعة بين هذه الأقطار فهي طبيعية حاضرة أقرب

من جبل الوريد وما دام القرآن موجودا لا نخشى عليها» (١).

ويقول شكيب مزيذا ثقتي في اتجاهه السياسي : «فالتشكيلات هي قوة كل أمة فقدت حكومتها وكيانها السياسي ، وهي الزعيمة مع الثبات والعزم واتقان العمل وروح التضحية بإعادة ذلك الكيان السياسي» (٢).

ويرى شكيب أن هذا الطريق «الشعبي» هو أجدى نفعا وأكثر فائدة من الاجتماعات والمؤتمرات «الرسمية» العظيمة الصدى والقليلة النفع ، فيضيف شكيب :

«هذا هو مذهبي في النهضة الإسلامية ، ولذلك تأتيني كتب كثيرة من المغرب والجاوي ومصر وسوريا والعراق وفلسطين مقترحا أصحابها عقد مؤتمر إسلامي وما أشبه ذلك ويكون جوابي دائما : يجب أن نؤسس من تحت ، يجب أن نربي الفرد ثم البلد ثم القطر ثم العالم الإسلامي ، ويقولون إن تعليم الأفراد وترقية الأقطار هما مما يأخذ وقتا طويلا ونحن في حاجة إلى العجلة ، وأجواب : إن (التعليم) بطبيعة الحال سائر مع (التشكيلات) التي ذكرناها ، إذ لا خير في التشكيلات إن لم يكن أول شيء تبدأ به هو التعليم والتهديب» (٣).

هو ذا رأي شكيب في النهوض الإسلامي ، وفي سبيل تحقيق حرية العالم الإسلامي وتقديمه ورقبه ، ومن نصوص شكيب السابقة ، وفي غيرها من آثاره المطبوعة يبدو بوضوح حرص الأمير على حسن تربية الفرد المسلم وتعليمه ليكون عضوا نافعا لدينه وأمته ، إذ بدون ذلك لا نفع يرجى ، ولا فلاح لأمة .

والأساس الذي يراه الأمير لازما في بناء الفرد المسلم هو (القرآن الكريم) ، «لأن الإسلام لم ينتشر إلا بالقرآن وعمارة الصدور به ، إلى أن بلغ قراؤه من القوة المعنوية الدرجة القصوى التي مكنتهم من نواصي الأمم ، وهذه القوة المعنوية هي الأصل ، وهي التي بدونها لا تنهض أمة» (٤).

٣/٢/١ - المصدر السابق وفي رواية لمحمد شفيق شيبا في كتاب (شكيب أرسلان : مقدمات الفكر السياسي ص ١٨٨) يضيف شكيب : «وأما أن نعقد مؤتمرا مجموعا من ضعفاء ليس لهم إرادة مستقلة وهم لا يقدرون أن ينفذوا قرارا فما فائدة ذلك ؟ أتريدنا أن نجعل أصفارا ! » .

٤ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ج ١ ص ٢٨ .

وما القوة المادية مهما دقت أو غلظت إلا تبع للقوة المعنوية ، وهي بالنسبة لها كالبدن بالنسبة إلى الروح ، وكل ما يقال من أن سبب الفتوحات الإسلامية الباهرة هو مراس العرب للقتال أو حبهم للغزو ، أو ملل الأمم المجاورة من حكامها ، كل هذا تضيق للمعنى الحقيقي ، وزيف عن شاكلة الصواب .

« وإنما أمكنت هذه الفتوحات الخارقة للعادة بكلام منزل من عند الله خارق للعادة ، وقوة معنوية أحدثها في النفوس ، خارقة للعادة » ^(١) .

وشكيب أرسلان يدرك أن الله هباً للمسلمين بالقرآن الكريم كتاباً ما فرط فيه من شيء ، وأمرهم أن يتدبروه وأن يعملوا به ، وبهذا التدبر وهذا العمل حقق المسلمون في صدر الإسلام ما حققوه من فتح ومجد وقوة ، لذلك حذر طلاب النهضة القومية دون الدينية من أن يولوا الدين ظهورهم ، وبين أن دعوتهم ستفضي إلى الإلحاد والإباحية ولن تبعث نهضة أو تقدما كما يزعمون ، يقول شكيب :

« ويقول بعض الناس مالنا وللرجوع إلى القرآن في ابتعاث همم المسلمين إلى التعليم فإن النهضة لا ينبغي أن تكون دينية بل وطنية قومية كما هي نهضة أهل أوروبا ، ونجيبهم أن المقصود هو النهضة .. ولكننا نخشى أن جردناها من دعوة القرآن أن تقضي بنا إلى الإلحاد والإباحية وعبادة الأبدان واتباع الشهوات ، مما ضرره بفوت نفعه ، فلا بد لنا من تربية علمية سائرة جنباً إلى جنب مع تربية دينية ، وهل يظن الناس عندنا في الشرق أن نهضة من نهضات أوروبا جرت دون تربية دينية ؟ » ^(٢) .

وبوضح شكيب : فهم الأوروبيين للفظتي (الوطن) و (القوم) فهما عندهم لفظتان تدلان على وطن وأمة بما فيهما من جغرافيا وتاريخ وثقافة وحرث وعقيدة ودين وخلق وعادة مجموعاً ذلك معاً ، وهذا الذي يناضلون من أجله ويستبسلون كل هذا الاستبسال من أجله ^(٣) مما يدل على الثقل المصروف لدى دعاة (القومية) و (الوطنية) من المسلمين .

١ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق ج ١ ص ٢٨ .

٢ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ، ص ١٣٨-١٣٩ .

٣ - المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

ويقرر الأمير أن الأزمة الحقيقية الحاضرة في أمة الإسلام هي (أزمة التعليم) ،
فطريقة التعليم التي جرت عليها الحكومات الإسلامية والمسلمون في عصره ستكون
نتيجتها أشد وبلا على المسلمين من الاستعمار ومن الحروب الصليبية ، ومن الغارات
الاقتصادية ، ومن كل مصيبة وداھية ^(١) .

وهذه الطريقة هي أن ينشأ الفتى المسلم دون عقيدة من الصغر تنقش في لوح
صدره ، وأن لا يكون له نصيب من حفظ القرآن الكريم ، ولا من قواعد العربية ، فكيف
نطلب منه بعد ذلك أن يكون مسلماً ^(٢) .

كما ينبه الأمير إلى خطر التنشئة الغربية لأحداث المسلمين ، ويرى أنها ستفضي
حتماً إلى زعزعة إرادتهم في أن يعتقدوا أو ينظروا إلى أنفسهم على أنهم هم ممثلوا
الحضارة الالهية التي جاء بها الإسلام ، لذلك « يشدد حملته على أولئك الذين يرسلون
أولادهم إلى أوروبا للتعليم فيها ، دون تزود من الدين والعقيدة ، ويرى أن فوضى التعليم
خطر عظيم ، وأن عدم تجانسه سيؤدي في العالم الاسلامي إلى فتن وشدائد بين أبنائه
أنفسهم أشد خطراً من غارات الأفرنج واحتلاتهم التي لا بد أن يتقلص ظلها بالصبر
والثبات واغتنام الأوقات ^(٣) .

ولكن الإحتجاج على تعليم المسلمين تعليماً غريباً لا يعني أبداً أن الإسلام
يعارض (العلم) في ذاته ، فشكيب أرسلان لا يعتقد أن هناك علماً أوروبياً وعلماً شرقياً
، فالعلم مشاع بين البشر أجمعين ^(٤) ، ولكن الأمير يؤمن أن النهضة العلمية للأمة لا بد
أن تكون في إطار لغتها ، وتاريخها ، وعقيدتها ، وشخصياتها ، ولذلك يقول :
« التجارب من قديم الدهر أثبتت أن التربية العلمية لا تنهض بالأمة نهوضاً حقيقياً إلا
إذا حصلت ضمن دائرة لغتها وتاريخها وعقيدتها ومشربها » ^(٥) ، وشكيب ينصح
المغاربة أن يقتبسوا العلوم الأوروبية مع المحافظة على معتقداتهم ومشخصاتهم ،

٢/١ - شكيب أرسلان . الفتح ١٧ ابريل ١٩٣٠ م .

٣ - شكيب أرسلان ، الفتح ١٧/٤/١٩٣٠ م .

٤ - شكيب أرسلان ، الفتح ١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٤٩ هـ .

٥ - شكيب أرسلان . الفتح عدد ٢٤ ربيع الأول ١٣٥١ هـ .

ويضرب المثل باليابانيين الذين أخذوا عن الغرب ما نفعهم ، وحافظوا على شخصيتهم ودينهم ، ويضيف الأمير « .. والتفرنج في نظري شر الأشياء ، ولأثم مهما كانت فمن شأنها أن تحافظ على كيائها ، فكيف بأمة عظيمة لها تاريخ مجيد ؟ »^(١).

ويرى شكيب أن حث (القرآن) على (العلم) هو خير حافز للمسلمين على سبق الأمم في الرقي ، فما من دين أبدا حث على التقدم العلمي كما حث عليه الاسلام ، « فالعالم الإسلامي يمكنه النهوض والرقي واللاحاق بالأمم العزيزة الغالبة إذا أراد ذلك المسلمون ووطنوا أنفسهم عليه ، ولا يزيدهم الإسلام إلا بصيرة فيه وعزما ، ولن يجدوا لأنفسهم حافزا على العلم والفن خيرا من القرآن الذي فيه »^(٢).

(هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)^(٣).

ويستشهد الأمير شكيب بآيات قرآنية كثيرة تبين حرص الإسلام على العلم وإجلال العلماء ، ثم يرد على زعم أعداء الإسلام ومنهم (المسير سيكار) أحد مستخدمي فرنسا في الرباط ، وكان قد ألف كتاباً في الطعن في الاسلام ، وكتب في مجلة «مراكش الكاثوليكية» : أن المراد بلفظة «العلم» في القرآن هو العلم الديني ولم يكن المقصوده العلم مطلقا لنستظهر به على قضية تعظيم القرآن للعلم وإيجابه للتعظيم^(٤).

ويرد الأمير شكيب هذا الافتراء بالدعوة إلى تأمل آيات (القرآن الكريم) المتعلقة (بالعلم والحكمة) وغيرها مما بحث على السير في الأرض والنظر والتفكر ، فنسعلم « أن المراد هنا بالعلم هو العلم على إطلاقه متناولا كل شي ، وأن المراد بالحكمة هي الحكمة العليا المعروفة عند الناس ، وهي غير الآيات المنزل والكتاب كما يدل عليه العطف وهو يقتضي المقارنة »^(٥).

١ - شكيب أرسلان ، الفتوح ١٧ جمادى الأولى ١٣٤٩هـ .

٢ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ص ١٣٣ .

٣ - الزمر : ٩ .

٤ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ، ص ١٣٦ .

٥ - المرجع السابق .

وشكيب يرى أن الحديث النبوي الشهير : « أطلبوا العلم ولو في الصين » ^(١) يعزز القول بأن المراد بالعلم هو العلم على إطلاقه « فلو كان المراد بالعلم هو العلم الديني كما زعم (سيكار) ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يحث على طلبه ولو في الصين إذ أن أهل الصين وثنيون لا يجعلهم النبي مرجعا للعلم الديني كما لا يخفى » ^(٢).

ويضيف شكيب أن في بعض آيات القرآن الكريم من القرائن اللفظية والمعنوية ما يقتضي : « أن المراد بالعلم علم الكون لأنه في سياق آيات الخلق والتكوين وهي في القرآن أضعاف الآيات في العبادات العملية كالصلاة والصيام » ^(٣).

ويمثل الأمير لذلك يقول الله تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به من ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء » سورة فاطر : ٢٧-٢٨ .

ويرى الأمير أن المراد بالعلماء في هذه الآية الكريمة « العلماء بما ذكر في الآية من النبات والجبال وسائر المواليد المختلفة الألوان وما فيها من أسرار الخلق لا العلماء بالصلاة والصيام والقيام » ^(٤).

وهكذا يتضح لدينا أن إهمال المسلمين ، وليس النقص في التعاليم الإسلامية ، هو الذي سبب الإنحلال الحاضر ، وأن الإسلام لم يقف يوماً ما سداً في وجه التقدم والعلم ، وأن أوروبا « مع تبحرها في العلوم الطبيعة والمادية لا تزال تبني ثقافتها على أساس ديانة مضى عليها أكثر من تسعة عشر قرناً ، وعلى لغات وآداب مضى عليها أكثر من ثلاثين قرناً ، وهي مع ولوعها بالجديد ، لم تنس الاحتفاظ بذلك القديم » ^(٥).

١ - نشته « فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم » رواه العقيلي وابن عدي والبيهقي وابن عبد البر عن أنس ، وله طرق بقوي بعضها بعضاً . (رشيد رضا) المرجع السابق) هامش

٢ - المرجع السابق .

٣ - المرجع السابق .

٤ - المرجع السابق ص ١٣٧

٥ - شكب أرسلان ، الفتح ١٧ أبريل ١٩٣٠ م .

من هذا ينتقل الأمير شكيب أرسلان إلى استخلاص العبرة التي يحرص عليها ويسعى نحوها :

«إذن المدنية تجتمع مع الدين ... ، إذن اللادينية ليست شرطا من شروط الحضارة الأوروبية ... ، إذن الحكومات الشرقية التي تزعم أنها إنما تقطع صلتها بالدين الإسلامي إقتداءً بحكومات أوروية التي بزعمها قطعت صلتها بالدين المسيحي إنما هي حكومات تضلل أفكار السذج من رعيته ، وتموه عليهم ، وتقصد حربا وتوري بغيرها .. إذن هذه الحكومات كاذبة فيما تزعم ، وإذن ناشرو دعايتها في مصر والبلاد العربية كاذبون أيضا ، إذن على الأمة المصرية وعلى الأمة العربية جميعا ، أن ينتبهوا للحقائق» ^(١١).

وأخيراً يرى (شكيب أرسلان) أن العلم الأعلى الذي يجب أن يتعلمه المسلمون لينهضوا ويتقدموا ويشرقوا كما ترقى غيرهم من الأمم - هو الجهاد بالمال والنفس الذي أمر به الله في قرآنه مرارا عديدة ، وهو ما يسمونه اليوم (بالتضحية) .

«إن (التضحية) أو الجهاد بالمال والنفس هو العلم الأعلى الذي يهتف بالعلوم كلها ، فإذا تعلمت الأمة هذا العلم وعملت به دانت لها سائر العلوم والمعارف ، ودنت منها جميع القطوف والمجاني» ^(١٢).

أما العلوم الطبيعية والرياضية في أشكالها الخالصة والتطبيقية ، والتي يعتقد كثير من المسلمين أنها مفتاح الرقي والتقدم ، فيرى شكيب أنها «فروع لا أصول» ، وأنها نتائج لا مقدمات» ^(١٣).

وهذه نظرة دقيقة سبق بها الأمير عسره الذي كان من أبرز سماته إنبهار المسلمين بالتقدم العلمي الغربي ، واعتقاد أكثرهم أن سبيل النهضة منحصر في تقليد نظام التعليم الغربي ، ولكن إذا كان المسلمون قد أهملوا فيما مضى البحث العلمي فإنهم لا

١ - شكيب أرسلان ، الفتح ، ٩ فبراير ١٩٢٨ م .

٢ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ، ص ١٦٣ .

٣ - المرجع السابق .

يستطيعون أن ينتظروا إصلاح هذا الخطأ اليوم عن طريق قبول التعليم من غير وازع ما ،
إن كل تأخرنا العلمي وكل فقرنا لا يوزنان بذلك التأثير المميت الذي سيحدثه تقليدنا
الأعمى لنظام التعليم الغربي في قوى الإسلام الدينية الكامنة ^(١).

ويضيف شكيب : « فالمسلمون يمكنهم إذا أرادوا بعث العزائم وعملوا بما حرضهم
عليه كتابهم أن يبلغوا مبالغ الأوروبيين والأمريكيين واليابانيين من العلم والارتقاء ، وأن
يقفوا على إسلامهم كما بقي أولئك على أديانهم ، بل هم أولي بذلك وأحرى » ^(٢).

(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) ^(٣)

١ - محمد أسد ، الإسلام على مفترق الطرق ، ص ٧٨ .

٢ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ، ص ١٦٤ .

٣ - سورة العنكبوت ، آية ٦٩ .

بعث (مدنية الإسلام) في مواجهة (الحضارة الغربية)

إن نجاح الحضارة الغربية في ميادين الإقتصاد والسياسة والعلم التطبيقي نجاحا عالميا جعل الحركة الاستعمارية في العالم تحاول أن تستثمره في فرض الوصاية على الشعوب المختلفة باسم (المثل الحضاري الأعلى) ^(١) ، وقد ساعد على ذلك ما وقع فيه بعض المفكرين من وهم فانطلقوا الى القول بوحدة الحضارة الإنسانية ، بما تتضمنه هذه الفكرة من افتراض نهر واحد لها ، وهو الغرب ، والزعم بأن جميع ما عداه ليس إلا روافد له ، أو هي مياه ضائعة في رمال الصحراء ^(٢) .

وخيل لكثير من المسلمين ممن تأثروا بحملات المستشرقين والمبشرين الأوروبيين ، أن الحضارة الغربية - في أحدي صورها المتحققة أو المنشودة - هي المثل الأعلى للإجتماع الإنساني ، فنظروا إلى (المدنية الغربية) على أنها القوة الوحيدة لإحياء الحضارة الإسلامية الراكدة ، فأدخلوا بذلك الضعف على ثقتهم بأنفسهم ، ودعوا بطريق غير مباشر ذلك الزعم الغربي القائل بأن الإسلام «جهد ضائع» ^(٣) .

لذلك أدرك (شكيب أرسلان) أن العالم الاسلامي يحتاج إلى مراجعة ذاته ، لمزيد من معرفة النفس ، والعثور على روحه التاريخية الخاصة في مثل هذا الصراع الثقافي والسياسي الذي يواجهه ، ومثل هذه المعرفة بتاريخ حضارتنا شرط جوهري لانطلاق هذه الحضارة فاعلة في التاريخ .

ولهذا عني شكيب بتبيان أن الإسلام لم يقف عند حد الفتوحات أو إقامة السلطان الواسع ، بل هو بدل في الوقائع والنفوس والتاريخ فأسهم في بناء (مدنية إسلامية) خاصة به حقيقية ، سامية ، راقية ، مبنية على كتابه وسنته .

١ - وهي فكرة نفوس في تحليل توينبي على ثلاثة جذور . وهي الإغراق في حب الذات من قبل هؤلاء الدارسين الغربيين ، ووه القول بفكرة الشرق الراكدة . ثم وهم الزعم بالتقدم كحركة تلتزم خطا مستقيما على الدوام «أرنولد توينبي ، مختصر دراسة التاريخ . ترجمة فؤاد شبل ، ج ١ ص ٩٠ ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ص ٩٦ .

٢ - د. عفت الشرفاوي ، في فلسفة الحضارة الإسلامية ، ص ٣١ ، دار النهضة العربية ، ١٩٨١م .

٣ - محمد أنس . الإسلام على مفترق الطرق ، ص ٩٧ .

«ولما كان أعداء الإسلام يريدون أن ينتقصوه بأي شكل من الأشكال ، فقد حاولوا إنكار أن يكون له مدينة خاصة به وزعموا أنه ما زاد على أن نقل ونسخ ، وما أشبه ذلك من الأقاويل»^(١) ، واستدلوا على ذلك بحالته الحاضرة وزعموا أن الشجرة تعرف من ثمارها ، متجاهلين بذلك اسهامات المدينة الاسلامية في دفع مسيرة العلم إلى الأمام ، وما قدمته إلى الإنسانية من انجازات .

وقد فند الأمبر مزاعم أعداء الإسلام هؤلاء ، سواء كانوا من داخل العالم الإسلامي أو من خارجه وبين الهدف الذي يرمي إليه كل فريق منهما فقال :

«أما زعم من زعم أن الإسلام لم يتمكن من تأسيس مدينة خاصة والاستدلال على ذلك بحالته الحاضرة ، فهو خرافة يموه بها أعداء الإسلام من الخارج ، وبعض جاحديه من الداخل ، أما القسم الأول فلأجل أن يصبغوا المسلمين بالصبغة الأوروبية ، وأما القسم الثاني فلأجل أن يزرعوا في العالم الإسلامي بذور الإلحاد»^(٢).

ويشكر الأمبر شكيب أن يكون الدين الإسلامي هو المسؤول عن تخلف المسلمين الديني والدنيوي في القرون الأخيرة ، «فتأخر المسلمين في القرون الأخيرة لم يكن من الشريعة ، بل من الجهل بالشريعة ، أو كان من عدم إجراء أحكامها كما ينبغي ، ولما كانت الشريعة جارية على حفاها كان الإسلام عظيماً عزيزاً . وأي عظمة أعظم مما كان الإسلام في أيام عمر بن الخطاب مثلاً»^(٣).

ويخلص شكيب إلى تأكيد علو المدنية التي أقامها الإسلام ، حقيقة لاجدال فيها : «ومدينة الإسلام قضية لا تقبل المباحكة إذ ليس من أمة في أوروبا سواء الألمان أو الفرنسيين أو الانجليز أو الطليان ... الخ ، إلا وبغدهم تألب لا تحصى في (مدينة الإسلام) فلو لم تكن للإسلام مدينة حقيقية سامية راقية مطبوعة بطابعه ، مبنية على كتابه وسنته . ما كان علماء أوروبا حتى الذين عرفوا منهم بالتعامل على الإسلام يكثرون من ذكر المدينة الإسلامية ، ومن سرد تواريخها ، ومن المقابلة بينها وبين

١ - شكيب أرسلان . حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ص ١١٢ .

٢/٣ - شكيب أرسلان . لماذا تأخر المسلمون . ص ١١٩-١٢١ .

غيرها من المدنيات ، ومن تبيين الخصائص التي انفردت بها »^(١).

« فالمدينة الإسلامية هي من المدنيات الشهيرة التي يزدان بها التاريخ العام ، والتي تغص سجلاتها الخالدة بمآثرها الباهرة »^(٢).

ويمضي شكيب في ضرب الأمثال على (مدينة الإسلام) بذكر العواصم الإسلامية وحواضر بلاد الإسلام في آسيا وأفريقيا والأندلس في عصور الإسلام الزاهرة وما بها من آثار العمران ، وتطاول البنيان ، ورفاهة السكان ، وانتشار العلم والعرفان مما يؤكد علو قيمة تمدنها وعظيم انجازها .

ثم يعلق شكيب على ذلك بقوله : « هذه لمحة دالة على مآثر (حضارة الإسلام) وغرر أيامه . وإلا فلو استقصينا كل ما أثر المسلمون في الأرض من رافع ويديع لم يتسع ذلك الجلود الكثيرة المرصوفة طبقاً فوق طبق »^(٣).

ويحسن بنا أن نتوقف قليلاً أمام المصطلح الذي استخدمه شكيب أرسلان أعني (مدينة الإسلام) أو (حضارة الإسلام) ، فشكيب يستخدم كلمتي (الحضارة) و (المدينة) بمعنى واحد ففي كتابه (لماذا تأخر المسلمون) الذي نقلنا عنه الفقرات السابقة يضع عنوان هذا المبحث (مدينة الإسلام) بينما ينقل عنه في حواشيه على (حاضر العالم الإسلامي) تحت عنوان (الحضارة الإسلامية ورفي العرب الفكري في العصور الوسطى) ويكرر في داخل المتن كلمة (الحضارة) و (المدينة) للدلالة على الشيء نفسه .

ولقد ارتبط استخدام كلمة (حضارة) في العربية بدلالة مكانية تحمل في بعض مجالاتها الحركة المقصودة والخير ، كما في قولنا حسن المحضر ، إذا كان ممن يذكر الغائب بخير ، ويقال رجل حضر ، إذا حضر بخير^(٤).

« أما في العصر الحديث فقد أطلق عدد كبير من الباحثين كلمة الحضارة على كل

١/٢/٣ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ، ص ١٢١-١٢٢ .

٤ - مادة (حضر) في (لسان العرب) .

ما يتصل بالتقدم والرقى الإنساني في المجالات المختلفة كاللغة والأدب والفنون الجميلة والصناعة والتجارة ، وغير ذلك من مظاهر النشاط الإنساني الذي يؤدي إلى التقدم والرقى ويسر السبيل إلى حياة إنسانية كريمة ^(١).

« أما فيما يتعلق بكلمة «مدنية» فيميل كثير من الباحثين إلى استخدامها مرادفة لكلمة «الحضارة» فإنها تشير في اللغة أيضا إلى ارتباط مكاني » ^(٢).

جاء في لسان العرب : مدن بالمكان أقام به .

«ومثلما يفعل الباحثون العرب في كثير من الأحيان فيستخدمون كلمتي (الحضارة والمدنية) مترادفتين ، يميل كثير من الباحثين الغربيين إلى استخدام كلمتي : (Civilisation, Culture) بمعنى واحد ، ومن الباحثين الغربيين من يفرق بينهما فيرى أن : «الحضارة هي ما نحن ، وأما المدنية فهي ما نستعمل» ، ويعبارة أخرى فإن الحضارة في رأيهم في الفنون والآداب والديانات والأخلاقيات ، بينما تمثل المدنية في السياسة والاقتصاد والتكنولوجيا » ^(٣).

أما الجزء الثاني من (المصطلح) أو التعريف ، وأعني بذلك كلمة (الإسلام) أو (الإسلامية) التي بصر (شكيب أرسلان) على وصف (المدنية) أو (الحضارة) بها فيميل كثير من الباحثين إلى تسمية هذه الحضارة (بالحضارة العربية) على أساس دور العرب واللغة العربية فيها ^(٤).

وشكيب أرسلان لا ينكر دور العرب السياسي والثقافي في تأسيس هذه الحضارة ، كما أن أحدا لا يماري فيما قدمته اللغة العربية بوصفها لسان الثقافة والعلم والمعرفة في العصور الوسطى لشعوب العالم ، ولكنه كان يرى : أن أسباب الإرتقاء كلها كانت

١ - د. عفت الشرقاوي ، في فلسفة الحضارة الإسلامية ، ص ١٤ .

٢ - المرجع نفسه ص ١٥ .

٣ - المرجع نفسه ص ١٦ ، يقول ابن خلدون : «إن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره ، ومؤدية لفساده» ، وهكذا يستخدم ابن خلدون كلمة (الحضارة) للدلالة على صفة معينة من حياة المدنية .

٤ - كما فعل جوستاف لويون الذي سقى كتابه (حضارة العرب) ، وكما فعلت فريد هونكة التي سميت كتابها : (شس العرب تسطع على الغرب : أثر الحضارة العربية في أوروبا) .

عائدة بمجملها إلى الديانة الإسلامية^(١).

« فالعرب لم يستقلوا استقلالاً حقيقياً واسعاً إلا بالإسلام ، ولم تعرفهم الأمم البعيدة وتخنخ لهم الممالك العظام والقيصرية والأكاسرة وتحدث بصولتهم الناس ، ولم يقعدوا من التاريخ المقعد الذي أحلهم في الصف الأول من الأمم الفاتحة إلا بمحمد صلى الله عليه وسلم^(٢) .

أضف إلى ذلك أن سكان الجزيرة العرب الذين اعتنقوا الإسلام لم يكونوا هم وحدهم الذين أسهموا في بناء (الحضارة الإسلامية) ، بل أسهم فيها من غير العرب كثيرون من الفرس والأتراك والأسبان والأرمن والمغول وغيرهم ، « كشأن الحضارات البشرية بأجمعها أن يأخذ بعضها عن بعض ويكمل بعضها بعضاً »^(٣) ، ولكن يبقى أن وصف (شكيب أرسلان) لهذه الحضارة بالإسلامية هو الوصف الأرجح باعتبار أن الإسلام هو دين الغالبية في هذه الحضارة ، وأن الشريعة الإسلامية كانت الرابط الموحد لشعوب الدولة الإسلامية في ثلاث قارات هي آسيا وأفريقيا وأوروبا طوال العصور الوسطى ، وأن هذه الحضارة قد استمدت من الإسلام العناصر الفعالة في إقرار الإنسجام بين التقاليد الثقافية المختلفة ، ومن هذه العناصر شريعة الحج ، وهو لقاء على مستوى عام بين المسلمين ، يقرب بينهم ويؤلف بين قلوبهم ، ثم اللغة العلمية المشتركة ، وهي اللغة العربية التي كانت لغة الثقافة والمعرفة في كل مكان من العالم الإسلامي .

وقد حاول بعض حساد الإسلام والمكابرون في عظمة فضله من مزرخي الأفرنج أن يصغروا من شأن (مدنية الإسلام) ، وأن ينكروا كون المسلمين قد ابتكروا علوماً وسبقوا إلى نظريات صارت خاصة بهم ، فقالوا :

إن المسلمين لم يزدوا على أن قلدوا وأذاعوا وكانوا واسطة بين المشرق والمغرب^(٤) .

١ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ، ص ٤٩ .

٢ - المرجع نفسه ص ٤٢ .

٣ - المرجع نفسه ص ١٢٤ .

٤ - المرجع نفسه ص ١٢٢ .

وقد تصدى (شكيب أرسلان) للرد على أصحاب هذه المزاعم مستشعرا خطرها فيما لو انتشرت بين شباب المسلمين ، فذكر أن موقفهم مع ما ينطوي عليه من التعصب غير العلمي والتحامل على الإسلام مردود عند المحققين الذين يعرفون للمسلمين علوماً ابتكروها وحقائق كشفوها وآراء سبقوا إليها ، فضلاً عما زادوا عليه وأكملوه ، وما نشره ونقلوه ^(١) ، كما بين أن كل المذنبات تشترك وتتمازج ولا يقدح ذلك في تميز كل منها .

وينطلق شكيب أرسلان في تصديه لأعداء (المدينة الإسلامية) من مقدمة أولى براها يقينية وثابتة وفحواها : أن (مدينة الإسلام) لم تكن نسخاً ولا نقلاً ، وإنما هي قد نبتت من (القرآن) وتفجرت من (عقيدة التوحيد) ^(٢) .

« إن الإسلام لم ينتشر إلا بالقرآن وعمارة الصدور به إلى أن بلغ قراؤه من القوة المعنوية الدرجة القصوى التي مكنتهم من نواحي الأمم » ^(٣) .

« فكل ما يقال أن سبب الفتوحات الإسلامية هو مراس العرب للقتال أو حب البدو للغزو وغرامهم بالغنائم أو ملل الأمم المجاورة من ملكة حكامها فهذا تضيق للمعنى الحقيقي وزيف عن شاكلة الرمية ، وإنما أمكنت هذه الفتوحات الخارقة للعادة بكلام منزل هو خارق للعادة ، وثقوة معنوية أحدثها في النفوس خارقة للعادة ، ولقد كان العرب أهل حرب من قديم الزمان ، وكان الأعراب مغرمين بالنهب والكسب من أعلى أيام الجاهلية ، فلماذا لم يفتتحوا البلدان إلا بعد بعثة محمد ^(٤) ؟ » ^(٥) .

وهكذا نجد الأمير شكيب حاسماً في تحديد سبب ارتقاء المسلمين ورده إلى الدبابة الإسلامية ، وإلى الإيمان العميق بالعقيدة الداعية إلى الوحدة لا إلى الإقسام والفرقة ، والثائرة على الجهل والجاهلية في سبيل المدنية ، والمناهضة للظلم والقسوة

١ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ، ص ١٢٢ .

٢ - المرجع نفسه ص ١٢٣ .

٣ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٢ ص ٢٨ .

٤ - صلى الله عليه وسلم .

٥ - المرجع السابق .

وصولا إلى الرحمة ، ونيز عباداة الأصنام والأوثان من أجل عباداة الواحد الأحد ^(١١) .

« وتبدلوا بأرواحهم الأولى أرواحاً جديدة ، صيرتهم إلى ما صاروا إليه من عز ومنعة ، ومجد وعرفان وثروة ، وفتحوا نصف الكرة الأرضية في نصف قرن ... فالقرآن قد أنشأ إذا العرب نشأة مستأنفة وخلقهم خلقاً جديداً وأخرجهم من جزيرتهم والسيف في إحدى اليدين والكتاب في الأخرى يفتحون ويسودون ، ويتمكنون من الأرض بطولها وعرضها » ^(١٢) .

من هذا المنطلق يؤكد شكيب أرسلان أن (مدنية الإسلام) استمدت عناصرها من مبادئ الإسلام الأولى ، ولا يقدح في أصلاتها أنها أخذت عن غيرها من المعارف والعلوم والنظم التي لا تتعارض مع مقاصدها وقواعدها الكلية ، ولم يتوقف جهد المسلمين على النقل أو التقليد بل هضموا كل هذا الزاد ، وصهروه في بوتقة عقيدتهم ومبادئهم ومثلهم ، « وكيفوا كل هذا التراث تكبيفاً فيه التنظيم والتقويم ، وفيه التعديل والتحليل ، وفيه الزيادة والريادة ، وفيه الأصالة والجلالة » ^(١٣) يقول شكيب :

« أما ما ترجمته (حضارة الإسلام) من كتب ، وما أخذته عن غيرها من علوم ، وما أفادته في فتوحاتها من منازع جميلة ، وطرائق سديدة ، أخذتها عن غيرها فلا يقدح ذلك في بكارتها الإسلامية ، ومسحتها العربية ، لأن هذا شأن الحضارات البشرية بأجمعها أن يأخذ بعضها عن بعض ويكمل بعضها بعضاً » ^(١٤) .

أما الإدعاء بأن الشرق وأن المدنية الشرقية كانت مزدهرة قبل ظهور الإسلام ، راتعة في بحايح العمران ، فجاء الإسلام وطمس المدنيات الشرقية القديمة ، فهذا إدعاء باطل - في رأي شكيب - فالغرب كان غلب على الشرق قبل الاسلام ^(١٥) ، والمدنيات الشرقية كانت كلها قد انقرضت أو انحطت قبل ظهور الإسلام بكثير ^(١٦) .

١/٢ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون (مرجع سابق) ص ٤١ .

٣ - أحمد الشريافي ، شكيب أرسلان داعية الغربة والإسلام ، ص ٢٠٥ .

٤ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون . (مرجع سابق) ص ١٢٣-١٢٤ .

٥ - المرجع نفسه ص ١٢٣ .

٦ - المرجع نفسه ص ١٢٨ .

ولا يقدر مكابر أن ينكر دور الإسلام العظيم في الدنيا ، فالإسلام وحده لا غيره « هو الذي جدد مدينة الشرق الدارسة ، وبعث تلك الحواضر العظمى الزاهرة بالبشر كصفاد والبصرة وسمرقند وبخاري ودمشق والقاهرة والقبروان وقرطبة وطم جرا ، فإن كانت قد بقيت للشرق آثار (مدنيت قديمة) فإن الإسلام هو الذي وطد بوانبها»^(١).

«وأضفى عليها لباس الإسلام الخاص ، ودبجها بدباجة القرآن التي لم تفارقها في شرق ولا غرب»^(٢) ، والإسلام هو الذي «حمل السيف بيد والقلم بيد إلى أبعد ما تصور العقل من حدود الأقطار التي لم يسبق لشرقي أن يطأها بقدمه»^(٣).

ولم يتوقف دور الإسلام على الفتوحات المادية بل كان له دور عظيم في الفتوحات الروحية أو العقلية ، فأهم ما يميز (المدينة الإسلامية) أنها تعمل على بناء شخصية حضارية متوازنة تسير في نفس الإنسان جانبها الغيبي والحسي ، وذلك لأنها تتخذ موقفاً وسطاً فتعرف للروح قدرها ومكانها وللمادة قيمتها ووزنها ، فتقضي حق الدنيا كما تعلو كلمة الدين «فلا هي تذهب مذهب الحضارة البوذية - على سبيل المثال - التي تنكر عالم الحس ، وتبالغ في إنكاره ، وتبشر بأن حياة الإنسان محنة في واقع الأمر ينبغي احتمالها والصبر على مكارها وأن الخير كل الخير في اجتناب خديعتها وشهواتها (*) ولا هي تذهب مذهب العبرية القديمة ذات النزعة العملية التي تربط بين المفهوم الروحي للخير والشر وبين ملايسات الواقع والمصير الاجتماعي ، وتقيم فلسفة الجزء والشواب والعقاب على أساس جماعي مرتبط بمصير الجماعة في هذه الحياة الحاضرة»^(٤) ولا هي تذهب مذهب المدينة الغربية المعاصرة ، وهي مدينة تقدس المادة ، وتكاد تعبد الشهوة ، وتستخف بالقيم ، وتستهيئ بالمثل والمبادئ .

١ - المرجع نفسه ص ١٢٨ .

٢ - المرجع نفسه ص ١٢٣ .

٣ - المرجع نفسه ص ١٢٨ .

* ومشلها النصرانية لأنها ديانة مبنية على الزهد والمبالغة فيه ، والخضوع لكل حكم دينوي ، والعمران لا يتم ولا يسر إلا بالسيادة والملك والفتى ، ومن فواعد الإنجيل أن الجمل إذا دخل في ثقب الإبرة فالقني لا يدخل ملكوت السموات .. (رشيد رضا) هامش لماذا تأخر المسلمون ، ص ١٢٧ .

٤ - د. عفت الشرفاوي ، في فلسفة الحضارة الإسلامية ، ص ٢٨-٢٩ .

ولهذا التوافق في (المدنية الإسلامية) بين النشاط الروحي والنشاط العملي في الحياة أصبحت رؤية الإنسان للوجود رؤية متفائلة مقبلة على الحياة ، مبدعة خلاقة « ترى في عمران الأرض ، واجبا دينياً مقدساً ، وهذا هو المزاج الفلسفي المتميز الذي طبع الحضارة الإسلامية في أقاليمها المختلفة بطابع واحد بحيث يجوز لنا أن نقول في النهاية : نعم لقد ظلت (حضارة) واحدة رغم كل ما تضمنته من تنوع إقليمي »^(١).

ولهذه (المدنية) كان يدعو شكيب أرسلان ، ويجهتد في إبراز قدرتها على الجمع بين الدين والدنيا ، فعلى الرغم أن أساسها وأصلها يرجع إلى القرآن والتوحيد إلا أنها سبقت وأيدعت في علوم المعادن والنباتات والحيوان .

« وكانوا - العرب - يعتمدون في العلم على التجربة وهذا يخالف مذهب بعض الشعوبية المتطعنين الذين لا يفتأون يقولون إن العرب كانوا يعتمدون في علومهم على الأسلوب الغيبي ، وعلى التخيلات ، وما أشبه ذلك من الأقاويل الفارغة »^(٢) ، « وقد تلقى عنهم الغرب علوماً ومعارف كثيرة ، وعرف ما لم يكن يعرفه في ذلك الوقت »^(٣) ، إلى جانب التفوق الشرقي المستمر في العلوم الأدبية والعقلية ، يقول شكيب : « إن الغربي وإن بذل الشرقي في العلوم المادية فلم يبيذه في العلوم الأدبية أو العقلية ، وإن المحققين من الغربيين معترفون بمزية الشرقيين في الفلسفة والمنطق ، مقرون في العلوم الأدبية أو العقلية ، وإن المحققين من الغربيين معترفون بمزية الشرقيين في الفلسفة والمنطق ، مقرون بأن الشرق هو منشأ الحكمة ومهد المدنية »^(٤).

ولكن ليس معنى هذا أن تغلق الحكمة الشرقية والمبادئ الإسلامية بابها أبداً في وجه العلوم العصرية ، بل لها وعليها أن تأخذ من هذه العلوم ما يقرنها ويعليها ، فمن أقدس قواعد الإسلام - كما يقول شكيب - هذا الحديث الشريف : « الحكمة ضالة

١ - المرجع السابق .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ص ١١٧ .

٣ - المرجع السابق .

٤ - شكيب أرسلان ، مقدمة كتاب في النقد التحليلي ، ص (هـ) .

المؤمن ينشدها ولو في الصين»^(١).

ويستطيع المسلمون اليوم أن يستفيدوا من العلوم الغربية فهم يستردون في حاضرم بعض ما قدموه إلى البشرية في ماضيها «فالحقيقة التاريخية المجمع عليها هي : أن العرب في القرون الوسطى كانوا أساتيد الأوربيين ، وكان الواحد من هؤلاء إذا تخرج على العرب تباهى بذلك بين قومه»^(٢).

ولا تستطيع أمة أن تزعم أنها انفردت بخلق العلم وإبداعه من البداية للنهاية ، «ولا يجب القول عن العلوم العصرية بأنها علوم غربية ، بل هي علوم لا شرقية ولا غربية ، وهي علوم بشرية امتلأت حياضها من قطرات قرائح البشر منذ تأسست الحضارة ، وصادف العصر الحالي تألق أنوار العرفان السابقة ازدهار مصابيح العلم في الشرق ، مما نشنا بعظمته الأخبار والآثار»^(٣).

وبناء على ذلك فلا حرج أن يدرس المسلمون اليوم العلوم وأن يدرسها من غير أن يخضعوا خضوعا (يسترقهم) للإتجاه العقلي في الغرب ، فما يحتاجه العالم الإسلامي ليس استشرافا فلسفيا جديدا ولكن تجهيز علمي فني عصري ، وبهذا يستعيد المسلمون الديون العقلية التي اقتترضتها أوروبا من (المدنية الإسلامية) على يد مترجمي (طليطلة)^(٤) في العصور الوسطى ، «والحقيقة أن هذه الملكية العلمية وأن هذا البحث والتنقيب قد أثبتتها العرب لأنفسهم من البداية في بغداد حيث قرر علماءها من ذلك الوقت تقريرا صريحا المبادئ التي ينبغي أن يسير عليها العلم وهي السير من المعلوم إلى المجهول وعدم قبول شيء على أنه حقيقة إلا بعد ثبوته بالتجربة ، إذن منذ القرن

١ - هنا مضمون حديثين أحدهما : «الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها» رواه الترمذي من حديث أبي هريرة . والثاني «اطلبوا العلم ولو بالصين» رواه العقيلي ص ٤ وابن عدي والبيهقي وابن عبد البر عن أنس .

أرشيد رضا) هامش لماذا تأخر المسلمون

٢ - شكيب أرسلان . لماذا تأخر المسلمون ؟

٣ - شكيب أرسلان . الكتاب الذهبي ليوبيل المقنطف الخمسيني . ص ١٢٥ .

٤ - ترجم شكيب أرسلان محاضرة ألقاها الجراح الفرنسي (فورغ) عن مجلة المستشفيات الفرنسية عدد ١٩ مارس ١٩٣٢م وقد جاء فيها : «كانت طليطلة قد عادت إلى الأسيان ١٠٨٤ فصارت مركز الاتصال بين المدينيتين

الإسلامية والمسيحية .. ومركز للترجمة» (حاضر العالم الإسلامي - ج ١ ص ١٢٨ وما بعدها) .

الحادي عشر أثبت العرب أنهم كانوا قد ملكوا الطريقة العلمية الصحيحة»^(١١).

وينقل (شكيب أرسلان) عن الفيلسوف الألماني «هومبولد» Humboldt قوله :
«إن العرب لم يقتصروا على حراسة كنز المعارف الذي عثروا عليه بل أضافوا إليه
وأوسعوه وفتحوا طرقاً جديدة للبحث في أسرار الطبيعة»^(١٢).

وهكذا كان (شكيب أرسلان) يحتفى بما ينشره الباحثون الغربيون المنصفون
فيترجمه ، وينقل عنهم في مقالاته وحواشيه وكتبه معتبراً ما حرره هؤلاء في حق
(المدنية الإسلامية) شهادة تقدم لناشئة المسلمين المفتونين بكل ما ينقل عن الغرب
ورداً على أعداء (المدنية الإسلامية) المكابرين في الشرق والغرب^(١٣).

كما كان لا يهدأ ولا يسكت إذا رأى من ينتقد هذه المدنية أو يفترى عليها ، مثل
رده الشديد على (المسيوسان) (المقيم الأفرنسي السامي) في المغرب الذي نشر في
(مجلة الأحياء) الأفرنسية مقالة يتكلم فيها عن بقطة المغرب بعد (ليل الإسلام) !
هكذا تعبيره .

فأثارت كلمته شكيب فكتب يقول : «فإن كان تأخر إحدى الممالك الإسلامية حقبة
من الدهر يجب أن يقال فيه (ليل الإسلام) فكم كان ليل النصرانية طويلاً عندما بقيت
أوروبا المسيحية زهاء ألف سنة وهي في حالة الهمجية أو ما يقرب من الهمجية»^(١٤).

ويقصد شكيب أن الأمم الأوروبية تنصرت «في القرن الثالث والرابع والخامس
والسادس من ميلاد المسيح ، وبقيت أمم في شرقي أوروبا إلى القرن الخامس حتى

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ص ١٣٥

٢ - المرجع السابق .

٣ - مثل نقله عن المستشرق الألماني المحقق (ماكس مايرهوف) بعض ما كتبه في كتابه «الدين الإسلامي» من
حواشيه على «حاضر العالم الإسلامي» ، ترجمه خلاصة رأي الفيلسوف الانجليزي (لورنس) عن حضارة العرب عن
كتاب (الدين في التاريخ) للعلامة (برجس) ترجمه كتاب العلامة (دروني) الأمريكي الذي يريح الحركة الفكرية العلمية
في العالم ، ومن اهتمامه بقول (شكيب أرسلان) «إن العرب فتحوا الدنيا في نصف قرن لاغيراً لشدة ذهنته
من رايح لا محال» ويذكر شكيب في رصافته : «لماذا تأخر المسلمون» ص ١٢٤

٤ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ص ١٣٦ .

تنصرت ولم تنهض أوروبا نهضتها الحالية التي مكنتها تدريجياً من هذه السيادة العظمى بقوة العلم والفن إلا من نحو أربعمائة سنة أي من بعد أن دانت بالإنجيل بألف سنة» .

وشكيب يرى أن (النصرانية) نفسها لم تكن هي المسؤولة عن تخلف أوروبا مدة ألف سنة في القرون الوسطى ، بل كان للمسيحية (الفضل في تهذيب برايرة أوروبا) ، وكذلك البوذية والثنية لم يكونا سبباً تخلف (اليابان) السابق ولا نهضتها الحالية ، وإنما للتأخر والتقدم أسباباً وعوامل متراكمة ترجع إلى أصول شتى من فساد الأخلاق ، وانحطاط الهمم وانتشار الخنى والخلاعة ، وشيوع الإلحاد والإباحة ، من هرم الدول الذي يتكلم عنه ابن خلدون وغير ذلك من أسباب السقوط الداخلية منضمة إليها أسباب خارجية مثل غارات أعداء ، وغيرها ، فإذا تراكمت هذه العوامل في خير أو شر تغلبت على تأثير الأديان والعقائد ، وأصبحت فضائل أقوم الأديان عاجزة بإزاء شرها ، كما أصبحت معاييب أسخفها غير مؤثرة في جانب خيرها ^(١) .

ومن أكبر أمثلة التاريخ الشاهدة على صدق هذا سقوط الرومان بعد فشو الدين المسيحي فيهم ، وسقوط اليونان من قبلهم بعد أن قبلوا دعوة بولس إلى النصرانية ، فهل يقدر أحد أن يقول : إن الوثنية أصلح للعمران من النصرانية ؟ ^(٢) .

فإذا كان الدين لا يصح أن يجعل معياراً لتأخر أو تقدم هذه الأمم فإن هذا لا ينطبق على الإسلام ، فالقرآن والتاريخ يشيران أن (الإسلام) هو سبب تقدم أهله حين أهتموا به وسبب تأخرهم حين أعرضوا عنه ، فأظلم الظلم أن يجعل سبب تأخيرهم ، يقول الأمير شكيب :

« فإذا كان الأفرنج الصليبيون من الغرب ، وكان المغول أولئك الجراد المنتشر من الشرق ، قد دمروا ما بني الإسلام في تلك الممالك ، ونسفوا عمران هاتيك الحواضر ، وكانت منافسات ملوك الإسلام الداخلية للشهوات وامعانهم في الضلالات ، ومجيدهم

١ - شكيب أرسلان . لماذا تأخر المسلمون ؟ (مرجع سابق) من ص ١٢٣-١٢٢ .

٢ - المرجع السابق ص ١٢٧ .

عن جادة القرآن القويمة ، وفقدهم ما يزرعه في الصدور من الأخلاق العظيمة ، وقد قضت في الداخل ، على ما عجز عن تعفيته العدو من الخارج ، فليس الذي في هذا التقلص ذنب الإسلام ، ولا التبعة في هذا الانقلاب عائدة على القرآن ، وإنما الذنب هو ذنب الهمج من الأفرنج ، وجناية ذلك الجراد الزاحف من الغول ، وإنما هي تبعة المسلمين الذين رغبوا عن أوامر كتابهم واشتروا بآياته ثمنا قليلا ، إلا النادر منهم»^(١).

وهكذا ينتهي الأمير شكيب أرسلان إلى الطريق الذي ينبغي أن يسلكه المسلمون لتنمر (المدينة الإسلامية) نموا جديدا عظيما ، مملوءا بالثقة بالنفس ، فما من مدينة تستطيع أن تزدهر أو أن تظل على قيد الحياة بعد أن تخسر إعجابها بنفسها ، وصلتها بماضيها ، فإذا أراد المسلمون أن يبحثوا عن الباعث الروحي والعقلي فلن يجدوه إلا في العودة لإسلامهم ، فالإسلام هو الذي بعث الأمة العربية في التاريخ وهو قادر على أن يعيشها من جديد ، أما الخطر الحقيقي الذي يمكن أن يهدم الإسلام ويقطع صلة المسلمين بماضيهم ويفقدهم مركزهم الروحي والثقافي والسياسي فهو اتخاذ المسلمين ثقافة أجنبية تختلف عنه اختلافا جوهريا في أسسها الأخلاقية .

«أما الإسلام فلا جدال في كونه هو سبب نهضة العرب وفتوحاتهم المدهشة مما أجمع على الإعتراف به المزرخون شرقا وغربا ولكنه لم يكن سبب انحطاطهم فيما بعد كما يزعم المفترون الذين لا غرض لهم سوى نشر الثقافة الأوروبية بين المسلمين دون ثقافة الإسلام وسط سيادة أوروية على بلدانهم بل كان السبب في تردي المسلمين هو أنهم اكتفوا في آخر الأمر من الإسلام بمجرد الإسم والحال أن الإسلام اسم وفعل»^(٢).

١ - المرجع نفسه ص ١٢٨ .

٢ - المرجع السابق ص ١٣٢ .

الخاتمة

لعل النتيجة التي يخرج بها الباحث في آراء الأمير شكيب أنه أمام مفكر إسلامي عظيم ، وقف حياته للدفاع عن كل ما يمت إلى العرب والمسلمين بصلة ، إننا أمام حياة مقدرة لعمل مسمى ، بوشاك كثر حز ، من أجزائها وكل عنصر من عناصرها أن يشير إلى ذلك العمل ويترقب الوجهة التي اتجه إليها ، فقد عاش شكيب نصف عمره منقباً وعاش عمره كله مجاهداً مناضلاً في سبيل ما اعتقده صحيحاً وحقاً مشروعاً .

فنشأته منذ صباه على تربية عالية ، وحياته في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، عصر النهضة القومية والمطامع الدولية ، والصراع في ميادين العلم والسياسة والدين ، بين الغرب المستعد بأهبطته والشرق الذي تتنازع التيارات المختلفة والآراء المتباينة .

وأسرته التي مكنته من الإتصال بكبار العالمين في حقل الأدب واللغة والسياسة ، وما أتيح له من الإجتماع بالزعماء المصلحين وإكبارهم لإتجاهاته الإسلامية في الإصلاح والسعي لخدمة الإسلام .

كل ذلك جعل حياة شكيب أرسلان أشبه ما تكون بحياة المناضلين الأوائل أصحاب العقيدة والقلم ، وتمت حياة الرجل ولم تتم رسالته في خدمة قومه وعقيدته .

وحسب المصلح صاحب الدعوة عرفانا بعظمته وإنصافاً لمقصد أنه يسبق الزمن وأن يحسن السبق إلى مجراه ، وأن يأتي بالفد المجهول من ظلمات الغيب فيمشي فيه على هدى قبل أن تهتدي إليه شمس النهار ، وهذا ما يميز فكر الأمير شكيب أرسلان ويشهد بتفوقه واستحقاقه للإستمرارية والبقاء ، ليس بمقياس عصره فقط ، بل بمقياس الزمن الذي نعيشه اليوم ، فهو من دعاة النهضة والتقدم وليس من أنصار الجمود والجمود ، وطبيعي أن عوامل النهضة والرفق لم تتوقف بوفاته .

ولنا أن نشيت هنا أن صاحب هذا الفهم العميق للإسلام كعقيدة وشرعية ، وهو الذي شغل نفسه بهموم المسلمين ودافع عن قضاياهم وروحتهم طوال حياته ، لا يمكن أن

يكون منتيميا بفكره إلى طائفة تتخذ من الجهل شرعة ومنهاجاً ، ومن الإنحراف عن الإسلام وجوهه الصافي ، والبعد عن المسلمين ديناً .

وأخيراً .. نرجوا أن نكون قد وفقنا في إثبات أن الأمير شكيب أرسلان الذي ناضل بعقله وقلمه طوال أربعين عاماً في سائر العالم الإسلامي ، تجاوز مسألة الإستعمار والاستقلال إلى طرح آراء كلامية وفلسفية تمثل منهاجاً إصلاحياً شاملاً في مجالات الدين والسياسة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين !!

المراجع

- القرآن الكريم
- ابن سميّة - أحمد
- ١- مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، الرياض - ١٣٨١هـ
- ٢- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ، المجموعة ١٩٥١ م
- ابن خلدون
- ٣- تاريخ ابن خلدون ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت - ١٩٨١ م
- ابن كثير
- ٤- تفسير القرآن ، نعظيم ، دار السعد ، القاهرة
- ٥- البدايه والنهايه ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ١٩٧٧م
- أبو الحسن الماوردي
- ٦- الأحكام السلطانية ، طبعة ١٣٢٧هـ ، ١٩٠٩م ،
- أبو الحسن الندوي
- ٧- ماذا خسر العالم بإحطاط المسلمين ، دار العلم ، الطبعة التاسعة ، ١٩٧٣م ، الكويت
- ٨- نضاع بين العصور الإسلامية والفكرة العربية في الأقطار الإسلامية ، دار القلم ، ١٩٨٣م
- إحسان إلهي ظهير
- ٩- السيرة والسيرة فرق وتاريخ ، باكستان ، ١٩٨٤م
- أحمد بن حنبل
- ١٠- الرد على الحموية والزنادقة ، تحقيق عبد الرحمن عميرة ، دار اللواء ، الرياض ، ١٩٨٢م
- ١١- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، بيروت ١٩٦٥م
- أحمد سمبايلوفتش
- ١٢- فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر ، (رسالة دكتوراه ٩ / ٩ / ١٩٧٤ م بالازهر دار المعارف بصر
- أحمد الشرباصي (الشيخ)
- ١٣- أدب أمير البيان ، سلسلة مذاهب وشخصيات ، القاهرة
- ١٤- أمير البيان شبيب أرسلان ، مطابع الكتاب العربي ، مصر ١٩٦٣م ، الطبعة الأولى
- ١٥- شبيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، المؤسسة المصرية العامة ، ١٩٦٣ م
- أنولد توينبي
- ١٦- مختصر دراسة التاريخ ، ترجمة فؤاد شل ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ١٩٦٦م
- ألبرت جوراني
- ١٧- العصر العربي في عصر النهضة (ترجمة عرقول) الطبعة الثالثة ، دار النصار بيروت ١٩٧٧م
- أنور الجندي
- ١٨- محاولة لبناء فنهج إسلامي متكامل ، المجلد الخامس ، دار الأنصار بصر
- البخاري
- ١٩- صحيح البخاري ط ١٢١٥ هـ - ١٨٩٧م
- البلاذري
- ٢٠- فتوح البلدان ، تحقيق رضوان محمد رضوان ، القاهرة
- جمال الدين الأفغاني
- ٢١- الرد على الدهرمن ، السلام العالمية للطبع والنشر ، مصر ، ١٩٨٣ م
- ٢٢- العروة الوثقى ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ط ٣ ، ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م
- ٢٣- خاطرات جمال الدين الأفغاني ، دار الحقيقة بيروت ١٩٨٠ م

- جميل صليبا

٢٣- المعجم الفلسفي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٧١م

- د. حسن الشافعي

٢٤- لمحات من الفكر الإسلامي ، دار الثقافة العربية ، القاهرة ١٩٩٣م

- د. سامي الدهان

٢٥- محاضرات عن الأمير شبيب أرسلان ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٥٨ م

٢٦- الأمير شبيب أرسلان حياته وأثره ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٦ م

- سامي مكارم

٢٧- أضواء على مسلخ التوحيد (الدرية) دار صادر ، بيروت ١٩٦٦م

- شبيب أرسلان

٢٨- لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ، دار مكتبة الحياة ، بيروت

٢٩- روض السعيق في الجدل الرقيق ، وهو ديوان أخيه الأمير نسيب حقه وقدم له الأمير شبيب ، دمشق ١٩٣٥م

٣٠- تاريخ ابن خلدون ، تأليف عبد الرحمن بن خلدون ، تعليق شبيب أرسلان ، المطبعة الرحمانية بمصر ، ١٩٣٦ م

٣١- حاضر العائم الإسلامي - تأليف ستودارد الأمريكي ، وترجمة عجاج نويض ، تعليقات الأمير شبيب ، في أربعة أجزاء ، دار الفكر بيروت ١٣٩٤هـ - ١٩٧٣م (الطبعة الرابعة)

٣٢- تاريخ عروات العرب في فرنسا و سويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ، دار الكتب العلمية بيروت

٣٣- النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي - تأليف محمد أحمد الغمراوي ، القاهرة ١٣٤٧هـ -

١٩٢٩م مقدمه شبيب في ٥٦ صفحة)

٣٤- الارشادات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف - تأليف الأمير شبيب أرسلان ، مطبعة المنار بمصر

١٣٥٠ - ١٩٣١م

٣٥- السيد رشيد رضا أو إزاء أربعين سنة - تأليف شبيب أرسلان ، مطبعة ابن زيدون بدمشق ، ١٣٥٦هـ -

١٩٣٧م

٣٦- شوقي أو صداقة أربعين سنة - مطبعة عيسى الحلبي بمصر ١٩٣٣م

٣٧- الجلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية - تأليف الأمير شبيب أرسلان ، المطبعة الرحمانية بمصر

١٩٣٩م

- الشهرستاني

٣٨- الملل والنحل المطبوع على هامش الفصل في الملل ، دار المعرفة بيروت

- صالح بن عبد الله العمود

٣٩- فكرة القومية العربية في ضوء الإسلام - دار طبية بالرياض ، ١٤٠١هـ

الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير)

٤٠- تاريخ الأمم والملوك ، طبعة دار المعارف ١٩٦٢ م

٤١- جامع البيان في تفسير القرآن

- عباس محمود العقاد

٤٢- الأسان في القرآن ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٦٩م

٤٣- انتحير فريضة إسلامية ، دار نهضة مصر ، القاهرة

٤٤- عبد الرحمن الخواصي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٨٦م

٤٥- أثر العرب في الحضارة الأوروبية ، دار المعارف بمصر ١٩٦٣م

٤٦- سيرة الإمام علي (سلسلة الصعوبات)

- عبد الله الأمين

٤٧- دراسات في القرآن والمذاهب القديمة المعاصرة ، دار الحقيقة بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٦م

- عبد الله النجار

٤٨- مذهب الدور والنجيد ، دار المعارف بمصر ١٩٦٥م

- عبد القادر شيبه الحمد

٤٩- الأدبان والعرق والمذاهب المعاصرة ، مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

د. عبد المنعم السمر

٥٠ - الشريعة .. المفهمي .. الدروز ، تاريخ ووثائق ، كتاب الحرية ، القاهرة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

عبد الوهاب خلاف

٥١ - حفاضة تاريخ التشريع الإسلامي ، دار القلم ، الكويت

عز الدين الأمين

٥٢ - سناء النقد الأدبي الحديث في مصر ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، القاهرة

د. عفت الشرقاوي

٥٣ - في فلسفة الحضارة الإسلامية - دار النهضة العربية - بيروت ١٩٨١م

الغزالي (أبو حامد)

٥٤ - قصاص الباطنية ، تحقيق د. عبد الرحمن بدوي ، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م

٥٥ - المسند من الصلال ، ط ١٣٧٥ ، ١٩٥٥م

د. محمد شفيق شيا

٧٤- شكيب أرسلان مقدمات الفكر السياسي ، سلسلة غير دورية تصدر عن مجلة الفكر العربي. طب الأول ١٩٨٣م

د. محمد ضياء الدين الرئيس

٧٥- النظريات السياسية الإسلامية. ط ١٣٧١هـ - ١٩٥٠م

- محمد عبد الله عنان

٧٦- الحادهم بأمر الله وأسرار الدعوة القاطمية ، دار النشر الحديث / القاهرة ١٩٣٧م
- محمد عبده

٧٧- الإسلام والصراية مع العلم والمدينة ، دار المعارف مصر ، القاهرة ١٣٦٧هـ

- محمد علي الطاهر

٧٨- ذكرى الأمير شكيب أرسلان - مطبعة عيسى الحلبي بمصر ، طب ١ ، ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م

- د. محمد فتحي عثمان

٧٩- من أصول الفكر السياسي الإسلامي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، طب ١ ، ١٩٧٩م

- محمد قطب

٨٠- شتمات حول الإسلام ، الاتحاد الإسلامي للمنظمات الطلابية ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م

- د. محمد محمد حسين

٨١- نزاجاهات نوظبية في الأدب المعاصر ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الخامسة ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

٨٢- الإسلام والحضارة العربية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

٨٣- أزمة العصر ، دار عكاظ للطباعة والنشر ، جدة ، ١٩٧٩م

- د. محمد حمدي زقزوق

٨٤- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري. كتاب الأمة ، طب ١ ، ١٤٠٤هـ

- د. محمود قاسم

٨٥- جمال الدين الأفغاني ، حياته وفلسفته، مختصة الأجلو المصرية

٨٦- المنطق الحديث ومناهج البحث ، دار المعارف بمصر ، طب ٥ ، ١٩٦٨م

- محمود المرادوي

٨٧- الخلافة بين التنظير والتطبيق ، دراسات في الفقه السياسي ، طب ١ ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

- د. مصطفى حلمي

٨٨- نظام الخلافة في الفكر الإسلامي ، دار الزنار ، ١٩٧٧م

٨٩- منهج علماء الحديث والسنة من أصول الدين ، دار الدعوة ، ١٩٨٢م

٩٠- الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية ، دار الدعوة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥م

٩١- الإسلام والأديان دراسة ومقارنة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠

٩٢- الإسلام والمذاهب الفلسفية ، دار الدعوة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥م

٩٣- محاضرات في علم النظام ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م

- مصطفى صادق الرافعي

٩٤- بحث رايه ألقار ، دار الكتاب العربي - بيروت . الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

- مصطفى صبري

٩٥- موقف النحل والعلم والعالم من رب العالمين وعنده المرسلين ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ،

الطبعة الثانية ١٤٠١هـ - ١٩٨١م أربعة مجلدات

- د. مصطفى السباعي

٩٦- الاستشراق والمستشرقون ، ما لهم وما عليهم ، المصنف الإسلامي ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٩هـ -

١٩٧٩م

- د. مصطفى الشكعة

٩٧- إسلام ملأ مذاهب ، الدار المصرية اللبنانية ، الطبعة السابعة ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

-موريس بوكاي

٩٨- القرآن والنوراة والإنجيل والعلم (الترجمة العربية) ، دار المعارف بصر ، ٩٨٧م

- د. ناصيف نصار

٩٩- بصورات الزامة المعاصرة ، برنامج كاتب وكتاب ، الطبعة الأولى ، الكويت ، ٩٨٦م

- نجيب العقيلي

١٠٠- المشرقون ، دار المعارف بصر ، ٩٨١م

الدوريات**١ - الشباب :**

مجلة اسبوعية كانت تصدر بالقاهرة ، أصدرها محمد علي الطاهر بين سنة ١٩٣٧ - ٩٣٩م

٢ - الشورى:

جريدة اسبوعية كانت تصدر بالقاهرة ، لصاحبها محمد علي الطاهر ، بين سنة ١٩٢٤ - ١٩٣١ م

٣- الفتح :

مجلة اسبوعية كانت تصدر بالقاهرة لصاحبها محب الدين الخطيب

٤ - الفكر العربي :

مجلة الابهاء ، العربي للعلوم الإنسانية ، تصدر عن معهد الابهاء العربي في بيروت

٥- مجلة المجمع العلمي العربي :

سجله سمرية ، يصدرها المجمع العلمي العربي بدمشق.

٦- الهلال:

مجلة سمرية تصدر بالقاهرة ، (مؤسسها جورجى زيدان ، بدأت في الصدور سنة ١٣١٠هـ - ١٨٩٢م

الفهرس

الآراء الكلاسية والفلسفية عند الأمير شكيب أرسلان

الموضوع	رقم الصفحة
- مقدمة	٦
- الباب الأول : الأمير شكيب أرسلان مفكر إسلامي	١٢
الفصل الأول : الأمير شكيب أرسلان	١٢
- حياته وعصره	١٣
- نسبه وأسرته	٢٩
الفصل الثاني : طائفة الأمير شكيب أرسلان ، وعقيدته .	٢٢
- طائفة الأمير شكيب أرسلان .	٢٣
- عقيدة الأمير شكيب أرسلان .	٢٧
الفصل الثالث : لماذا نعتبره مفكراً إسلامياً ؟	٥٠
- تمهيد	٥١
- حركة المقاومة للإستعمار الغربي في الفكر الإسلامي	٥٣
- عناصر هذا الإتجاه	٥٤
- العوامل المؤثرة في آراء الأمير شكيب أرسلان .	٥٧
العامل الأول : إتصاله بالإمام محمد عبده والشيخ الأنغاني ، وتعلمه عليهما .	٥٧
العامل الثاني : دفاع الأمير عن الفكر الإسلامي في مواجهة الفكر الغربي .	٥٩
- الأمير شكيب أرسلان أحد رواد النهضة والإصلاح في العصر الحديث.	٦

- الباب الثاني : الآراء الكلاسيكية عند الأئمة شكييب أرسلان . ٦٧
- الفصل الأول : رأي الأمير في قضية الخلافة ، وانقضاء والقدر . ٦٨
- قضية الخلافة الإسلامية في فكر الأمير شكييب أرسلان . ٦٩
- تمهيد . ٦٩
- حكم الخلافة في الإسلام . ٧٥
- معنى الخلافة . ٧٧
- قضية فصل الدين عن السياسة . ٨٠
- دفاع الأمير عن الشريعة الإسلامية : ٨٩
- رمي الشرع الإسلامي بالجمود لتعلقه بالمعاد والمعاش . ٨٩
- الإشتراق والشريعة . ٩٠
- حزب المتفرنجين . ٩٧
- علاقة الدين بالسياسة في حضارة الغرب . ٩٨
- دفاع الأمير شكييب عن استقلال الشرع الإسلامي وأصالته منبته . ١٠٠
- الاجتهاد لا ينفي الطابع الإسلامي للتشريع . ١٠٤
- صلاحية الشرع الإسلامي لكل زمان ومكان وواجب علماء المسلمين . ١٠٥
- تعقيب . ١٠٧
- اشتراط القرشية في الخلافة . ١٠٨
- تعقيب . ١١٥
- موقف الأمير شكييب أرسلان من عقيدة القضاء والقدر . ١١٦

الفصل الثاني : موقف الأمير شكيب أرسلان من بعض الفرق الإسلامية القديمة

- والمعاصرة. ----- ١٢٠
- موقف الأمير شكيب أرسلان من الدرّوز . ----- ١٢١
- علاقة الدرّوز بالإسماعيلية الفاطمية . ----- ١٢٢
- الجانب الباطني في عقيدة الدرّوز فيما يتعلق بـ : ----- ١٢٣
- الألوهية . ----- ١٢٤
- يوم القيامة والثواب والعقاب . ----- ١٢٥
- تأويل آي القرآن الكريم . ----- ١٢٦
- الدرّزية كمذهب ينتسب إلى الإسلام . ----- ١٢٧
- موقف الدرّوز من أركان الإسلام . ----- ١٢٨
- موقفهم من رسول الإسلام محمد (صلى الله عليه وسلم) ----- ١٢٩
- موقف الدرّوز من القرآن الكريم ----- ١٣٠
- حكم علماء الإسلام في الدرّوز ----- ١٣١
- نقد موقف الأمير شكيب أرسلان من الدرّوز ----- ١٣٢
- موقف الأمير من المعتزلة والأشاعرة ----- ١٣٣
- ١ - فرقة المعتزلة ----- ١٣٤
- ٢ - الأشاعرة ----- ١٣٥
- موقف الأمير شكيب أرسلان من : الخوارج ----- ١٣٦
- نشأة الخوارج ----- ١٣٧

١٦٨	- فرق الخوارج وعقائدهم :
١٦٩	الفرقة الأولى : المحكمة
١٧١	الفرقة الثانية : الأزارقة
١٧١	الفرقة الثالثة : النجدات
١٧٢	الفرقة الرابعة : العجاردة
١٧٢	الفرقة الخامسة : الثعالبة
١٧٢	الفرقة السادسة : الصفرية
١٧٢	الفرقة السابعة : الأباضية
١٧٦	- موقف الأمير شكيب من البابا والبهائية
١٧٧	١ - البابية
١٧٩	٢ - البهائية
١٨٤	- نقد موقف الأمير شكيب من البابية والبهائية
١٨٦	الباب الثالث : الآراء الفلسفية عند الأمير شكيب أرسلان
١٨٧	الفصل الأول : نقد الأمير شكيب أرسلان للفكر المادي الحديث
١٨٨	- تمهيد
١٩٦	- قضايا الإنسان في فكر الأمير شكيب أرسلان . ونظرية التطور
١٩٧	- عمر الإنسان
٢٠١	- مذهب النشوء والارتقاء
٢٠٨	- مذهب النشوء والارتقاء في الغرب

- ٢١٢ - مذهب النشوء والإرتقاء في الشرق العربي :
- ٢٢٠ - تعقيب
- ٢٢٣ - رأي الأمير شكيب أرسلان في المبادئ الشيوعية والإشتراكية .
- ٢٢٨ - الفصل الثاني : الفكر السياسي عند الأمير شكيب أرسلان
- ٢٣٠ - تمهيد : شكيب أرسلان بين (الإصلاح الديني) و (الإصلاح السياسي) .
- ٢٣٩ - تصور الأمير شكيب أرسلان للدولة الإسلامية :
- ٢٤٠ - استقلال النظام الإسلامي (الفرق بين الخلافة والملك)
- ٢٤٩ - الأصول والمبادئ العامة التي تقوم عليها نظم الدولة الإسلامية :
- ٢٥٠ ١ - الشورى
- ٢٥٢ ٢ - المساواة
- ٢٥٦ ٣ - معاملة أهل الذمة ، ونشر الإسلام
- ٢٦٠ - الرؤية السياسية لمستقبل الأمة الإسلامية عند الأمير شكيب أرسلان .
- ٢٦١ - تمهيد
- ٢٦٧ - الجامعة الإسلامية
- ٢٨٥ - الجامعة العربية
- ٣٠٩ - آراء الأمير شكيب أرسلان في التربية
- ٣٢٠ - بعث (مدنية الإسلام) في مواجهة (الحضارة الغربية)
- ٣٣٤ - الخاتمة
- ٣٣٦ - المراجع